خرافات وأكاذيب وغباء محض

نقب عن الحقيقة إذ كل ماتعرفه خطأ



جون ستوسل

نقلته إلى العربية: شادن اليافي



مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

العبيكان
Obeikan



جون ستوسل

خـرافات وأكـاذيـب وغباء محض

نقب عن الحقيقة، إذ كل ما تعرفه خطأ

نقلته إلى العربية: شادن اليافي

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

العبيكان
Obeikan

Original Title
MYTHS, LIES, AND DOWNRIGHT STUPIDITY
Get Out the Shovel-Why Everything You Know is Wrong
John Stossel

ISBN: 10: 0-7868-9393-1
ISBN:13- 978-0-7868-9393-5

ISBN 978 - 9960 - 54 - 557 - 8
الطبعة العربية الأولى 1430هـ ـ 2009م
الناشر العبيكان Obeikan للنشر
المملكة العربية السعودية - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة - عمارة الموسى للمكاتب
هاتف: 2937581/2937574، فاكس: 2937588 ص.ب: 67622 الرياض 11517

ح مكتبة العبيكان، 1429هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
ستوسل، جون
خرافات أكاذيب وغباء محض./ جون ستوسل: شادن يافي. - الرياض 1429هـ
380ص: 17 × 24سم
ردمك: 8 - 557 - 54 - 9960 - 978
1 - المقالات أ. يافي، شادن (مترجم) ب. العنوان
ديوي: 824 1429 / 4808
ردمك: 8 - 557 - 54 - 9960 - 978 رقم الإيداع: 4808 / 1429

صدرت هذه الطبعة باتفاقية نشر خاصة بين الناشر العبيكان Obeikan و 

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن وجهة نظر المؤلف وليس بالضرورة عن رأي المؤسسة؟

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان Obeikan
المملكة العربية السعودية – العليا – تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة
هاتف 4160018 – 4654424 فاكس 4650129 ص.ب 62807 الرمز 11595


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الذين لا أستطيع العيش من دونهم

المحتويات

مقدمة

إن ترويج الخرافات أمر ممتع، ولقد أنتهيت إلى فعل ذلك بمحض الصدفة: عندما أجريت أبحاثاً لتحليل تقارير المستهلكين اكتشفت أن كل ما ظننته حقيقياً كان خزعبلات.

من جهة أخرى لا تعني «الخرافة» بالضرورة «الكذبة» - إذ قد تعني أيضاً «اعتقاداً شعبياً» أو «تقليداً موروثاً» . أحياناً عندما ننقب في الخرافات ونزيل منها الخزعبلات نجد جوهرها حقيقياً.

وكثيراً ما يكشف التنقيب عن أكاذيب وغباء.

أتمنى أن تغضبكم الأكاذيب التي تحيط بالخرافات مثلما أغضبتني. وقد يضحككم بعضها. سيوضح لكم الفصل الأخير كيف توفرون المال والوقت وتحسنون حياتكم الجنسية وتقللون من القلق بل كيف تصبحون أسعد. إن هذا الكتاب هو حصيلة عمل مجموعة منا في برنامج 20/20 لقد كتبته ووضعت عليه بصمتي كما أنني أظهر في صورة الغلاف وأنا أحمل الرفش. إن الكثيرين من زملائي الباحثين حملوا الرفوش ونقبوا عن الحقائق مزيلين منها الترهات. أنا ممتن لهم جميعاً ويسعدني أن أجني ثمار عملهم وأشارككم فيها. ولقد كان المنتج الكاتب والمحرر الموهوب مارتن كلانسي المحور الأساس المعتمد في إصدار هذا الكتاب.

أثناء العمل على هذا الكتاب التقينا بالعديد من الشخصيات المثيرة للاهتمام من الفنانين الدجالين وأبطال تحري الحقائق والملفقين والمجاذيب. في صفحات هذا الكتاب ستسترقون السمع إلى محادثاتنا وستستمعون مثلي إلى الحقائق - والأكاذيب - وفي الواقع نحن نجرب شيئاً جديداً في هذا الكتاب: إذا فتحت قراءة هذه الموضوعات شهيتكم لتحري المزيد فانظروا شبكات ABC التي يزودكم بها هذا الكتاب والتي ستعطيكم منظوراً آخر عن الأحداث والشخصيات التي كتبت عنها.

لقـد تعلمت الكثـير من هذا الكتاب. من كان يظن أن المشي على الفحم المحترق لا يؤلم في الواقع؟ أو أننا نستطيع أن نسبح في الأنهار (الملوثة) المحيطة بمنهاتن دون أن نمرض؟ أو أن استنزاف الموارد هو أمر جيد لأمريكا.

أريد الآن أن أشارككم جميعاً بما تعلمته من عملي.

شكر وعرفان

أنــا مدين بالشكر لبيكي أكرز، تد بالكي، آشــر ليفين، ألكسندر ر. كوهن، اليزابث كوخ، تور سيفي وخصوصاً لأندرو سليفان لمساعدتهم في تحسين أسلوب كتابتي. وأشكر أيضاً أصدقائي جيري غولد، جيم فوليد، آلان ماير، جو سيبيليا، جو سيمونيتي، مارك ومريــام، فيكتــور ولويس، ولورين وماكــس. أشكرهم لتوسيع آفــاق ادراكي من خلال المناقشات. وأشكر دافيد بواز ودون بوردو على تعليمي التاريخ والاقتصاد.

لقــد تمت أبحاث هذا الكتاب بفضل منتجــي ومحرري برنامج 20/20 وهم أدوري بيكر، ستيف برانت، جوي سيارسيا ـ ليفي، مليسا كورنيك، بات داوير، لارا ديلانري، بريــان أليز، آلان اســتر، روجين فيشر، بيني فليمينغ، جول هيرسون، كولن هيل، روث إيوانو،شــارون كوفمــان، جانيت كلاين، ليزا كروس، تــوم مارسيز، مايكل مندلسون، بــاد بروكتور، إين ريسنا، غلــين ربل، جو شانزر، ستيف شني، إيريك ستروس، جودي تيفــارد، بــوني فانفيلدر، سوزان فاغنر، روب والاس، ديــف وارد، آن فارني، أشكرهم جميعاً على السماح لي بسرقة ثمار عملهم.

وأشكــر أليسا أبل، روث كيري والناشرة الملهمــة، غرتشن يونغ على إرشادي. وأشكر أندريا ريتش وريتشارد ليبنر وجوني إيفانز على تشجيعي.

أشكــر الله علــى مساعــدة بــوب سيستر، ريــك بــلات وآخرين في موقــع www. intheclassroom.org في إظهــار الحقائق لطــلاب الثانوية. أشكر طلاب الجامعات الذيــن ساعدوا في التنقيب عن الكثير مــن الحقائق في هذا الكتاب وهم: جيني براغ، أليســون إيدي، إليزابــث هاريز، كاتي بــكارد، أماندا بيكنس، تريســي سنيدر، ربيكا سوسا، ستيف تريانا، وخاصة ج. ب. بولينز. على طلاب الجامعة الذين يودون إجراء دورة تدريبية إرسال بريد إلكتروني إلى Johnstossel@abc.com

أنــا ممتن لــون أوستاس، مايــكل بودغورستي، دكتور وليــام هـ شليسينغر، برادلي بيرسكــوت، ستانلــي كوينــو الدكتور مايكل كــو، توماســ هازيلت، هاوي ريــخ، جوانا

شافهاوزين، وجيري تايلر، وهم الخبراء في هذا المجال الذين أسهموا في هذا الكتاب دون أن يشار إليهم بحاشية في النص.

ما كانت قراءة هذا الكتاب ممكنة لولا المخرج المنفذ ديفيد سلون الذي اقترح الإطار العام له، كذلك ما كان صدور هذا الكتاب ممكناً لولا مساعدتي جنيفر كوهن وإصرارها الشديد وحثها لي على الكتابة.

ماكنت أستطيع شيئاً لولا ديبورا كولتن، مارك غولدن كريستينا كندل، فرانك ماستروبولو، باتريك ماكمينامين ودوري روزانتال وهم جميعاً أشخاص حكماء شكلوا بإشراف مارتن فيليبس ما ندعوه «وحدة ستوسل» في برنامج 20/20.

الفصل الأول

وسائل الإعلام الجاهلة

قال توماس جفرسون إنه يفضل العيش في بلد توجد فيه صحافة حرة ولا توجد حكومة على أن يعيش في بلد توجد فيه حكومة ولا توجد صحافة إذ قال: «الضمان الوحيد لنا جميعاً هو الصحافة الحرة. من الضروري أن نحافظ على مياهنا نقية».

أنا أوافقه على هذا الرأي تماماً، فبدون وسائل الإعلام التي تطلعنا على تجاوزات الحكومة والمخاطر في الحياة والأفكار الرائعة التي تظهر من كل حدب وصوب في أمريكا تصبح حياتنا ضيقة وتتوارى حريتنا. الحكومة الأمريكية الرابعة تنورنا وتحمينا. قال جفرسون «عندما تكون الصحافة حرة ويستطيع كل شخص القراءة يستتب الأمن».

لكن السنوات الست والثلاثين التي أمضيتها بالعمل في وسائل الإعلام جعلتني مرتاباً في كل ما يصدر عنها. المراسلون المذيعون يحسنون إنباءنا بما يحصل اليوم: أي أبنية احترقت، أي جيش غزا، حجم الإعصار القادم. يخاطر هؤلاء المراسلون من أجل نقل تلك الأخبار إلينا. يجدر بنا شكرهم.

ولكن عندما تتعلق الأخبار بالعلم والاقتصاد وبمخاطر الحياة المستقبلية فإن وسائل الإعلام تسيء العمل.

خرافة: وسائل الإعلام تستقصي ثم تعطيكم الحقيقة الموضوعية.
حقيقة: كثير ممن يعملون في وسائل الإعلام جاهلون تماماً ويخيفونكم حتى الموت.

نحن لا نفعل ذلك عن قصد. إنما نريد أن نعطيكم الحقائق وحسب. ثمة أشخاص ينقلون إلينا قصصاً برعب وذعر فنرتعب بدورنا ونسرع لنقل هذه الأخبار إليكم.

نحـن نعلم أنه كلمـا ازدادت القصة التـي ننقلها إثارة وإرعاباً طـال الوقت الذي يعطينـا إيـاه رئيسنا لبثهـا على الهـواء أو ازداد احتمـال نشرهـا في أول صفحة من الصحيفـة. القصة المرعبـة، سواء أكانت مهمّة أم لا، تحّسـن شهرة البرنامج وتزيد مبيعـات الصحيفة. للخـوف سوق رائجة. هـذه الفكرة هي سبـب الدعابة عن فريق المذيعين في برنامج Insider التي تقول: «كل ما ينزف له الأولوية».

إن إثارة الرعب تجعلنا نشعر بأهميتنا أيضاً.

لو أننـا واصلنا التنقيب حتى وجدنا خبراء من العلمـاء الجادين لاستطعنا الحصول على القصة الحقيقية. ولكن يندر أن يعرف المراسلون بمن يتصلون، وعندما نعرف، غالباً ما نجد أن العلماء لا يريدون أن نزعجهم بالاتصال بهم. لم الخوض إذاً بنقاش فوضوي؟ قد يزعج هذا النقاش شخصاً ما يعمل في الحكومة فيقرر إيقاف المنح العلمية.

لقد قال لي أحد العلماء: «أفضل أن أترك وشأني على أن أساير وأداهن المراسلين الصحفيين الذين يتصرفون كالأطفال».

العـالم د. بروس إيمس من جامعـة كاليفورنيـا كان موقفه مختلفـاً إذ لم يوفّر جهداً في حثي علـى الالتزام بشكوكي فيما يتعلق بالمنطق المزيف الـذي يروجه العلماء المزيفون: «هنـاك انخفاض ملحوظ عبر السنين في عدد اللقالق في أوروبا إذ انخفض معدل توالدها عبر السنين». يوضح د إيمس: إذا أمعنت النظر في العبارتين تجدهما متوافقتين إلا ان هذا لا يعني أن اللقالق تتوالد.

لقـد ابتلعنا قصصاً تشبه في منطقها منطق قصة توالد اللقالق. «القصة المفضلة لـدي: أرى أشخاصـاً بدينين يشربون مشروبـات غازية دايت (حميـة) هذا يعني أن المشروبات الغازية دايت تسبب البدانة.» وعلى سبيل المثال يوجد الكثير من القصص عـن أن المبيـدات الحشرية تجعل الطعـام مسرطناً. تملأ هـذه القصص العديد من صفحات محرك البحث غوغل. وتبدو هذه القصص للشخص الجاهل علمياً منطقية. ففي الواقع يستخدم المزارعون دائماً أنواعاً جديدة من المبيدات الحشرية ثم نستهلكها من خلال الطعام الذي نأكله ثم نسمع عن المزيد من الناس الذين يصابون بالسرطان لا شك أن هذا سبب ونتيجة! مهلاً لنخرج الرفش.

خرافة: فضلات المبيدات الحشرية في الأكل تسبب السرطان وأمراضاً أخرى.

حقيقة: هذه الفضلات بشكل عام غير مؤذية.

يضحك إيمس على الادعاءات حول السرطانات المحدثة كيميائياً. وهو يعرف ما يقول لأنه هو الذي اخترع أول اختبار أذعر الناس حول هذه المواد الكيميائية ودعي اختبار إيمس. وقد بث الذعر عام 1970 عندما كشف أن هناك مواد مسرطنة في صبغة الشعر، وفي المواد المضادة للحريق في بيجامات الأطفال. حذر إيمس من استعمال هذه المواد الكيميائية المسرطنة.

قبل اختبار إيمس كانت الطريقة التقليدية في اختبار المواد لمعرفة ضررها هي حقنها للحيوانات والانتظار حتى معرفة ما إذا كانت هذه الحيوانات ستصاب بالسرطان أو تلد أطفالاً مشوهين. إلا أن تلك الاختبارات كانت تطول عامين أو ثلاثة وتكلف 100.000 دولار فقال الدكتور إيمس: «عوضاً عن إجراء الاختبار على الحيوانات لماذا لا نجري الاختبار على البكتريا؟ تستطيعون دراسة بليون بكتريا في صحيفة بتري واحدة فلا ننتظر الأجيال القادمة. البكتريا تتكاثر كل عشرين دقيقة».

كان الاختبار ناجحاً وعدّ اكتشافاً علمياً جديداً. ويعد اليوم اختبار إيمس واحداً من الاختبارات العلمية للكشف إن كانت المادة مسرطنة.

ولكن بعد حظر بيع صبغات الشعر والمواد المضادة للحريق في بيجامات الأطفال استمر د. إيمس وعلماء آخرون باختبار المواد الكيميائية. لقد قال لي: «بدأ الناس باستعمال اختباري فوجدوا مواد مسرطنة في كل مكان في فناجين الشاي، على سطح الخبز، وأماكن قلي الهمبرغر!»

هذا جعله يتساءل إن كانت هذه الاختبارات مفرطة الحساسية، ويشك في الحظر الذي فرضه. وبعد بضعة سنوات حين ذهبت معه إلى السوبر ماركت لم يعد يذكر خطورة المواد.

د. **إيمس**: إذا نظرت إلى كل شيء في هذا السوبر ماركت لا بد أن يحتوي على جزء في البليون منه على مواد مسرطنة. الخضار مفيدة لك لكن الخضار تصنع مواد كيميائية سامة تبعد الحشرات عنها. فكل نوع من الخضار يحوي 5% من وزنه مواد كيميائية سامة. إنها مضادات الحشرات الطبيعية. الكرفس، الفصة، الفطر، تملؤها المواد المسرطنة بشكل مدهش.

ستوسل: تقول هذه اللافتة «منتجات عضوية» أهي أفضل؟

د. **إيمس**: كلا بالتأكيد لا، لأن الكمية من فضلات مبيدات الحشرات ـ التي يصنعها البشر والتي يأكلونها ـ هي كمية زهيدة جداً جداً! هناك مواد مسرطنة في فنجان القهوة أكثر من كل ما هو موجود في فضلات مبيدات الحشرات التي نأكلها في اليوم الواحد.

في فنجان القهوة؟ لمعرفة مدى الخطورة حلل إيمس وفريقه نتائج كل اختبارات السرطان المجراة على الفئران والجرذان وقارنوا بين الجرعة التي سببت السرطان عند القوارض والكمية التي يتعرض الناس لها عادةً ووضعوا جدولاً يظهر شدة الخطورة. تبين أن المبيدات الحشرية مثل DDT وEDD تشكل عامل خطورة أقل بكثير من شاي الأعشاب الساخنة وزبدة الفستق والكحول والفطر. سلطنا كاميراتنا على الفطر لتصويره بينما صرح الدكتور إيمس باعتقاداته الراسخة.

د. **إيمس**: تعطي فطرة نيئة واحدة مواد مسرطنة أكثر بكثير من أي مياه ملوثة تشربها خلال النهار.

ستوسل: هل تقول إننا يجب أن نمتنع عن تناول المنتجات النيئة الطازجة.

د. **إيمس**: كلا، المنتجات الطازجة جيدة لك أنا سآكل الفطر النيئ حتى لو كان مليئاً بالمواد المسرطنة.

الدكتور إيمس عالم محترم يقدره جميع العلماء ولكن قد لا يقدره الصحفيون لأنه عالم حقيقي لا يساعدهم في بث الذعر في العناوين الرئيسية.

خرافة: النشاط الإشعاي مميت أبعدوه عن الطعام.

حقيقة: معالجة الطعام بالإشعاع تنقذ الحياة.

إن الاحتجاجات الصارخة التي أطلقها بعض الصحفيين حول خطورة معالجة الطعام بالإشعاع هي مثال واضح على الغباء المدهش في تخويف يتخذ الصفة العلمية.

إن المعالجة بالإشعاع تعطي المستهلكين خيارات رائعة: ثمار الفراولة التي تحافظ على غضارتها لثلاثة أسابيع، لحم دجاج دون مستويات مؤذية من السالمونيلا، التي صرح مركز مراقبة الأمراض والوقاية بأنها تقتل مئات من الأمريكيين كل سنة وتسبب العديد من حالات التسمم الغذائي. (لعل آخر مرة أصبت فيها بالأنفلونزا كنت في الواقع مرضت من البكتريا الموجودة في الدجاج ـ هذه ليست خرافة! اغسل الحوض ويديك وكل شيء لمس اللحم النيء لأنها جميعاً تمتلئ بجراثيم قد تكون ضارة).

إلا أن المراسلين الصحفيين والمدافعين عن البيئة لا يولون البكتريا اهتماماً كبيراً ولسبب مجهول ومع أن البكتريا تشكل خطراً أكبر من المواد الكيميائية والإشعاع فإن القلق يستحوذ على وسائل الإعلام بشأن هذا الأخير. الإشعاع! ياللأمر المخيف.

لاتقلق وسائل الإعلام كثيراً بشأن البكتريا لأن البكتريا طبيعية. ولكن الإشعاع طبيعي أيضاً. نحن معرضون للإشعاع في كل دقيقة من حياتنا: الإشعاع الكوني من الفضاء، الإشعاع من الأرض، الإشعاع من الرادون في الهواء الذي نتنفسه. في كل سنة يتعرض المواطن الأمريكي العادي لإشعاع طبيعي يعادل نحو 360 دنتال ريز.

المراسلون الصحفيون والمعارضون لا يعلمون ذلك، ولو علموا لبقوا مستائين لأن النباتات المعرضة للإشعاع تمرر الإشعاع للناس عن طريق الطعام.

نقلت الأخبار قول د. والتر برنشتاين، مؤسس «مجموعة المستهلكين» وتدعى الطعام والماء: «ستكون هذه كارثة صحية عامة لم نشهد مثل حجمها من قبل!»

إني لأعجب حقاً بمهارة المدافعين عن البيئة بتسمية تلك المجموعة الطعام والماء، فماذا يناقش المراسل الصحفي مجموعة بمثل هذا الاسم إذ لا بد أنهم أناس طيبون أليس كذلك؟ لقد أجريت مقابلة مع د. برنشتاين و«منظمه السياسي» مايكل كولبي.

السيد كولبي: إذا نظرت إلى الدراسات الحالية التي جرت على الناس والحيوانات الذين أطعموا طعاماً ملوثاً بالإشعاع فستجد إصابات بأورام الخصية وتشوهات في الصبغيات وتخرباً في الكلى وسرطانات وتشوهات ولادية.

ستوسل: أنتجت جميعها عن طعام ملوث بالإشعاع؟

السيد كولبي: بالتأكيد بالتأكيد.

ستوسل: [ادعت جمعية الطعام والماء أن دراسة هندية صرحت بتلك النتائج إلا أننا اتصلنا بكاتبة تلك الدراسة وقالت إنها لم تصرح أبداً بذلك] لكننا تكلمنا معها لتونا ونفت أن تكون قد صرحت بأن الأطفال قد طوروا سرطانات.

د. برنشتاين: إنها واحدة من مجموعة علماء صرفين لا يحبون إذاعة الأخبار. إننا نحن الذين نحاول المساعدة فنقول للناس «لا تجعلوا أبداً من يعمل في المخابر يقتلونكم». أنا لا أريد دليلاً على أن هذه المواد تسبب السرطان أنا أعلم أنها تؤدي إليه.

لقد أعطى المراسلون الصحفيون ادعاءات برنشتاين وكولبي الكثير من الاهتمام والتغطية حتى أن ولاية مين سرعان ما حظرت معالجة الطعام بالإشعاع وتلتها نيويورك ونيوجيرسي وسرى الذعر إلى ولايات أخرى. ذهبت إلى مولبيري في فلوريدا لأغطي قصة الاحتجاج على معمل فانديكاتير الذي يقترح معالجة ثمار الفراولة بالإشعاع لقتل الجراثيم عليها. عندما وصلت وجدت مظاهرات حاشدة من الأشخاص الذين يرفعون لافتات كتب عليها «لا تضعوا مواد نووية في طعامنا» هذه الحملة أقنعت ولاية فلوريدا بتجميد افتتاح معمل فانديكاتير.

د.برنشتاين: سيفلس معمل فانديكاتير وينهي عمله. ليس فقط هذا المعمل وإنما كل مصانع الإشعاع... عندما نذهب ونتكلم مع الناس حول هذا الموضوع فإننا لا نبذل الكثير من الجهد لإقناعهم بعدم تناول الطعام المعالج بالإشعاع. إننا نقول فقط عبارة «طعام معالج بالإشعاع» فيجيبون: «ماذا؟ من يريد أن يتناول طعاماً معالجاً بالإشعاع».

لم يكن د. برنشتاين عالماً باحثاً بل معالج عظام وحسب إلا أن ذلك لم يقلل من احترام وسائل الإعلام له. احتلت احتجاجاته العناوين الرئيسية في البرامج

التلفازيـة. كان المراسلـون الصحفيون يعلمون أن الإشعاع ضـار بالناس وبالتالي فإنه ضار بالطعام.

وقفت امـرأة أمام معمل فانديكاتير وصرخت بغضـب «كم من التلوث سنضع في أفواهنا؟»

الجـواب هو «صفـر». يعتقد الناس أن معالجة الطعـام بالإشعاع تجعل الطعام هو نفسـه مشعاً وهذا خطـأ. الإشعاع يقتل البكتريا ثم يخرج مـن الطعام. ولهذا السبب سمحـت FDA و USDA بهذه المعالجة منـذ أمد بعيد. تعالج البهارات بالإشعاع منذ أكثر من عشرين سنة. الإشعاع مفيد لنا، ولو كان أكثر شيوعاً لقلت معاناتنا من حالات التسمم الغذائي ولحصلنـا على خضار وفاكهة تحتفظ بغضارتها لأسابيع عديدة. إلا أن الذعر منعنا من المضي قدماً.

أخـبرت جماعة الطعام والماء الناس أن AMA ومنظمة الصحة العالمية لم توافقا علـى الإشعاع. إلا أن ذلـك كان كذباً. كلتا المنظمتين وافقت على الإشعاع واعلمتانا أن للإشعاع دوراً مهماً كعامل بسترة.

لقـد قابل الناس أيضـاً البسترة بالكثير مـن الشكوك في البدايـة. اكتشف لويس باستـور أن تسخـين الحليب بقضي على البكتريـا إلا أن النقاد اتهمـوا البسترة بأنها تغـير طبيعـة الحليب وخواصـه لا بل تلوثه. حاليـاً تروج صناعة الألبـان في الولايات المتحـدة الأمريكية لاستهلاك الحليب النيء بدلاً مـن المبستر. لكن العلماء والخبراء في الطب المواظبين تمكنوا من جعل البسترة عملية أساسية. ويمكن للإشعاع أيضاً أن ينقذ حياة الأشخاص مثل البسترة إذا أزلنا الهلع من طريقهم.

بعـد تأخـير دام ثلاث سنوات سمح لمعمـل فانديكاتير أن يفتـح إلا أن الخوف من خطـر الإشعاع منـع فكرة هذا المعمل الجيدة مـن الانتشار في أرجـاء أمريكا. واليوم تعالـج بالإشعاع كمية زهيدة جـداً من اللحم في أمريكا. صرحـت CDC أنه لو عولج 50 بالمئـة من كمية اللحم بالإشعاع لأمكن تجنـب مئات من حالات الإنتانات البكترية ولأنقـذت حياة 350 شخصـاً كل سنة. 350 شخصاً؟ لماذا لا تصـرخ وسائل الإعلام

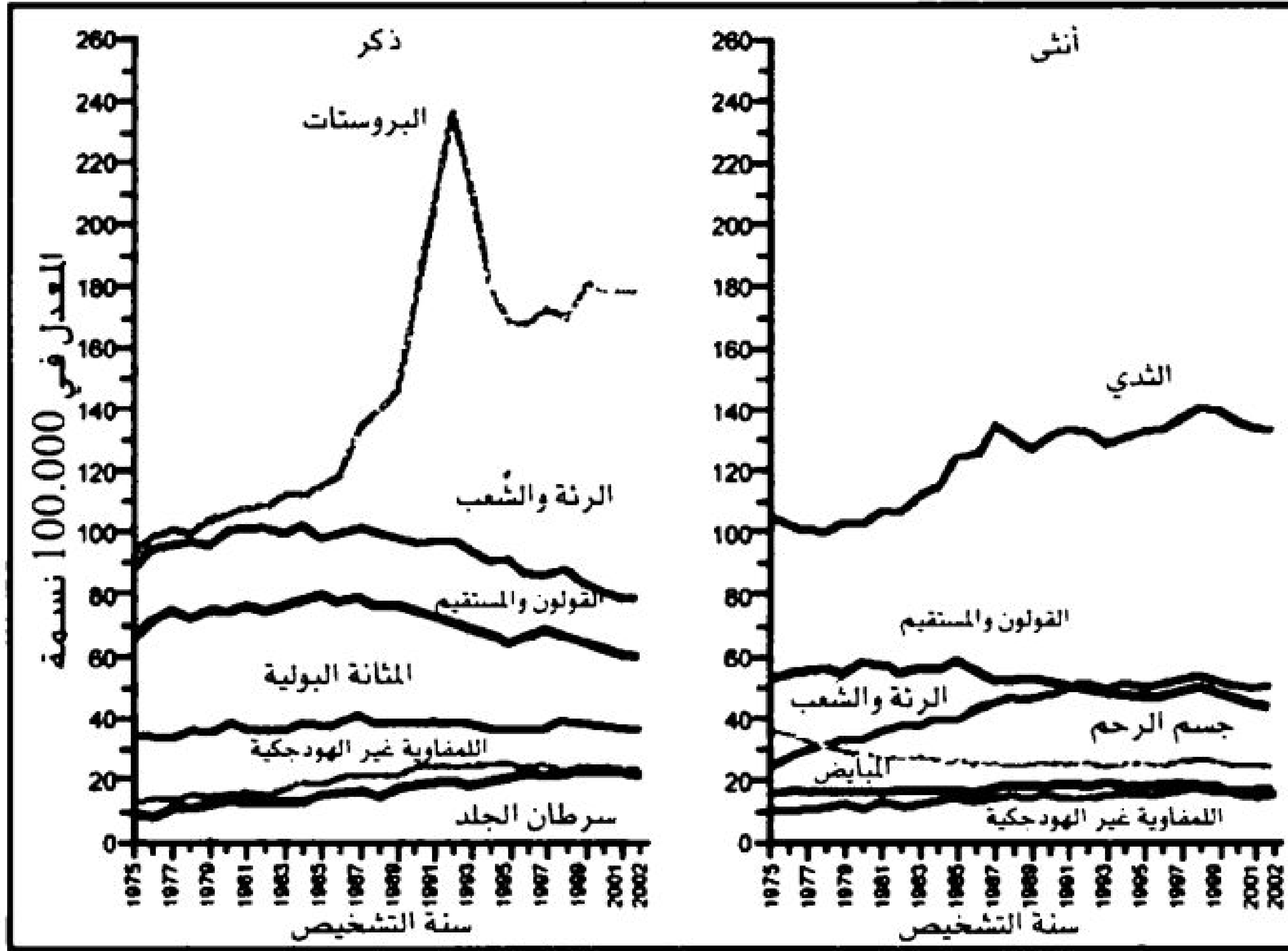
حــول هذا الموضوع؟ لأن المراسلين الصحفيــين وأعضاء الهيئة التشريعية يبحثون عن الخطر في الأماكن الخطأ.

يصدق الكثــير من المراسلين الصحفيين الأشخاص المدافعين عن البيئة، فلا بد أن يكون شيء ما هو السبب في وباء السرطان. إن الإضافات الغامضة وغير الطبيعية لبيئتنا تصلح لأن تكون المتهم الرئيسي. لا شك أن الأمريكيين تعرضوا خلال الخمسين سنــة الماضية إلى أشكال من الكيميائيات والتلـوث الإشعاعي أكثر من أي وقت مضى «لا عجب من أن توجد حالات سرطانية أكثر من السابق». مهلاً لنخرج الرفش.

خرافة: التلوث الكيميائي هو السبب في وباء السرطان.
حقيقة: لا يوجد وباء سرطان.

ليـس هناك ارتفاع في معدل حــالات السرطان. إلا أنكم لن تعلموا ذلك من وسائل الإعلام. انخفض معدل الوفيات من جراء الإصابة بالسرطان تدريجياً خلال السنوات العشرة الأخيرة. قد تجيبون بأن العدد الأقل من الوفيات بالسرطان ينجم عن تحسين طرق معالجة هذا المرض. ولكن ألقوا النظر على معدل حالات السرطان.

لقــد ارتفع عدد حــالات سرطان البروستات والثــدي إلا أن هذه الزيادة ناجمة عن التشخيــص المبكــر. في الثمانينيــات ازداد عــدد الرجال الذين يجــرون فحص PSA والنساء اللواتي يجرين فحص الثدي mammograms. ازداد معدل الإصابة بسرطان الرئــة عنــد النساء بسبب زيادة معــدل النساء المدخنات أما معــدل الإصابة بسرطان الجلــد فلقد ازداد نتيجة لهوس بعض المجانين بأخــذ حمامات الشمس ولكن على وجه العموم لم يرتفع معدل الإصابة بالسرطان بل انخفض معدل الإصابة بسرطانات معينة مثل سرطان المعدة، وسرطان المثانة، السرطان الكولوني الشرجي.



من الكتاب السنوي لمعدلات السرطان من معهد السرطان الوطني عام 2005

نحـن نظـن أن هناك وبـاءً سرطانياً لأننا نسمـع باستمرار قصصـاً عن الإصابة بالسرطـان. السرطـان مرض خاص بالفئات المسنة مـن الشعب ولحسن الحظ يعمر اليـوم عدد أكبر مـن الناس ليصابـوا بالسرطان. والكلام على السرطـان اليوم أمر مقبول وشائع أما فيما مضى كان المصاب بالسرطان يلتزم الكتمان والصمت.

والسبـب الآخر الحقيقي في اعتقادنا بوجود وباء سرطـاني هو أن وسائل الإعلام تثير الشكوك دوماً حول المواد الكيميائية وخطورتها.

تظهـر قصة كل أسبوع حول احتمال خطر مادة مـا. يذعن المراسلون الصحفيون لقصص الناشطين في هذا المجال: عندما كنت أعمل مراسلاً صحفياً تلقيت أمراً بأن أحذر من مخاطر صبغات الشعر، التنظيف الجاف، العلكة، السكارين، السيكلامات، محلـي نـترا سويت، النتريـت، صباغ أحمـر رقـم 2، البطانيات الكهربائيـة، لافتات البوابـات التلفازية في المطـار، حشوات الأسنـان، الهواتف الخلويـة، رقائق البطاطا (الشيبس)، سلمون المزارع، التفلون، مضادات العرق، وحتى لعبة البط المطاطية.

لقد رفضت تغطية معظم هذه القصص وأسأل نفسي اليوم إن كانت خطورة هذه الأشياء حقيقية فأين هي الجثث اليوم؟ لو أن عشر الأمور التي اقترحها المراسلون كان حقيقياً لكان هناك اليوم موت جماعي. العكس هو الصحيح: رغم التعرض للإشعاع وكل تلك المواد الكيميائية السيئة يعيش الأمريكيون اليوم لمدة أطول من أي وقت مضى.

إن جنون وسائل الإعلام أمر خيالي لكن الذعر حقيقي ومعد وقد يميت أحياناً.

خرافة: يسبب DDT جميع أنواع السرطانات وهو يبيد تقريباً كل طير في المعمورة.

حقيقة: ينقذ DDT الحياة.

سوف تقتل الملاريا ألف طفل قبل أن تنتهي أنت من قراءة هذا الكتاب. إن الـDDT الكيميائي هو في لب المشكلة ـ لا استعمال الـ DDT بل الإخفاق في استعماله. بسبب هستريا وسائل الإعلام. في أوغندا وحدها قال وزير الصحة جيم موهويزي «نحن نفقد بين مليونين إلى ثلاثة ملايين من الناس كل سنة» فكر في ذلك: تموت الملايين لأن وسائل الإعلام ترتكب أخطاء.

ربما تقول: «عم يتكلم هذا الشخص؟ إن الـ DDT مخيف» ولكنه ليس كذلك. إن DDT يمكن أن يكون جيداً أكثر منه مؤذياً لكنك لا تعلم ذلك لأن بعض الناس بمن فيهم المراسلين الصحفيين يهابون DDT .

إليكم ما حدث: قبل خمسين عاماً نشر الأمريكيون استعمال DDT في كل مكان. استعمله المزارعون لطرد الحشرات واستعمله موظفو الهيئات الصحية لمحاربة البعوض الذي ينقل الملاريا. لم يقلق أحد آنذاك بشأن المواد الكيميائية. لقد أصبت بصدمة حين شاهدت أفلام الفيديو القديمة التي عرضها مخرج برنامجي: كان الناس يجلسون في النزهات ويأكلون ثم تأتي الشاحنات وترش أثناء ذلك سحباً من DDT على رؤوسهم. وفي الواقع حين كانت الشاحنات تأتي للرش كان بعض الناس يسرعون نحوها ـ كما لو كانت حافلات المثلجات ـ كانوا سعيدين جداً أن يباد البعوض. لقد

رشت أطنــان من DDT على الطعام والناس. وبالرغم من هذا الإفراط في استعماله لم يحصل اشتداد عارم في انتشار مرض السرطان أو أي آفة أخرى تصيب البشر.

لم يجد العلماء دليلاً على أن رش DDT يؤذي الناس بشكل خطير. لقد سبب بعض الأذى مثل ترقق قشر بيوض بعض العصافير.

عــام 1962 نشــر كتاب راشيل كارســون بعنوان الربيع الصامــت Spring Silent فكـرة خطورة DDT وعزز الخـوف في النفوس من المواد الكيميائية. إلا أن التأكد من حقيقــة هذه الشكوك ضاع بين وسائــل الإعلام التي كانت تغذي الهلع الذي تبع ذلك. وغدا DDT «القاتل الكيميائي» وانطلقت الصحافة في حملة ذعر أخرى.

ثبــت في النهايــة أن DDT في حد ذاته لم يكن هو المشكلة ــ كانت المشكلة أنه كان يرش بكثرة. وهذا ينطبق على جميع المواد الكيميائية. إذاً معرفة الجرعة المناسبة هي أمر أساسي. فنحن مثلاً نحتاج إلى الماء إلا أن ستة أقدام منه ستقتلنا.

كنــا في الخمسينيــات نرش DDT بــدون تمييز. ولكن كمية زهيــدة منه فقط تمنع انتشــار الملاريا. وإذا رش على الجدران في كــوخ أفريقي فإنه يبعد البعوض في الخليج نصف سنة وهذا يجعل منه مكافحاً ممتازاً للملاريا. ولكن الآن نادراً ما يستعمل DDT لمكافحة الملاريا لأن صورته الشيطانية التي رسمها البيئيون تسبب نفور الناس منه.

أحبط ذلك الدكتور أمير أتاران الذي كان يبحث هذا الموضوع في جامعة هرفارد، يقــول: «إذا كانــت المــادة كيميائية فلا بد أنهــا مخيفة. هذا أمر رائــع للمدافعين عن البيئة الأغنياء البيض. ولكنه ليس أمراً رائعاً بالنسبة لطفل أسود فقير على وشك أن يفقــد حياته من مرض الملاريا». لقد سألنا وزير الصحة الأوغندي بغضب: «كم عدد الأشخاص يريدوننا أن نفقد قبل أن نستعمل DDT؟»

سؤال جيد.

صرفــت حكومــة الولايات المتحــدة دولارات ضرائبكــم محاولــة أن تكافح مرض الملاريــا. ولكنهــا لم تصرف بنســاً واحداً علــى DDT. النقود تذهب علــى أمور مثل ناموسيات البعوض فوق الأسرّة. (على حين لا يمتلك كل شخص في أفريقية سريراً).

والمكتب المسؤول عن توزيع تلك المساعدات، وهو وكالة التنمية الدولية، يقرّ بأن استعمال DDT أمين.

ذهبت إلى وزارة الخارجية لأجري مقابلة مع موظف US Aid المسؤول عن الصحة العالمية. أنكرت الموظفة بوجهها الحصيف الخالي من أي تعبير أن تكون سياستهم في عدم تقديم تمويل DDT لها علاقة بسياسة «الصحة البيئية». شعرت انني كنت أتحدث مع إنسان آلي.

د. آن بيترسون: أنا أنصح أولئك الذين يريدون استعمال DDT من أجل الرش داخل المنازل أن بوسعهم فعل ذلك لا بل عليهم فعل ذلك. إنه بلا ريب أقل أذى من الموت والتعرض للملاريا.

ستوسل: ولكن ما كنتم لتدفعوا مالاً من أجل ذلك؟

د. آن بيترسون: حالياً لا ندفع من أجل ذلك.

ستوسل: هذا مفجع. ملايين من الناس يموتون وأنتم كي تساندوا التيار السياسي السائد في حماية البيئة تقولون: «لا نريد أن ندفع من أجل DDT».

د. آن بيترسون: أعتقد أن الاستراتيجيات التي نستعملها مجدية بقدر جدوى رش الـ DDT ونحن ننفذ هذه الاستراتيجيات بما أمكننا من السرعة، سواء كنا مع التيار السياسي السائد أم لا، تملؤني الثقة بأن ما نفعله هو النهج الصحيح الصائب.

النهج الصحيح؟ للدكتور أتاران منظور أفضل: «إن كان علي أن أصف ما تصنعه US Aid في مجال الملاريا لكنت أدعو ذلك ممارسة طبية سيئة بل قد أسميها ممارسة قاتلة».

بعد مقابلتي للدكتورة بيترسون قالت الـ US Aid إنها تعيد النظر في سياستها وإنها قد تدعم رش مبيد DDT.

سوف نرى. أما الآن فإن الملايين تموت ريثما تتردد الـ US Aid.

كانت الوكالة تستجيب لهستريا وسائل الإعلام وحسب. فهستريا وسائل الإعلام هي التي تدفع السياسيين لاقتراف الأخطاء. وفي هذه الحالة كانت نتيجة ما فعلت وسائل الإعلام من خطأ هي موت الملايين.

تشوه وسائل الإعلام أيضاً السمعة الطيبة وخاصةً عندما يتعلق الأمر بالمواضيع المثيرة وذهنية الدهماء، عندها تعالج الموضوعات الجدية، التي تستحق فحصاً دقيقاً، بنوع من الصحافة السطحية التي تغش القراء والمشاهدين وتقضي على حياة البعض. في المثال الآتي سترون كيف أصبح أطفال أبرياء دمى متحركة جاهلة.

خرافة: «لقد تحرش بي أستاذي» لا يمكن للأطفال أن يختلقوا أكاذيب كهذه.

حقيقة: بل يمكنهم ذلك.

هذا الخوف الشائع الذي تبثه وسائل الإعلام أدى إلى سجن العديد من الأشخاص. الكثيرون منهم كانوا بريئين من أي جريمة. إلا أن المحكمة والرأي العام أداناهم. كان شهود الادعاء من الأطفال الذين أدلوا بشهادات لأحداث شنيعة ـ أحداث لم تجر في الواقع في معظم الأحيان. ولكن عندما تسير عجلة وسائل الإعلام بسرعة فإنها تدهس العديد من الناس.

كانت إحدى الضحايا كيري مايكلز وهي أستاذة حضانة في نيو جيرزي وأدينت سنة 1988 بتهمة تحرشها بعشرين طفلاً بطرق غريبة وسادية. لقد أمضت خمس سنوات في السجن قبل أن تظهر محكمة الدفاع أن المتهمين كانوا قد زرعوا أفكاراً معينة في أذهان الأطفال الذين شهدوا ضدها.

أنا لا ألوم الأطفال بل ألوم الادعاء ووسائل الإعلام. لقد ألهبت خيال المراسلين الصحفيين القصة التي جرت عام 1983 عندما وجهت تهم بالتعذيب وإساءة المعاملة على نحو شيطاني إلى دار حضانة نهارية في كاليفورنيا تدعى (ماك مارتن). تبين أن المرأة التي سببت سلسلة الادعاءات كانت مريضة بالفصام وجنون الاضطهاد.

ولقد صدمت بادعاءاتها حول عبادة الشيطان والسادية الصحفيين. إلا أنهم لم يبالوا بذلك الأمر. (ستكون طبعة جيدة من الصحيفة). ضخمت العناوين الرئيسية وزمجر المدّعون فأدين سبعة اشخاص بـ 135 تهمة جنائية.

كان كل ذلك هراء. إلا أن المحكومين تخربت حياتهم. لقد طبخ المعالجون النفسيون والأطباء النفسيون هذه القضية ضدهم إذ زرعوا إيحاءات معينة في أذهان الأطفال الحساسين الذين قصّوا بدورهم روايات رهيبة أمام المدعين. سمع المدعون أيضاً إلى طبول وسائل الإعلام التي كانت تركز الأخبار في كل حلقة على قصة معينة.

إن الأطفال شديدو التأثر. نحن نعلم ذلك. إلا أن أستاذ علم النفس ستيفن سيسي أثبت ذلك في بحث قام به في جامعة كورنيل. لقد قال لي: «إننا الآن بصدد اكتشاف أننا إذا أخضعنا الأطفال الذين لم يتم التحرش بهم إلى مقابلات عالية الايحاء ومتكررة، تماثل تلك المقابلات التي يجريها الادعاء فإنهم سيقصون حوادث تبدو واقعية مع أنها لم تحدث أبداً».

ولقد أجرى سيسي تجربة سأل فيها الباحثون الأطفال أسئلة سخيفة مثل:

الباحث: هل علق إصبعك مرةً في مصيدة الفئران فنقلت إلى المشفى؟

الفتاة: لا.

الباحث: لا؟

في البداية كانت الطفلة تقول لا. أما بعد ذلك فلقد أخذ الباحث يكرر نفس السؤال مرة كل أسبوع وعلى مدى عشرة أسابيع.

الباحث: لقد ذهبت إلى المشفى لأن إصبعك علق في مصيدة الفئران أليس كذلك؟

الطفل: ولقد......

الباحث: هل حدث ذلك؟

الطفل: نعم.

في الأسبوع الرابع أو السادس أو العاشر بدأ نصف الأطفال يقولون «نعم لقد حدث ذلــك». والعديد منهم قدموا معلومات مفصلة حتــى لم يتركوا مجالاً للشك بأن ذلك قد حدث فعلاً.

الباحث: هل آلمك؟

الطفل: نعم.

الباحث: نعم؟ من أخذك إلى المشفى؟

الطفل: بابا وماما وأخي.

الباحث: أين كانت مصيدة الفئران؟

الطفل: كانت في القبو.

الباحث: وماذا يوجد إلى جانبها؟

الطفل: يوجد حطب التدفئة.

عندمــا قابلت أنــا ذلك الطفل بعــد أسابيع مــن التجربة كان مــازال «يتذكر» كل التفاصيل لتلك القصة التي لم تحدث أبداً.

ستوسـل: هــل علق إصبعــك يوماً ما في مصيــدة فئران فاضطــررت للذهاب إلى المشفى؟

الطفل: نعم

ستسوسل: من ذهب معك إلى المشفى؟

الطفـل: مامــا وبابا وأخــي كولين لكن الرضيــع لم يذهــب إذ كان حينئذ في بطن ماما.

ما قاله لي الطفل أمر عجيب حقاً إذ إن والده كان قد ناقش معه التجربة قبل ذلك بأيــام وأخبره أنها كانت مجرد اختبار وشرح له أن حادثة مصيدة الفئران لم تحصل أبداً. وأقر الطفل بذلك وقال إنه اختلق تلك الحادثة من مخيلته.

ستوسل: هل قال لك أبوك شيئاً ما عن قصة مصيدة الفئران؟

الطفل: لا

ستوسل: هل تقول الحقيقة؟ هل حدثت تلك القصة فعلاً؟

الطفل: لم تكن قصة. لقد حدثت فعلاً

ستوسل: أحدث ذلك فعلاً؟ هل علق إصبعك في مصيدة الفئران؟ هل حدث ذلك فعلاً؟

الطفل: نعم

لم كذب الطفل علي؟ سألت بروفسور سيسي ظاناً أن الولد اختلق القصة عن عمد. قال سيسي: «أظن أن الطفل بات يؤمن أن ذلك ما حدث فعلاً. إن هذا جزء من طريقة تكوين اعتقاداتهم».

ظن بعض «خبراء» التحرش أنهم سيقتربون أكثر من الحقيقة إذا أعطوا الأطفال دمى تشبه تشريحياً جسم الإنسان. قد تريح هذه الدمى المعالجين الاجتماعيين من توجيه الكثير من الأسئلة. إذ يكفي أن يسألوا: «تخيل أنك أنت هذه الدمية أين لمسك الأستاذ؟» ويجادل المحامون بأن الأطفال «لا يمكنهم اختلاق» ما يفعلونه باللعبة. إلا أن د. ماغي بروك، زميلة سيسي، أجرت تجارب أثبتت العكس.

لقد طلبت ماغي من طبيب أطفال أن يقوم ببعض الحركات الإضافية عند فحص الطفل. فقاس الطبيب معصم الطفل بشريطة. ووضع بطاقة على بطن الطفل ودغدغ قدم الطفل بعصا. ولم يمس الطبيب أي منطقة حميمة من جسم الطفل أبداً. وبعد أيام من هذا الفحص، جلبت بروك وأبو الطفلة دمية فحصها الطبيب وسألاها أسئلة موحية عن فحص الطبيب. وسجلت المحادثة.

الأب: إذاً ماذا فعل؟

الفتاة: لقد وضع عصا في فرجي.

الأب: وضع عصا في فرجك؟

الفتاة: نعم.

ثم ادعت الفتاة أن الطبيب حشر بعنف العصا في فرجها وفحص شرجها أيضاً.

د.بروك: أين كان؟

الفتاة: في مؤخرتي.

لم يكـن ذلك صحيحـاً. إلا أنه عندمـا تم استعمال الدمية ادعـى نصف الأطفال المختبريـن أن الطبيـب لمس أعضاءهم الحميمـة وإن لم يكن قد فعل ذلـك أبدا. لقد قالت لي بروك إنها تظن أن هناك عشرات من الأشخاص البريئين في السجن.

وقـال لي د. سيسي إن أسئلتهـم الموحية أثناء الاختبار كانـت بسيطة بالمقارنة مع أسئلـة المحققين في القصص الحقيقية: «ما فعلنـاه أثناء التجربة يكاد لا يقترب مما حصل في قضية كيلي مايكلز».

ولم يحظَ إطـلاق سراح كيلي مايكلز بنفس مقدار اهتمام الصحافة عند إدانتها. وبعد أن أصبحت حرة، أخبرتني عن الكابوس الذي عاشته.

الآنسة مايكلز: تصور أنك تمضي يومك بشكل طبيعي، تعد القهوة وترتب أمورك وتحـاول قدر المستطاع أن تكون مواطناً صالحاً شريفاً، ثم فجأة يتغير كل ذلك وتتهم بالتحرش بالأطفال بطريقة غريبة شاذة لايمكنك حتى تخيلها.

ستوسل: لقد قالوا إنك وضعت قطع الليغو والشوك والملاعق والسكاكين في شروج الأطفال وفروجهم... إلخ.

الآنسة مايكلز: وسيفاً أيضاً.

ستوسل: نعم والسيف.

الآنسة مايكلز: نعم.

ستوسـل: وقالـوا إنك جعلت الأطفال يشربون بولك ونزعـت عنهم الثياب ولعقت زبـدة الفستق من عليهم. من الصعب تصديق ذلك إلا أن المحلفين صدقوا كل ذلك ولم يصدقوك.

الآنسة مايكلز: لا أحد يريد أن يشك بصحة ما يقوله الأطفال.

بالتاكيد لم ترغب وسائل الإعلام بالشك في أقوال الأطفال.

استبدلت ضرورة الشك، التي هي جوهر الصحافة، بالرغبة بنشر «عدد جيد».

تحب وسائل الإعلام الأخبار السيئة ونحن نصدقها.

خرافـة: يؤذي الطلاق النساء أكثر من الرجـال. والكثير من الرجال يتخلون عن أولادهم.
حقيقـة: يتعذب الرجـال والنساء على حد سـواء في الطلاق. والكثير من الرجال يقدمون أشياء لأولادهم أكثر مما تقدم النساء.

تستهدف وسائل الإعلام النيل من الرجال (حتى الرجال الذين يعملون في وسائل الإعـلام يقومون بذلك لأسباب نفسية منها الشعـور بالذنب وأسباب أخرى يجدر بي تركها للدكتور فيل).

ينشر الخبراء إحصائيات تزيد من تشويه صورة الرجال وينصت إليهم المراسلون الصحفيون لقد سمعت لمدة سنوات عن الآباء الخاملين البخلاء الذين ينعمون بمسرات الحياة بينما تشقى مطلقاتهم وأولادهم من أجل لقمة العيش. إنها قصة متكررة تعيد وسائل الإعلام بثها بشكل دوري منتظم. إنها أيضاً افتراء جماعي.

عام 1985 نشرت عالمة الاجتماع في هارفرد لنور وايتزمان بيانات وضحت فيها أن الرجال ينتعشون بعد الطلاق بينما يتعذب الأولاد والنساء كثيراً. بدا تقرير وايتزمان شائقـاً: ارتفع مستوى معيشة الرجال بنسبة 42% بعد الطلاق بينما انخفض مستوى معيشـة النساء بنسبة 73%. وابتهجت وسائل الإعلام لهـذه الأخبار وضجت لنقلها. ولم تنشـر هـذه الأرقـام في قصص الأخبـار وحسب وإنمـا في 348 مقالاً في مجلات العلوم الاجتماعية و250 مقابلة مع المحامين و24 محكمة استئناف.

وفي نفس الوقـت نشر موظفـون حكوميـون تقارير أشـارت إلى أن نصـف الآباء المطلقين في أمريكا لا يدفعون نفقات إعالة أطفالهم القانونية.

بـث طاقم الأخبار المسائية وكذلك الصحف هذيـن البيانين دون تفرقة. توافق هـذه القصة ميـل وسائل الإعلام الدائـم إلى الظهور بمظهر «منقـذي الضحية». ولكـن لنتمهل ونخرج الرفش لننقب عن الحقيقـة: لا تستحق هذه القصص الوقت الذي أهدر لبثها ولا تستحق أن تحتل العناوين الرئيسية. أظهر بعض التنقيب نفاق هذه القصص.

إلا أن التنقيب لم يتم بوساطة وسائل الإعلام. بل حدث ذلك عندما عزم عالم النفس سانفورد برافر من جامعة ولاية أريزونا على فحص أسباب تلك البيانات المفاجئة. لماذا يتصرف الآباء بعدم مسؤولية؟ كيف يمكن لأب أن يتخلى عن طفله؟

فوجئ برافر عندما وجد أن النسب التي توصلت إليها وايتزمان كانت خاطئة. وكان الخطأ حسابياً. وأقرت وايتزمان بخطئها. قالت: إن الشخص المسؤول عن تحليل بيانات الحاسوب هو الذي أخطأ ـ إلا أن هذا الخطأ انتشر في العالم أجمع.

أجرى برافر دراسة شملت أربع مئة طلاقٍ. وقلبت نتائج دراسته المفاهيم السائدة وقصص وسائل الإعلام رأساً على عقب. لم تكن نسبة 42% تحسّن عند الرجال و73% تنكس عند النساء صحيحة أبداً. قال «لقد أوضحت دراستنا أن النساء والرجال يعيشون بعد الطلاق بحالة متشابهة».

وجد برافر أيضاً أن التقارير الحكومية حول نفقات إعالة الأطفال كانت خاطئة أيضاً إذ إن البيانات شملت أسئلة الوصي عن الأطفال فقط. وكان الوصي في معظم الأحيان امرأة. قال لي برافر «كل ما عرفناه عن الآباء غير الأوصياء تعلمناه من الأمهات الوصيات.» هل كذبت بعض المطلقات؟ ربما إلا أننا لن نعرف ذلك لأن الموظفين الحكوميين الذين أنجزوا هذا التقرير لم يكلفوا أنفسهم عناء سؤال الآباء.

بعد محادثتي مع برافر ذهبت إلى واشنطن للقاء دان واينبرغ وهو الرجل الذي جمع البيانات. كما هي الحال دائماً في واشنطن شعرت أنني في عالم آخر تماماً:

ستوسل: إذاً سأل الموظفون ما مقدار النقود التي يجب أن تتلقيها هذه السنة والمطلقة تذكرت...

دان واينبرغ: نعم.

ستوسل: أنا لا أستطيع أن أصدق ما تقوله هذه النساء فمعظمهن غاضبات غالباً ولن يعطينني إجابة صادقة.

دان واينبرغ: في الواقع قد يساعدهن الغضب في تذكر كمية النقود التي كان يجب أن يتلقينها.

ستوسل: لم لم تذهب إلى الرجل وتسأله إذا كان ذلك صحيحاً؟

دان واينبرغ: لأننا بذلك نخذل ثقة الأم الوصية.

ستوسل: ألا توجد طريقة أخرى للتأكد؟

دان واينبرغ: لا، لا نتأكد من أي شيء يقلنه.

ستوسل: لكن ألا يكذبن من شدة غضبهن على الرجال؟

دان واينبرغ: معظم الناس صادقون.

روح الصدق التي نشرها جورج واشنطن ما زالت حية في منطقة نهر البوتوماك. وأنا أيضاً لا أستطيع أن أكذب بل سأقول لكم الحقيقة: تشوه وسائل الإعلام المواضيع المتعلقة بالوصاية أو بنفقات إعالة الأولاد وتقلل من شأنها، وتعزز بذلك خرافة أن الآباء لا يأبهون لرؤية أولادهم بعد الطلاق كما تعزز صورة «الآباء الهاربين» التي طالما احتلت العناوين الرئيسة.

هناك العديد من الرجال الذين يستحقون ما تنعتهم به وسائل الإعلام، إلا أن دراسة برافر أوضحت أن معظم الآباء المطلقين يحاولون جهدهم لقاء أولادهم. قال لي برافر إنه في حالات كثيرة «منع الآباء من لقاء أطفالهم وقالت الأم بكل بساطة كلا لا يمكنك رؤية ولدك».

لقد سجلنا على الفيديو أحد المشاهد التي تجرح الفؤاد. ذهب أب مطلق لرؤية أولاده الخمسة ظاناً أنه سيمضي كل النهار معهم إذ سُمح له بفعل ذلك بأمر من المحكمة، كما أمرت المحكمة الأم بتشجيع أولادها على تمضية الوقت مع أبيهم. إلا أنه من الواضح أن الأم كانت قد غسلت أدمغة أطفالها وقلبتهم ضده. وقف الأب أمام منزل مطلقته وتوسل إلى أطفاله «ألا تودون الذهاب معي اليوم؟» «لا» قال الأطفال الواحد تلو الآخر ثم أمرت الأم أطفالها بالدخول إلى المنزل فوراً.

وظهرت الأم في الشريط المسجل راضية مقتنعة بينما بدا الأب يائساً حزيناً. إلا أنك لا ترى هذه الصورة في وسائل الإعلام بل تصور وسائل الإعلام بشكل آلي الآباء المطلقين كأنهم وحوش والأمهات المطلقات بطلات. العديد من الأمهات هن فعلاً

بطـلات ولكن هناك أبطال من الرجـال أيضاً وهل توجد أمهـات وحوش أعوذ بالله. ذلك لا يلائم قانون الضحايا في وسائل الإعلام.

خرافة: المدارس عنيفة.

حقيقة: المدارس آمنة غالباً.

تحـب وسائل الإعلام الجرائم والعنف. اختر قناة مـا في التلفاز وشاهد الأخبار، إنك سترى أن الرعب مستفحل في الحياة اليوم أكثر من أي وقت مضى. تجري حوادث شنيعـة والكل يعلم أن هذه الحوادث تزداد كل يوم. ولكن يجدر التنقيب في صحة هذه الحـوادث. تخفي الصـور المدماة والطبعة المثـيرة من الصحيفة الحقيقـة الواقعية: أمريكا أكثر أمناً من أي بلد في تاريخ الإنسانية.

في التسعينيات أثارت حوادث إطلاق النار في المدارس في مناطق كولومبين وجونسير وبادوكا موجة قصص منتظمة تدور حول «انتشار العنف في المدارس». إلا أن العنف في المدارس الأمريكية ينخفض بشكل منتظم مع الوقت لقد انخفضت نسبة الجرائم إلى النصف ما بين 1992و 2002 إلا أن التقارير عن العنف في المدارس ازدادت.

لقد كانت حوادث إطلاق النار هذه مخيفة. إلا أنه في الحقيقة يموت عدد أكبر من الأمريكيين من الإصابة بالصاعقة وليس من العنف في المدارس. وعدد أكبر من الأطفال يقضون نحبهم في أحواض الاستحمام. إلا أن وسائل الإعلام أصبحت مهووسة بالعنف في المدارس. بعد حادثة كولومبيا بثت شبكة الإعلام التي أعمل بها 383 قصة عن تلك المأسـاة، وأنذر سام دونالدسون الآبـاء القلقين بأن «العديد مـن المراهقين الغاضبين سيثورون في ولايات أخرى». دعى مراسل الأخبار في CBS بوب ماكنامارا إطلاق النار في المدارس «الكابوس الأمريكي الذي تعرفه جيداً العديد من المدارس».

إلا أنـه لم يكـن كابوساً تعرفـه المدارس جيـداً في الواقع. الطـلاب في المدارس هم أكثر أمنـاً فيهـا منهم في المنـازل أو في المخـازن التجارية. أظهـرت الإحصائيات حول الجرائم أن خطر تعرض الأولاد للعنف يتضاعف عندما يكونون بعيدين عن المدرسة.

شجــع جنــون وسائل الإعلام مديــري المدارس على فعل أمــور جنونية كلفت آلاف الدولارات مثل وضع الكاميرات وتعيين ضباط الشرطة لحراسة الأبواب. و دب الذعر في قلوب الطلاب في بعض المدارس عندما تم تفتيشهم بشدة إذ اقتحم رجال الشرطة الصفــوف وأمروا الطــلاب بالجثو على الأرض. فماذا كانــت النتيجة؟ شعر الطلاب بالقلق من انعدام الأمان أكثر من ذي قبل. مع أن العنف انخفض إلا أن خوف الطلاب اشتد كما أوضحت الدراسات. قال الدكتور فرانك فارلي الرئيس السابق لجمعية علم النفس الأمريكية: «لن يستطيعوا التعلم في مثل هذه الظروف».

قــال لي الدكتور فارلي: إذا سمعت وسائل الإعــلام فستؤمن بما قاله تشيكن ليتل «السماء ستقــع على الأرض حتماً. أمريكا تمر بمرحلة ضيق شديد والمدارس في حالة فوضى ويسري فيها العنف. لكن المدارس ليست عنيفة أنا لا أعلم لماذا كل هذه التغطية الصحفية لعل السبب الرئيسي هو الركض خلف قصة شائقة جديدة».

هــذا كل مــا هنالــك، يجب إطعام وحش وسائل الإعــلام. الهلع يزيــد من تداول الصحف كما يزيد من شعبية البرامج.

خرافة: جنون القيادة وباء.

حقيقة: لا ليس وباءً.

لا نعلم من اخترع عبارة «جنون القيادة» Road Rage ولكن يجدر بذلك الشخص الإجابــة عن العديد من الأسئلة. ويجب توجيه معظم الأسئلة إلى وسائل الإعلام . في عــام 1997 أصدرت جمعية المواصلات الأمريكيــة مؤسسة سلامة الطرقات أصدرت تقريــراً حــول القيادة العدوانيــة وقالت صحيفــة نيوزويك نحن «نســوق طريقنا نحو الهــلاك.» قال ستــون فيليبس من NBC إننــا نواجه «مشكلة أكبر مــن كل ما مضى» وقالت زميلتي في ال ABC بربارة والتر «هذا التيار مخيف».

واحتــار آخرون في هــذه الأمور إذ لم يروا ما قالته وسائــل الإعلام صحيحاً. وقال لي روبرت ريختر من مركز العلاقات العامة ووسائل الإعلام في جامعة جورج ماسون

وهو المركز المتخصص بدراسات عن التغطية الإعلامية «لو كان جنون القيادة يسير نحو التزايد لرأينا زيادة في عدد الموتى من حوادث السير ولكانت هناك تقارير أكثر عن القيادة الجنونية. إلا أن هذه الأمور في تناقص مستمر».

ماذا كان الدليل إذاً على هذه القصص؟ ذهبت إلى مؤسسة سلامة الطرقات AAA وواجهت المتحدثة الرسمية بأسئلة حول ادعاءاتها عن تزايد جنون القيادة بنسبة 51%.

ستيفاني فاول: هذا ما تدل عليه تقاريرنا، هذا كل ما أستطيع قوله لك، لقد شاهدنا زيادة في تقارير الحوادث.

ستوسل: تقارير في الصحف؟

ستيفاني فاول: نعم تقارير في الصحف.

ستوسل: لعل عبارة «جنون القيادة» راقت للمراسلين الصحفيين فطفقوا يرددونها دائماً.

ستيفاني فاول: حسناً لقد راقتهم أيضاً فكرة موت عنيف يتسبب به غرباء. إنه أمر شائع جداً في تقارير الأخبار.

ستوسل: [مستشهداً بما جاء في الصحف] «لقد وصل الحد إلى درجة وباء، المشكلة أكبر بكثير من قبل» هل الدراسات واقعية؟

ستيفاني فاول: نعم ولا.

ستوسل: «وباء مهمل».

ستيفاني فاول: نعم أنت محق هذه مبالغة بعض الشيء.

ستوسل: نفهم من التقارير أن هناك خطراً كبيراً على الطرقات.

ستيفاني فاول: نعم لأن ذلك يكثر مبيعات الصحف بالطبع. أنت تعمل في وسائل الإعلام فلا بد أنك تعرف أنك إذا نشرت في الناس الحماسة حول موضوع ما فإن هذا الموضوع يصبح شائقاً.

حسناً لننقب بعض الشيء ونتأمل هذا المنطق الساري: بنيت التقارير على قصص وسائل الإعلام حول القيادة العدوانية. نحن العاملين في وسائل الإعلام أحببنا عبارة «جنون القيادة» كثيراً فأكثرنا من إظهار حوادث عنها.

اقترح روبرت ليشتر أن ما حدث بدأ على هذا النحو: «منذ سنوات والناس يصرخون بعضهم على بعض في سياراتهم ويومئون بغضب لا بل يخرجون من السيارة. ثم وجد الصحفيون العبارة المناسبة لتلك التصرفات. كنا في السنة الماضية نعود إلى المنزل ونقول: لقد صرخ عليّ أحدهم من سيارته، أما هذه السنة فنقول: لقد كنت ضحية جنون القيادة».

ثم تكتب جمعية AAA تقريراً حول هذه الحالات ويحتل العناوين الرئيسية! لقد جنت وسائل الإعلام تماماً.

ما إن وجدت وسائل الإعلام عبارة مناسبة حتى غدا جنون القيادة وباءً.

خرافة: قد يؤدي استعمال الهاتف الخلوي في محطة الوقود إلى انفجار.
حقيقة: لا ترقص الكلاكيت أيضاً في محطات الوقود.

أنذرت وسائل الإعلام:

الهاتف الخلوي كرة من نار (نيويورك ديلي نيوز).

أنت تعبئ الوقود؟ لا تلمس ذلك الهاتف (تورونتو ستار).

الحقائق تطمئن أكثر. الهواتف الخلوية هي مصدر للكهرباء الساكنة وأي شيء يمكنه أن يبث شرارة ـ مهما صغرت ـ قد يحدث حريقاً إذا تعرضت تلك الشرارة لأبخرة الوقود. إذا كنت تزود سيارتك بالوقود بنفسك، وكان هاتفك الخلوي في يدك ثم رن في الوقت غير المناسب فستتعرض للخطر من الناحية النظرية. إلا أنه لا يوجد أي دليل على أن الهواتف الخلوية تسبب الحرائق.

مـع ذلك، تـروج وسائل الإعـلام هذه القصص دائماً. في عـام 2004 ظهر هذا العنوان في جريدة Poughkeepsie في نيويورك:

رنة هاتف خلوي أحدثت حريقاً في محطة وقود.

نقلت القصة قول رئيس الإطفاء المحلي بات كوخ بأن أبخرة الوقود اشتعلت بواسطة هاتف خلوي. ولكن انتظر قليلاً ولنخرج الرفش وننقب عن الحقيقة. فبعد بضعة أيام غـير كوخ قصته إذ قال «بعد إجراء التحقيـق... استنتجت أن سبب الاشتعال لم يكن الهاتـف الخلـوي... ولكن علـى الأغلب من نفـث لكهرباء ساكنة مـن السائق نفسه». ويجب قول الحق، قامت صحيفة Poughkeepsie بنشر ملحق شامل لتوضيح الالتباس في هذه القصة وهذا نادراً أن يتم في وسائل الإعلام.

يوجـد في جامعـة أوكلاهوما «مركـز لدراسة التناغـم اللاسلكـي الكهراطيسي» ويحـوي أبحاثاً عن تأثيرات الأجهزة الكهربائية في حياتنا. فحص هذا المركز تقارير الحـوادث والبيانـات العلمية واستنتج أنه «لا يوجد أي دليل علـى أن الهواتف الخلوية تشكل خطراً في محطات الوقود». وصرح الباحثون أن «الدليل قطعي ولا حاجة لإجراء المزيد من البحوث حول ذلك الأمر».

أي كهرباء ساكنة أو فعل مولد للشرارة يكون خطراً قرب الأبخرة. لذلك إذا فركت مؤخرتك على قماش مقعد السيارة في يوم شتائي جاف قد يكون ذلك أشد خطراً من استعمال الهاتف الخلوي قرب الدخان. لا ترقص أيضاً قرب مضخات الوقود بشريط حديدي على حذائك.

خرافة: لم يعد لدينا وقت فراغ كما في الماضي.
حقيقة: أصبح لدينا الوقت أكثر مما مضى.

- «لقد سحقنا العمل وقلة الوقت تنهكنا» نيوزويك آذار، 9، 1995.
- «مشاغـل الحيـاة لا يمكن أن تزداد أكثر من ذلك» صحيفـة أدفوكيت، أيار 19، 2005.

- «هل يمكن لمشاغل الحياة أن تزداد أكثر من ذلك؟» صحيفة سانت بول بيونير ايلول،20، 2004.
- «مشاغل الحياة تزداد بالنسبة لمعظم الأمريكيين» تايمز أيار 28، 2000.

زمن الضحايا المساكين. يهوى المراسلون الصحفيون تصوير الحياة على أنها تسوء دائماً. تقول لنا قصص الأخبار إننا «نستهلك أنفسنا» وأن الأمريكيين «ليس لديهم وقت فراغ». اختر أي صحيفة واقرأ عن هذا الموضوع: لا يوجد وقت كافٍ للحب وللاسترخاء وللأولاد. مشغولون مشغولون مشغولون. وقت الفراغ الآن أقل مما كان في الماضي. ولكن هذا غير صحيح.

عندما رغبت في دراسة البيانات والمعلومات الحقيقية والمقاييس العلمية لمعرفة كيف نقضي أوقاتنا قادتني الدروب إلى جامعة ماريلاند. وهناك يسجل عالم الاجتماع جون روبنسون كيف يقضي الناس أيامهم. منذ عام 1965 طلب من الناس ملء مذكراتهم كي يحسب كم من وقت الفراغ لديهم في الواقع.

ستوسل: أعتقد أننا فقدنا وقت الفراغ منذ عام 1965.

جون روبنسون: لا ليس هذا صحيحاً. هناك تناقض بين ما يقوله الناس وما يكتبون في مذكراتهم الشخصية.

أظهرت المذكرات التي كتبت عبر السنوات أننا قد ربحنا ساعة كاملة من وقت الفراغ منذ عام 1965. وبين الباحثون أن ذلك يعود إلى أن الأمريكيين يعملون ساعات أقل ويتزوجون بسن متأخرة وينجبون عدداً أقل من الأولاد ويتقاعدون بوقت أبكر ولديهم أدوات أفضل ويحبون أجهزة الغسالات والميكروويف.

فكرة أننا نعمل اليوم أكثر من أسلافنا هراء محض. كان نصف الأمريكيين يعملون في الزراعة حتى عام 1890. الناس اليوم يحلمون برومانسية بالمزارع إلا أن العمل في المزارع القديمة كان يعني كسر الظهر تحت الشمس الحارقة. كان العمل يبدأ في الفجر وينتهي بعد حلول الظلام. وكان العمل في المناجم والمصانع أسوأ. الأعمال

الحديثة أسهل بكثير. ليصاب أسلافنا بدهشة كبيرة لو علموا كم من الوقت نمضي ونحن نلعب الغولف أو نشاهد التلفاز (بمعدل ثلاث إلى أربع ساعات في اليوم) أو نشاهد أطفالنا وهم يلعبون كرة القدم، ونحن نتململ ونشكو كم نعمل.

لكن لا تقولوا هذه الحقيقة لأي محرر صحفي فقد تخرّب عمله إذ إن خرافة عدم وجود وقت الفراغ تلقى رواجاً كبيراً وتزيد من مبيعات الصحف.

خرافة: يرتفع سعر الوقود بشكل صاروخي.

حقيقة: الغازولين صفقة جيدة.

تبدي وسائل الإعلام تبرمها بين الحين والآخر بشأن زيادة أسعار الوقود. في عام 2004 قال أحد المذيعين: «ارتفعت أسعار الغازولين مرة أخرى إلى رقم قياسي» وقال آخر: «الأسعار الغالية تجعل بعضهم يغرقون تماماً» يعتقد السائقون أن ما يرونه في محطات الوقود يوافق ما يرونه في التلفاز. وقال لي أحدهم: إن الأسعار «مخيفة» وقالت امرأة: إن سعر الوقود «يزداد ويزداد إلى حد لم يسبق له مثيل». وقد قالت ذلك في الوقت الذي كانت تقود فيه دراجة.

صرحت وسائل الإعلام إن أسعار الوقود بلغت الحد الأقصى لسبب بسيط جداً: إنهم عاميون تماماً فيما يتعلق بالاقتصاد إذ لم يأخذوا بعين الاعتبار التضخم. إن التضخم يجعل الأرقام تبدو أكبر من الكلفة الحقيقية. وتقاريرهم تلك سخيفة. عدم أخذ التضخم بالحسبان يشبه قولنا إن أفلاماً مثل التق الفوكرز وساعة الازدحام أعظم أهمية من فيلم ذهب مع الريح.

لا يقتضي أخذ التضخم بالحسبان قيام المراسلين الصحفيين بعمليات حسابية عديدة. هناك العديد من شبكات الإنترنت التي تحسب التضخم فوراً. كما أن دائرة الطاقة الأمريكية تحسب التضخم في كل تقاريرها عن أسعار الوقود. الآن في الوقت الذي أكتب فيه هذا الكتاب يبلغ سعر الغازولين في أمريكا 2.26 دولاراً للغالون الواحد ،وإذا أخذنا التضخم بعين الاعتبار فإن ذلك يعني أن سعر الغازولين اليوم أرخص

بسبع وستين سنتاً مما كان عليه عام 1922 وأرخص بتسع وستين سنتاً مما كان عليه عام 1981. من الصحيح أن سعر الغازولين وصل إلى 2.87 دولاراً للغالون وسطياً بعد اعصار كاترينا إلا أن ذلك السعر في تلك السنة هو أقل مما كان عليه في آذار عام 1981 إذ بلغ عندها 3.12 دولاراً للغالون الواحد.

نتيجةً لخطأ اهمال عامل التضخم في الحساب أذعرت وسائل الإعلام الأمريكيين لدرجة لم يستطيعوا فيها التفكير على نحو صحيح. سألت بعض الزبائن في محطة وقود أيهما أغلى ثمناً الغازولين أم المياه المعبأة في الزجاجات؟ أجاب معظمهم الغازولين.

في نفس محطة الوقود تلك كانت المياه المعبأة تباع بسعر مرخص هو 1.29 دولاراً للقارورة سعة 24 أونصة. هذا يعني أن ثمن غالون من المياه المعبأة هو 6.88 دولاراً أي ثلاثة أضعاف سعر الغازولين في تلك المحطة.

الأمر يزداد غرابة فقد سألت زبائن محطة الوقود أيضاً «أيهما أغلى ثمناً الغازولين أم الآيس كريم؟» وأيضاً أجاب معظم الناس الغازولين. إلا أن ثمن الآيس كريم من النوع الجيد قد يصل إلى 27 دولاراً للغالون الواحد.

يجب أن نعجب برخص الغازلوين ياله من صفقة جيدة تمدنا بها شركات النفط. وبعد فإن تعبئة المياه هي أمر سهل على عكس عمليات إنتاج الغازولين وإيصاله إلى المستهلك. يجب استخراج النفط من الارض أو أحياناً من أعماق المحيط. للحصول على النفط يجب الحفر بشكل جانبي لعمق خمسة أميال. ثم يجب ضخ النفط ضمن أنابيب طويلة أو شحنه ضمن سفن باهظة التكاليف ثم تحويله إلى ثلاثة أو أربعة أنواع من الغازولين ونقلها ضمن شاحنات تكلف الواحدة 100,000 دولار. ثم تصرف محطات الوقود الكثير من النفقات لمعدات الوقاية والأمان حتى لا تنفجر عند التزود بالوقود. ثمن 2,26 للغالون الواحد (ستة وأربعون سنتاً منها تذهب للضرائب) هو ثمن زهيد للغاية.

إلا أن ما نسمعه في وسائل الإعلام الجاهلة هو أن «أسعار الوقود تبلغ اليوم حدها الأقصى».

خرافة: إننا نستنفد الوقود بسرعة.

حقيقة: لا، ليس بسرعة.

«ستقع كارثة!»

عندما يشكو المغفلون غلاء ثمن الوقود فإنهم يوهموننا بأننا نصرف الوقود بمعدل جنوني «لا يمكن ضبطه».

يعلم السياسيون المتعطشون للوقوف أمام الكاميرات أن التنبؤ بالشؤم يضمن لهم الظهور على شاشة التلفاز. وفي عام 2005 وبينما كان إعصار ريتا يقترب قال لي السناتور تشارلز شومر «لا محالة إنها بداية أزمة غازولين» هذا النيويوركي الديمقراطي مشهور بحبه للظهور في وسائل الإعلام (دعابة سائدة في واشنطن: أين أخطر مكان في العالم؟ بين تشارلز والكاميرا) ولقد أخبرني تشارلز شومر أنه بعد أن يضرب إعصار ريتا سيرتفع سعر الوقود إلى «خمس دولارات للغالون».

كان تواقاً إلى صرف نقودكم لمعالجة هلعه. لقد أراد انشاء «مشروع منهاتن» جديد ينفق فيه كميات هائلة من نقود الضرائب لتمويل «مصادر مستقلة للطاقة» لقد ذكرته بآخر مرة حاولت فيها الحكومة إيجاد مصادر أخرى للطاقة وانتهت إلى خسارة بلايين الدولارات إذ فشل المشروع فشلاً ذريعاً. كانت هذه خطة حكومة كارتر لتطوير طريقة رخيصة لصنع وقود طبيعي من الفحم. قال شومر إن ذلك المشروع فشل لأن «القادة السياسيين» اختاروا الفشل ولكن هذه المرة سيختار الكونغرس أشخاصاً «غير سياسيين» ليختاروا المشاريع التي سيمولونها. بالطبع سيحصل ذلك.

إذا كان الأشخاص غير السياسيين هم الذين يختارون المشاريع التي يمولونها فما حاجتنا إلى تشارلز شومر؟ لدينا مسبقاً نظام يحدد للأشخاص غير السياسيين المشاريع التي سيمولونها إنه يدعى «السوق».

إذا بقـي ثمن برميل النفط مرتفعـاً فسيتنافس أصحاب المشاريع لإيجاد طرق من أجـل التزويد بطاقة أرخص ثمناً. سيخترعون مصادر أخرى للطاقة أو وسائل أفضل لشفط النفط من الأرض. ثمن خمسين دولاراً للبرميل يجعل استخراج النفط من رمل القـار في البرتـا في كندا أمراً مريحـاً. أشار بيتر هوبر ومارك ميلـز في كتابهما The Bottomless Well أن رمـال القـار وحدها تحتوي على كمية كافيـة من النفط لسد حاجاتنا لمئات من السنين.

إلا أن وسـائـل الإعـلام لا تعـير انتباهها إلى ذلك. عدم استنفـاد الوقود ليس قصة شائقة.

خرافة: القمر البدر المكتمل يصيب الناس بالجنون.

حقيقة: لا بد أني كنت مجنوناً عندما أذعت ذلك.

نحـن العاملين في وسائل الإعـلام ننشر بشكل دوري وبـدون تفكير خرافات حول العلـم والطبيعـة. يعتقد الناس أن القمـر المكتمل يؤثر فيهم بطريقـة غريبة وسلبية. وهرع المراسلون الصحفيون لتأكيد ذلك.

هذه أمثلة على ما قالته وسائل الإعلام الجاهلة بشأن القمر المكتمل:

- «تأثـيرات القمر أسطورية.. قلة منا لا تتأثر بقوة القمر» (هيو داونز 20/20، 8 تشرين الثاني 1984).
- لا يحتـاج عمـدة بلدة سبوكمـان إلى مراجعة جداول القمر لمعرفـة متى يكتمل القمر (مجلة سبوكمان 19 تشرين الأول 2005).
- «درس الباحثون الجرائم التي وقعت في مقاطعة داد فوجدوا أن معدل الجرائم يزداد أثناء اكتمال القمر. لذلك كونوا على حذر الليلة» (جون ستوسل)

نعم أنا أعترف لقد قلت ذلك في برنامج صباح الخير أمريكا منذ عدة سنوات.

بدت دراسة إقليم داد معقولة ـ الناس يشربون ويحتفلون ولهذا يقتلون عدداً أكبر من الأشخاص (عند) اكتمال القمر. ولكن بعد عدة سنوات اكتشفت أن القصة كانت خاطئة. شرح لي مايكل شيرمر Michael Shermer محرر جريدة Skeptic القصة وأحرجني إذ قال: «لقد عاد الباحثون إلى تحليل البيانات فوجدوا أنه ما من شيء غريب قد حدث».

قال شيرمر إن ستاً وثلاثين دراسة أخرى أثبتت أنه لا يوجد تأثير معين يحدثه القمر المكتمل إلا أن الناس مازالوا يؤمنون بذلك لأن الذاكرة تحتال عليهم. تبحث أدمغتنا عن حادث متكرر فتجده ويعلق بها نتذكر شيئاً غير اعتيادي حصل عندما كان القمر مكتملاً.

«نحن لا نتذكر الأشياء غير الاعتيادية التي حصلت لنا في المراحل الأخرى لأننا لا نبحث عنها. إن هذه الأمور تحدث دائماً ولكن عندما لا يكون القمر بدراً لا نعيرها انتباهاً ولا نتذكرها نحن نتذكر ما نود تذكره». (انظر أيضاً الفصل 9 قوة الإيمان).

في المرة القادمة عندما تشاهد في الأخبار «زيادة العنف بسبب اكتمال القمر» أخرج الرفش ونقب عن الحقيقة.

خرافة: نحن نغرق في النفايات!

حقيقة: المكان متسع جداً.

- تنتج مدينة نيويورك 20.000 طناً من النفايات الجامدة كل يوم إلا أن دائرة صيانة الصحة العامة لم يعد لديها مكان لوضعها. وتقول في تقرير جديد لها بأن المكان الوحيد الباقي لوضعها هو الماء. نيويورك تايمز 21 نيسان 1984.
- سوف نغرق في النفايات. ويليام ك ريلي نيوزدي 1 شباط 1989.
- عالم يغرق في القمامة. ب ب س 4 آذار 2002.

بدأت هذه الخرافة بحادثة حقيقية اشتهرت كثيراً في عام 1987 كان من المقرر شحن مركبة معبأة بنفايات نيويورك إلى مكان لدفن القمامة في ولاية لويزيانا، ولكن في الطريق، حاولت الشركة الشاحنة تخفيض النفقات بإلقائها النفايات في ولاية نورث كارولاينا. رفض المسؤولون ذلك واتصلوا بوسائل الإعلام.

ولقيت الشكوى «لا نريد نفايات نيويورك» دعاية كبيرة حتى أنه عندما وصلت الشحنة إلى مقصدها الأساس في ولاية لويزيانا لم يعد يرضى مكان دفن النفايات هناك قبولها. وهذا آثار دعاية أكبر.

هرعت طواقم أخبار التلفازات إلى مسرح الحوادث. وقبل أن تنتهي من نطق جملة «خلق أزمة لجمع الأموال» أضاف المدافعون عن البيئة «أزمة النفايات» إلى جدول أعمالهم قالت سنثيا بولوك Cynthia Pollock من معهد World Watch «نحن نقترب من حالة الطوارئ» وهذا زاد الدعاية.

إلا أن الأمر لم يكن صحيحاً.

تقول جمعية EPA مع أن بعض المدن تضطر إلى شحن نفاياتها إلى ولايات أخرى فإن مقدرة احتواء أماكن طمر النفايات يتنافسون تزداد. المشرفون على أمكنة النفايات يفلحون في رص النفايات بساحة أضيق وجعلها تنحل في وقت أسرع بترتيبها بعواميد أعلى.

وبعض أصحاب أماكن طمر النفايات يتنافسون في الواقع للحصول على نفاياتنا، إذ يربحون المال منها عندما يضعون فوقها حلبات التزحلق على الثلج أو ملاعب الغولف.

توجد في أمريكا مساحات شاسعة. وهذا لا يعني أننا يجب أن نملأها بالنفايات - يمكن وضع كل نفايات أمريكا وعلى مدى الخمس مئة سنة القادمة في مكان واحد من أمكنة طمر النفايات ارتفاعه مئة ياردة.

ولن يكون ذلك حتى بمساحة واحدة من مزارع تيد تورنر Ted turner حقيقة أننا نملك مساحات شاسعة لا تلقى دعاية أبداً.

خرافة: العالم مكتظ بالسكان.

حقيقة: لنضع هذا القول في القمامة أيضاً.

سمعنا عن ذلك لعقود من الزمن. تنذر مقالات الأخبار بـ: «القنبلة البشرية» لـ«مد بحري من البشر» وتتوسل «لا تنجبوا المزيد من الأطفال» ينذر الجهلة أمثال تيد تورنر Ted turner «هناك العديد من المشكلات في أنحاء العالم سببها زيادة السكان» صحيح أن عدد سكان العالم اليوم أكثر من ستة بليون ولكن من قال إن ذلك العدد أكثر مما ينبغي؟

يمكننا أخذ جميع سكان العالم ووضعهم جميعاً في ولاية تكساس وتكون الكثافة السكانية أقل مما هي عليه في مدينة نيويورك. قلت ذلك لتورنر الذي نظر إلي باشمئزاز.

تيد تورنر: إنها كارثة مثل قنبلة موقوتة ننتظر انفجارها.

ستوسل: لكن الناس هم أكثر ثرواتنا أهمية. كثرتهم خير.

تيد تورنر: إلى حد ما. وأنت لكونك رجل أخبار يجب أن تعلم ذلك. قريباً ستقف في الصحراء الجدباء ولن تجد شيئاً تأكله.

هذا هراء. تبث وسائل الإعلام صوراً عن الجموع الجائعة في أفريقيا ثم تلقي اللوم على زيادة السكان. قال كاتب قلق بشأن نيجيريا إنه يجب علينا «خفض معدل الولادات بشدة وإلا ستحصل مجاعة أبدية». ولكن الكثافة السكانية في نيجيريا هي 9 أشخاص لكل كيلو متر مربع وهي قليلة جداً مقارنة مع كثافة السكان في البلدان الغنية مثل الولايات المتحدة الأمريكية (28) واليابان (340) هولندا (484) هونغ كونغ (6.621) إذاً عدد السكان ليس هو المشكلة.

تحصل المجاعة نتيجة للحروب الأهلية وفساد الحكومة التي تتدخل في توزيع الأطعمة. حصلت المجاعة في السودان عندما سلبت القوات العسكرية للحكومة الماشية والحبوب من الأراضي. وفي نيجيريا يعاني 2.5 مليون شخصاً من الجوع لأن الحكومة هي التي تشرف على إنتاج الطعام.

يجوع ملايين أخرى بسبب غياب حقوق الملكية ومراقبة الأسعار وتجارب اشتراكية قاسية أخرى تتم في ملاوي وموزمبيق وسوازيلاند وليسوتو.

وفي زيمبابوي فإن حكومة روبرت موغابي Robert Mugabe السارقة هي المسؤولة عن الخراب.

ليست المشكلة إذاً هي عدد الأشخاص. تمكن التقنيات الحديثة الأشخاص من زرع طعام أكثر على أرض أقل. تقول UN الأمم المتحدة إن العالم اليوم ينتج طعاماً أكثر مما ينبغي.

قبل أن تنتهي من قراءة هذا الكتاب سيرى النور أكثر من 125.000 طفل إلا أنهم لن يكونوا عبئاً بل نعمة. إنهم أدمغة قد تتمكن من شفاء السرطان وأيد تبني المنشآت وأصوات تحلي حياتنا بالموسيقى.

تؤدي وسائل الإعلام الجاهلة خدمة سيئة بفضل المخاوف والمفاهيم السلبية الخاطئة. بسبب التأكيد على القصص المخيفة تصرف الأموال الطائلة والجهود الجمة على مخاطر لا شأن لها. وفي نفس الوقت يموت الملايين من الملاريا والآلاف من البكتريا ويحبس الأساتذة ويبعد الآباء عن أبنائهم والكل هلع وخائف دون سبب وجيه هناك مشكلات حقيقية في العالم يجدر بوسائل الإعلام التركيز عليها.

الفصل الثاني

هو وهي

أنـا أكـره التفرقة بـين الجنسين كمـا يكرهها أي رجـل أو امـرأة. فالقوانين التي تمنـع النسـاء من القيام بأعمال الرجال خاطئة. وأنـا أعترف أنه حتى في عام 2006 مازالـت التفرقة بين الرجال والنساء تسـود في العالم. عندما كنت أقرأ كتب الأطفال لطفلتـي الصغيرة كنت أجد نفسي مضطراً إلى تغيير كل الـ «هو» إلى «هي» لأن جميع الشخصيـات القويـة في القصص كانت مـن الذكور. مثل قصة: القـط الذي يرتدي قبعـة The Cat in the hat. الرجـل الوطـواط Bat man، ميكـي ماوس، غوفي وحتى شخصيات (افتـح ياسمسم) sesame street مثل (أنيـس وبدر) و(الضفدع كامل) ووحشـ الكعك ـ كل الشخصيـات الأساسية المحببة كانت مـن الذكور (تحت إضافة بعضـ الإناث لاحقاً) أولست متيقناً من جنسـ الطائر الكبير إلا أن ابنتي كانت تشير إليه بـ «هو».

إنه عالم التفرقة بين الجنسين.

لكـن أيعني ذلك أن تطبيـق القوانين المقترحة من اليسـار الديكتاتوري والحكومة الوحشية سيجعل الأمور أفضل؟ لا.

خرافـة: مكتب الفرص المتساوية EEOC سيجعل أمريكا تفرق أقل بين الجنسين.

حقيقة: مكتب الفرص المتساوية يعذب الناس ويزيد ثراء المحامين.

هـل ذهبت إلى المخـزن التجاري سيرز Sears مؤخراً؟ اعلم أنـك إذا ابتعت شيئاً مـن ذلك المكان فـإن قسماً من نقـودك سيذهب لدفع التسويـة القضائية بين Sears والـ EEOC أي Equal Employment Opportuni.ty Comission. رفعت الـ EEOC

دعـوى قضائية ضد Sears لأن هـذا المخزن التجاري يحوي موظفين أكثر من الرجال يعملون في بيع أشياء مثل جزّارات العشب والأدوات الكهربائية. وبما أن الباعة يأخذون عمولة فإن الرجال كانوا يربحون أكثر لبيعهم تلك الأدوات الثخينة. قالت الحكومة إن التبايـن الواضح في أعداد الموظفين من الرجال والنساء كان هو الدليل على أن سيرز يفرق عمداً بين الجنسين.

أنكـرت هيئة سيرز هذه التفرقـة «لقد طلبنا من النساء العمل بتلك الأقسام ولكن عدداً قليلاً جداً منهن رضي ببيع أشياء مثل جزّارات العشب».

ألا يـدرك محامـو الدولـة هذه المفاهيـم البسيطة؟ للرجـال والنســاء اهتمامات مختلفـة. إذا ذهبـت إلى أي متجر من متاجر وول مـارت Wal Mart ستجد الزبائن من النساء يتأملن الثياب بينما يذهب الرجال إلى قسم الخرداوات.

هـذه هي حالنا وحسـب حقيقة أن عدداً أكبر من الرجـال يعملون في بيع جزّارات العشب وعدداً أكبر من النساء يعملن في بيع مستحضرات التجميل ليس تفرقة شريرة بين الجنسين تتطلب جيوشاً من محامي الحكومة.

لم تستطـع الـ EEOC إيجاد امرأة في سيرز تشكـو من أنها كانت ضحية للتفرقة بـين الجنسين. فربح سيرز الدعوى. وذهبت كلفـة القضية التي بلغت عشرين مليون دولار إلينا نحن الزبائن.

«شرطة التفرقة» المحلية تتطفـل دائماً ففي نيو جرسي تضايقت «شرطة التفرقة» من بارات «ليلة السيدات» وهي بارات تقدم مشروبات مجانية للنساء لتشجيعهن على ارتيادهـا. في عـام 2005 قررت دائرة الحقوق والسلامة العامة في نيو جرسي أن ليلة السيدات «تفرقة مخيفة».

ذلـك لم يحصـل بسبب اعتراضـ الرجال ففي بـار غاليش في نيـو جرسي كانت النســاء تحصل على وجبـات طعام مجانية أيام الثلاثاء. وأحـب الرجال هذه الفكرة لأنها جلبت عدداً أكبر من النساء إلى البار. قال لنا أحد الزبائن: «كانت هذه طريقة رائعة للتعارف».

إلا أن رجلاً اعترض على كل ذلك واسمه جون ف بانز هاف John F. Banzhaf 3 III وكان يلقب بـ «أبي المراحيض المتساوية» ـ وهو لقب حمله باعتزاز. وهذا اللقب يعود إلى تهديده للأبنية الحكومية التي لا تبني مراحيض للنساء بعدد يفوق مراحيض الرجال. كانت حجة بانز هاف في دعواه أن النساء يقضين وقتاً أطول في المرحاض فإذا كان عدد المراحيض في البناء للرجال والنساء متساوياً فإن هذا يعني طوابير أطول من النساء أمام الحمام. قال بانز هاف لا يهم إذا كان مالك البناء قد فعل ذلك عن عمد أم لا «أي شيء له تأثير أو نتيجة، [في تفضيل] جنس على آخر هو أمر غير قانوني مقصوداً كان أم غير مقصود».

أليس أمراً رائعاً أن يسيطر شخص مثل بانز هاف على حياتنا؟ لا أحد يعلم على من سيرفع بانز هاف دعواه القادمة. إنه يدّرس حقوق الشأن العام في جامعة جورج واشنطن حيث يشجع طلابه على رفع الدعاوى. ويقول إن ذلك «مشروع جيد للصف». وكان المدعى عليهم يضطرون أن يبحثوا طويلاً عن محامين لهم، لكن هذا لم يزعج بانز هاف الذي يزعجه هو التفرقة بين الجنسين: لقد رفع طلابه دعوى على ليالي السيدات فمنعوها في مدينة واشنطن.

قال بانز هاف: «لا يصح أن تأخذ مالاً من الرجال أكثر من النساء. هذا هو القانون» إنه محق. فهذا غير قانوني ـ ولكن يجدر بنا أن نفكر في الكثير من قوانينا السيئة. كانت ليلة السيدات تقليداً طويلاً ومفيداً إلا أن الناشطين ضد التفرقة نجحوا في منعها في أكثر من 12 ولاية.

قال أصحاب البارات إن ليلة السيدات لم تكن تفرقة. بل كانت تهدف إلى إرضاء الزبائن. قال فرانك سيمنت صاحب بار D'Junois في نيو جرسي إنه في البار «كان هناك دائماً رجال أكثر من النساء». ساوت ليالي السيدات النسبة بين الرجال والنساء وأحب الزبائن ذلك.

إذاً أحب الرجال والنساء ذلك؟ ياللأسف: المنظمون لنا بالمرصاد عندما وجهت دائرة عدم التفرقة في نيوجرسي قراراً ضد مالك البار كربتوس مورتوز اضطر إلى

إنهاء خمس وعشرين سنة من تقليد ليالي السيدات في باره. ولم يفهم كيف عَدَّ أولئك البيروقراطيون ليالي السيدات تفرقة ضد الرجال لأن الرجال أحبوها.

إنــه على حق بلا ريــب. فالبارات لا تضطهد الرجال بـل تعطيهم ما يريدون يحب الرجال الذهاب إلى بارات توجد فيها النساء وغالباً ما تحتاج النساء إلى سعر خاص يحفزهــم على الذهــاب إلى البار. لكن رئيــس الحقوق المدنية في نيــو جرسي فرانك فيسبا ربابليو J. Frank Vespa Papaleo رفض هذه الحجة وصرّح قائلاً: «ينبغي أن تــؤدي أماكن الراحة والتسلية العامة أهدافها التجارية دون إثارة النزعات» مع قانون التفرقة. كما لاحظ أنه إذا كان الأمر يتعلق «بهدف حكومي أو سياسة اجتماعية» فإن ذلك موضوع مختلف.

آه. الآن فهمــت. عندمــا تريــد الحكومة أن تنفــذ أمراً ما فإن مبــدأ عدم التفرقة الذي يتضمنه دستور الولايات المتحدة حماية ضد عمل الحكومة ـ يمكن خرقه. ولكن عندمــا نريد أنــا وأنت ممارســة حقوقنا في المزاملة الحــرة والملكية الخاصــة ـ التي يحميها الدستور الأمريكي نظرياً ـ يجب علينا الرضوخ.

إن شرطة التفرقة تعلم ما هو الأفضل لنا.

ولمــا كان الموظفــون الحكوميون ينفقــون أموالنا، وليس أموالهــم، فإنهم سيبذلون أقصــى جهد لتحقيق «المســاواة». في عام 1994 أعلنت مدينــة ميلواكي أن كل محقق طبــي يجب أن يرتــدي ربطة عنق. لقد أجرينا مقابلة مع باتريسيا مارتين وهي تحاول عقــد ربطــة عنقها وكانت تبــدو متعبة وقالت: «أشعــر أنني أرتدي بذلــة هالووين وأنا أحاول أن أبدو كرجل».

إن وظيفــة باتريسيا هي الذهاب إلى مسرح الجريمــة وجمع الأدلة الشرعية ولقد فُرِض عليهــا الزي الخاص عندما قــرر رئيسها جفري جينتــزن Jentzen أن يرتدي المحققــون العاملــون معه ـ من الرجــال والنساء ـــ أزياءً رسمية وهــذا يعني سترات وربطات عنق.

في البداية عندما فُرض ذلك على الرجال فقط اعترضوا قائلين «ليس عدلاً» «إنها تفرقة» ورفع ناديهم شكوى وفازوا.

فأعلن جينتز Jentezen «يجب على الجميع ارتداء ربطات العنق».

ثم عينت النساء محاميات لرفع دعوى، وطالبن بأن يدفع لهن أموالاً لقاء الأضرار التي تكبدنها من جرّاء إجبارهن على ارتداء ربطات العنق. عندما يرفع محام دعوى فإن ذلك يعني ضمان عمل على الأقل لمحاميين اثنين آخرين. عين مكتب الرقابة الطبية أغلى شركة محاماة في ميلواكي للمدافعة عن سياسة ربطات العنق. لقد بدا أحد محاميه وهو جيم سكوت، خجلاً بعض الشيء من هذه الدعوى. وقال لنا: «قبل أن ننتهي سنكون قد أنفقنا عشرات آلاف الدولارات».

وهي دولارات دافعي الضرائب! لقد أجريت مقابلة مع المراقب الطبي جيتنز.

ستوسل: أترتدي دائماً ربطة عنق؟
جيتنز: أرتدي دائماً ربطة عنق.
ستوسل: (سحبتُ صورة) هذه صورتك في مسرح جريمة جيفري داهمر وأنت لا ترتدي ربطة عنق.
جيتنز: أُخذت هذه الصورة في عام 1991 أنت محق لم أضع ربطة عنق عندها.
ستوسل: لكنك تقول إنها ملزمة من أجل السلوك المهني.
جيتنز: منذ عام 1994 أصبحت كذلك.
ستوسل: يقول المحامي إن ذلك يكلف دافعي الضرائب عشرات آلاف الدولارات. أيستحق الأمر ذلك؟
جيتنز: أظن أن الجواب نعم.

أعتقد أن الجواب هو.. أخرج الرفش للتنقيب.

بعد أسبوع من بث برنامجي لقصة سياسة ربطة العنق عدل مكتب الرقابة الطبية في ميلواكي هذه السياسة. إلا أن نهاية هذه القصة لم تكن نهاية سعيدة. فُصلت باتريسيا مارتين لاحقاً من عملها. وقالت إن ذلك كان فعلاً انتقامياً لاشتراكها في برنامجنا.

خرافة: الدعاوى القضائية التي يرفعها محامو حقوق المرأة تحارب التفرقة بين الجنسين.

حقيقة: الدعاوى القضائية التي يرفعها محامو حقوق المرأة تزيد محامين آخرين ثراءً.

أنت تدفع لمحامي حقوق المرأة عندما يقدم أطفالك فحوص الـ SAT.

يفلح الأولاد الذكور أكثر من البنات في هذه الفحوص وخاصة في الرياضيات لذلك ادعى محامون من الـ ACLU أن هذه الفحوص غير حيادية وتحيز ضد البنات فلا يأخذن حصتهن العادلة من منح الاستحقاق الوطنية National Merit Scholorships. فشل محامو الـ ACLU بتوضيح أي عيب أو خلل في تلك الفحوص، إلا أنهم قدموا العديد من الاقتراحات حول طرق لتعويض البنات مثل إعادة كتابة الفحوص، إضافة العلامات للبنات، تقسيم المنح بالتساوي بين الصبيان والبنات دون اعتبار الاستحقاق، أو/ واضافة ملايين الدولارات إلى منح مخصصة للنساء كل سنة.

لن يدعموا «الاختلاف» وحتى الآن تم تعديل فحوص الـ SAT بإضافة فحوص سلسلة للبنات ولكن بعض المحامين مازالوا يعترضون على ذلك. لن يرتاح محامو الدفاع ضد التفرقة حتى يتم إلغاء التفاوت بين الأجناس، الخلفيات الاجتماعية والاقتصادية والعروق من كل جوانب الحياة.

قالت لي المحامية الناشطة غلوريا آلرد Gloria Allred إننا نحتاج إلى المزيد من الدعاوى القضائية. لقد رفعت هي وبانز هاف الكثير من الدعاوى القضائية ضد مخازن الملابس التي تتقاضى من الرجال أسعاراً أقل من النساء لتعديل الملابس المبتاعة وكذلك ضد أماكن التنظيف الجاف التي تتقاضى أسعاراً أكبر لتنظيف قمصان النساء. سرعان ماغير أصحاب أماكن التنظيف الجاف الهلعون أسعارهم وجعلوها متساوية إلا أنهم أسروا إلي أنهم يفضلون أن يكون ثمن تنظيف ثياب النساء

أكبر لأنه يحتاج وقتاً أطول. فقمصان النساء تصنع من أقمشة وهيئات وأحجام متعددة وهذا يتطلب آلات ومواد مختلفة بينما تنظف قمصان الرجال كلها في آلة واحدة. وقال لنا أيضاً أصحاب أمكنة التنظيف الجاف إن «النساء متطلبات أكثر» إذ إن حاستا اللمس والرؤية عندهن أقوى من الرجال. «إنهن يرين البقعة ـ الرجال لا يرون البقع» هناك في الواقع، فروق بين الرجال والنساء.

عندما قلت لغلوريا الرد إن أصحاب أمكنة التنظيف الجاف يمارسون عملهم بذكاء قالت إنني مخطئ: «أنا أشم رائحة التفرقة أكثر منك».

أجل ومحامو التفرقة يشمون رائحتها طوال الوقت. في إحدى السنوات رفع طلاب جون بانز هاف شكوى إلى جماعة حقوق الإنسان ضد صالونات تصفيف الشعر التي تتقاضى أموالاً أكثر من النساء. أهذا خرق لحقوق الإنسان؟!

تقاضي أموالٍ أكثر من النساء لقص الشعر هو تسوية طبيعية للفروق الحقيقة بين الجنسين: الاعتناء بشعر النساء يأخذ وقتاً أطول. وهذه ليست الحال دائماً وإنما غالباً ما يكون الأمر كذلك مما يبرر ضرورة اختلاف الأسعار. لا تثمن صالونات الحلاقة عملها لإيذاء النساء ولكن تثمنه بناءً على الوقت الذي يأخذه تصفيف شعر الزبائن من النساء. ولو كانت تلك الأسعار غير عادلة لعاقبتهم السوق الحرة فكم ترتاد النساء تلك الصالونات.

وعلى العكس إذا طالبت الحكومات الغبية بأسعار متساوية للنساء والرجال فإن ذلك سيؤذي النساء لأن بعض الصالونات ستغلق أبوابها في وجه النساء. وعندما يرفع طلاب بانز هاف الدعاوى القضائية فإن ذلك سيؤذي النساء والرجال معاً إذ ستضطر الصالونات إلى تعيين المحامين ودفع أتعابهم وتلك الكلفة ستزيد من الأسعار التي يدفعها الزبائن. سيكلف المحامون أكثر من ألف قصة شعر.

لكن بانز هاف وطلابه يرون الخير فقط في الدعاوى القضائية.

ستوسل: يجب على صالونات الحلاقة الآن تعيين المحامين.

جون بانز هاف: تستطيع الصالونات تعيين المحامين وسيحاولون إما فردياً أو جماعياً أن يجادلوا محامينا في جلسات المحكمة لكن القانون واضح جداً وينص على أنك لا تستطيع أن تبرر اختلاف الأسعار بين النساء والرجال حتى لو برهنت أن النساء يكلفنك أكثر.

ستوسل: حتى ولو أن شعر النساء في الحقيقة يأخذ وقتاً أكثر للقص يُعدُّ ذلك غير شرعي؟!

ياسمين تيرادو: (إحدى طالبات الحقوق)، نعم إن الأمر بسيط وصاف. لا يمكنك طلب سعر أكبر لنفس الخدمة التي تقدمها.

ستوسل: ألا توجد استثناءات؟

ياسمين تيرادو: كلا إلا إذا أفلست.

ستوسل: إذاً الطريقة الوحيدة لإثبات ذلك هي الإفلاس.

ياسمين تيرادو: هذا ما ينص عليه القانون.

هذا قانون المحامين الرعاع: سنجبر عملك أن يوافق مفهومنا للعالم.. حتى ولو تسبب ذلك في إفلاسك.

خرافة: الرجال والنساء متماثلون فيما عدا الفروق الجسدية.

حقيقة: هناك فروق ـ فروق عديدة.

عندما كنت طالباً في جامعة برنستون علمني أساتذتي أن التفرقة بين الجنسين هي التي أدت إلى تفوق الرجال وكثرتهم في مجالات العلم والأعمال والرياضة.

قالوا لي تأمل في ذلك: لسنوات عديدة منع الرجال الطغاة النساء من العمل أو من حق الانتخاب ومن الملكية الخاصة. والآن تلاشت تلك القوانين إلا أن آثارها لم تندثر. مازالت التفرقة الواضحة بين الجنسين تمنع بعض النساء من النجاح.

أعلن الناشطون في الدفاع عن المساواة بين الجنسين أنه لما كان الرجال والنساء متساوين فإنه من غير الطبيعي أن تمضي النساء وقتاً أكبر في التربية بينما يمضي

الرجـال وقتاً أكبر في الرياضة. الخلل في التوازن هـو زيف ثقافي وسنحظى بالمساواة التامـة إذا توقفنا تماماً عن التفرقة بين الجنسـين. لقد صدقت أساتذتي إلا أن ذلك كان هراء واليوم هناك الكثير من الأدلة على ذلك.

كانـت جون راينيش June Reinisch، وهي المديـر السابق لمعهد كينزي في جامعة انديانـا، كانـت واحدة من العديد مـن الباحثين الذين أخبرونـا أن بعض الفروق بين الجنسـين خلقية متأصلـة. فحتى الأطفال حديثو الـولادة (الرضّع) يتصرفون بشكل مختلـف حسب الجنسـ. قالت لي: «الذكـور [يرتكسون] أكثر من الإنـاث. إذا نفخت الهـواء علـى بطونهـم فإنهم يجفلـون أكثر من الإنـاث» كما قالـت لي: إن الإناث من الرضـع يستخدمن أفواههن بطريقـة إيقاعية مميزة «يمصمصـن ألسنتهم ويحركن شفاههن أكثر من الرضع الذكور».

لم يخضـع الرضـع إلى أفكار المجتمع المسبقة حول الجنسين ـــ لقد أبدوا اختلافاً منذ الولادة.

هذا ليس أمراً سيئاً ولا يعني أن النساء لا يستطعن أن يترأسن الشركات ولا يصبحن مهندسات أو أن الرجال لا يستطيعون أن يربوا الأطفال أو يدّرسون في المدارس. ذلك يعنـي أن عـدداً أكبر من الرجـال يفضلون العمـل بالهندسة وعدداً أكـبر من النساء يفضلن البقاء في المنزل مع الأولاد وعدداً أكبر من الرجال يفضلون التضحية بالعائلة من أجل النقود وعدداً أكبر من النساء يمتلكن مهارة في التعبير بالكلمات.

الاختلاف لا يعني أن أحد الفريقين هو الأفضل. بالنظر إلى قوة الرجال ومهاراتهم بالهندسـة الفراغية لا غرو أن يكـون معظم المهندسين والرياضين من الرجال (طالما لا تمنـع الحكومة النساء من تلك الأعمال). وبالنظـر إلى مهارات النساء المتفوقة في التعبير بالكلمات والتعامل مع الناس (كثير من الأبحاث تثبت ذلك). لا غرو أن يكون معظـم المدرسين وعلمـاء النفس والصيادلة ووكلاء العقارات مـن النساء. لندع الكل يعمل ما يحب وما يبذ به.

مـن الأفضل التصرف وفقاً لحقيقة الواقع وعدم التصرف وفقاً لفكرة شخص ما حول ما يجب أن تكون الحقيقة. والحقيقة هي أننا مختلفون.

«لا!» تقول المدافعات عن حقوق المرأة والمساواة بين الجنسين.

تصـــر الهيئات الثقافية على رؤية النساء طبقةً مظلومة من الضحايا مهددة دائماً بالاستبعــاد وترفضــ تلــك الهيئات الاعتراف بــأي فروق بين الجنســين أو النظر إلى الدلائل التي تثبت ذلك. بل إنها لا تريد إثارة تلك المواضيع قط.

عندما تكلم رئيس جامعة هارفرد لورانس سمرز Lawrence Summers في مؤتمر أكاديمـــي حول النســـاء والأقليات، اقترح أن سبب قلة عمل النســـاء في المناصب العليا في العلـوم يعـود إلى التفرقة ومتطلبات الحياة العائلية والفـروق الخلقية بين الرجال والنساء. ودعى إلى المزيد من الأبحاث في هذه المواضيع.

وثـار الغضــب العارم. غــادرت إحــدى أساتــذة العلــوم القاعة. ونشــرت جريدة النيويورك تايمز قصصاً لا تنهي حول سخط النساء على ملاحظات سمرز.

أدان أعضــاء الهيئة التدريسية في هارفرد سمرز لقوله هذا. اعتذر سمرز. اعتذر عدة مرات عما قاله.

هــذه هــي الرقابة الخانقــة المقرفة. أمر محــزن أن يذعن رئيس أقــدم جامعة في أمريكا لذاك الإحراج المتعمد فيعتذر.

أنــا أفهــم شعوره. لقد أمضيت حياتــي العملية في وسائل الإعــلام التي تسير وفق التيــار العــام. عندما يؤمن الجميع من حولك بأمور مثل أننــا نحتاج إلى رعاية صحة وطنية وأن الرأسمالية تضر أكثر مما تنفع وأننا نميز ضد النساء ونمنعهم من التقدم يصبح من الصعب العراك ضد ذلك والتزام الصمت هو الأسهل.

لكن لا يجب على رؤوساء الجامعات السكوت ولم يكن على سمرز الاعتذار.

خارج النطــاق الأكاديمي وحلقات النخبة من المهووسين فإن الفروق بين الجنسين هي ببساطة حقيقة واقعية.

ولهــذا السبب يفضــل القضاة الأمهــات في قضايا الوصاية على الطفــل. إذ إنهم يفترضــون أن وصاية الأم على الطفل أمر أفضل للطفــل. يدل قانون التطور والخبرة

كما تدل دراسات متعددة على أن النساء يصرفن وقتاً أكثر من الرجال بالاهتمام بالأطفال وتتميز علاقتهم بأطفالهن بالرعاية والحميمية. والآن عندما بدأ الرجال يعترضون ويقولون إن تفضيل النساء في قضايا الوصاية أمر غير عادل تطورت زمالة غريبة بين محامي حقوق الرجال والمدافعين عن حقوق المرأة مثل غلوريا ستاينم Gloria Steinem التي تقول إن النساء والرجال متساوون تماماً.

لقد ظننت أن ستاينم التي كانت من قبل أحد مثلي العليا، لن تنكر كل العلوم الحديثة المتعلقة بالجنسين. ظننت أنها ستعترف أن ثمة فروق. كنت مخطئاً. عندما أجريت المقابلة معها كانت جافة وباردة. بعد أن أنكرتْ أن الرجال يظهرون اهتماماً أكبر بالمعارك والرياضة وأنهم أشد عدوانية ويخرقون القوانين أكثر من النسوة جربتُ معها طريقة أخرى إذ بدأت أشير إلى المميزات والأفضليات (الحيوية) التي تتفوق بها النساء.

ستوسل: أليست النساء بشكل عام مربيات أفضل.

غلوريا ساتينم: لا! إلى السؤال الآخر.

يالغرابة ذلك الإنكار.

واستخدام سلطة الحكومة لغرض إلغاء الفروق بين الجنسين أمر تخريبي.

قالت لي غلوريا آلرد إنها أينما تجد فروقاً سترفع الدعاوى إلى أن «تنتصر» النساء.

ستوسل: لعل النساء تختلف من الناحية البيولوجية! لم رفع الدعاوى من أجل ذلك؟ نحن جميعاً ندفع ثمن دعاويك القضائية.

غلوريا آلرد: للنساء الحق في أن يغضبن، لهن الحق أيضاً في الذهاب إلى المحكمة والمطالبة بحقوقهن. لهن الحق في أن ينتخبن لشغل المناصب الحكومية وفي أن يشرّعن قوانين عامة لا تحرمهن من حقوقهن!

ستوسل: وماذا سيحصل إذا لم ينتخبن، هل سترفعين دعوى قضائية للمطالبة بانتخابهن؟

غلوريا آلرد: أظن أن علينا فعل كل ما بوسعنا وكل ما هو ضروري وملائم لحماية حقوقنا وحقوق بناتنا.

وأنا أيضاً أريد حماية حقوق ابنتي ولكن هل يجب أن تتساوى نتائج الانتخابات بين الرجال والنساء؟ هل يجب عليها أن ترفع دعوى قضائية إذا خسرت النساء؟

يريد محامو الدفاع عن المساواة إجبار الناس على التصرف بالطريقة التي يختارونها هم (أي المحامون) والمهندسون الاجتماعيون. يحق لهم ترويج أفكارهم الغبية. ولكن من المؤسف أنهم لكونهم يملكون شهادات في الحقوق فإنهم يستطيعون استخدام القوة، ويجعلوننا نساعدهم فتدفع أموالاً لنحقق أهدافهم.

في هذه الأيام لا تتعلق أهدافهم بتحقيق التساوي في الفرص وإنما التساوي في النتائج. تُحث النساء على فعل نفس الأعمال التي يقوم بها الرجال سواء أحببن ذلك أم لا.

انظر إلى الرياضة.

خرافة: يجعل Title lx الرياضة التنافسية (العنيفة) عادلة تجاه البنات.

حقيقة: يساعد Title lx المحامين ويؤذي الصبيان.

عندما أتابع الرياضة أجد عدد الرجال أكثر من النساء وذلك في أرض الملعب أو على المدرجات أيضاً. قالت لي دونا لوبيانو رئيسة مؤسسة رياضة النساء إن السبب هو سنوات من التفرقة بين الجنسين.

ستوسل: أيماثل عدد النساء اللاتي يرغبن في لعب الرياضة عدد الرجال؟

دونا لوبيانو: نعم.

ستوسل: ألا تشكّين في ذلك؟

دونا لوبيانو: لا أشك في ذلك.

ستوسل: أتحب النساء الركض والاصطدام بالأشخاص تماماً مثلما يحب الذكور ذلك؟

دونا لوبيانو: إذا بنيت فيهم الرغبة سيفعلن ذلك.

لبنـــاء تلك الرغبة أقر مجلس الكونغرس قانــون: «Title lx» وبدا معقولاً جداً. «لا يمكــن التحيــز في أي برنامج تعليمي ضــد أي شخص في الولايــات المتحدة الأمريكية وفقــاً للجنس» من يمكنه أن يجادل في ذلك؟ يفترضــ أن يعطي هذا القانون ذو النية الحسنة البنات رسالة بأن قيمتهن في أرض الملاعب مثل قيمة الصبيان تماماً.

ولكــن كالمعتــاد كانت لهــذا القانون نتائــج مؤسفــة. عندمــا أرادت جامعة براون الاقتصــاد في النفقــات عن طريق إيقــاف أربع فرق رياضية اثنتــان من فرق الرجال واثنتــان من فرق النســاء اعترض الرياضيون ورفعــوا دعوى. قالت لنــا أيلين روشيو Eileen Rocchio وهي رياضية سابقة في جامعة براون: «يجب أن تعامل النساء على قدم المساواة ولم تكن أعداد الرياضين في براون متساوية!».

تحت قانون Title k يفترض أن تلائم نسبة الرياضيات الإناث نسبة الطالبات في الجامعــة. إلا أن هذا الطلــب سبب مشكلات عديدة للإداريين في براون: مهما توسلوا إلى الطالبات من أجل تجربة الفرق الرياضية مهما شجعوهن على أخذ دروس المبارزة بالســلاح الأبيض، والهوكي وكرة السلة النسائية بقي عدد النساء المهتمات بالرياضة أقــل مــن الرجال. وتعد براون من أكــثر الجامعات مجاراة للتيار العــام وحرصاً على المســاواة ولكن حتى فيهــا ارتطم مبدأ المساواة بين الجنســين بحاجز عدم الاهتمام. أيستحق ذلك العقاب؟ أهذا خرق للقانون؟

لم يهــم أن جامعــة براون كانت قد وسعــت فرقها الرياضيــة النسائية حتى غدت تشمل أكبر عدد من الفرق الرياضية النسائية في أي جامعة أخرى في أمريكا.

مــا كان يهم هو أن عدداً أكبر مــن الرياضين فيها كانوا من الذكور. وهذا لا يجوز أليســ كذلــك؟ بعد أن رفعت دعــوى Title lx أُمرت جامعة بــراون بإنشاء ثلاث فرق رياضية جديدة للنساء «ستعد الجامعات الأخرى من ذلك» قالت أيلن روشيو:

يجدر بهم ذلك وإن لم يفعلوا سيأخذ المحامون كل أموالهم.

إن إنشـاء فرق رياضية جديدة مكلف. أضف الكلفة العادية للبدء من الزي الموحد والتجهيـزات والملعـب إلى دعـاوى Title lx وتكاليـف المحققين فإلى أيـن يقود ذلك الرياضة في الجامعة؟ ستذعن الهيئات الرياضية إلى تلك القوانين التشريعية وتحاول خفض التكاليف الباهظة بحل رياضة الرجال. ألغت جامعة برنستون وجامعة نوتردام منتخب المصارعة وألغت جامعة بروفيدانس كرة السلة للرجال والتنس والغولف. ألغت جامعة VCLA برنامج السباحة والغطس للرجال هذا البرنامج الذي جلب ستة عشر ميدالية ذهبية لأمريكا في الألعاب الأولمبية.

«هـذا ليس جيـداً بالنسبـة للشباب» قـال لي مـدرب المصارعـة ليوكوشر Leo Kocher مـن الاتحاد الوطني للانصـاف الرياضي «نحن نرتكب فعـلاً شنيعاً تجاه الرجـال. كأننا نقول لهم ستعاقبون لكونكم تهتمون بالرياضة أكثر من النساء. وهذا أمـر خاطئ. إذا فقدنا في السنوات الخمـس الأخيرة 10 بالمئة من رياضيينا الرجال هذا يعني 20.000 رجلاً».

ولم تقتصـر التأثـيرات غير المقصودة وغـير العادلة للـ Title lx على الجامعات فقـط إذ رفعـت شرطة التفرقة الدعاوى على المدراس أيضـاً. في مدرسة مريت أيلند هاي في فلوريدا كان ملعب البيسبول للصبيان أجمل من ملعب بيسبول الفتيات.

كان ملعب الصبيـان مزوداً بالأضواء والمدرجات ولوحات عرض النتائج. ولم يكن ذلـك لأن المدرسـة أنفقت أموالاً أكثر على فريق الصبيـان فلقد أعطت المدرسة كمية من النقود متماثلة تماماً لكل من الفريقين إلا أن فريق الصبيان حظي بممولين أقاموا التعديلات على الملعب كما تطوع آباؤهم ببناء المدرجات ولوحات العرض.

ثـم اهتمـوا بالعشب «كانـوا يأتون إلى هنا في أيـام عطلة الأسبـوع وفي الليل» قال لي محامـي مجلس المدرسة «كانوا يجثـون على ركبهم وأياديهـم ويقطعون الأعشاب الضـارة من أرض ملعـب البيسبول» ولكن مـع أن الصبيان وآباءهـم قاموا بكل ذلك الجهـد الإضافي أخـبرت المحكمة المدرسة أنـه حسب قانـون Title lx لا يمكن لملعب الصبيان أن يكون أفضل من ملعب الفتيات.

رفعت محامية الحقوق المدنية ليزا تيتيغ Lisa Tietig دعوى لإجبار مجلس المدرسة بالحد مما يعطيه الآباء لملعب الصبيان.

ليزا تيتيغ: من واجبهم تحديد التبرعات الخاصة حتى تعطى بشكل عادل. وإذا كان ذلك يعني...

ستوسل: أيجب على مجلس المدرسة أن يقول للآباء لمن يعطون المساعدات؟

ليزا تيتيغ: يمكنه أن يقول «لقد تبرعتم بهذه النقود ولكن لن يمكن استخدامها حتى تحصل الفتيات على مبلغ مماثل».

ستوسل: أهذا أمر جيد؟

ليزا تيتيغ: بالطبع بالطبع. هذه هي الطريقة الوحيدة لتحقيق المساواة في الملاعب الرياضية. اقترح مجلس المدرسة المدهوش هذا الحل: سينتزعون اللوحات العارضة والمقصات وسيغطون المدرجات ولن يسمحوا لأحد بالجلوس عليها. سيزيل ذلك الأشياء الجيدة التي تطوع الصبيان وآباؤهم لفعلها ويحقق المساواة. ياللخسارة.

لكن ذلك لم يزعج محامية الحقوق المدنية قالت ليزا تيتيغ «من واجبهم أن يفعلوا ذلك» «إنه القانون ولا يهم إن كانت لديهم النقود».

هذا هو منطق المحامي: لا يهم إن كانت لدى المدرسة النقود لكنني لاحظت أن المحامية بدت متلهفة للحصول على النقود لنفسها لقد قرر المحامون ذوو الأثواب (وندعوهم القضاة) أن المحامين يستحقون أجراً أكبر إذا فازوا بدعوى قضائية تتعلق بالحقوق المدنية. وهذا يفترض أن يكون حافزاً لجعلهم يقومون «بخدمة الشعب» هذا يعني إذا ما فازت ليزا تيتيغ بالقضية فإنها ستحصل لا على أجرها المعتاد 150 بالساعة بل على 900 بالساعة.

ستوسل: هل لديك حافز يجعلك تواصلين تحري الظلم وترفعين الدعاوى؟

ليزا تيتيغ: نعم تطبيق القانون.

ستوسل: وهل هذا أمر جيد؟

ليزا تيتيغ: بالطبع.

إنه أمر جيد لها وليس لطلاب المدرسة.

انحـاز القاضـي إلى جانـب المحامية تيتيغ يجـب أن تكون ملاعـب كلا الجنسين متكافئـة ولا يهم مـن أين تأتي النقود. وحتـى الإشارات يجب أن تكـون متماثلة تعلم مدرب البيسبول تشك غولد فارب في مدرسة ميريث هاي درسه بقسوة:

المدرب تشك غولد فارب: لقد حصلت علـى ممول لوضع لافتة كتب عليها «وطن الجيـاد» ورسـم عليها جواداً يلوح بخفاش إلا أن القانون يقضي بأن ذلك غير عادل من أجل المساواة بين الجنسين.

ستوسـل: لقد أمر القاضـي بطلاء تلك اللوحة حتى تبـدو فارغة ـ شكلها هذا يبدو سخيفاً.

المدرب تشك غولد فارب: نعم سخيف بالفعل. إنها لوحة فارغة. تبدو كأنها شاشة سينما. وكأننا في مسرح ننظر إلى الشاشة.

كان ذلك مضحكاً لو لم يكن مكلفاً. رفعت تيتيغ الدعاوي على عشرة مدارس ثانويـة في ميريـث إيلانـد. قلـل كل دولار مصروف علـى الدعاوي مـن النقود المصروفـة على الملاعب. وكان بالإمكان بنـاء عدة ملاعب بيسبول بالنقود التي أنفقت على المحامين.

أمـر رائـع أن يجعل الناشطـون في تلك القضايـا الناس يعون وجـود التفرقة بين الجنسـين ويشجعون النساء على لعب الرياضة. لدينا الآن أعداد قياسية من الفتيات اللاتي يملأن ملاعب كرة القدم وكرة السلة. ولقد دربتُ بنفسي فريق الكرة الطائرة من النساء كما دربت فريق كرة القدم للفتيات أريد لابنتي أن تحظى بكل الفرص التي ينعم بها ابني.

لكن هذه هي حال الآباء جميعاً. لم نكن نحتاج إلى Title lx وإلى المحامين المفزعين لإجبـار المدارس علـى تقديم حصص رياضية أكثر للفتيـات. لأن ذلك كان سيحصل بشـكل طبيعي عندما وعى الآبـاء والمدرسون والإداريون وجـود التفرقة بين الجنسـين وهبّوا لإصلاحها.

مـن السخـف المطالبـة بمشاركـة متساويـة تماماً مـن الجنسين. مهمـا تقوله المدافعـات عن حقوق المـرأة يبقى عدد الفتيـات المهتمات بالرياضـة أقل من عدد الصبيـان. ليس من العدل إيذاء الصبيـان ومعاقبة من يدفعون الضرائب من أجل تحقيق مساواة تامة.

الرجـال والنســاء مختلفون. كما قـال لي ليـو كوتشـر Leo Kocher «إذا عرّفت التفرقـة بأنها عدم تساوي أعداد الرجال والنســاء في الأعمال ستجد عندها التفرقة منتشـرة في كل مـكان في هذا المجتمع لأن الرجـال والنساء لا يسهمـون بكل الأعمال بأعداد متساوية تماماً».

في المدارس تكثر أعداد الفتيات في الكورال (الغناء الجماعي) ومجلس الطلاب والعمل على الكتاب السنوي. كذلك لا تحوي صفوف الرقص على عدد من الصبيان يماثـل الفتيـات رغـم محـاولات تشجيعهم للالتحـاق بهـذه الصفـوف. إذا قبلنا ادعـاءات الناشطين في قضايـا التفرقة بأن سبب تفاوت الأعداد ناجم عن التفرقة بـين الجنسين فإن الدعـاوي القضائية ستستمر حتى يجني المحامـون كل أموالنا. وكل حرياتنا أيضاً.

خرافة: تكسب النساء نقوداً أقل من الرجال عند ممارسة العمل نفسه.
حقيقة: تكسب النساء أقل لأن أهدافهن تختلف عن الرجال.

وقـف السياسيون أمـام مبنى الكابيتـول في واشنطن (حيث يجتمـع الكونغرس) ووجهوا الكاميرات وصرخوا باحتجاج حول «النساء الضحايا».

سناتور توم هاركين: من ينظف غرفنا في الفنادق والنزل؟ النساء!
سنـاتـور هيـلاري كلينتـون: يجـب أن نضمن أن يعامل أصحـاب الأعمال النساء والرجال بمساواة!

كان السناتور هاركي وسناتور كلينتون يشكون من «فرق الأجر» وحقيقة أن النساء يكسـبن 78.5 سنتاً مقابـل كل دولار يكسبه الرجال. وقـال السياسيون المحتشدون إن

فـرق الأجـر هذا ناجم عـن التفرقة بين الجنسـين. صرخت عضـوة الكونغرس روزا دولاورو Rosa Delauro «مهما بذلت النساء جهدهن في العمل ومهما أنجزن وتقدمن في مهنهن وشهاداتهن لن يكسبن أجراً يماثل أجر الرجال».

هذا ما يعتقده معظم الناس. بعد مظاهرة الاحتجاج تلك ذهبتُ إلى برنامج توني دانـزا Tony Danza Show وسألت الجمهـور في الأستوديو: في نفس الوظيفة ونفس العمل من أجره أكبر الرجل أم المرأة؟».

صرخ الجميع «الرجل!».

لو كان ذلك حقيقياً لكان أصحاب الأعمال يرتكبن تفرقة شنيعة بين الجنسين.

لكـن أهذا معقول؟ لو علـم أصحاب الأعمال أن النساء يتقاضين أجوراً أقل للقيام بنفسـ الأعمـال التي يقـوم بها الرجال لاستخدمـوا النساء فقط. مـن الغباء عندئذ توظيف الرجال.

وأخـيراً وجد وارن فاريـل Warren Farrell التفسير. لعقود مضت كان فاريل من الرجـال القلائـل الذين اشتركوا في مظاهرات لمساندة المـرأة إذ كان يذهب بصحبة كلوريـا ستاينـم ونساء آخريـات. وكان هو الرجـل الوحيد الذي انتخـب ثلاث مرات لعضويـة مجلس المنظمـة الوطنية للنساء. قال لي: «كنت أضـع دبوس زينة كتب عليه 59 سنتـاً للاحتجاج على أن النساء كن يكسـبن 59 سنتاً [الآن 78.5] مقابل كل دولار يكسبه الرجال لنفس العمل» ثم جاءه الوحي فجأة.

وارن فاريـل: سألـت نفسي ذات يوم إذا كان الرجـال يكسبون دولاراً يجدر بي أن أنشـئ شركة تعمـل فيها النساء فقط وتنتـج منتوجات بخمسـة وتسعين سنتاً ينتجها الرجال بدولار.

ستوسل: كنت ستصبح غنياً!

وارن فاريـل: نعـم كنت سأصبح غنياً! [هذا مـا ظننت] هناك أمر خاطئ إذن في الإحصائيات.

أمضى فاريل بعد ذلك خمس عشرة سنة في مراجعة بيانات الإحصائيات السكانية الدورية أو دراسات أخرى. فوجد أن فرق الأجر لم ينجم عن التفرقة بين الجنسين وإنما عن استعداد الرجال للعمل في نوع خاص من الوظائف.

ووضح ذلك الأمر في محاضراته وخطبه، إذ كان يسأل الحضور مثلاً أن يقف منهم من يتحمل العمل لأكثر من أربعين ساعة بالأسبوع أو أن يقف من يستطيع «العمل في حقل متعرضاً للرياح والمطر والثلج لمدة سنتين على الأقل» بل كان سيعترض أعمالاً أكثر مشقة وخطورة.

وفي كل مرة كان القسم الأكبر من الواقفين رجالاً «لهذا يكسب الرجال أكثر» قال فاريل. نحن نقبل وظائف تتطلب ساعات طويلة من العمل، ووقتاً أطول في المواصلات وخطورات كبيرة وسفرات متعددة هذه الوظائف أجرها أكبر لأنها تتطلب وقتاً أكثر وقلة من الناس ترغب بها.

ليس السبب هو التفرقة وإنما العرض والطلب. أجر النساء أقل لأنهن يرغبن بأنواع مختلفة من الأعمال.

وارن فاريل: قالت النساء أنفسهن إنهن لا يملكن المرونة للقبول بأي شروط وظيفية. قال الرجال إن ما يهمهم بالدرجة الأولى هو الأجر. تقول النساء: هل أريد المزيد من المال أم المزيد من الوقت؟ وكن ذكيات لاختيار المزيد من الوقت. ولهذا فإن النساء يحافظن على توازن أكبر في الحياة. يجب على الرجال التعلم من النساء.

أتت لحظة المواجهة. هذه هي أمتع جزء من برنامج التلفاز ـ وفيها تجلب لشخص ما حقائق تتنافى مع ما قاله وتشاهد كيف يتصرف من سأواجه في هذه القصة؟ معظم الناس في أمريكا يؤمنون أن فرق الأجر ينجم عن التفرقة بين الجنسين هل يجب أن أخاطب الجميع؟ طلبت مواجهة السناتور كلنتون فرفضت. فطلبت من مارثا بورك Martha Burke رئيسة المجلس الوطني لمنظمة النساء. كانت قد كتبت كتاباً حول التفرقة وقادت المحتجين الصاخبين ضد التفرقة في نادي الغولف في

جورجيا الــذي كان يستضيف الشخصيات المهمة ظننــت أن حجج فاريل ستهدئها. لكنني كنت مخطئاً.

ستوسـل: إذا كانــت النسـاء تقوم بنفس عمل الرجال ولكـن بكلفة أقل بـ 25 بالمئة فلماذا يوّظف أي صاحب عمل رجلاً؟

مارثا بورك: لأنهم يحبون أن يوظفوا الرجال يا جون. يحبون أن يوظفوا أشخاصاً مثلهـم وبالطبع أن يروجوا لنجــاح أشخاصٍ مثلهم مازالت هــذه المشاعر تعم البلاد بأنه: أولاً: الرجال يسيطرون على الوظائف وثانياً: أن الرجال بشكل آلي أفضل من النساء في الوظائف.

أخرجوا الرفش للتنقيب. أيحب أصحاب الأعمال الرجال لدرجة تحمل خسارة 25 بالمئة لكل شخص يوظفونه؟ هذا هراء.

لننتقل إلى الخرافة الأخرى حول الجنسين.

خرافة: النساء أسوأ من الرجال في قيادة السيارات.

حقيقة: الرجال هم الأسوأ.

للنســاء سمعــة سيئة في قيادة السيــارات. تروج لهذه السمعــة عناوين أساسية في وسائل الإعلام مثل «قيادة سيئة بسبب الهرمونات» أو نكات مثل:

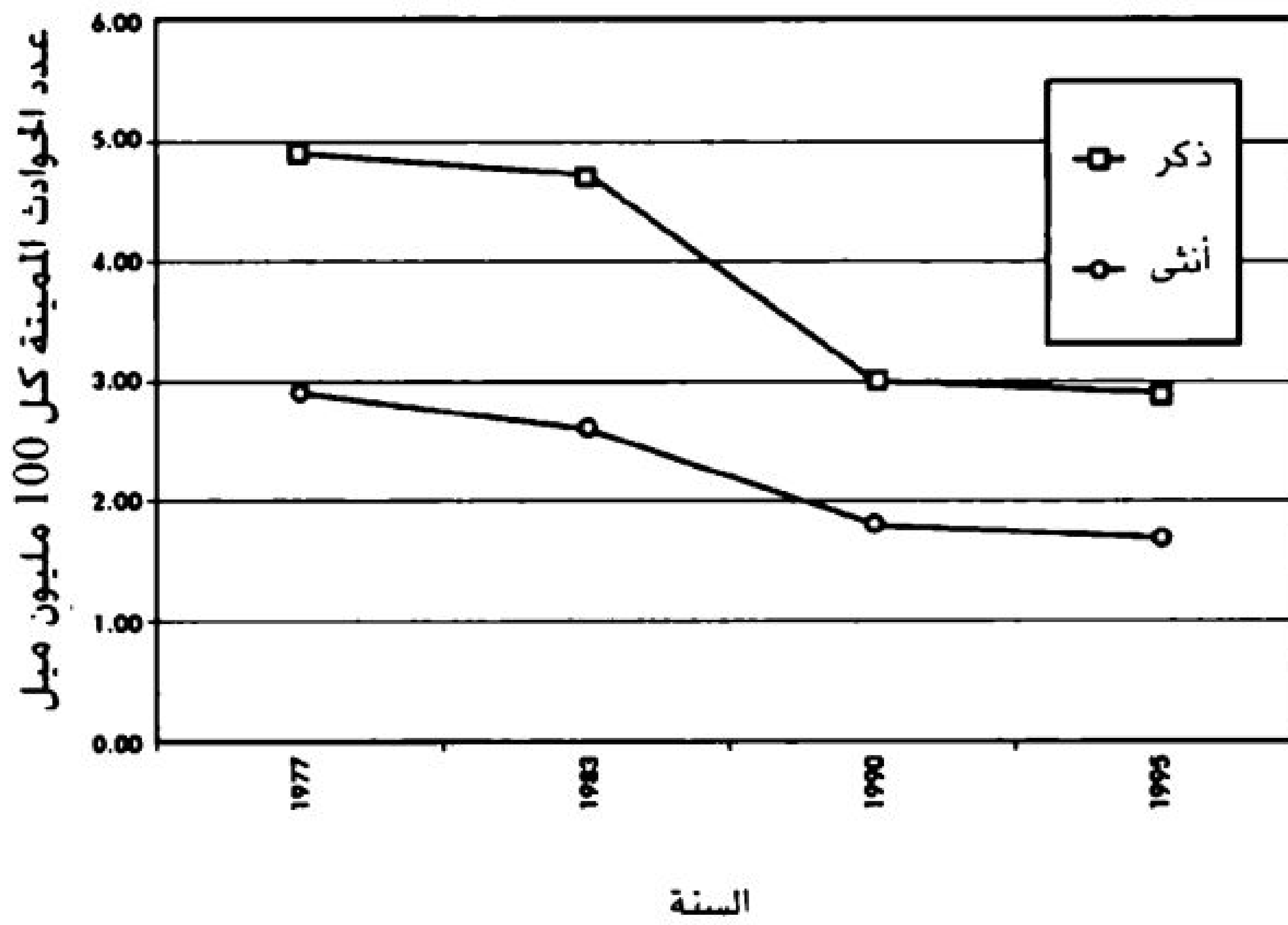
س: لماذا كانت هيلن كيلر سائقة سيئة؟ ج: لأنها كانت امرأة. لكن الباحثين في مركز مصــادر المواضيع الاجتماعية Social Issues Resource Center توسلوا لتغيير تلك النظـرة إذ حللوا في التقرير الذي أصــدروه عام 2002 دراسات متعددة حول التفريق بــين قيادة الرجال والنساء وقدموا نتيجة مذهلــة: «في كل الدراسات والتحاليل ودون أي استثناء يقوم الرجال بصدم السيارات أكثر من النساء».

يســوق الرجــال، بحسب التقريــر، بسرعة أكثر مــن النســاء ولا يحترمون قوانين الســير مثل: السرعة، السُّكْر، إشارة قف، ولهذا فإنهم يصدمون السيارات ضعف ما

تصدمها النساء في أمريكا. يسبب الرجال 71 بالمئة من الوفيات الناجمة عن القيادة وبقي هذا الرقم ثابتاً منذ عام 1975.

ولكن ألا يسوق الرجال أميالاً أكثر من النساء؟ ألا يجب أخذ ذلك بالحسبان؟ هذا صحيح إذ يقطع الذكور 62 بالمئة من الأميال مقابل 38 بالمئة من الأميال التي تقطعها النساء ولكن حتــى بعد حساب الأميال والساعات المقطوعــة يسبب الرجال الحوادث المميتــة بنسبة أعلى بكثير من النساء. انظر الخط البياني والخبر السار أن الحوادث المميتة لكل من الرجال والنساء تتناقص بشكل ثابت.

السائقون في حوادث السير القاتلة في كل 100 مليون ميل 1977 - 95



لماذا يتعرض الرجال للحوادث أكثر؟ لنلم العصر الحجري. فمورثات رجل العصر الحجــري الذي كان يصطاد ويجلــب الطعام للعائلة مازالت تســري في عروقنا اليوم وتجعلنا نقود بجموح فنتسبب بالخراب. أشارت تقارير منظمة الصحة العالمية إلى أن الرجال أشد عدوانية من النساء بشكل عام: عدد أكبر من الرجال يموتون من الوقوع والغــرق والتسمم وحوادث أخرى ممكن تجنبها. تقريــر منظمة الصحة العالمية لعام 2002 لا يترك مجالاً للشك: الذكورة مضرة بالصحة.

خرافة: تشعر الفتيات بضغط كبير عليهن لممارسة الجنس.
حقيقة: يقول الصبيان إن الحالة ليست كذلك.

لقد كبرنا مع هذه الصورة في مخيلتنا: الصبيان هم المعتدون والفتيات هم الفريسة المكرهة. وإذا كان هذا صحيحاً لمدة طويلة فإنه مختلف اليوم.

اليوم يشعر الصبيان أكثر من الفتيات بأنهم مكرهون على ممارسة الجنس قامت زميلتي ديبورا روبرتس Deborah Roberts بإجراء مقابلات مؤخراً مع طلاب من عدة ثانويات في نيو جرسي، وأثبتت تلك المقابلات نتائج الإحصائية المفاجئة التي قامت بها مؤسسة كايسر Kaiser: 33 بالمئة من الصبيان يشعرون بالضغط لممارسة الجنس مقابل 23 بالمئة من الفتيات.

طالب ثانوية: الفتيان الذين لديهم خبرة في ممارسة الجنس يذهبون إلى الأولاد الأصغر ويقولون لهم: «أنا أمارس الجنس طوال الوقت».
ديبورا ربرتس: أيشعرك هذا بضرورة ممارسة الجنس كي لا تظهر بمظهر الجهل؟
طالب ثانوية: يشعرني ذلك بالقلق أنا في مثل هذا العمر ولم يسبق لي أن جربت ذلك. والكل من حولي فعل ذلك فأشعر أنه يجب علي أن أمارس الجنس.
طالب ثانوية آخر: عندما تكون لك صديقة تشعر بالضغط من جميع ممن حولك كأنهم يقولون لك حسناً أنت الآن معها كم من الوقت يلزمك؟ ماذا تنتظر؟

ليس الفتيان مفترسين جنسيين كما نتصورهم دائماً. عندما يضغطون على الفتيات فإن ذلك يكون نتيجة الضغط الذي يعانونه هم أنفسهم.

خرافة: ممارسة الجنس أثناء الحمل مؤذٍ للطفل.
حقيقة: هذا من صنع خيالك.

القلق والمخاوف حول ممارسة الجنس أثناء الحمل أمور طبيعية وشائعة جداً «ماذا عن الطفل؟» 80 بالمئة من الأزواج الذين استجابوا لإحصاءاتنا قالوا إنهم يفكرون في الطفل أثناء ممارسة الجنس. 40 بالمئة خافوا من إلحاق الضرر بالطفل. والخوف الأكبر كان من الإجهاض. وكان قلق الرجال ضعف قلق النساء.

استرخوا. أجرت إليزابيث فارغاز Elizabeth Vargas من برنامج 20/20 حديثاً مع الدكتور جاك موريتز Jacques Moritz رئيس قسم النسائية في مشفى سانت لوك روزفلت في نيويورك.

د. جاك مورتيز: ليس هناك دليل على أن الجنس يسبب الإجهاض وهذا أمر مؤكد.

إليزابيث فارغاز: لكن النساء الحوامل تُنصح غالباً بتجنب الجهد العضلي. وألّا تتجاوز دقات القلب 140. تتوقف بعض النساء عن الركض أو عن ركوب الطائرة. لهذا نظن أن الجنس سيؤثر سلبياً على الجنين أو الطفل.

د. جاك مورتيز: ركوب الطائرة مسموح به كذلك الركض لكن باعتدال. كل هذه الأفعال يسمح بها وخصوصاً الجنس. لذلك استمتعوا به. في كثير من الحالات ترتفع هرمونات المرأة أثناء الحمل فتثبط رغبتها الجنسية إلا أنه للأسف في كثير من الحالات وفي نفس الوقت تنخفض رغبة الرجل.

للأسف أن رغبة الرجال تثبط في الوقت الذي تثار رغبة نسائهم. ينصح الخبراء بألا تقلقوا بشأن الطفل بل تشجعوا على ممارسة الجنس.

خرافة: أثناء الجماع لا يهم المرأة حجم القضيب.

حقيقة: بل يهم.

في الستينيات شعر معظم الذكور القلقين في أمريكا بالاطمئنان عند إطلاعهم على نتائج الأبحاث التي قام بها ماسترز وجونسون Masters, Johnson عن الجنس. أبرزت تلك النتائج أن حجم قضيب الرجل قليل الأهمية في إمتاع زوجته أثناء الجماع

وذلك بسبب الجدران المطاطية للمهبل التي تتكيف على نحو حجم القضيب ولقد قمنا مؤخراً باستفتاء وعلى موقع شبكة ABC News.com وأجاب 56 بالمئة من المشتركين من الرجال والنساء أن حجم القضيب لا يهم.

لكن ذلك غير صحيح بالنسبة للعديد من النساء كما قال نخبة الخبراء في مجال علوم الجنس. «طُمئن الرجال بأن الحجم ليس مهماً وقيل للنساء إنهن يشعرن فقط بأول إنشين من المهبل» هذا ما قاله لنا الدكتور جوي ديفيدسون Joy Davidson وهو طبيب نفسي ومعالج لمشكلات الجنس. «لقد باعونا كل هذه الأنباء الجيدة حول الجنس لكن الوقت آن لإظهار الحقيقة. السبب في أن الحجم يهم هو سبب بسيط فالنساء تملك نهايات عصبية في أعماق المهبل».

تقول عالمة التطور والأنتربولوجيا هيلن فيشر Helen Fisher أن عرض القضيب يهم أكثر من طوله «إن سماكة القضيب هي التي تؤثر في العضلات المحيطة بالقناة المهبلية وتضغط على الأعضاء التناسلية للمرأة مما يزيد من شعورها بالمتعة».

طول القامة أيضاً أمر مهم بالنسبة للنساء. ذات مرة وضعنا في برنامج 20/20 رجالاً طوالاً وقصاراً في صفوف ودعونا مجموعات من النساء لتختار منهم رفيقاً. فاختارت النساء دائماً الرجال الأطول قامة.

ولقد انكمشت خوفاً عندما سمعت تعليقات النساء. كنا قد قلنا لهن إن أحد الرجال وطوله 5.3 قدم كان طبيباً وكاتباً مرموقاً وبطلاً في التزلج على الثلج قد صنع منزلاً على هضبة التزلج بنفسه إلا أن النساء قالت «إنه شديد القصر».

كان هناك رجل آخر طوله فقط خمس أقدام وكان وسيماً وأنيق المظهر. ولكن لم تهتم النساء به. قلنا لهن: إنه ميلونير. لكنه لم يعجبهن. سألت النساء ما الذي يجب فعله ليحظى هذا الرجل بإعجابهن فينتقينه «لعل الشيء الوحيد الذي تستطيع أن تقوله هو أن الرجال الآخرين كلهم قتله». كان هذا هو الجواب.

الحجم بكل أنواعه يهم.

خرافة: يخون الرجال أكثر من النساء.

حقيقة: ستدهش عندما تعرف.

بقيت فكرة أن الرجال حيوانات فاسقة شائعة على مدى قرون وهناك منطق في تطور هذه الفكرة. تشير عالمة الأنتروبولوجيا هيلين فيشر أنه لملايين السنين علمت المرأة أن فرصة بقاء أطفالها أحياء تتعلق بقدرتها على إيجاد رجل يعيش معها. إذ إنه سيحميها ويحميهم. المرأة التي تحظى برجل كهذا تمرر على الأرجح، مورثاتها للأجيال القادمة. وخلافاً لذلك فإن الرجل سيمرر مورثاته للأجيال القادمة إذا ما مارس الجنس مع العديد من النساء وأنجب العديد من الأولاد. وحتى اليوم يقال لنا إن النساء تسعى إلى الاستقرار العاطفي والرجال يسعون إلى الجنس ـ أليس كذلك؟

أحياناً بينت أوسع الدراسات حول الخيانة الزوجية أنه نحو 80 بالمئة من النساء تبقى مخلصات لأزواجهن أثناء الزواج مقارنة مع نسبة 65 - 85 بالمئة من الرجال. هذه النسب متقاربة نوعاً ما. أي إن الخيانة ليست فقط من سمات الرجال.

وبالطبع فإن الخيانة سرية. إلا أن قسماً صغيراً من الناس تقبلوا بانفتاح تعدد الشركاء أو تعدد الزوجات.

خرافة: تعدد الزوجات أمر قاس على النساء.

حقيقة: النساء لا تشتكي منه.

إن العمل في برنامج 20/20 ممتع جداً إذ إنه يتيح لي فرصة الذهاب إلى أماكن لا أعرفها ونتيجة لذلك أتعلم باستمرار أن معلوماتي السابقة خاطئة.

مرة ذهبت إلى بحيرة باول Lake Powell في يوتا حيث التقيت بألكس جوزف وكان يبلغ من العمر واحداً وستين سنة. قال إنه ينعم برغد العيش والسبب في ذلك أن لديه ثماني زوجات كان جوزيف مورمونياً يؤمن بتعدد الزوجات. التزم بتعاليم

أول نبـي مورموني جوزيف سميـث الذي كان يؤمن بأن (العهـد القديم) سمح بتعدد الزوجات. وكان لدى سميث نفسه سبع وعشرون زوجة.

كان لـدى آلكس جوزف عشرون ولداً وعلى الأقل سبعة وعشرون حفيداً. «إذا كنت لا تحب الأطفال فليس هناك مبرر لكي تفعلها».

قال لي: «إذا كنت لا تحب صحبة النساء فليس هناك سبب كي تفعلها».

أنا أحب الأطفال وصحبة النساء ولكن لا يمكنني أن أتخيل نفسي مع ثماني نساء. إلى جانب ذلك ماذا تستفيد من النساء من ذلك؟

لقـد توقعت أن تكـون النساء حزينة وصامتة وقد أكرهن علـى الزواج من قبل أب سليط أو أزواج أو كهنة واعتقدت أيضاً أن النساء سيغرن على أزواجهن من الزوجات الأخريـات. ولكن بدلاً مـن ذلك وجدت النسـاء مرحات وتتكلمن بخفـة وسعادة عن محبتهـن «للزوجات الأخـوات» وعـن سعادتهن بالتشـارك في العمل المنـزلي وتربية الأطفـال لكل زوجة ـ أخـت غرفتها الخاصة أو منزل أو بيـت متنقل ويزورهن الزوج بالدور ـ فيمضي ليلة مع واحدة ثم ليلة مع أخرى.

لقـد أصابنـي الدوار مـن ذلك. لم تـر النساء أنهـن يتقاسمن الـزوج، كان تعدد الزوجـات بالنسبة إليهن يعني الانضمام إلى عائلة أكـبر تساندهم وتدعمهم. وذلك يعني المزيد من الشعور بالأمان العاطفي. بدا أن بعض الزوجات تحب الزوجات الأخت أكثر من زوجها.

ولكن ماذا عن القانون؟ أليس تعدد الزوجات أمراً غير شرعي في أمريكا. بلى.

لقـد توقفت الكنيسـة المورمونية عن ترويج تعدد الزوجات منـذ مئات السنين رداً على الرأي العام وعلى قرار المحكمة العليا ضد ذلك. مع ذلك يمارس تعدد الزوجات بحرية في مناطق من يوتا وشمال آريزونا.

يجادل حوزف وزوجاته بأنه لطالما لم تشعر أي زوجة بأنها كانت ضحية لـ «جريمة» فـإن شأن عائلتهم ليس من شؤون الحكومة. وقالت إحدى زوجاته وهي بوديكا جوزف «بأي حق تتصرف الحكومة فتفرض علينا الأخلاق العالية؟».

لم يبذلـوا الجهد في إقناعـي. ما تعلمته من خبرتي في التقاريـر الصحفية هو أن القوانين التي تعاقب الراشدين بسبب «جرائم من دون ضحية» مثل القمار والمخدرات، والدعارة إلخ، تؤذي أكثر مما تفيد. المنع يجعل الوضع أسوأ من ذلك يخلق سوقاً سوداء يستفحـل فيها الشر بسرعـة أكبر. يتجمع المتاجرون بالمخـدرات على شكل عصابات لحمايـة أنفسهم وتأخذ الشرطة الرشوة منهم. إلقاء القبض على بائعات الهوى يدفع بالدعارة إلى الاختباء والاختفاء عن الأعين فتستشري الأمراض ويشتد العنف.

وفي الواقـع كان السبـب في أن الحكومة لم تلق القبض على جوزف هو القصة التي حدثت عند آخر محاولة للقضاء على تعدد الزوجات.

في عـام 1953 أرسلـت ولاية أريزونا عربات محملة بالشرطـة إلى مناطق جماعة تعدد الزوجات في شورت كريك Short Creek. ظنوا أنهم بذلك «سينقذون الأطفال» سمـوا تعـدد الزوجات سرطانـاً مستشرياً وألقـوا القبض على كل الرجـال والنساء. وضعـت السلطـة 263 من أطفـال المورمون في بيـوت حكومية أو منـازل الرعاية. في البدايـة انحازت وسائـل الإعلام إلى جانـب السلطات ونشرت التقاريـر أن الشرطة «أنقـذت» الأطفال من بدعة خطـيرة. إلا أن حماسة المراسلين الصحفيين بردت وهم يشاهدون الأطفال يبكون عندما ينتزعون بالإكراه من أمهاتهم التعيسات.

بعـد هذه الهجمة، ذوى الأطفال في البيوت الحكومية ومنازل الرعاية لمدة سنتين: وبـدأ الـرأي العام يتغير. رأت الصحافة أن الحكومة أسـاءت إلى الأطفال عوضاً عن مساعدتهـم. وبعد ذلك أعـادت السلطات الأطفال إلى أهاليهـم. اليوم تدعى شورت كريك مدينة كولورادو وهي مركز لعديد من العائلات التي يسود فيها تعدد الزوجات. الشرطة تتركهم وشأنهم.

وحتـى المدعـي العـام في بحيرة باول وجـدت أن الحكومة لا شأن لهـا في تعيين أن الـزواج يجب أن يتم بـين شخصين فقط. قالت لي: إنها لن ترسـل آلكس جوزف إلى السجـن حتى لو أمرتها الحكومة بذلك. «لن أدين الجرائم دون ضحية» قالت لي «بل سأكتفي بالقول لهم يالللأسف!».

رأي المدعــي العــام أن هذا قــد يكون غير حيــادي لكونها إحــدى زوجات جوزف. سألتها أي زوجة كانت؟

إيلزابيــث جوزيف: دعني أفكر، ما أنا؟ [بدأت تعــد على أصابعها] لقد كانت لديه خمس زوجات عندما تزوجته ومنهن أعز صديقتين لي...

مات آليكس جوزيف عام 1998 وحتى ذلك الوقت كان قد تزوج بمندوبة عقارات، منظمــة حدائــق، مندوبــة عقــود، قابلــة، مخرجــة في الإذاعــة، مدعي عــام (وهي إليزابيــث)، واثنتين من مصممات المنازل، تعيشــ غالبيتهن في نفس المنطقة وتدعين أنفسهن الزوجات الأخوات.

يوضــح المسؤولون في يوتــا وكنيسة ليتردي Latter-day أن تعــدد الزوجات مازال غير شرعي لكنهم يتركون الجماعات التي مازالت تمارسه بسلام.

الفصل الثالث

انتقاد المؤسسات التجارية

أحـد الأسبـاب التـي جعلتني مراسـلاً صحفياً عن شـؤون المستهلكين هـو ظني بأن المؤسسات التجارية مليئة بالغش والخداع. والكثير من زملائي يظنون ذلك أيضاً. وكذلك أعضاء الهيئة التشريعية والمحامون. إن احتقار المؤسسات التجارية أمر غريزي.

حتى الأغنياء يكرهون المؤسسات التجارية. عندما قاومت مؤسسة صناعة الفولاذ جهـود الرئيس كنـدي لفرض الأسعار عام 1962، صرخ الرئيس ـ وهو ابن أحد أغنى الرجـال في أمريكا ـ «أخبرني أبي على الـدوام أن كل المؤسسات التجارية أولاد حرام لكنني لم أصدقه حتى هذا اليوم».

خرافة: المؤسسات التجارية تنهبنا.

حقيقة: معظمها لا يفعل ذلك.

حسناً بعضها ينهبنا.

اشتهرت مؤسسات Enron وWorld com وTyco بذلك.

لقد فـزت بجائزة الـ Emmy لأنني كشفت الغشاشـين مثل منتجي الحليب الذين تآمـروا كي يحافظوا على أسعار عاليـة وشركة التبغ RJ Reynolds التي كانت تعطي سجائر كاميل Camel إلى الأولاد، ومدارس الهوايات التي كانت تعد الطلاب بوظائف لا وجود لها.

لكنني اكتشفت لاحقاً أن الغش بسيط نسبياً وأن معظم الشركات التجارية لا تغش وأن الغشاشين لا يفلتون من العقاب على المدى البعيد.

خرافة: يجب على الحكومة أن تضع قوانين لحمايتنا من الشركات التجارية.

حقيقة: المنافسة هي التي ستحمينا إذا لم تعترض طريقها الحكومة.

لقد استغرقت وقتاً طويلاً لأتعلم أن القوانين الحكومية لا تحمي المستهلكين أكثر مما تحميهم المنافسة المفتوحة، لا بل تسيء إليهم. ولم أكن أعلم ذلك إذ كنت أعمل في البرامج الإخبارية التي جعلت من موضوع «اضطهاد المستهلكين» ديانتها ومن الحكومة المسيح المخلّص. ولكن بعد أن شاهدت كيف تسببت القوانين الحكومية بتفاقم المشكلات على مدى خمس عشرة سنة فهمت أننا لا نحتاج إلى كتائب من الموظفين الحكومين والمحامين المتطفلين لضبط الشركات التجارية. فالمنافسة الحرة في السوق هي الضابط الحقيقي. إذ يشتكي الزبائن غير الراضين لزملائهم وعائلاتهم وينتشر الخبر ويبث المراسلون الصحفيون مثلي الأنباء عن البضائع السيئة والخدمات الرديئة فتخسر الشركات ذات السمعة السيئة زبائنها. في المجتمعات الحرة لا يزدهر الغش.

عندما درست الاقتصاد اكتشفت كم كنت أحمق. تستخدم الحكومة القوة لتحقيق مآربها. إذا اخترت ألا تطيع ما تأمرك به الحكومة فإن الأسلحة ستوجه إلى رأسك وستزج بالسجن. وعلى العكس من ذلك لا تستخدم الشركات التجارية القوة مهما كانت كبيرة وشهيرة. فكل التبادلات التجارية طوعية، لا تتم التجارة إلا برضى الطرفين. عام 1776 أدرك الاقتصادي اللامع آدم سميث أن رجل الأعمال المستقل يستطيع أن يجعل مجموعة من الغرباء يتعاونون على إنتاج الكثير من الخيرات. «إنه يسعى إلى ربحه الشخصي وحسب لكنه بذلك، مثل حالات أخرى، يساق بيد خفية ليعطي نتيجة لم يكن يقصدها».

قلة منا تقدّر أهمية تلك اليد الخفية وقوتها. أنا لا أعير قلم الرصاص الذي أكتب به أي اهتمام إلا أنني إذا أردت إنتاج قلم رصاص فقد أمضي سنوات عديدة ولن أحظى بما يماثل أسوأ قلم رصاص متوافر لنا الآن. لقد فتح مداركي حول هذا الموضوع مقال

لليونارد ريد Leonard Red من مؤسسة التعليم الاقتصادي وكان المقال بعنوان «أنا، قلم الرصاص» وهذا ملخص عنه:

أنا قلم رصاص مع أنني أبدو بسيطاً، أستحق إعجابك وتأملك... لا يوجد شخص واحد على وجه الأرض يعرف كيف يصنعني.

تبدأ شجرة عائلتي في الواقع بشجرة، شجرة أرز تنمو بشمال كاليفورنيا تأمل في كل المناشير والشاحنات والحبال والأجهزة العديدة الأخرى التي تستخدم لنقل أخشاب شجرة الأرز إلى خطوط السكك الحديدية. فكر في كل الأشخاص والمهارات اللانهائية اللازمة لهذ التصنيع: التعدين وصنع الفولاذ وتحويله إلى مناشير وفؤوس ومحركات، زراعة القنب وصنع الحبال الثقيلة والقوية منه، معسكرات التحطيب بأسرتها ورواقاتها التي تعمها الفوضى، وكل فنجان قهوة يشربه الحطاب تسهم في صنعه بضعة آلاف في أيادي أشخاص!

يشحن الحطب إلى المصنع. هل يمكنك أن تتخيل أعداد الأفراد الذين يصنعون السيارات والسكك الحديدية والمحركات؟ كل هذا الحشد الغفير هم أجدادي.

يصنع لبي من الغرانيت المستخرج من مناجم سيلان Ceylon فكر في عمال المناجم والأشخاص الذين يصنعون أدواتهم والأشخاص الذين يصنعون أكياس الورق الذي يشحن فيها الغرانيت والأشخاص الذين يصنعون الخيوط التي تربط الأكياس وأولئك الذين يحملون الأكياس إلى السفينة وأولئك الذين يصنعون السفينة.

ساهمت أيادي الملايين من الأشخاص في صنعي لا يعرف بعضهم بعضاً.

لا أحد من العاملين في حقول النفط أو الكيميائيين أو المنقبين عن الغرانيت أو الصلصال أو من يصنعون السفن أو القطارات أو الشاحنات ولا حتى رئيس الشركة لا أحد يقوم بعمله الإفرادي لأنه يريدني. وبالطبع ثمة أشخاص في هذا الحشد لم يروا طوال حياتهم قلم رصاص ولا يعرفون كيف يستخدم.

هناك حقيقة أشد إدهاشاً: لا يوجد عقل مدبر يدير كل هذه الأعمال التي تتسبب في خلقي. لا أثر لوجود مثل ذلك الشخص، بل توجد عوضاً عنه يد خفية تعمل.

أنـا قلم رصاص مجموعة معقدة من المعجـزات: شجرة، توتياء، حديد، غرافيت. يضاف إلى تلك المعجزات الطبيعية معجزات خارقة أخرى: ترتيب من طاقات إنسانية مبدعة ـ ملايين الترتيبات الصغيرة الخبيرة اجتمعت عفوياً وطبيعياً.

يعتقـد الناس أنه يجب أن يوجد شخص «مسؤول» لحصول تلك المعجزات ولكن لا يوجـد شخص مسؤول. وإنما يحدث ذلك بسبب ما دعاه الفيلسوف فريديريك هايك Frederick Hayek «التنظيم العفوي» Spontareous order.

دون أي سلطـة مركزية أو عقل مدبر تدير اليـد الخفية الأسواق بهدوء. تجلب لنا المنافسة أشياءً جيدة وتتحسن باستمرار ـ سيارات أفضل، هواتف، أحذية، أدوية، إلا أننـا لا نقدّر ذلـك بل نطلب المزيد. ونشتكي أن الـ 30.000 سلعة المتوافرة في السوبر ماركت لا تشمل النكهة التي نريد.

كان مـن الشائـع في البرامج الإخبارية التي عملت فيهـا أن نسخر من العاملين في الشـركات التجارية «إنهم أنانيون، جشعون، عديمو الـذوق. ونحن الفنانون المفكرون الغيريـون. نحن نطالب الحكومة أن تراقب الشركات التجارية لتمنع هؤلاء الجشعين من نهبنا وإيذاء الفقراء وإفساد الأرض...» من الأرجح تصور هوليود غالباً الشخص المتوحش بدور رجل أعمال وليس بدور إرهابي. تؤمن وسائل الإعلام بقناعة تامة أن: الشركات التجارية سيئة.

لنكن عادلين فنقول إن الكره الموجّه للشركات التجارية وُجد قبل أن تعظمه وسائل الإعـلام. هناك شيء غريزي يجعلنـا نكره الأشخاص الذين يقومـون بالمقايضة من أجـل الربح. يكـره الموظفون مديريهم ويحبـون الحكومة مع أنها تأخـذ 40 بالمئة من نقودهم وتبعثرها.

إنهـا فكـرة قديمـة بقدر مـا هي غـير معقولـة. في زمـن الإقطاعية كـره الناس البرجوازيـين وقال عالم الاقتصاد توماس سويـل Thomas Sowell إن ذلك لم يكن فقـط بسبب حسدهم لغنى البرجوازيين. إذ إن النـاس يقدسون الملكية والملوك مهما اشتـد ثراؤهـم لكنهم يكرهون تجار الطبقـة الوسطى الذي يبيعونهـم ما يحتاجونه.

ويرى سويل أن الغضب على ربح البائع سبب الكراهية العرقية والعنصرية التي أدت إلى مذابح جماعية. هناك في كل مكان كره «للأقلية التجار السماسرة»: الصينيون في جنوب شرق آسيا، اللبنانيون في الشرق الأوسط، اليهود في أوروبا الشرقية، الهنود الباكستان في أفريقية، الكوريون في مجتمعات السود في أمريكا. تحسّن هذا الأقليات حياة المستهلكين من عدة نواح إلا أن المستهلكين يكرهونهم.

يكره بعض الأشخاص التجارة والربح ويريدون تحسينها بجعلها «ألطف».

إحدى الطرق لفعل ذلك هو أن يصرّوا على أن تضمن لهم السلطات أسعاراً «عادلة».

خرافة: ضبط الأسعار يحمي المستهلكين.
حقيقة: يسبب ضبط الأسعار ضيقاً وشُحاً في الموارد.

يسلم الناس الذين لا خبرة لديهم بالأمور الاقتصادية أن ضبط الأسعار أمر حسن «لما كان أصحاب الشركات التجارية أشخاصاً جشعين يستغلون جهل المستهلكين ويريدون نهبهم فمن العدل إذاً تحديد الثمن الذي سيأخذه هؤلاء الأنانيون! وسيكون الخاسر الوحيد هو هؤلاء الرأسماليين الذين يجنون ربحاً مفرطاً. سيوفر ضبط الأسعار نقود الجميع! فلم لا يُفرض؟»

لأنه لا ينجح.

لقد جرت عدة محاولات لضبط الأسعار ومراقبتها لكن جميعها لم تنجح والنجاح هنا يعني تحسين حياة المستهلكين. بل إن ضبط الأسعار يسبب شح الموارد ومشكلات أخرى مثل الجوع في البلاد الشيوعية وطوابير السيارات الطويلة في محطات الوقود في أمريكا. لكن هذه الفكرة القديمة لا تموت.

حتى بعد أن علمنا أن الأمهات الروسيات يرسلن أولادهن إلى الحقول لجلب الفئران لأكلها وحتى بعد أن تداعى الاتحاد السوفيتي تحت وطأة التخطيط المركزي

وضبـط الأسعار مازال العديد من قادتنا يصرون على أن خططهم المركزية وطرقهم في ضبط الأسعار ستنجح.

لقد درست برامجهم كلها الكبيرة والصغيرة:

كان السيناتـور السابق واسمه ألفونس داماتـو Alfonse d` Amato منزعجاً من جاركـم (الروبوت الصديق) وهـو ATM* (ATM جهاز المصرف الآلي). إني أضع ATM مع بوب كورن الذي يصنع في الميكروويف في لائحة الاختراعات العظيمة. كيف كان لي أن أعيش دون آلة صرف النقود؟

أتذكـر في الماضي عندما كان سحـب النقود يعني الوقوف في طوابير طويلة وإقناع الصـراف بهويتـي. كان هنـاك دائماً طابور ولا يمكـن سحب النقـود إلا بين التاسعة صباحاً والثالثة بعد الظهر في البنك الشخصي وحسب حيث أودعت النقود. أما اليوم فيمكننـي أن أخرج بثياب الرياضة في الساعـة الثانية صباحاً وأحصل على الصرافة في زاويـةِ الحي. أنا أحب أن أحصل على الصرافة حينما أريد وأنا مستعد لدفع $1.5 لقاء هذه الخدمة.

لـو سُلّـم الأمر لداماتو وأمثالـه من فاعلي الخير لما أمكننـي الحصول على هذه الخدمـة إذ إنـه اعترض بشـدة علـى أجرة الـ ATM الزائـدة وادعى أنه «خاطئة» وغـير أخلاقيـة». في الماضي لم يكن مجرد عضـو في الكونغرس وإنمـا رئيس لجنة Senate banking مخططـة لإلغـاء أجـرة ATM. ووصفهـا بأنهـا «لا تحتمل على الإطلاق وغش كبير».

ظهر داماتو في التلفاز وهو يعترض على أجرة ATM. وادّعى «أنها تكلف المستهلك العادي مئة وخمسين دولار في السنة كما دلت عليه التقارير».

سألته: «مئة وخمسون دولار؟»

فأجاب: نعم فكر في الأمر فكر كم يتكرر دفع ذلك.

لقد أخذ موظفو داماتو هذا الرقم من مقال في صحيفة. أما التكلفة الحقيقية فهي ثلث ذلك. لكن السيناتور كان عازماً على «حل» تلك المشكلة التي لا وجود لها. بذل جهده ليجد من يوافقه الرأي حول تلك الأجرة.

ولقد وجدنا نحن الكثير ممن وافقوه الرأي وقالوا لنا إنهم لا يجدون مبرراً لدفع المال من أجل سحب نقودهم الشخصية. قال أحدهم: «لم تكن هناك أجرة عند إيداع النقود فلم توجد عند سحبها؟»

لماذا؟ لأن أجهزة ATM ليست مجانية. لقد أجرينا مقابلة مع بربارة ستيلمان Stillman وكانت تعمل في تجارة شركات صرف النقود إذ امتلكت جهاز ATM وأشرفت على أربع أجهزة أخرى. كلفتها الآلة التي تملكها خمسة عشر ألف دولار (بعضها يكلف خمسين ألفاً) وكان هذا ما دفعته في البادية إذ كان عليها الاعتناء بالآلات ووضع نقودها الشخصية فيها. (والبنك يعيد إليها المال بعد أربعة أيام) كانت ستيلمان تقود سيارتها للوصول إلى تلك الآلات ولكن كان عليها أيضاً أن تدفع مئات من الدولارات لتسافر في الطائرة إلى جهاز ATM الذي يقصده عدد كبير من الناس وكان في بلوك أيلاند بعد ساحل رود أيلاند. كان السياح يستخدمون جهاز ATM هذا مع أنهم كانوا يكرهون الدفع لستيلمان أجرة الدولارات الأربعة. قال أحد السياح «أربع دولارات أجرة باهظة لسحب النقود ولكننا في إجازة فنفعل ذلك».

كان مبلغ أربع دولارات أكبر أجرة وجدناها ولو كان الأمر في يد سيناتور أماتو لوجد ذلك المبلغ غير قانوني وللقن ستيلمان الجشعة درساً لن تنساه وأزعج زبائنها بسبب إلغاء آلتها تلك. ولكن أليست الرغبة في الربح أمراً طبيعياً؟ لماذا تعرض بربارا ستيلمان نفسها للخطر إذا لم تطمح إلى الربح؟

هذا ما قالته لنا «قد أتعرض للسرقة أثناء تعبئة الجهاز بالنقود أو قد يسرق شخص ما الآلة فهذه إحدى الخطورات، كما أنني أعرض حياتي للخطر وأن أسافر بالطائرة دوماً لم أفعل ذلك إن لم يكن هناك ربح؟».

وفي الواقع تركت ستيلمان العمل بعد بضعة سنوات لأن «المخاطرة لا تعادل أربع دولارات للمستهلك».

تمتلك البنوك معظم أجهزة صرف النقود ولكن حتى البنوك لها كلفتها ونفقاتها. يظـن السياسيون أن البنـوك تستطيع أن تصرف نقود الكاش دون مقابل لكن الأمر ليس كذلك.

نحـن لا نحتاج إلى داماتـو وأمثاله مـن المدافعين عن حقـوق المستهلكين ليحمونا مـن جشع الشركات التجارية. ففي مجتمع حـر المنافسة هي التي تضبط الأسعار إلى حـد معقـول. المنافسة كبيرة في مجال التعامـل بالنقود. لو كان ربـح ستيلمان بأجرة الأربـع دولارات باهظاً لامتدت أذرع المنافسـين وحاولوا سلبها الزبائن بتقديم الكاش لهـم بأجرة أقـل. وفي بنوك أيلاند خفضّـت المنافسة الأجـرة إلى $2.50 هكذا تعمل الرأسماليـة. لو كانت الأجرة التي تطلبها ستيلمان «غير عادلة» لصلحها السوق الحر دون الحاجة إلى تدخل كونغرس الولايات المتحدة الأمريكية.

ولم أخف شعوري من السيناتور عندما أجريت مقابلة معه حول خطته.

ستوسـل: إنها الحرية. يدفع الناس تلـك الأجرة عن طيب خاطر وعدد الآلات في ازدياد مستمر.

ألفونس داماتـو: هذا ليس حرية على الإطـلاق. إذ إن الناس لا يملكون الخيار. ماذا بوسعهم فعله؟

ستوسل: أنت تجعل آلات الـ ATM تبدو خطرة مثل الهيروئين.

ألفونس داماتو: هذا صحيح.

ستوسل: [هيروئين!؟] ألا تبالغ هنا؟

ألفونس داماتـو: لا، لا أعتقـد ذلـك. يجـب علـى أحد مـا أن يتحرك لمساعدة الضعفاء.

أخرجوا الرفش للتنقيب داماتو يؤذي الضعفاء. الدليل أن الضعفاء لم يصوّتوا له. وداعاً ألفونس.

كان اقـتراح داماتو موضوع فقرة «أعطني فرصة» التي قدمتها في برنامج 20/20 وأتمنـى أن أكون قد أسهمـت في إحباط ذلك الاقتراح. لا يحتـاج المستهلكون إلى من يضبط لهم الأسعار.

حرمنا ضبط الأسعار ومراقبتها عدة مرات من خدمات ومنتجات مريحة. هذه الإزعاجات ليست قاتلة لكنها قد تصبح قاتلة إذا نجح الجاهلون في الاقتصاد في فرض ضبط الأسعار على منتجات طالما تاقوا لضبطها: الأدوية الموصوفة.

خرافة: شركات الأدوية شريرة وتنهبنا بأسعارها.

حقيقة: كلما ارتفع سعر الدواء كانت نوعيته أفضل.

يكره الناس شركات الأدوية. وعندما يعلمون أن الليبيتور يكلف ألفاً وأربع مئة دولار في السنة أو أن أدوية السرطان تكلف المرضى أربعة آلاف دولار في الشهر فإنهم يقولون إن شركات الأدوية شريرة وإننا نحتاج إلى ضبط الأسعار».

ويستجيب السياسيون لقولهم هذا فلقد صرخ سناتور أركنسا دايفيد بريور David Pryor في الكونغرس قائلاً: إن شركات الأدوية «هي ملوك اللصوص في مجال الرعاية الصحية الأمريكية».

وفي الطرف الآخر من مبنى الكابيتول وجه عضو الكونغرس بيتر دوفازيو Peter De Fazio وهو من أوريغون توبيخاً إلى زملائه قائلاً: «ستكونون أنتم المسؤولين في الانتخابات القادمة أمام الملايين من الأمريكيين الذين لا يستطيعون تحمل نفقات أدويتهم العلاجية».

أخرجوا الرفش للتنقيب عن الحقيقة. يا لهؤلاء السياسيين المثيرين للاشمئزاز هل فكروا طوال حياتهم كيف لنا أن نحصل على تلك الأدوية الرائعة؟

لا تبتكر الأدوية فجأة. بل إن تطويرها يحتاج إلى جهد الآلاف من الباحثين. ومعظم محاولات الحصول على أدوية جديدة يكون نصيبها الفشل إلا أن النجاحات القليلة تعوض ثمن الفشل. تخيل ما كانت عليه الحياة قبل لقاح Polio شلل الأطفال. كان آلاف الأشخاص يمضون ساعات طوال مع أجهزة الرئة الحديدية وهم يحاولون التنفس.

يشتكي الناس من السعر المرتفع للقاح. لكن علاج شلل الأطفال يكلف أكثر بكثير من الوقاية منه.

يكلف لقاح شلل الأطفال 20 دولاراً وهو يؤمن الوقاية مدى الحياة من ذلك المرض. تلـك الكلفة أقل بكثير مـن كلفة العلاج الـذي يستدعي استخـدام الرئات الحديدية والرعاية الصحية والتوقف عن العمل هذا عدا العذاب النفسي والجسدي.

تجلـب شركات الأدوية لنا باستمرار معجزات طبية جديدة. قال لانس آرمسترونغ بطـل سباق فرنسـا للدرجات إنه حي اليوم بسبب أدويـة المعالجة الكيميائية وقال «لو أصبت بهذا المرض قبل عشرين سنة لما بقيت حياً ستة أشهر».

يكلـف علاج سرطـان الخصية الذي أصيب بـه آرمسترونغ مبلغاً كبـيراً ـ حوالي خمســة عشــر ألــف دولار. إلا أن هذا العلاج لم يبتكـر عشوائياً في مخـبر ما بل كان حصيلـة بحث طويلة ومكلفة قامت به شركة دوائية وكان ذلك البحث مخاطرة كبيرة ونسبــة النجاح كانــت قليلة من بين كل خمسة آلاف مركب كيميائي يكتشفها الباحثون ينجح فقط واحد ويباع للصيادلة.

يعلـم أخي الأكبر والأذكى توم تلك المخاطرة إذ إنه مثال عن فشل شركات الأدوية (أحب أن أدعوه توم الفاشل لأنه كان يحصل في المدرسة على علامات أفضل مني وكان هو المحبب لدى أمي) يوضح عمله المخاطرات التي تتعرض لها شركات الأدوية.

توم هو المدير المساعد في قسم الدمويات في مشفى بريغهام أندومان Brigham and Women في بوسطـن. قـام توم بأبحاث أساسية لمدة ثلاثـين سنة وبعض تلك الأبحاث قادت إلى اكتشافات كان لها نتائج عملية. رخصت شركة بيوجني آيدك Biogen Ideec وهـي شركة تقانة حيوية biotech أحد اكتشافاته بعد أن أقنعها أنه قد يساعد المرضى المصابين Cystic Fibrosis بالتهاب الألياف المتكيس على التنفس بسهولة.

مولـت شركـة بيوجني آيـدك العديد من الاختبـارات التي كلفتهـا عشرين مليون دولار. للأسـف لم ينجح اكتشاف أخي في معالجة Cystic Fiborsis. وخسرت شركة بيوجني آيدك العشرين مليون دولاراً تماماً. يعتقد توم أن دواءه قد يشفي مرضاً آخر، ستجرى إذاً اختبـارات أخرى تكلف الملايين وعلى الأغلب أن اكتشاف توم سيفشل في تلك الاختبارات أيضاً.

وحتى لو نجح الدواء في المرور بكل تلك الاختبارات فإنه سيكلف أيضاً الشركة المنتجة ملايين أخرى لتسويقه. أنبأ مركز دراسة تطوير الأدوية في جامعة تافتس أن الكلفة الوسطية لتطوير دواء جديد هي 802 مليون دولار. وحتى عندما يُرخص الدواء فإنه على الأغلب لن يجر الأرباح. أقل من ثلث الأدوية المطروحة في السوق تجني أرباحاً تعوضها عن نفقات الأبحاث التي أدت إلى ابتكارها.

تكسب شركات الأدوية المكروهة أرباحاً كبيرة لكنني أتمنى لها الربح لأنها تقوم باستثمارات عظيمة وتتكبد خسائر فادحة وتمضي عشر أو خمس عشرة سنة قبل أن تصل إلي الدواء الذي قد ينقذ حياتي أو يزيل ألمي.

ولكن إذا تحدثت مع الأشخاص الذين ينتظرون وصفات أدويتهم في الصيدلية فإنك لا تسمع في حديثهم أي شكر أو تقدير للدولارات التي تستثمرها شركات الأدوية وإنما تسمع شكاوي حول الأسعار قالت لي إحدى السيدات التي تنتظر: «إن الأسعار تثير غضبي، ألا تثير غضبك؟».

قد تتصرف أحياناً شركات الأدوية بطريقة تثير الغضب كأن تنفق الملايين على أشخاص لتسويق منتجاتها فمثلاً يدلل مندوبو المبيعات الأطباء، ويسرفون بتقديم الهدايا لهم، والإجازات الفاخرة، وذلك لحثهم على وصف دواء الشركة. استخدم مقدم البرامج في شبكة ABC برايان روس كاميرا خفية لتصوير مندوبي المبيعات، وهم يقدمون الهدايا من ربطات العنق، وطاقات الورود المصففة، والحجرات الفاخرة في فندق Waldorf-Astoria كما تصرف شركات الأدوية أيضاً الكثير من النقود على الإعلانات المبالغ بها في التلفاز. ويدفعون الكثير من المال إلى مديريهم.

لكن هذه هي الرأسمالية مثلها مثل حرية التعبير بوجهيها الجيد والسيئ. أنا أغض النظر عما هو سيئ لأن الجيد يغلبه في الأهمية.

يغتاظ نقاد شركات الأدوية من إنفاقها أربعة بلايين دولار سنوياً لترويج منتجاتها لدى المستهلكين. لكن الأربعة بلايين هذه زهيدة أمام الخمسين بليون التي تنفقها الشركات لتطوير الأدوية.

لكـن معظم النـاس يريدون معاقبة شركات الأدوية تلـك الكبيرة والشريرة. يريد خمسـة وستون بالمئة من النـاس أن تسيطر الحكومة على أسعـار الأدوية إنها القصة القديمة نفسهـا: يرى الناس أسعاراً غالية فيظنون أنهم يُنهبون وأن الحكومة وحدها يمكن أن تنقذهم.

خرافـة: تسـيء أمريكا إلى الفقـراء والمرضى بسبـب عدم تحديدها أسعار الأدوية.

حقيقة: ضبط الأسعار سيئ على المرضى والفقراء.

صحيـح أن أمريكا هي البلد الصناعي الوحيد الذي **لا** يفرض ضبط الأسعار على الأدويـة. لكـن هذا أمر جيد. لو فرضـت مراقبة الأسعار على الأدويـة في أمريكا لقل اختراع الأدوية الجديدة.

عندمـا بدأ ضبـط أسعار الأدوية في كنـدا في نهاية الستينيـات انخفضت أبحاث الأدويـة إلى نصـف ما كانت عليه. لو قـررت الولايات المتحدة الأمريكيـة ـ وهي التي تصنـع 45 بالمئة من الأدوية في العالم ــ لو قررت فجأة فرض ضبط الأسعار لضاعت فرصة الحصول على أدوية ممتازة.

هل يفكر الناس في ذلك عندما يطالبون الحكومة بخفض الأسعار وضبطها؟ يندر ذلـك. أثناء الحملـة الانتخابية عام 2000 صرخ مارك ميلانو وهو الناشط في الدفاع عن حقـوق مرض الإيدز صـرخ مقاطعاً محاضـرات المرشحين ومعترضـاً على كلفة أدويـة الإيدز. وقال: إن ضبط الأسعار هو الحل الإنساني الوحيد. لذلك قمت بدعوته للتحدث عن ذلك.

مـارك ميلانـو: [يتراقص غضباً ويتخذ هيئة تدل على تفوقه الأخلاقي في موقفه هذا] نحن البلد الوحيد الذي يدفع تلك الأسعار الباهظة.

ستوسل: [صحيح، لكنني سأنصب له شركاً هنا] أي بلد لديه نظام صحي جيد؟

مـارك ميلانـو: [شحب وجهه فجـأة ثم أشرق حين قال]: في رأيـي أن نيوزيلاند لديها نظام جيد.

ستوسل: [الآن سأنال منه] كم من الأدوية الجديدة اخترعتها نيوزيلاند؟

مارك ميلانو: [مدة صمت أخرى، وبدا الآن منزعجاً] صحيح، إن معظم الباحثين متمركزون في أمريكا وأوروبا. اليابان أيضاً تنتج الكثير من الأبحاث الدوائية.

ستوسل: حسناً، كم من الأدوية الجديدة اختُرعت في اليابان؟

مارك ميلانو: [الآن يبدو منزعجاً جداً] يصعب التحديد بدقة منشأ الأدوية الجديدة ـ بعضها يأتي من اليابان وبلاد أخرى. هناك أدوية...

ستوسل: لكن القسم الأكبر يأتي من أمريكا هل تعتقد أن ذلك بمحض الصدفة؟

مارك ميلانو: لا أعتقد أن لذلك علاقة بأنه ليس لدينا ضبط لأسعار الأدوية. على كل حال معظم الأدوية الجديدة تنتجها الحكومة الفيدرالية.

كلام ميلانو هراء. إنه متحمس جداً لقضية أدوية الإيدز ولكن من بين الأدوية الخمس والستين خمسة فقط أنتجتها الحكومة: المعاهد الوطنية للصحة National Institues of health. الكمية العظمى من الأدوية تأتي في الشركات الخاصة الجشعة.

لكن النقاد والسياسيين لا يعترفون بأن شركات الأدوية الخاصة هي التي تسهم في التقدم الطبي وإن إلغاء الحافز المادي سيلقي الأدوية الجديدة.

إذا قرروا حمايتنا بتخفيض أسعار الأدوية فإنهم «سيحموننا» من الحصول على التحديث الذي تحتاج إليه. يجب عزل أفكارهم المريضة قبل أن تُعدي بقية الناس.

خرافة: «الغش» بالأسعار عمل شرير.

حقيقة: «الغش» بالأسعار ينقذ الحياة.

يكرر السياسيون وأمثالهم مواعظهم بالحاجة إلى قوانين ضد الغش بالأسعار والربح. بعد كل إعصار نعلم أن سياسياً ما سيتحدث عن «الغش» الذي سيحدث وستدعم أقواله وسائل الإعلام.

في عام 2005 وبعد أن ضرب إعصار كاترينا ساحل الغولف كان هناك شح في المياه والبطاريات والوقود والأدوات... إلخ. رفع بعض التجار الأسعار فوراً فغضب السياسيون ووسائل الإعلام. وأرادوا معاقبة أولئك «الرابحين».

إذا كنت سياسياً ورغبت في نيل عدد أكبر من النقاط عن طريق التصدي للأشخاص الأشرار والجشعين فإن قوانين ضبط الأسعار هو أمر جيد لمهنتك ولكن إذا كنت من المستهلكين الذي يحميهم القانون افتراضاً فإنك تحبذ تلك القوانين.

يقول ج. بودرو J. Boudreaux عالم الاقتصاد في جامعة جورج ماسون: إن زيادة الأسعار «تقوم بمهمة حيوية لإنقاذ الاقتصاد» تأمل في هذه القصة:

تعود إلى منزلك بعد عاصفة هوجاء وتجد أن الكهرباء مقطوعة ـــ أنت تحتاج بشدة إلى البطاريات فتتجه إلى مخزن مفتوح لشرائها. صاحب المخزن رجل شريف ويؤمن أنه لا يجب استغلال المصائب لجني الربح. إنه لن يتقاضى سنتاً واحداً أكثر مما كان يتقاضاه سابقاً. لكنك للأسف لن تستطيع شراء البطاريات من هذا الرجل الصالح لأن بضاعته نفدت قبل ثلاثة أيام. في أوقات الشدة تخزّن العائلات المذعورة كمية احتياطية من المواد ولا تترك شيئاً لك.

تسعى إلى مخزن آخر لشراء ما تحتاج، وهنا تجد ذلك التاجر الغشاش، إنه يسعّر الآن الرزمة من البطاريات ـ التي تكلف عادة خمسة دولارات ـ بسعر جديد هو ثلاثون دولاراً. فتدفع له كي تحصل على ما تريد، وتمضي الأزمة على خير.

إنك لن تحب الغش لكنه لو لم يسعّر البطاريات بثلاثين دولاراً لنفدت بسرعة من عنده. إن غشه هذا أنقذ يومك.

إنه أمر طبيعي أن يسعى الناس إلى منفعتهم الشخصية. لقد سبقوك إلى المخزن وخزنوا كمية من البطاريات التي كانت تباع بسعر خمسة دولارات تفوق حاجتهم ـ ربما جلبوا منها لأقربائهم وأصدقائهم حتى نفدت من المخازن. يمنع رفع الأسعار الناس من تخزين كميات تفوق حاجتهم. ويؤمن المواد لمن يحتاجونها. لم يكن ذلك قصد البائع ولكن تلك كانت النتيجة. بالإضافة إلى ذلك، يسبب ارتفاع أسعار البطاريات ظهور أنواع أخرى من البطاريات. ينتشر خبر الحاجة إلى البطاريات: «يمكن تحقيق أرباح كبيرة من بيع البطاريات» يتسرع الممولون إلى منطقة الكارثة فيهبط السعر إلى ما كان عليه سابقاً خمسة دولارات أو أقل.

النيــة لا تهم. كمــا كتب آدام سميث «لا نحصل على عشائنــا بفضل حسنة اللحام والخباز، وإنما بفضل حرصهم على منفعتهم الشخصية».

انظر إلى الأمور من وجهة نظر مالك المتجر: إن لم يكن يجني ربحاً طائلاً لم يفتح مخزنــه؟ البقاء في منطقــة الكوارث أمر خطر يتطلب ترك أسرته وحيدة. إن لم يجنِ أكبر في وقت الشدة فلم يتجشم المشاق والمخاطر؟

إن الغش بالأسعار هو سبب الإمداد بالبطاريات، نقل الوقود، بناء الأسقف وإعادة بناء المدن. غش الأسعار ينقذ الحياة.

بعــد إعصار كاترينا مباشرة كتبت في الصحيفــة شارحاً هذه الحقيقة البسيطة. فتضايق الناس:

«أنــت يا سيدي حثالــة. بكل بساطة وصراحة أنت حثالة، كيــف تجرؤ أن تقول: إن الغش بالأسعار ينقذ الحياة».

«... هــذا أغبــى وأقبح ما قــرأت في حياتي، أتمنى أن تخســر وظيفتك بسبب هذا المقال. لا روح لديك بالتأكيد»

تلقيــت بريــداً إلكترونياً تلو الآخر من أشخاص يكرهــون الآلية نفسها التي تحسن حياتهم ألا وهي: الرأسمالية.

بعد إعصار كاترينا كان هناك طلب شديد على النجارين إذ لم يكف عدد النجارين الموجودين في المنطقة.

لو كانت بلدنا ديكتاتورية لأمرت الحكومة مجموعة من النجارين بالذهاب إلى نيو أورليانــز. ولكــن في مجتمع تسوده الحرية يجب إقنــاع أصحاب الحرف بترك بيوتهم وعائلاتهم ورؤساهم في العمل وزبائنهم للقيادة من شيكاغو مثلاً إلى نيو أورليانز لم يتكبدون مشقة الذهاب إن لم يكن هناك مكسب وفير؟

قــد يذهب بعض النجارين من دافع الرغبــة بالظهور بمظهر بطولي إلا أن ذلك لا يمكــن الاعتماد عليه على مر الأسابيع. معظــم النجارين سيسافرون إلى المنطقة من

أجل الغاية التي يسعى إليها معظم الأمريكيين: الحصول على المال. أي حرفي يُجرّ إلى منطقة الكارثة يجب أن يعطى أجراً يفوق ما يجنيه في بلدته وإلا فإنه لن يذهب. أما إعطاؤه ما يتقاضاه الحرفي عادة في نيو أورليانز مع ترغيبه بالفعل البطولي فإن ذلك لن يجعله يحرك ساكناً.

من الناحية الأخرى إذا تقاضى العامل أجراً مناسباً للذهاب فإن تهمة النصب والغش ستلصق به للأسف، وسيدعوه ذلك الناس الذي يحاول إنقاذهم. إنهم لا يفهمون أساسيات علم الاقتصاد. إذا تم ضبط الأسعار ومنعت زيادتها فإن الحرفيين لن يغادروا بلداتهم وسيستغرق إعادة بناء نيو أورليانز سنوات أطول.

عندما ضرب إعصار أندرو فلوريدا في عام 1992 غضب محامي الولاية بوب باتروث Bob Butter Worth من الغش «عديم الضمير».

قال: «لا أرى فرقاً بين السارقين الذين ينهبون ما يجدونه في الدمار وبين التجار الذين يستغلون هذه الكارثة لجني الأرباح عن طريق غش الزبائن بالأسعار».

شرعت ولاية فلوريدا قوانين تعاقب الغش بالأسعار مع غرامة تبلغ مقدار خمس وعشرين ألف دولار وعدت عمل المتعهدين من خارج الولاية دون رخصة جنحة جنائية من الدرجة الثالثة. وقضت قوانين فلوريدا بزيادة العقوبات على المتعهدين الذين يعملون وقت الكارثة هذا الوقت هو بالطبع الوقت الحرج الذي يحتاجه الضحايا بشدة.

في عام 2004 ضربت أعاصير تشارلي وفرانسيس وإيفان وجين فلوريدا. تطلّب الدمار جلب العديد من الحرفيين للقيام بالتصليحات ولكن بسبب قوانين «حماية» المستهلكين كانت إعادة بناء فلوريدا عملية طويلة وصعبة.

لُقبت فلوريدا بـ «الولاية ذات السقف الأزرق» بسبب الأغلفة الزرقاء التي غطت الأسقف حتى أن بعض الضحايا اضطروا إلى الانتظار مدة قاربت خمس أسابيع للحصول على استشارة لبناء السقف.

لو أن فلوريدا تخلّصت من قوانينها السخيفة لكانت عملية إعادة البناء أسرع. دعوا السوق يعمل فتصبح الخدمات متوافرة للجميع.

يقول بعض المراقبين: إن ذلك ليس عدلاً بالنسبة إلى الفقراء «الفقراء لا يستطيعون تحمل نفقات ارتفاع الأسعار التي تسببها السوق الحرة!».

لكن مشاعر الأبوة هذه نحو الفقراء لا تنفعهم. يحتاج الفقراء أيضاً إلى البطاريات وبطاريات بسعر 30 دولار أفضل من عدم وجود بطاريات. قد يحتاج الفقير إلى الإنفاق من مدخراته وإلى مشاركة الجيران في (الأبيال) والمذياع. وجود بعض الإمدادات أفضل من عدم وجودها.

لو أتيح للسوق الحرة العمل لصنعت العجائب ودفعت الرغبة في النفع العديد من المولين إلى الذهاب إلى منطقة الكارثة فتعود الأسعار بسرعة إلى ما كانت عليه قبل الكارثة. أو حتى أقل عما كانت عليه. إذ يخترع الممولون طرقاً جديدةً أرخص للخدمات.

الكل ينتفع ـ الأغنياء والفقراء على حد سواء ـــ عندما لا يتدخل السياسيون ويحاولون «حمايتنا» بضبط الأسعار.

خرافة: زيادة الراتب الأدنى الحكومي تساعد العمال.

حقيقة: زيادة الراتب الأدنى الحكومي تساعد بعض العمال وتؤذي معظمهم.

ضبط الرواتب مثل ضبط الأسعار، أمر غبي ويحد الإنتاج.

قبل بضعة سنوات قرر مجلس بلدة سانتا مونيكا في كاليفورنيا جعل المدينة جنة للعمال. إذ شرّعت قانوناً دعمه اتحاد العمال ينص على إعطاء العمال راتباً ضعف الراتب الأدنى الحكومي. أي نحو 12.25 دولاراً في الساعة. قال لي أحد المسؤولين ويدعى ساندي ريتشارد: «لقد اتخذنا قراراً يرفض أن يعطى الناس راتباً زهيداً لا يستطيعون العيش منه».

يبدو الأمر عظيماً حقاً لكن التجربة تثبت خطأ ذلك. قالت لنا صاحبة مطعم باتي بيتزا Pattys Pizza وتدعى باتي فيليبس: «لا أستطيع أن أفهم جنون مجلس بلدتنا،

إنهـم لا يفهمـون الأمر أبداً. أريد أن أعلم هل عمل أحدهـم في وظيفة، أو اضطر إلى صرف الرواتب في حياته؟»

كانـت باتي غاضبة من قانـون «الراتب المعيشي»، مع أنه لم يكن يسري على عملها لأنهـا كانت تربـح أقل من خمسة ملايـين دولار في السنة. لكن باتـي أرادت أن توسع عملها، وإذا فعلت سيترتب عليها الالتزام بذلك القانون، وستضطر إلى رفع أسعارها كثيراً، مما قد يؤدي بها إلى الإفلاس.

لقـد تحدثت إلى جيف كينغ الذي يملك مطعمين في سانتا مونيكا وقال لي: إن رفع الحد الأدنى للراتب سيؤدي إلى تسريح بعض العمال، وتصعيب توظيف نفس الأشخاص الذين يحاول هذا القانون دعمهم».

هـذه هي الحقيقـة التي يصعب علـى سياسيي سانتـا مونيكا الجهلـة بالاقتصاد فهمهـا: مثلما يثبط ضبط الأسعـار وتحديدها الإنتاج يثبط ضبط الرواتب التوظيف: العمـال الفقراء هم الذين يتأذون بشدة مـن جراء ذلك. عندما تضبط الرواتب فوق المعـدل الذي يتحملـه السوق ذلك المعدل الذي يتحدد حسـب العرض والطلب، تعطى مؤقتاً زيادة للعمال المحنكين وتتثبط الرغبة في توظيف العمال الجدد.

كان جيـف كينغ عاملاً بسيطـاً بدأ وظيفته منظفاً للصحـون كذلك كانت رئيسته في العمـل كارولز مارتينيز عندما بدأت وظيفتهـا إذ كانت تتقاضى أربعة دولارات في الساعـة. شـق جيف طريقـه إلى المناصب العليـا إذ ترقى إلى طباخ ثـم مشرف على الطباخـين ثم رئيس الطهاة. والآن يبلغ أجره سبعـة وعشرين دولاراً في الساعة. كان ذلك النظام جيداً وناجحاً إلا أن قرار فعلة الخير «تصليحه». لعلهم قصدوا خيراً إلا أنهـم جهلة في الاقتصاد. وبدا ذلك واضحاً عندما أجريت مقابلة مع بعض المدافعين عن قانون الراتب الأدنى الجديد:

مادلين جانيس أباريكو: الراتب المعيشي لن يسبب تسريح العمال.

ستوسل: يالك من ذكية. أتستطيعين الإشراف على كل المراكز التجارية والتحكم بها ياللغرور أتعرفين أنت أكثر من قانون العرض والطلب.

دينيس زان: هــذه ملاحظــة وقحة، في الواقــع نحن نناقش مسألــة بسيطة تتعلق بالعدالة. هناك عمال يعملون برواتب دنيا زهيدة هي رواتب الفقر.

فيفيــان روثشتايــن Rothstrin: إنــه أمــر قانــوني تماماً أن نحــدد معدلات الرواتــب ومعــدلات للرعاية الصحية ومعدلات للنمــو والازدهار هذا واجب الحكومة المحلية.

مادلــين جانيس أباريكـو: يجب على صناع القرارات السياسية اتخاذ قرارات مثل هذا.

ستوسل: صناع القرارات السياسية؟

مادلين جانيس أباريكو: نعم يجب عليهم تحديد خطوط واضحة.

ستوسل: [ما أدراهم ما هو الخط «الصحيح»؟] إذا كانت ثلاثة عشر دولاراً جيدة لماذا لم تختاروا خمسة عشر أو عشرين دولاراً؟ [أو خمسين؟].

سانـدي ريتشـاردز: لم نشأ أن نبالغ إلى هذا الحد ـــ نريد أن نتصرف بعقلانية. أصحــاب الأعمال التجارية المزدهرة هــذه يستطيعون توفير رواتب أفضل دون أن يتكبدوا الصعاب.

ما هذا الغرور؟ كيــف يستطيع هؤلاء الساسة تخمين ما يستطيع أصحاب الأعمال التجارية تحمله وهم لم يسبق لهم أن عملوا في التجارة؟

مــا يحدث في الحياة الواقعية أن أصحاب الأعمال يتوقفون على توظيف من ليست لديهم المهارات الكافية.

الرواتــب والأجور ليســت فقط نقوداً إنها علامات ترشــد الناس إلى اختيار مكان عملهم وترشد أصحاب الأعمال إلى إمكانية التوسع. إذا كان الأجر سبعة دولارات في الساعــة في مطعم ما وتسعة في مطعم على الطرف الآخر فإن كارولز مارتيز تستطيع أن تنتقــل إلى المطعم المقابل وتشعر أنها ترقت في عملها. يستطيع جيف كينغ أن يفتح مطعماً آخر في بلدة الأجور فيها منخفضة. هذه الحرية تسبب ازدهار البلاد ونموها. إنها السبب في تقدم أمريكا.

يقوم راسل روبرت أستاذ علم الاقتصاد في جامعة جورج ماسون بإلقاء المحاضرات لتثقيف الناس يسألهم فيها ماهي نسبة العمال الذين يتقاضون الراتب الأدنى الحكومي. فيجيب المستمعون وهم موظفون وأساتذة حقوق وصحفيون بأن النسبة هي 20 بالمئة. لكن الجواب الصحيح هو 3 بالمئة. يقول: «إن الحقيقة هذه تصدم الناس وتعيدهم إلى الواقع. يجب أن يعلم الناس أن المنافسة هي التي ترفع الأجر لا التشريعات».

تسهل رؤية النتائج الحسنة لزيادة الحد الأدنى للراتب. سيكسب بعض الأشخاص نقوداً أكثر ويشكرون السياسيين.

تصعب رؤية النتائج السيئة والأشخاص الذين يتأذون من جراء هذا القانون إلا أنهم الأغلبية.

هناك شركات تغلق لأنها لا تستطيع أن تدفع الأجور العالية. وشركات أخرى تقرر أن تستمر في إنتاجها ولكن بعمال أقل. هناك شركات لا يمكنها التوسع أبداً. وهناك أيضاً شركات لن تفتح على الإطلاق ومن ثم لن توظف العمال. والعمال الذين لم يتم توظيفهم لن يشتكوا لأنهم لا يعلمون ماذا كان السبب في ذلك. إنهم ضحايا مخفيون.

هاكم خبر جيد: اعترض الناخبون على قانون سانتا مونيكا «الراتب المعيشي» وأزالوه بعد سنة من تشريع مجلس البلد له. انتصرت الحكمة. ولكن هاكم الخبر السيئ: شرع 122 قانوناً للحد الأدنى من الراتب المسموح به في أنحاء شتى من البلاد. طالب السياسيون في واشنطن بأن يدفع للعمال 6.60 دولاراً في الساعة. وفي سانتانا 8.50 وفي سان فرانسيسكو 8.62 يحب السياسيون أن يبدوا مثل سانتا كلوز لكنهم ليسوا سانتا إنهم لا يرون النتائج الخفية السيئة لقوانينهم.

خرافة: نقل الشركات التجارية الأمريكية إلى الخارج هو «أزمة» إذ إنه يقلل فرص العمل للأمريكيين.

حقيقة: نقل الشركات التجارية الأمريكية إلى الخارج يخلق وظائف جديدة للأمريكيين.

تغضب الاتحادات بشدة بسبب نقل الشركات الأمريكية إلى الخارج. وتقول إن هذه «أزمـة» وإننا يجب أن نحمي وظائفنا من ترك أمريـكا وأن نعاقب الشركات التجارية التي «تصـدر» الوظائف الأمريكية. عندما تغضب الاتحـادات يسارع السياسيون إلى دعمهـا. شكا جون كيري أثناء حملتـه الانتخابية أن المسؤولين في شركة بنديت آرنولد «يأخذون الوظائف الأمريكية إلى بلاد أخرى» ولم يجادله الجمهوريون في رأيه هذا.

عندمـا قال جورج مانكيو MANKIW رئيس مجلس المستشارين الاقتصاديين إن نقـل الشـركات التجارية الأمريكية إلى الخـارج «هو أمر جيـد للاقتصاد» قال عضو الكونغرس دون مانزيلو وهو جمهوري إنه يجب طرد ذلك الشخص. كما اعترض أيضاً المتكلم باسم البيت House speaker دنيس هاستريت فسارع مانكيو إلى كتابة رسالة اعتذار. في واشنطن تحتل الخزعبلات مكان أصول الاقتصاد الراسخة.

بينمـا كان الجميـع يضجون ويشكون حـول أهوال نقـل الشـركات الأمريكية إلى الخـارج سألنا أكـبر منظمة عمال في أمريكا أن تعطينا مثلاً عن ذلك. فبعثت CIO ـ AFL إلينـا بشيرلي وروني برنارد. وقد كانـا يعملان في مصنع ألبسة ليفيس في باول تينيس حتـى نقلت شركة ليفيس عملها إلى المكسيك وأقفلت معملها في تينيس. ملأت الدمـوع عيني شيرلي وهي تحدثنا عن فظاعة نقـل الشركة إلى الخارج. «تصور أنك تعمـل بوظيفة ما لمدة عشريـن سنة وكل يوم تستيقظ في الصبـاح وتذهب إلى عملك ولكـن فجأة يغلق المعمل فلا تجـد مكاناً تذهب إليه وتشعر أن أحداً لا يحتاجك. وتجد نفسك عاطلاً عن العمل».

غطت وسائل الإعلام بسرعـة أخبار تسريح العمال من وظائفهم. سارع العاملون في الإعـلام لإجـراء المقابلات مع العمـال التعساء الباكين. ونشـرت قصصاً حزينة ومؤلمة مثل قصة شيرلي عن جشع أصحاب الأعمال واستغلالهم القبيح.

شعر لو دوبس Lou Dobbs بالألم من تلك القصص ونشرها في برنامجه في قناة CNN. عندما يغضب السياسيون والاتحادات من أمر ما سرعان ما تلحق بهم وسائل الإعلام العامة.

خرافة: إذا قالت وسائل الإعلام إن الأمر مشكلة كبيرة فإنه كذلك.
حقيقة: عندما يتعلق الأمر بعلم الاقتصاد، غالباً ما تخطئ وسائل الإعلام.

سألت لو دوبس حول نقل الشركات التجارية الأمريكية إلى الخارج: «أيجب أن تمتنع الشركات التجارية عن فعل ذلك؟» فأجاب «طبعاً» وأضاف «السعي وراء اليد العاملة الرخيصة يحطم الطبقة الوسطى من المجتمع وهذا أمر غبي والغباء ليس من شيمة الأمريكيين».

مهلاً. منع الشركات من الذهاب إلى الخارج هو الأمر الغبي وغير الأمريكي. لماذا؟ أولاً لأن نقل الشركات التجارية إلى الخارج يخلق فرص عمل لمن هم شديدو الفقر مثل العمال المجدّين في الهند وبقية بلاد العالم الثالث. وهذا شيء جيد لا يخالف القيم الأمريكية.

ثانياً: نقل الشركات الأمريكية إلى الخارج يوفر لنا النقود. معظم الثياب التي نبتاعها تصنع في الخارج يرى لو دوبس أن ذلك أمر شنيع.

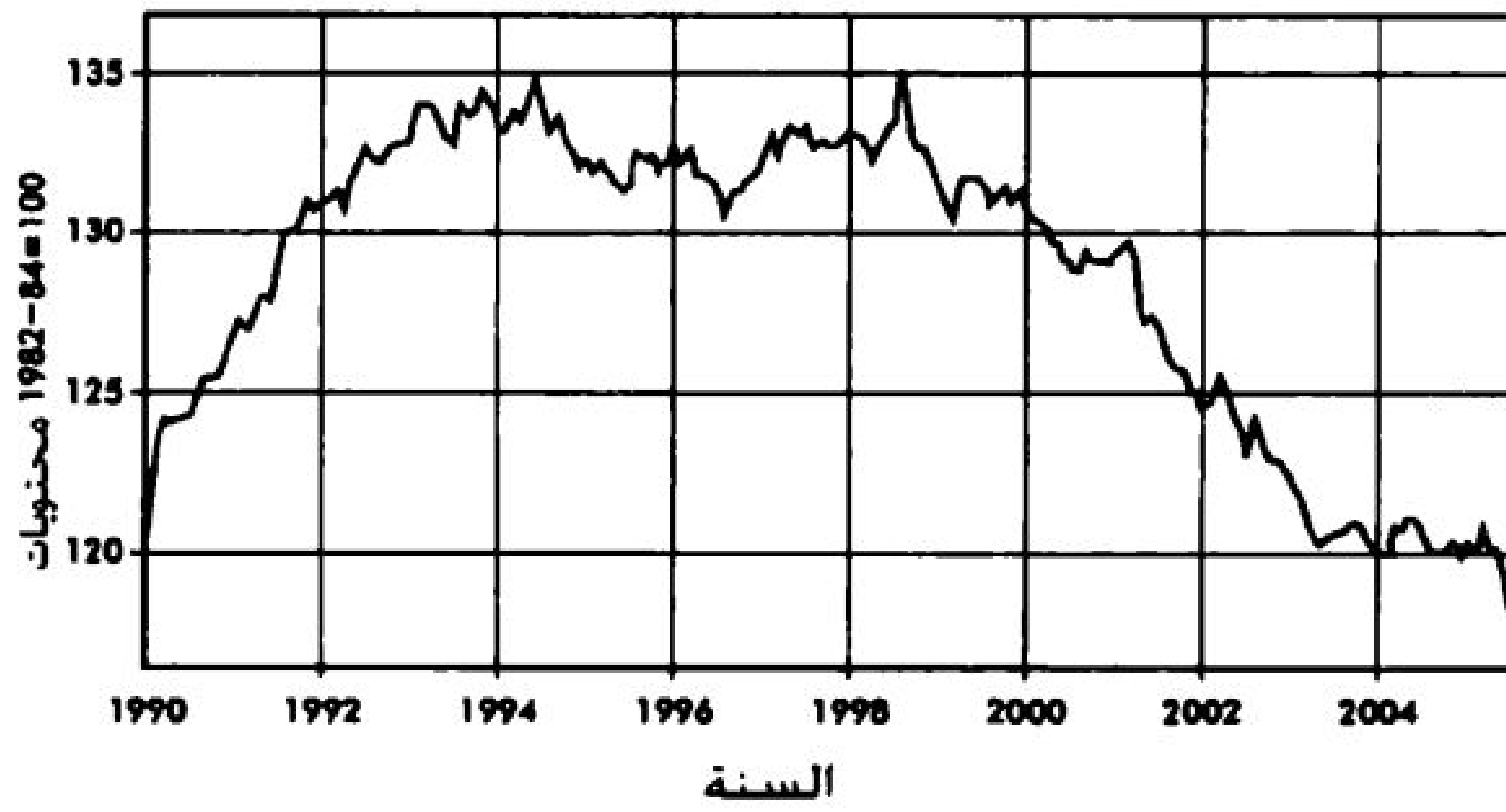
لو دوبس [بلهجة مذيع] هذه البلاد لا تستطيع أن تكسي أبناءها، ستة وتسعون بالمئة من الملابس تستورد من الخارج!

ستوسل: لكن ذلك أمر جيد [بدت عليه علامات الصدمة عندما قلت ذلك]. لدينا خيارات أكثر بأسعار أقل.

لو دوبس: متى كانت آخر مرة اشتريت فيها بذلة؟ أعجب من قولك إن الأسعار تنخفض.

أحقاً أن ذلك الرجل درس في هارفارد؟ يوضح الخط البياني كيف انخفضت أسعار الثياب وفقاً للتضخم. عندما ازداد نقل الشركات التجارية إلى الخارج انخفضت أسعار الملابس.

مخطط أسعار الملابس



اليـوم يتم تصنيع الكثـير من أجهزة التلفاز واللعب خـارج أمريكا انظر إلى مدى هبوط الأسعار.

مخطط أسعار الألعاب



مخطط أسعار التلفزيون



حسنــاً لعل توفير النقود هو أمــر رائع بالنسبة للمستهلكين ولكن ماذا عن العمال؟ مــاذا عن نقل الوظائف خارج أمريــكا؟ تشير التقارير إلى أن نحــو 500.000 وظيفة نقلت خارج أمريكا منذ عام 2000.

هذه الإحصائيات مخيفة ومضللة.

إذا عمل هندي في وظيفة كان يعمل بها أمريكي من قبل فإن ذلك لا يعني أن عدداً أكـبر مــن الأمريكيين سيصبحون عاطلين عن العمل. لقــد راقبنا خمسين شخصاً في الهند يعملون في البرمجة التي كانت فيما مضى تتم في كاليفورنيا في شركة تدعى كولا بنــت Colla bnet يديرها بيل بورتيللي. نقل بورتيللي شركته إلى الهند بعدما اكتشف أن المهندســين الهنود يتقاضون نصف مــا يتقاضاه المهندسون الأمريكيون. سألته إذا ما كان بذلك سرق فرص العمل من الأمريكيين فضحك وقال: «لو لم أوظف أشخاصاً في الهنــد لكان علي أن أسرح بعض الموظفين لدي أما الآن فلقد خلقت وظائف جديدة في أمريكا وأصدرت منتجات أفضل وخلقت وظائف جديدة ورفعت الرواتب».

استطــاع بورتيللي توظيف عدد أكبر من الأمريكيين لأنــه ربح مالاً وفيراً مكّنه من التوسع في كاليفورنيا. لو لم ينقل تجارته خارج أمريكا لأفلس. لقد رويت هذه القضية لدوبس لكن جوابه أدهشني للغاية إذ قال «إذاً كان عليه أن يفلس ففي الواقع كان على شركته أن تنجح باستخدام عمال أمريكيين فقط أو لا تنجح على الإطلاق»

أخــرج الرفش للتنقيب عن الحقيقة. أمن الأفضــل أن تفشل الشركة على أن تُنقل خارج أمريكا؟

اتضحــت النتائج الحسنة لنقل الشركات للخارج عندمــا تحدثنا ثانية مع شيرلي التــي كانت تمثل ضحية من ضحايا نقل الشــركات للخارج. لقد تعذبت بعد أن فقدت وظيفتهــا من معمل ليفيس ولكنها وجدت وظيفة أخرى براتب أكبر. كانت وظيفتها في معمل ليفيس شاقة إذ كانت تتعرض للضوضاء والجهد الجسدي أما وظيفتها الجديدة فهي في مكتب مكيف.

وقالت لنا: «هذه الوظيفة أسهل بكثير وأنا أحبها كثيراً».

قالــت لنا شــيرلي إن العمال الآخريــن في ليفيس وجدوا وظائــف أخرى «بعضهم حظــي بوظائــف ممتازة ما كانــوا ليحصلوا عليها لو لم يغلق معمــل ليفيس أبوابه. إن

ذلــك أجبرهم علــى اتخاذ قرار حول ما يريدون عمله فاختــاروا العمل الملائم وكانوا به سعداء».

كانــت شيريل مثالاً على أهوال نقل الشركات إلى الخارج إلا أنها أعطتنا في الواقع مثــالاً على النتائــج الحسنة الخفية لذلك النقــل. وجد بعض زملائهــا الذين طردوا وظائف أفضل. فالشركات التي توفر النقود بنقل عملها إلى بلاد أخرى تخلق وظائف أكثر في أمريكا.

نقل الشركات التجاريــة إلى الخارج أمر صعب وشاق على العمال الذين يسرّحون وتبدو النتائج السلبية واضحة لأن وسائل الإعلام تغطيها تماماً. يسهل تغطية تسريح العمــال ويسهل إيجادهم في مكان واحد علــى أرض المعمل الذي أقفلت أبوابه بعد يوم عمــل. يكفي علــى الصحفي أن يــزور المنطقة وفي يــده ميكروفون فيصطــف العمال للشكوى والتعبير عن غضبهم الكل يرون ألمهم.

أما الأشخاص الذين يربحون وظائف جديدة فتصعب رؤيتهم، لكن الأمور الخفية أهم لأن الربح أكبر من الخسارة. منذ عام 1992 فقد الأمريكيون 391 مليون وظيفة. لكــن برينك ليندســي في معهــد Libertorian Cato Institute فتّح عيني على حقيقة أنــه في نفس المدة خلقت أمريكا 411 مليون وظيفة! أي عشرين مليون وظيفة أكثر من الوظائــف التي فقدت، يصعب على وسائــل الإعلام تغطية هذا الموضوع لأن الوظائف تخلق سريعاً وفي أنحاء متفرقة من البلاد.

تحــول معمل ليفيس الذي أُقفل إلى جامعة. لن تذكر الأخبار الوظائف التي خلقت من جراء ذلك للبنائين والأساتذة وكل من عمل في الجامعة. إن هذه الوظائف حدثت بسبب نقل شركة ليفيس إلى الخارج.

مالن يقوله لكم دوبس، ربما لأنه لا يعرف، إن نقل الشركات التجارية الكبيرة إلى الخــارج يخلــق العديد من الوظائف. وجدت دراسة قامت بهــا كلية Tuck للتجارة في دارتموث أن الشركات التجارية التي تنتقل إلى الخارج، تنتهي إلى توظيف ضعف عدد عمالهــا في أمريكا. رؤساء شــركات بنديكت آرنولد ليسوا خونة إنهم أبطال. ليس نقل الشركات التجارية إلى الخارج أزمة بل الأزمة ستحدث عند الحد من هذا النقل.

خرافة: تستغل معامل العرق[1] الناس.

حقيقة: تساعد معامل العرق الناس.

ينزعج الناس من «معامل العرق». للوهلة الأولى يبدو أن حجتهم مقنعة: «إذا أردت أن توظف أشخاصاً خارج أمريكا فعلى الأقل لا تستغلهم وتستعبدهم في عمل شاق في معامل العرق!».

اخترق معارضو معامل العرق حرم الجامعات والاجتماعات في منظمة التجارة العالمية. وتظاهر الناشطون والسياسيون المتملقون وحتى نجوم هوليوود احتجاجاً على «ظلم» المعامل الأجنبية التي تدفع نسبة زهيدة جداً مما يُدفع عادة للعمال الأمريكيين.

صورنا بالفيديو المحتجين الذين يسيرون وهم يحملون لافتات كتب عليها «عدالة العمال» من يمكنه الاعتراض على ذلك؟ لا أحد يريد ظلم العمال. لكن هذه العبارات كلها مضللة مثل عبارة «العدالة الاجتماعية» و«الازدهار الراسخ» فمن يعترض على «الازدهار الراسخ»؟ والأسوأ من ذلك أن نظريات المعارضين حول «عدالة العمال» تؤذي الفقراء أكثر مما تساعدهم.

قال لي بيبك ديبروي Bibek Debroy ـ وهو عالم اقتصاد يعيش في الهند ـ: «أتمنى لو يذكر أولئك الأشخاص بعقولهم وليس بقلوبهم» وقال لي أيضاً: «أنا لا أفهم أبداً تعبير «معامل العرق» ليس العرق سيئاً بل هو جيد. يعرق الناس طوال الوقت في معظم البلاد النامية ومنها الهند!».

لا يساعد العرق على وضع الطعام على الطاولة وحسب، وإنما يساعد على تعمير سقف فوق الطاولة. معامل الألبسة التي يدعوها المعارضون معامل العرق، هي الأعمال التي تساعد الفقراء على تحسين وضعهم في البلاد النامية جديدة التطور، مثل: كوريا الجنوبية، وتايلاند، وهونغ كونغ.

(1) معامل العرق: sweat shops: معامل تنشئها أمريكا في بلاد أخرى، يشتغل بها العمال لساعات طويلة، بأجور رخيصة، وشروط سيئة. المترجمة.

وفي البــلاد الفقيرة فإن المصانع التي يكرهها الأمريكيون المعترضون تدفع للعمال ضعف مــا تدفعه المعامل المحلية في تلك البلاد وثلاثة أضعاف ما يجنيه الناس هناك في الأعمال الأصعب والأخطر في الحقول.

«استغلال للناس؟» تساءلت الخبيرة الكينية جون أرونغا June Aruga: «لا أحد في بــلادي يعتقد أن الشركات تستغل الناس. عندما تفتتــح شركة جديدة معملاً، يتلهف الناس عليه للعمل به» يعدون هذه الوظائف تطويراً للاقتصاد.

«معظمهــم يعملــون في هــذه الشــركات لمدة مــا ثــم يتركونها ويفتحــون تجارتهم الخاصة. إنها حالة ربح للجميع».

ترمق أرونغا طلاب الجامعة المعترضين بنظرات استغراب: «ليست لديهم أي فكرة عما يقولون. إنهم يقارنون ذلك بما لديهم في بيوتهم الغنية».

ترددت في ذهني أصداء مقابلاتي مع دبروي وآرونغا حينما جلست لإجراء مقابلة مع بعض المعترضين المتشددين من أعضاء الطلاب المتحدين ضد معامل العرق. United Students Against Sweat Shops USAS لقد سجلنا مظاهراتهم في هارفرد. وقد انضم إليهم السناتور تيد كيندي والممثلان مات دامون وبن آفليك لدعمهم.

كان الطــلاب مفعمين بالثقــة وباعتقاد راسخ بتفوقهــم الأخلاقي في حملتهم ضد معامل العرق. بدأنا بإبلاغهم ما قاله لي ديبروي وأرونغا.

ستوسل: لقد قالوا إن أمثالكم هم أشخاص «أغنياء، جهلة، سذج».

مانــدي يانا ساك [من جامعة أمرســون] الصورة التي رُسمت لنا كطلاب جامعة أغنياء وسذج ومثاليين هي صورة خاطئة. هل أملك رؤيتي الخاصة لما يجب أن يكون عليه العالم؟ أجل، بالطبع. أريد أن يكون العالم مكاناً لا يكدح الناس فيه لإطعام أطفالهم.

ليندســ ماريســول إينيارت [جامعة نيو مكسيكــو]: يُجبر العمال على الهجرة إلى أمكنــة المعامل هذه. [«يُجبرون؟» من الذي يجبرهــم؟ الحكومة فقط تستطيع أن تجــبر. لترغيــب العامل على العمل يجب أن تقــدم الشركة التجارية عرضاً

أفضـل من ظيفة العامـل السابقة. في بلاد العالم الثالـث يختار الناس وظيفة بأجر زهيد لأن الخيارات الأخرى أسوأ. يهمل المعترضون موضوع الجبر مقابل الإرادة الحـرة طوال الوقت. يرتكبون نفس الخطـأ عندما يقولون إن Nike أو Gap تستعبـد العمال. عذراً لهـذا المقاطعة. لقد انجرفـت بالحديث. سأعود الآن إلى المقابلة].

ستوسل: من يجبرهم؟ إنهم يسافرون إلى المعمل لأنهم اختاروا العمل هناك!

لندسـاي ماريوسـل إينارت: [مستغربة من قلة حسـي] يفضل المرء الأكل على عدم الأكل.

ستوسـل: لكـن لو أصررت على رفـع الأجور فستغلق بعض هـذه المعامل، ويصبح الناس عاطلين عن العمل.

ماندي ياناساك: نحن لا نحاول أن نغلق المعامل.

ستوسـل: بل تفعلـون!! أنتم تقولون إنكم لا تريدون ذلـك؟! لكن هذه ستكون النتيجة لمظاهراتكم. ستغلق بعض المعامل، وتنقل إلى مناطق تكون الأجور فيها أرخص.

ماندي ياناساك: الهدف هو رفع الأجور.

هذا هو الهدف! لكن رفع الأجور أو حصر معامل العرق لن يحقق ذلك الهدف.

قادت المظاهرات محبي الخير إلى نتيجة غير منتظرة: أقنعت الشكاوى الأمريكية حول عمالة الأطفـال في معامل بنغلادش؛ فتوقفت تلك المعامل عن تشغيل المراهقين، وكانت النتيجة حسب ما جاء في تقارير اليونيسيف أن العديد من الفتيات الصغيرات عملن بائعات للهوى. يملك الأمريكيون المتحذلقون رؤية حالمة مثالية لعالم كامل، لكنهم لا يدركون مدى الأذى الذي يلحقونه عند تطبيق مثلهم هذه. الكامل عدو الحسن.

خرافة: تؤمن الشركات التجارية بالسوق الحرة.

حقيقـة: لا يهتـم رجال الأعمـال نهائياً بالسوق الحـرة بل سيخنقون المنافسة إذا ما اعترضت طريق أرباحهم.

مـاذا يفعل الرأسماليـون أثناء إلقـاء الأولاد الأغنياء أوامرهم علـى أولاد البلاد الفقـيرة؟ لم لا يتدخلـون ويدافعـون عـن زملائهم من رجـال الأعمـال؟ لم لا يهللون لعظمة السوق الحرة بل يتركون الأمر لي؟

لأنه يندر أن يفكر الرأسماليون بالأسباب التي أدت إلى نجاحهم. والأسوأ من ذلك أنـه عندما تصبح المنافسة مصـدر إزعاج لهم فإنهم يسعون إلى إخمادها؛ فيتآمرون لكبـح التجـارة. رأى آدام سميث ذلك قبـل عام عندما كتب: «نادراً مـا يلتقي التجار الذيـن يعملون بنفس المصلحة مـع بعضهم، وعندما يلتقون يكون ذلك للتسلية واللهو، تنتهي المحادثات إلى التآمر ضد المستهلكين، أو إلى حيلة لزيادة الأسعار».

المنافسـة القوية تصعّب زيـادة الأسعار. إذا تآمرت شركـة GM مع تويوتا لزيادة أسعار سياراتهما الجديدة؛ فإن فورد وهوندا ستضرب مشروعهما بتقديم سياراتهما بسعـر أقل. تصعب المنافسـة أكثر في الصناعات ذات الرأسمال المنخفض. فلو رفعت كل شركات التاكسي أجرة العداد، ستسيطر على المصلحة شركات جديدة تقدم أجرة أقـل للـركاب. في السوق الحرة لا تستطيع الشركات التجاريـة القضاء على المنافسة، لأنهـا لا تستطيـع استخدام القـوة أو الإجبار. فمـاذا يمكنهم فعلـه إذاً؟ يستنجدون بأصحابهم في الحكومة فالسياسيون يمكنهم استخدام القوة.

أحدثت الإنترنت ثورة في عالم الأسواق. يصعب على التاجر الذي ترتاده أن يغشك بالسعـر وهو يعرف أنه بإمكانـك أن تجد نفس البضاعة على الإنترنت بسعر أرخص. توفر الإنترنت عليك النقود أيضاً لأنها تستغني عن السماسرة.

إذا مـا كنـت سمساراً، أو كنت تبيع بضاعة بسعر غـال، فالإنترنت عدو لك. يجب عليـك أن تجدد عملك، فتعلو على المنافسة بتقديم بدع جديدة، أو خدمات شخصية، أو إيصال أسرع إلى الزبائن.

أو بإمكانـك أن تجعل أصدقـاءك السياسيين يشرعون قانوناً جديداً يقضي بالحد من مبيعات الإنترنت. هذا ما فعله وكلاء بيع السيارات.

خدمــة بيع السيارات على الإنترنت تمكنك مــن تحري الأسعار والخيارات دون أن تغادر منزلــك. جربت ديبي كاسي شركة تدعــى Cororder.com ذهبت إلى موقعها في الإنترنــت ونقرت علــى المُصنّع وعلــى الموديل فحصلــت على سعر ممتــاز لسيارة ميتسوبيشي غالانت.

لجــأت ديبي إلى الإنترنت لأنها تكـره مشقة الذهــاب إلى وكالات السيارات بنفسها شأنهــا شــأن الكثير من الناس. ولكن بقدر ما يكرهــون وكالات السيارات تكره ديترويت أكــثر أن يتم تجاوزها وإهمالهــا. وتصر على أنك يجب أن تشــتري السيارة من الوكيل. واليــوم يمكنك شراء سيارة عن طريق الإنترنــت ولكن لن يتم ذلك إلا بعلم الوكيل. ومع ذلك سيحصل الوكيل على عمولة. فمع أن الوكيل لم يساعد ديبي في الاختيار ولم يناقشها في السعر أو يشرح لها مزايا السيارة وجب عليها أن تدفع له كما لو كان ساعدها.

كيف أمكن لصناعة السيارات خلق تلك الثغرة الكبيرة في التجارة عبر الإنترنت؟ باستخــدام نفــوذ السياسيــين. كان لديترويــت ووكلاء السيــارات فيهــا سلطــة على السياسيــين حتى جعلوهم يمنعون بيــع السيارات المباشر عن طريــق الإنترنت. غالباً مــا تقاوم صناعة السيــارات قوانين الحكومة ولكن عندمــا يمكنها استغلال الحكومة لمصلحتهــا فإنهــا تفعــل ذلك. هذا مــا قاله المتحــدث باسم جمعيــة وكلاء السيارات الوطنية حول هذا الموضوع:

ديفيــد هيــات: [بجدية بالغة] إذا باع المعمل بصــورة مباشرة عن طريق الإنترنت فإن ذلك يضع الوكيل بحالة منافسة غير عادلة.

ستوسل: غير عادلة لمن؟

ديفيــد هيات: لوكلائهم. هناك احتمالات كثــيرة قد ينجم عنها إفلاس الوكالات على المدى البعيد.

ستوســل: وماذا في ذلك؟ ألغــت الإنترنت عمل العديد مــن السماسرة والوكلاء. ولكن المستهلكين يحبونها. أنا لا أريد الشراء من الوكالة.

ديفيــد هيــات: [بعــد صمت ثقيــل] الأمر هو أن لدينــا اليوم نظامــاً جارياً صحياً تماماً، صحياً لوكالات السيارات.

في عامي 2001 و2002 بعثت هيئة كاليفورنيا للعقارات التي يديرها سماسرة عقارات بعثت رسائل إنذار لبعض مواقع الإنترنت التي يتم البيع فيها عن طريق الملّاك أنفسهم «for sale by owner» وطالبتهم بالإذعان لقوانين الترخيص للسماسرة. كان ذلك في منتهى السخف. كانت مواقع الإنترنت تلك تماثل الإعلانات في الجرائد إذ كانت تنشر البيوت المعروضة للبيع وحسب. إجبار تلك المواقع على الحصول على رخصة السماسرة سيزيد من أسعار البيوت المباعة. لحسن الحظ في عام 2004 أدانت محكمة فيدرالية طلب الهيئة العقارية بأنه غير قانوني.

هدد السماسرة منخفضو الأجور عمل السماسرة التقليديين الذين يتقاضون عمولة تبلغ 6% إذا كانو يقدمون خدمات أرخص كأن يطلبوا أجرة صافية 250$ لعرض البيت لمدة ساعتين أو أجرة 499$ لمراجعة العقود وإجراء المعاملات. لذلك أقنع السماسرة التقليديون السياسيين في العديد من الولايات على تشريع قوانين تتطلب «حداً أدنى من الخدمة» فتجبر السماسرة على تقديم خدمات أكثر (ومن ثم تجبر المستهلكين على دفع أجور أكبر).

عندما بحثت الأمر مع ديفيد ليرياه David Lereah وهو عالم الاقتصاد الرئيس في الجمعية الوطنية للسماسرة قال: «لا يقدم الجميع الخدمات الكافية التي تحمي المستهلكين».

عذراً ولكن منذ متى كان السماسرة يهتمون بمصالحي الشخصية؟

أعتقد أنه من الأفضل لي بيع منزلي بخدمات أقل منهم هذا سيكون خياري.

الحرية الشخصية تعني أن يقرر الإنسان بنفسه ماهو الأفضل له. هذا لا يعني عدم طلب النصح من المختصين، ولكن يعني أن تقرر بنفسك متى تبيع؟ ولمن؟ وبكم؟ إذا كان السماسرة ووكلاء السيارات يعتقدون أن الإنترنت خيار سيئ لنا، فعليهم إثبات ذلك عن طريق الدعاية، وليس اللجوء إلى أصحابهم من السياسيين الذين يقضون على المنافسة بنفوذهم.

لقد علم العبقري أدام سميث ذلك منذ سنوات:

«توسيـع السـوق وتضيق المنافسة همـا دائماً في مصلحة الـوكلاء... يجب الحذر دائمـاً من القوانين الجديدة والقيود المقترحة حول التجـارة... يجب عدم تبنيها إلى أن تُفحص بدقة ولمدة طويلة، ويجب أن تُعطى القدر الأكبر من الشك والارتياب. إنها تأتي في صنف من الرجال لا تتوافق مصلحتهم أبداً مع مصلحة الشعب».

إنه أمر محزن. يندر أن يدافع رجال الأعمال عن الأسواق.. الأساتذة في الجامعات الراقيـة يذمـون الأسـواق. كمـا يكرههـا المراسلون الصحفيـون. هناك كـره شديد للرأسمالية والربح حتى إن الأمريكيين يسنون القوانين التي تقضي على الناس.

خرافـة: المتـاجـرة بالأعضـاء البشرية عمل غـير أخلاقي ويجب منعه قانونياً.

حقيقة: إنقاذ الأرواح ليس عملاً غير أخلاقي.

يؤمن معظم الأمريكيين أن المتاجرة بالأعضاء البشرية فعل غير أخلاقي ومقرف.

لكن الأمريكيين يحتاجون إلى الأعضاء البشرية وخاصة الكلى.

اليـوم أكثر من ستـين ألف شخص مصابين بالفشل الكلـوي ينتظرون كُلى للزرع. يمضي العديدمنهم حياتهم وهم معلقون بأنابيب أجهزة غسل الدم؟

أجهـزة غسل الدم هي عجائب تكنولوجية. إنها تغسل الدم عوضاً عن الكلى لكنها ليسـت في مثـل مهارة الكلى وهي مؤلمة ومنهكة ومملة ومكلفـة أيضاً. أنفقت الحكومة ثمانية عشر بليون دولار على غسل دم المرضى في عام 2001.

يصلـي ستون ألف أمريكي من أجل الحصول على كلى. يحصل بعضهم عليها من الأصدقـاء والأقارب الذين يتبرعون بهـا لهم. ولكن القسم الأعظم يحصل عليها من الغربـاء الذين يموتون في الحوادث. لكـن الأقرباء والحوادث لايوفون بحاجة المرضى إلى الكلى. أكثر من ستة آلاف من الأزواج والآباء والزوجات والأمهات والأبناء والبنات يموتون كل سنة وهم ينتظرون زراعة أعضاء. أي سبع عشرة وفاة في اليوم.

بعض المرضى شديدو الحاجة إلى الزرع. قال لنا أيد لاڤاتيللي: «إن السعر لايهم سأدفع أي مبلغ، إن لم يكن لدي المال سأستدين، لا يمكن وصف ما يعانيه شخص مصاب بالفشل الكلوي».

كان قلق أيد غير ضروري، إذ إن هناك العديد من الأشخاص الذين رغبوا في مساعدته. أرادت روث سبارو من سانت يترسبرغ فلوريدا الحصول على المال، فوضعت إعلاناً في الجريدة قالت فيه: «كلية، تعمل بشكل جيد، 30.000$ أو أفضل عرض».

تلقت بضعة مكالمات جادة ثم رفضت الصحيفة نشر إعلانها مرة ثانية أنذرتها أنه يمكن القبض عليها.

عندما وضعت كلية بشرية في مزاد على موقع ebay وصل المبلغ إلى ستة ملايين دولاراً قبل أن توقف ebay ذلك المزاد. لماذا أوقفت ebay مزاداً ناجحاً؟ لم لايسمح للأشخاص اليائسين باستخدام النقود للإغراء؟ لم لا يسمح لشخص لديه عضوين سليمين بعرض أحدهما في السوق؟

لأن هناك أشخاصاً آخرين يكرهون هذه الفكرة. في عام 1984 وعندما كان آلغور عضواً في الكونغرس قام بتشريع قانون يعد بيع الأعضاء جريمة يعاقب عليها بالسجن خمس سنوات في سجن فدرالي. وافق كل أعضاء الكونغرس بحماس، وفاز القانون بـ 396 صوتاً مقابل 6. تمنع معظم البلاد اليوم التجارة بالأعضاء، وتدين كل جمعيات الأخلاقيات الطبية تلك الممارسة. ودعا البعض فكرة التجارة بالأعضاء شكلاً جديداً من أكل لحوم البشر.

إذن إعطاء شخص ما كلية هو أمر جيد، ولكن بيع نفس الكلية هو جنحة. سألت المريضة مارغريت هاريس - وهي على لائحة الانتظار للكلى - سؤالاً جيداً: «إذا أجريت صفقة معك ما شأن الحكومة في ذلك؟».

قلت لها: «يشعرون بأن من واجبهم وضع معايير أخلاقية تحدد ماهو صحيح وما هو خطأ».

«لماذا؟» سألتني «من يحمون بذلك؟».

إنهم لا يحمون مارغريت هاريس فقد ماتت وهي تنتظر جواباً وكلية. كانت واحدة من بين ستة آلاف مريض تركوا عائلات مفجوعة بسبب عدم توافر الكلى.

تحدثت مع ستيف ريفكين الذي انضم إلى قائمة انتظار الكلى والتي شملت ثلاثين ألف اسم قبله. قال لي: «لا أعتقد أن دفع النقود مقابل زرع كلية هو أمر خاطئ، أريد فقط كلية تعمل» كان ستيف يذهب إلى غسيل الدم ثلاث مرات في الأسبوع وكل جلسة علاج كانت لمدة خمس ساعات وكان يكره ذلك.

تعاطف الدكتور برايان بيريا Pereia الرئيس السابق للمؤسسة الوطنية للكلى مع ستيف، لكنه لم يساعده.

د. برايان بيرا: أنا أتفهم حاجة المريض إلى كلية تعمل، ولحسن الحظ يستطيع المريض الاستمرار بغسيل الدم في نظامنا هذا الذي يعمل بصورة حسنة جداً.

ستوسل: ماذا؟ سبع عشرة وفاة في اليوم نظام حسن جداً !!

د. بيرايا: يجب فهم إحصائية السبع عشرة وفاة في ضوء ماكان يمكن حدوثه لو كان الأمر أسوأ. الوضع اليائس اليوم لا يبرر تشريع قرار غير حكيم. أخرجوا الرفش للتنقيب. تعتقد مؤسسة الكلى أن الفقراء «سيستغلون» لو أُحدث سوق للكلى. ولكن كيف يتم استغلالهم؟ في البلاد الفقيرة التي يحتاج فيها الناس إلى المال أكثر من حاجتهم إلى المبادئ المزيفة يبيع بعضهم كلاهم. وجدت صورة لرجال من الفلبين باعوا كلاهم بمبلغ ألف دولار فقط لقد وقفوا على الشاطئ لأخذ الصورة مظهرين جراحهم. هذه الصور تجعل الأمريكيين الأثرياء يقولون: «انظروا كيف تم استغلال هؤلاء الفقراء! لقد خاطروا بحياتهم لقاء ألف دولار فقط».

ولكن ما الذي يعطينا الحق لنقرر عنهم؟ ربما لن نفعل ذلك أنا وأنت لكنهم فعلوا ذلك دون أن يجبرهم أحد. إنهم فقراء وأرادوا الألف دولار أكثر مما أرادوا إبقاء كليتين. القول بأن الفقراء يبلغون اليأس مبلغاً يجعلهم يستسلمون لإغراء خطير هو قول ينتقص من قيمة أولئك الأشخاص، ويحط من قدرتهم على التفكير. مهما كان راتب الشخص فإن لديه دائماً القدرة على الاختيار.

في تقريري في التلفاز حول تجارة الأعضاء سخرت الفيلسوفة البريطانية جانيت رادكليف ريتشاردز من فكرة منع تجارة الأعضاء لحماية الفقراء: «يبدو لي أن هذا هو أسوأ استغلال للفقراء من الأغنياء... ما الفرق بين إعطاء الكلية إذا كنت فقيراً أو بيعها إذا كنت فقيراً؟ الفرق هو أنك ستحصل على بعض المال ولن تعود فقيراً».

لجأ ستيف ريفكين إلى الإنترنت محاولا إنقاذ حياته. فالسر القذر في مجال زراعة الأعضاء هو أنه مع أن التجارة بالأعضاء غير قانونية فإنها تمارس دائماً. هناك العديد من مواقع الإنترنت التي تساعد الباعة والشارين على الالتقاء.

وضع ستيف إعلاناً وسرعان ما تلقى مكالمات من أشخاص من أنحاء العالم كافة يرغبون ببيعه كلية. قال لي ستيف: «كانت هناك قصص حزينة، هناك زوجان تعرضا للإفلاس فسعى الزوج إلى طريقة تمكنه من تسديد ديونه والبدء من جديد قدماً إلى الأمام... هذا تبادل عادل بين طرفين يائسين» أحدهما يحتاج المال والآخر كلية.

لكن الحكومة لن تسمح لهما بتلك المقايضة الإرادية.

د. برايان بيرايا: لا مقايضة ولا بيع أعضاء. إذا ما تم ذلك فإننا سنتدخل.

ستوسل: من أنتم؟

د. برايان بيرايا: الحكومة والمجتمعات المهنية التي تساعد الحكومة على تسريع النظم الصحيحة.

يا للغرور ـــ الحكومة و«المجتمعات المهنية» سيتخذون القرارات عنا ـ فيقتلون الناس. لا يحق للحكومة والمجتمعات المهنية أن تقرر أن الأشخاص الذين يتألمون يجب أن يستمروا في التألم ويموتون، لأن البعض يستاء من القرارات الإرادية لبعض الأشخاص والأمر كله يتعلق بسؤال بسيط: من يملك جسدك؟ أنت أم الحكومة؟

إدخال النقود في عملية مقايضة الأعضاء ليس أمراً شريراً. وكما قال لنا ستيف ريفكن قبل أن يموت: النقود هي التي تجعل الزرع ممكناً. يحصل الأطباء على النقود تحصل المشفى على النقود، تحصل المنظمات التي تجلب الأعضاء على النقود. الكل يحصل على النقود ماعدا المانح للعضو!».

إذا كنــت تعتقد أن بيع الأعضاء أمر غــير أخلاقي لا تقم به. لكن المرضى لا يجب أن يموتوا لأن بعض الأشخاص يكرهون الأسواق الحرة.

لنفكــر في النعم التي تغدقها علينا السوق الحــرة ـ حياة طويلة وصحية وقت فراغ مديــد، طعام وافر لدرجــة أننا نقلق من السمنة عوضاً من أن نقلق من سوء التغذية ـ يبدو من الوقاحة أن يشكو بعضهم من الرأسمالية. يجب أن نحتضنها لا أن نلعنها. يبدو السوق كأم لا تقدر حق تقديرها توفر لنا كل الطيبات ولكننا نكرهها ونعترضها.

لمــدة طويلة لم أكن أدرك أن السوق هــو أفضل صديق كنت أعتقد أن الحكومة هي الصديــق. يا لذلك الخطأ! جــرب الحكومة الدائمة على الســوق الحرة تجعل الحياة أصعب للجميع.

الفصل الرابع

وحش الحكومة

في طفولتي كنت أؤمن أن الحكومة أمر جيد. إنها تحمينا مثل ماما وبابا. استغرقت الكثير من الوقت لأعرف أن الحكومة تبالغ في حمايتنا ومراقبتنا لدرجة تهديم حريتنا الشخصية.

لقد ضللنا الطريق الذي رسمه توماس جيفرسون في خطبته عندما نصب رئيساً. وصف «الحكومة الحكيمة والحريصة» بأنها حكومة «تمنع الإنسان من أذية أخيه الإنسان، ولكن تترك الناس أحراراً في السعي وراء ما تشتهي أنفسهم».

نحن نحتاج إلى حكومة تمنعنا من أذية بعضنا وتحمينا من الهجمات الخارجية وتحمي البيئة وقلة من الأشياء الأخرى. الحد من مهام الحكومة أمر رائع. لكن حكومتنا تحولت من رؤية ذلك الرئيس العبقري إلى وحش يحافظ على نفسه عن طريق زيادة الضرائب، والتطفل الدائم والتدخل المستمر في شؤوننا الخاصة.

يدعي السياسيون أن قوانينهم وبرامجهم ستحل المشكلات. تسارع وسائل الإعلام إلى تغطية المشكلات وشرح كيف تحلها القوانين الجدية، إنها تغطي النتائج الجيدة المرئية لكنها لا تغطي النتائج الخفية غير المخطط لها لتلك القوانين. هناك غالباً الكثير من النتائج الخفية التي تصبح فيما بعد حجة لتشريع المزيد من القوانين.

شرح ذلك رونالد كواس Ronald Coase الحائز على جائزة نوبل بالمقطع التالي: «لو تأسس برنامج فيدرالي لإعطاء المساعدات المالية لفرق الكشافة الصبيان كي يساعدوا النساء العجائز في قطع الطريق، فاعلم تماماً أن تلك المساعدة المالية لن تذهب كلها إلى الكشافة. وأن من يُساعد لن يكون من النساء أو من العجائز وأن قسماً من ذلك البرنامج سيستثمر لمنع النساء العجائز من قطع الطريق وأن الكثير من النساء العجائز سيمتن من جراء قطع الطريق في المنطقة غير المراقبة حيث تستطعن

العبـور دون أن يمنعهـن أحد». وبعد ذلك ستسن الحكومـة قانوناً جديداً يمنع النساء العجائز من الحركة.

لهذا فإن الحكومة أصبحت هي نفسها خطراً مهدداً.

يجب أن نبقي الحكومة ضئيلة ونحصرها في نطاق ضيق ونراقبها باستمرار.

خرافة: يقلص الجمهوريون الحكومة.

حقيقة: إنهم يقولون إنهم سيفعلون ذلك ولكنهم لا يفعلون.

قبل عدة سنوات أجريت مقابلة مع عالم الاقتصاد والتر ويليامز لبرنامج تلفازي في قنـاة ABC يدعـى «Greed» (الجشع) ولقد دهشت عندما قـال ويليامز «اللص إنسـان أخلاقـي أكثر مـن عضو في الكونغرس: عندما يسرق اللص نقـودك فإنه لا يطالبك بأن تشكره».

اعتقدت أن كلامه ذلك كان مبالغة سخيفة ولكن عندما رأيت ما يصرفه الكونغرس علمـت أن د. ويليامز كان محقاً وأنا الذي كنت ساذجاً. تصادر الحكومة قسماً كبيراً من أموالنا ـ قسماً أكبر مما نظن. يصرف الكونغرس معظم تلك الأموال في الدعاية لنفسه ثم يطلب منا أن نشكره.

عندمـا كان الديمقراطيون يمسكون بزمام السلطة واجهت السيناتور روبرت بيرد حـول موضوع إنفـاق أموالنا علـى مشاريع مثل «بنـاء طريـق Highway روبرت برد المحترم» في فيرجينيا. وكان جوابه متعجرفاً مثله: «بودي أن أعتقد أن وسائل الإعلام الوطنيـة ستترفع عن قيامها بـدور الشطّار والنقاد الهزيلين الذين يهذرون تماماً كما تفعل أنت الآن».

أهذر؟. سألته.

فشرح قائلاً: «أنت تزري بموضوع جدي».

أصررت على موقفي قائلاً: «أليست هناك حدود؟ ألا تخجلون مما جنيتم؟».

حـــدق في بيرد بصمت ثم ســأل بغضب: «أتخجل عندمــا تصنع خيراً للبلاد؟ أهذا يخجلك؟».

وعد الجمهوريون تغيير تلك العادات. وأثناء حملتهم وعدوا بتقليص الحكومة. بل إنهــم استخدموا نفس هذه الكلمات في إحــدى حلقات برنامجي «جون ستوسل يذهب إلى واشنطــون» قمت ببث كليب يظهــر رونالد ريغان وجورج بوش الأب يقولون بصوت واحدكما لو كانوا يغنون: «الحكومة أكبر مما ينبغي وتصرف أكثر مما يلزم».

ذعــر الديمقراطيون وقالوا: «لا تصوتوا لهم إنهم سيلغون برامجكم المفضلة» لكن ما كان عليهم أن يقلقوا. نجح الجمهوريون في الانتخابات إلا أن هدف الديمقراطيين في توسيع الحكومة تحقق. كانوا هم الفائزين الحقيقيين.

علــى الأقل أبطأ الرئيس ريغان نمــو الحكومة. استخدم الفيتو ضد ثمانية وسبعين طلبــاً لإنفــاق نقود الكونغرســ. لكن الرئيس جــورج W بوش لم يستخــدم الفيتو أبداً وصــرف المال أسرع مما يفعــل الديمقراطيون. يقول الجمهوريــون أحياناً إن الإنفاق ازداد بسبب الحرب ولكن حتى لو لم نعد المال المنفق على حماية الأرض، ازداد إنفاق الأمــوال بنسبة 40 بالمئة منذ أن تولى بوشـ الرئاسة. زاد الإنفاق في وزارة العمال 29 بالمئــة، وفي وزارة الطاقة 33 بالمئــة، ووزارة الزراعة 41 بالمئة، وفي وزارة التعليم 135 بالمئة. بعض هذه الهيئات يجب أن تزول من الوجود. في الثمانينيات صرح الجمهوريون أنهــم يريــدون أن يلغوا وزارة التعليــم. كان يجب عليهم أن يقومــوا بذلك إذ ازدادت ميزانية تلك الهيئة 169 بالمئة منذ عام 1995.

حتــى الجمهوريون الذين كانوا ينتقــدون الإنفاق المفــرط للديمقراطيين أصبحوا يفعلون الشيء نفسه منذ توليهم السلطة. عندما كان الديمقراطيون يحكمون الكونغرس قــال لهم عضو الكونغرس مــن آلاسكا دون يونغ: «لا أحد منكم يتنازل عن 1 بالمئة من حصتكــم في الميزانية. أنتم لم تشغلوا مناصبكم لمــدة طويلة لكن معظمكم يصر على هذا الموقف».

كان تعليقــه جيــداً، لكــن الآن وعندما وضــع حزبه أيديــه على نقودنــا يبدو أنه الحيــوان المســرف الأكبر. لقــد ترأس لجنة المواصــلات وجعل زمــلاءه من ممثلي

الكونغرس يصوتون كي يحصل على 450 مليون دولار ليبني جسرين في أنحاء قليلة السكان من آلاسكا.

واحد من هذين الجسرين السخيفين يثير السخط؛ لأنه يصل بين منطقة كيتشيكان Ketchikan في آلاسكا وبين جزيرة غير مأهولة تقريباً. لكن ذلك الجسر كان ضخماً للغاية ـ لقد استبدلت الرحلة بالعبارة بجسر أعلى من جسر بروكلين، وبطول جسر الغولدن غيت. حتى إن سكان Ketchikan سخروا من كبره. قال لنا أحدهم: «على المدى القريب لا أرى ضرورة لهذا الجسر، وعلى المدى البعيد لا أرى أيضاً ضرورة لهذا الجسر».

قال يونغ عضو الكونغرس إن عمله ببناء الجسرين مشروع إذ إنه «خلق فرص عمل». أخرجوا الرفش يقول السياسيون دائماً إنهم «يخلقون فرص عمل»، وذلك لتبرير مشاريعهم. إنه خداع سياسي. نعم ستخلق مئات الملايين من الدولارات بعض وظائف البناء المؤقتة فتستفيد منطقة كيتشيكان. هذه هي الفائدة المرئية، لكن ملايين الدولارات هذه كانت ستخلق فرص عمل أكثر لو أنها لم تقتطع من دافعي الضرائب أساساً. كانت ستذهب إلى مخازن بيع الأحذية، وأماكن لعب البولينغ، ومشاريع الأبحاث الطبية، وآلاف الأماكن الأخرى التي يحبذ الناس صرف نقودهم عليها أكثر من صرفها على جسرين في مناطق غير مأهولة. إذا كانت مشاريع الحكومة «تخلق» وظائف للناس فحري بالكونغرس أن يدفع للناس كي يحفروا حفراً ثم يردموها. ربما سيقترح يونغ عضو الكونغرس ذلك ـ ولكن حفراً في ولايته حصراً.

في عام 2005 بعد أن دمر إعصار كاترينا ساحل الغولف، حاول سيناتور أوكلاهوما توم كوبورن أن يحول اتجاه مشروع جسري آلاسكا، فيستعمل النقود لإعادة بناء الجسر I-10 فوق بحيرة بونت ـ تشارترين Pontchartrain في لويزيانا. ذلك الجسر الذي دمره الإعصار تماماً.

«كلا» صرخ زملاؤه. ووقف سيناتور آلاسكا آخر وهو تيد ستيفن في المجلس وقال: إنهم إذا اقتطعوا المال من مشروع آلاسكا فإنه سيستقيل، «وسأخرج محمولاً على نقالة المرضى».

حسناً أرجوك أن تفعل يا سيناتور ستيفنر، وسأساعد في حمل النقالة بنفسي.

للأسف هناك قاعدة خفية في الكونغرس تقول: «لا تهدد بأخذ مشروع عضو كونغرس آخر» رفض المجلس اقتراح كوبورن بنسبة أصوات 82 إلى 15.

قالت السيناتورة الأخرى من آلاسكا ليزا موركوفسكي إن عدم إنفاق المال على الجسر في ولايتها أمر «عدائي». عندما باشرت عملها كسيناتورة سألتها: إن كان الجمهوريون يؤمنون بحكومة أصغر؟ فأجابت بالإيجاب. لقد كانت جديدة في هذه اللعبة عندما أصبح والدها محافظاً عيّنها كي تشغل كرسيه في مجلس السناتورات، لم تكن تخفي الحقائق إذ إنها قالت لي بعد ذلك: «نريد حكومة أصغر، ولكن أريد بالتأكيد بناء طرقات أكثر، وتشييد أشياء أكثر مهما كانت هذه الأشياء».

اعتقدت أن آلاسكا تقيم مشاريع فارغة أكثر من أي ولاية قالت لي: «أواه يجب أن تأتي وتزورنا، ستدرك أنها ليست مشاريع فارغة بل كلها ضرورية. يشاهد الناس آلاسكا فيقولون: عجباً لم تُدر الأموال عليهم هكذا!؟ ولكن ما زال لدينا مجتمعات لا توجد فيها مجاري أو مياه، هناك أمور أساسية في الحياة يجب الحصول عليها».

لكن لم يدفع أولادي ثمن ذلك. إذا أراد الناس العيش في المناطق النائية من آلاسكا فعليهم أن يدفعوا هم ثمن «أشيائهم» عن طريق ضرائب الولاية، أو الضرائب المحلية، أو خلق تجارات خاصة، وهذا هو الحل الأفضل.

لم يجب على الأمريكيين كلهم أن يدفعوا نقودهم لتحري أنابيب المجاري في الأرض الواسعة المجمدة لولاية آلاسكا؟ الآن آلاسكا لا تملك النقود؟

لا تصدق ذلك. تملك آلاسكا حلاً واسعاً يأتيها من عائدات النفط، وليس فيها ضرائب على الرواتب أو على المبيعات. بل إنها تكتب لكل مواطن فيها شيكاً كل سنة يأتي مما يدعى بمخزون آلاسكا الدائم Alaska Permanent Fund.

إن الهيئة التي تمثل آلاسكا في الكونغرس ماهرة وذات إرادة صلبة. عندما اشتد اهتمام وسائل الإعلام بالانتقادات التي وجهت إلى الجسرين، قامت تلك الهيئة «بإلغاء» موضوع الجسرين من تقرير مؤتمر اللجنة. لم يُذكر الجسران في الفاتورة

النهائية عمداً ـ لكن ميزانية 452 مليون دولار المخصصة «لمشاريع آلاسكا» أبقيت كما هي! نحتاج هنا إلى رفش ذهبي لنشيد بهذه الجرأة الوقحة. ليس ستيفن وموركوفسكي ودون يونغ أشخاصاً نادرين. يتحدث الجمهوريون دائماً عن تحديد الحكومة وتقليص مشاريعها، ولكن كلما طال بقاؤهم في الحكومة اشتد تبذيرهم للأموال.

خرافة: صوت لي، فأنا سأوقف الهدر.
حقيقة: لن يحدث ذلك على هذا الكوكب.

يتحدث السياسيون عن توقيف هدر الأموال لكنهم لا يعقلون شيئاً. إذ ليس بإمكانهم فعل أي شيء. لا تستطيع الحكومة أن تتصرف بفعالية فمثلاً تمنع قوانين الخدمة المدنية طرد العمال السيئين ومكافأة العمال الجيدين. وحتى لو ألغيت هذه القوانين المخربة فإن عمل الحكومة يفتقر إلى التركيز والدافع الذي تجلبه المنافسة للربح والصراع من أجل البقاء. إن استطعت أن تذكر لي شيئاً واحداً تستطيع الحكومة فعله أفضل من القطاع الخاص سأرسل لك شيكاً بألف دولار. ذلك ما عدا تبديد الأموال ووضع شريط أحمر... إلخ. وحتى لو قرر القطاع الخاص أن يبدد أموالك فإنه سيفعل ذلك بصورة أسرع من الحكومة.

في كل سنة تطرد الحكومة الفيدرالية عاملاً واحداً من بين ثلاثة آلاف عامل بسبب الأداء الرديء وهذه نسبة قليلة لحد مذهل.

تتخلص الشركات الخاصة من آلاف الوظائف كل سنة وهذا ما يدعى «التدمير المبدع» ويجعلها تبقي على أرباحها. جاك ويليش Jack Welch مدير معبود لأنه حول شركة GE إلى شركة تبلغ قيمتها 300 بليون دولار. وهو يقول: إنه إذا أرادت مؤسسة ما أن تبقي على حيويتها يجدر بها أن تتخلص من 10 بالمئة من عامليها كل سنة: يقول: «قل للعمال العشرة بالمئة الأضعف: «أمامكم سنة فقط للعمل عندي فابدؤوا من الآن في البحث عن عمل «فيتركوا!».

يبدو هذا الفعل قسوة لكنه ليس كذلك. فرحيل العشرة بالمئة يعطي الفرصة لعمال آخرين. والعمال المسرحون يجدون غالباً وظائف تلائم مواهبهم أكثر من وظائفهم السابقة لقد كان هؤلاء العشرة بالمئة تعساء في وظائفهم القديمة. بقوا فيها لأن التغيير صعب، والبحث عن وظيفة جديدة أمر مخيف. لكن بعد التسريح يسر الكثير منهم. ولقد سمعت مراراً هذه الجملة «كان تسريحي من عملي أفضل شيء حصل لي في حياتي».

عندما اشترت شركة كابيتال سيتيز Capital Cities قناة الـ ABC كنت قلقاً من سمعة شركة كابيتال سيتيز في تقليل النفقات. وكان قلقي في محله إذ أُمر رؤسائي بطرد 1.800 من موظفي الـ ABC ولقد كرهت ذلك بشدة وسألت بغضب: «كيف سيمكننا المحافظة على نوعية برنامج 20/20 إذا لم يكن لدينا خبراء إضاءة، أو إذا قللنا من وقت التصحيح؟».

أهملت شكاويّ، وفوجئت بأننا استطعنا أن نقوم بنفس العمل ولكن بعدد أقل من الأشخاص. ثم اشترت ديزني شركة كاب سيتيز Cap Cities، وكان هناك المزيد من التسريحات، لكننا تدبرنا أمرنا. ولم نكن سنفعل ذلك لولا ذلك الضغط.

لا تواجه الهيئات الحكومية ذلك النوع من الضغط. من وقت إلى آخر يقترح المدير إجراء تقليص بسيط لحجم الشركة فيواجه بغضب عارم. تقليص؟ «لا!» يصرخ المعنيون وخاصة البيروقراطيين الذين يتلقون الربح بدون منافسة تفرض بقوة الخيارات الصعبة، وينهار المديرون الحكوميون. فالحكومة إذاً تنمو باستمرار. قال توماس جيفرسون: «التطور الطبيعي للأشياء» يقضي بأن تنمو الحكومة و «تبزغ الحرية» حتى عندما تعطي مشاريع الحكومة نتائج شنيعة ويمر مخططها ـ حتى عندما تؤذي الناس أكثر مما تساعدهم؛ فإن الحكومة لا تستطيع التوقف.

خرافة: الإعانة المالية الحكومية للمزارع تضمن لنا وافراً من الإمدادات الغذائية.

حقيقة: سيكون الطعام وافراً حتى دون إمدادات مالية حكومية.

يعطي الكونغرس إلى المزارع بلايين من النقود التي تدفعها أنت للضرائب. عندما شاهدت الرئيس بوش يغني مهللاً لضمان المزارع والاستثمار الريفي، عجبت حقاً كيف التف حوله العشرات من أعضاء الكونغرس كي يظهروا في الصور وهم يصفقون؟!

الإعانة المالية الحكومية للمزارع موضوع محبب للسياسيين؛ لأن المزارع الكبيرة لها أهميتها في التصويت، ومعظم مزارع الولايات ليس لديها رؤية سياسية محددة. دائماً تتأرجح باستمرار. بالإضافة إلى ذلك المزارع ذات طبيعة شاعرية، لا أحد يريد أن يخسّر مزرعة العائلة. ويعتقد الناس أنه دون إعانة مالية حكومية للمزارع لن تحصل على إمداد معتبر من الطعام.

ولكن يا لهذه الخرافة الجنونية.

مئات من «المزارعين» الذين يحصلون على نقودك التي تدفعها للضرائب يعيشون في مدينة نيويورك. بضعة منهم فقط وافقوا على إجراء مقابلة معنا مثل مايك سونينفيلدت Mike Sonnenfeldt.

يعمل سونينفيلدت بتجارة العقارات. يعيش على بعد بضعة بنايات مني في شقة أنيقة، وفي مبنى يعيش فيه أيضاً ستيفن سبيلبرغ وستيف مارتين. يجمع سونينفيلدت الإعانة المالية الحكومية لزراعة القطن.

ستوسل: لم تجمع الإعانة المالية الحكومية للقطن؟

مايك سونينفيلدت: لا أعلم أبداً.

ستوسل: كيف لك ألا تعلم؟

مايك سونينفيلدت: لأنني كنت قد اشتريت قطعة أرض، ثم تم استبدالها بقطعة أرض أخرى، وأنا لا أعلم بالضبط لماذا أحصل على تلك المعونة.

هكذا تجري الأمور غالباً. عندما تبدأ الحكومة بالتوزيع، فإنها لا تتوقف إلا نادراً، ولا يهم مدى السخف الذي تصل إليه.

حصل تيدتورنر على 491.179$ من الإعانة المالية للمزارع، وحصل دافيد روكفلر على 524.167$، وانرون كين لي على 22.486$.

لنكــن عادلين، ونقول: إن معظــم الإعانة المالية الحكوميــة للمزارع تذهب إلى المزارع الحقيقية التي هي في الأغلب تجارات زراعية وليست «مزرعة العائلة» التي يعشقها السياسيون.

لقــد أجريت مقابلة مع مالكــي مزرعة من نمط مزرعة العائلــة وهما فريد ولاري ستاره Starrh: ويعملان في زراعة القطن في كاليفورنيا. خلال سبع سنوات جمعا 3.5 مليون دولار من نقودنا.

ولقد استاءا عندما لقبتهم «ملكات الإعالة الحكومية»

فريد ستاره: أنا أستاء من تلك الملاحظة.

كان فريــد ولاري يحباني حتى تلك اللحظة. كانا يشاهدان برنامج 20/20 ويقولان إنهمــا من المعجبين ــــ أظن أن هذا كان السبب في قبولهما إجــراء المقابلة. قالا إنهما يؤمنــان بوجوب تقليص الحكومة، ولكنهمــا يؤمنان أيضاً أنهمــا يستحقان الحصول على أموالــك، لأن لزراعة القطن «احتياجات خاصة» يصعب تصور عائلة ستاراه من المحتاجين: لأن لديهم مزارع شاسعة تمتد مسافة 12.000 آكر من شافتر كاليفورنيا. لكنهما يقولان: إن التكاليف ازدادت أكثر من الأسعار. الإعانة المالية الحكومية تشكل قسماً بسيطاً من دخلهما، لكنهما يقولان: إنها ضرورية ولا يمكن دونها جني الأرباح.

ورداً علــى ذلــك أقول: «وماذا في ذلك؟» عدم جني الأربــاح لا يعني أن يسمح لهما بأخــذ النقود منا. التجارات التي لا تجني الأرباح تفلــس وتغلق ببساطة. مثل ول ورث Woolworth و TWA وكذلك يغلق 20.000 مطعماً في كل سنة. إن الحرية في الفشل هــي التي تساعد أمريكا علــى البقاء مزدهرة، إذ تعطــي الأشخاص الحرية للابتكار والإنتــاج الجديــد. يلاحظ كرســي إيــدوارد Edwards في كتابــه (تقليص الحكومة الفيدراليــة Down sizing the federal Government) أن «نحــو عشــرة بالمئة من الشــركات الأمريكيــة تفلس كل سنة، وذلك بسبب ســوء الإدارة، والمنتجات الفاسدة، وأسبــاب أخرى.. كما لاحظ أن «بيانات أخرى تشير إلى أن أكثر من نصف الشركات التجارية الجديدة تختفي خلال أربع سنوات من بدء تأسيسها..».

لكن هذا لا يسمح بحدوثه في المزارع التي تتلقى الإعانة المالية الحكومية. عندما لا يستطيع فريد ولاري جني الربح: تدفع أنت لإعالتهم.

فريد ستاراه: أنا لا أعدها إعالة أبداً، وأرفض رفضاً باتاً أن أقبل ذلك.

ستوسل: لكنها كذلك. إنها إعالة حكومية. الحكومة تعطي...

فريد ستاراه: أنا أعدها وسيلة للحفاظ على زراعة حية في هذا البلد، لكن هذه هي الخرافة. يعتقد موظفو الحكومة الجهلاء في أمور الاقتصاد أن لا شيء يحدث إلا إذا تدخلت الحكومة لتأمينه. لكن الإعانة المالية الحكومية للمزارع لا تحافظ على الزراعة حية. معظم المحاصيل لا تنتفع من الإعانة، فالبطاطا واللوز والدراق والهليون والجزر والخس والبصل والطماطم وخمسون نوعاً آخر من المحاصيل لا تحصل على الإعانة. لا يوجد شح في أي من تلك الأصناف من الطعام. ينجح المزارعون في تنمية تلك المحاصيل دون أكل نقود دافعي الضرائب.

في عام 1984 ألغت نيوزيلندا الإعانة المالية للمزارع فجأة. لاقى ذلك التغيير مقاومة شرسة لكن إدواردز Edwards صرح بأن «إنتاجية المزارع وربحها وقوتها بلغت حداً شاهقاً منذ الإصلاحات» وقالت المزارع الفيدرالية في نيوزيلندا عن هذه التجربة بأنها: «أبطلت تماماً خرافة أن قطاع المزارع لن يزدهر دون الإعانة الحكومية».

ولكن مازال فريد ولاري يصرّان على أن الزراعة «لن تحيا» دون الإعانة المالية الحكومية.

فريد ستاراه: لا تريد أن تقع الزراعة على أذنها.

ستوسل: لا أعتقد أن الزراعة ستقع على أذنها. لا يمكن لأي كائن أن يقع على أذنه، لا يحصل مزارعو الدراق ومزارعو الخوخ على تلك الإعانة، لكنهم يربحون. فلم تحتاجها أنت؟

لاري ستاراه: إذا لم أستطع زراعة ستة آلاف آكر من القطن لأن الإعانة المالية الحكومية زالت ماذا أفعل بتلك الأراضي أأهملها؟

ستوسل: لا أعرف. إلى أين أذهب إذا فشل برنامجي؟ هذه سنة الحياة.

فريد ستاراه: حسناً نحن نختلف معك 110 بالمئة. ونحن على حق وأنت مخطئ.

قال لي فريد ولاري: إنه من دون بلايين الدولارات للإعانة ستختفي زراعة القطن من أمريكا.

فريد ستاراه: ستذهب هذه الزراعة إلى الصين أو إلى الهند أو إلى الباكستان.

ستوسل: هذا جيد! [فاجأهما جوابي] لنحصل على القطن الرخيص من تلك الأماكن، ونتوقف عن رمي ملايين الدولارات إليكما!

لاري ستاراه: هل هذا ما تريد؟

ستوسل: نعم! إن كنت لا تجني ربحاً فهذا يعني أنك لا تستحق أن تستمر في عملك.

فريد ستاراه: حسناً أنا أختلف معك يا جون. والمشرعون يقفون إلى جانبنا في هذا الموضوع، لذلك سننجح وأنت ستخسر.

إنه محق، إنهم سيربحون، وأنا وأنت سندفع ثمن ذلك.

في عام 1900 كانت أمريكا تملك ستة ملايين مزرعة، ووظفت وزارة الزراعة 3.000 شخص. اليوم يوجد فقط مليونا مزرعة لكن الوزارة توظف 100.000 شخص. في هذا المعدل سيبلغ قريباً عدد الموظفين أكثر من عدد المزارع.

الإعانة الحكومية تشبه المعالجة بالهيروئين. إذ إنها تمنح شعوراً طيباً، ولكن تسبب المزيد من الإعانة المالية الحكومية. ترفع الإعانة المالية ثمن القطن. وهذا يجعل مصانع الملابس تشتري قطناً أجنبياً ـ ولكن بما أن ذلك يؤذي المزارعين الأمريكيين فإن الحكومة تحد من الواردات. وهذا يسيء جداً إلى المزارعين الفقراء في أنحاء العالم لأنهم لا يستطيعون بيع قطنهم لأمريكا. لتعويض ذلك يصرف الكونغرس بلايين أكثر على المساعدات الخارجية، وبلايين أخرى للإعالة المالية للمصانع الأمريكية حتى تستطيع أن تشتري القطن الأمريكي الغالي. سياسة سيئة تلحق بالأخرى.

في عام 1954 أصرّ أعضاء الكونغرس أن الأهمية البالغة للأمن الوطني تقضي بأن تملك أمريكا صوفاً كافياً لصنع اللباس الموحد للجنود. واليوم لا تصنع معظم الألبسة الموحدة من الصوف لكن هذا لا يهم، تعطي وزارة الزراعة مئات الملايين من الدولارات لأصحاب مزارع الخراف والماعز. وصلت تلك الإعانة المالية إلى «مزارعين» من أمثال

زميلي في قناة abc ســام دونالدسون Donaldson، لأنه وزوجته كانا يربيان الخراف والماعـز في مزرعتهما في نيو مكسيكو. يدعو دونالدسون هذه الدفعات «فوضى رهيبة» (لقـد باع أسهمـه ولا يحصل اليوم على تلك الإعانة الماليـة). ويشبهها بالحسم على رهن البيـت ويقول: «طالما أن القانون في الكتب فمن المناسب استغلاله». أنا لا أجادل في هـذا المنطق: لقـد حظيت مرة بأمـوال حكومية من أجل التأمين ضـد الفيضانات بسبـب خراب منزل على الشاطئ. إذا كان مـن المناسب تسمية النساء اللاتي يحببن الإعانة الحكومية «ملكات الإعانة الحكومية» فإنه من المناسب إطلاق هذا اللقب على عائلة ستاراه وسام دونالدسون وأنا. لكن الستاراه وجد أن هذا اللقب مهني «غيره إلى ملـوك الإعانة، لأن كلمة ملكات تثير الارتياب في كاليفورنيا» قال لي لاري ستاراه: «بل ادعني الإسفنج بوب»[1].

إنــه إسفنجــة بلا ريب، إذ يمتص نحــو 3.5 مليون دولاراً مــن نقودنا. لنخرج الرفش وننقب.

في عــام 2005 أصيبــت بصدمة عنيفة عندمــا أعلن الرئيس بوشـ إلى الـ UN أن «الولايات المتحدة جاهزة لتلغي كل التعرفات والإعانات المالية الحكومية وكل الحواجز الأخرى التي تعيق الانتشار الحر للبضائع والخدمات مثلما تفعل البلاد الأخرى».

لكنني لا أظن أبداً أن ذلك سيحدث في القريب العاجل.

خرافة: نحن نحتاج أن تعطينا الحكومة قناة PBS.

حقيقة: لا. لانحتاج ذلك.

أنــا أستمتع بمشاهدة قناة PBS ولكن هذه القناة. مثلها مثل الدعم للمزارع، إعالة حكومية للأغنياء. وهي تشتهر ببثها برامج محببة عند الأطفال مثل شارع سمسم (افتح ياسمسم). لكنها تبث برامجها في الواقع إلى الأغنياء. بالمقارنة مع الأمريكيين الآخرين يشكل مشاهدو الـ PBS[2] 44 بالمئة ممن يزيد دخلهم عن 150.000$ بالسنة.

(1) بطل أفلام كرتون.

(2) PBS القناة الحكومية.

ليس من العدل أن تجبركم الحكومة على شراء تلك القناة لي. إذا أردت مشاهدة الأوبرا يجدر بي أن أدفع ثمن ذلك بنفسي. لم عليكم أن تدفعوا الضرائب كي تُضخ أوبرا La Bohéme على شاشة التلفاز في غرفة المعيشة في بيتي؟ صعب فهم هذا الأمر.

في عام 1967 كان للأمريكيين ثلاث قنوات تلفازية فقط، أما اليوم فهناك المئات من القنوات لو كان هناك طلب على الأوبرا أو على مسلسلات الـ BBC لوفرت تلك القنوات.

ذلك أن قناة الـ PBS شهيرة فقط بسبب برامج مثل شارع سمسم. ولا يوجد تفسير لشهرة تلك البرامج. هذا يعني أنه كان على تلك القناة اختراع وسائل أخرى للحصول على المال. واليوم يعطي الناس أموالاً كثيرة إلى قناة PBS حتى أن الحكومة لا تضطر أن تدفع سوى 15 بالمئة. يلاحظ دافيد بواز David Boaz مؤلف كتاب Libertarianism: A Primer أن «جميع الشركات التجارية والأعمال التي تأتيها عائدات بنسبة 15 بالمئة فقط تخسر، ولكن إذا خسرت قناة NPR[1] وقناة PBS الدعم الحكومي فإنهما لن تزولا».

كلما يقترح أحد الأشخاص تقليص ميزانية قناة PBS يقول الناس: «إنهم يحاولون أن يقتلوا برنامج شارع سمسم». لكن برنامج شارع سمسم هو تجارة رائجة، وسيكون بوسعه الاستمرار في أي بيئة. لا تحتاج برامج الأطفال إلى إعانة حكومية من أموال الضرائب. يوضح ذلك جاكوب سولوم Jacob Sullum من مجلة Reason «قناة نوجين Noggin، وهي قناة تخلو من الدعايات أكثر من قناة PBS. تعرض اثنتي عشرة ساعة من برامج الأطفال (وتشمل نسختين مختلفتين من شارع سمسم) كل يوم. وبرامج الأطفال التي يوافق عليها الآباء تعرض أيضاً في قناة Nuckelodeon وقناة ديزني وABC Family».

يقول بعض الأشخاص الذين لم يشاهدوا في حياتهم برامج 20/20 و60 دقيقة: إنه ليست هناك صحافة قوية في التلفاز إلا بدعم من الحكومة، فقط الـ PBS يمكنها

(1) المذياع الحكومي في أمريكا.

أن تعرض أفلام وثائقية «صادقة» لأن الـ PBS لا تعتمد على دعم الشركات التجارية. قبل ثلاثين سنة ادعى رالف نادر أن تقارير المستهلكين لن تبث أبداً على القنوات التجارية، وإنما ستبث فقط على القناة الحكومية؛ لأن القنوات التجارية ستحمي أصحاب الإعلانات.

واليوم يبدو خطأ رالف نادر واضحاً (وهو غالباً ما يخطئ) والعكس هو الصحيح: لا تنشر الـ PBS تقارير المستهلكين، ربما سبب ذلك أن البيروقراطيين الذين يديرونها لا يريدون الإساءة إلى أي شخص. وعلى عكس ذلك تبث القنوات التجارية العديد من تقارير المستهلكين. لقد انتقدت أهم ممول لدى مديري، ونتيجة لانتقاداتي اللاذعة الموجهة لمن يدفعون لنا ويمولوننا نلت ترقية.

لماذا؟ لأن المشاهدين يريدون أخباراً جريئة ـ وحتى أخباراً من أصحاب الإعلان الكبار. القنوات التجارية توفر ذلك، إذ حتى لو قاطعها بعض الممولين يعوض عن الخسارة بالأموال المتدفقة من ممولين آخرين أرادوا إنفاق الأموال للوصول إلى المشاهدين الذين تجذبهم تقارير المستهلكين الحسنة. تخدم السوق الحرة الزبائن، وفي عالم التلفاز الزبائن هم المشاهدون.

وخلافاً لذلك تبث الـ PBS برامجها بآلية بيروقراطية. وهذه فكرة سيئة. نحن نحتاج إلى الفصل بين الأخبار والحكومة. يكتب بواز قائلاً: «لا نريد أن تنشر الحكومة الفيدرالية صحيفة وطنية للأخبار! فلم نريد قناة تلفاز حكومية وقناة مذياع حكومية؟ أهم ما يجب فصله عن الحكومة والسياسة هو الأخبار وبرامج الشؤون العامة التي يشاهدها كل الأمريكيين. عندما تقدم الحكومة الأخبار لنا ـ بطل تحيز وتلفيق ـ فإنها تغش في ميزان الديمقراطية. آن الوقت لإيقاف ذلك».

لكن ذلك لن يتوقف. عندما تبدأ الحكومة لا شيء يوقفها.

خرافة: تساعد الحكومة المحتاجين.

حقيقة: تؤذي الحكومة المحتاجين ببعثرتها النقود العامة في كل مكان.

بعد هجمات 9/11 سنت الحكومة قانوناً متعاطفاً يدعى Supplementel terrorist Relief Act عمل إسعاف لاحقات العمل الإرهابي وقضى ذلك القانون بإعطاء قروض مخفضة الفائدة إلى التجارات الصغيرة التي تأذت من الهجمات وذلك لمساعدتها في عملية الترميم. كان من المفترض أن تساعد القروض الفنادق والمخازن الصغيرة والخدمات التجارية في الناحية المتضررة من مانهاتن. ولكن كالمعتاد بعثرت الحكومة نقودكم في كل مكان. فذهبت القروض إلى محلات دانكن روناتس Dunkin` Donuts في كونيتيكت البنسيلفينيا، جورجيا، فيرمونت وأوهايو. دافع مدير دانكن دوناتس في فيرمونت ويدعى توني سيلفا عن تلك القروض قائلاً إن 9/11 أثرت في تجارته «بدلاً من أن يشتري الأشخاص قهوة كبيرة وبضعة معجنات دوناتس أصبحوا يشترون قهوة صغيرة ودونات واحدة».

كان من المفترض أن يوفر قانون الفعل الوطني The Patriot Act الإعانة الحكومية إلى الولايات لتجهز موظفي الإطفاء والشرطة والـ EMS الذين يعملون في الجبهة الأولى لدرء الهجمات الإرهابية. لكن يبدو أن أعضاء الكونغرس الذين كتبوا القانون كانوا يؤمنون أن الشعور الوطني يبدأ في البيت قُسّمت حصص الأموال بصورة معقدة بحيث تحصل كل ولاية على نفس المقدار مهما كان حجمها أو موقعها ولم يؤخذ بالحسبان عامل الخطورة.

وكانت إحدى النتائج أن الشرطة والإطفاء في كاسبير وايومينغ (عدد سكانها 49.644) أنشأت نظاماً حديثاً متطوراً للاتصالات بحيث يتكلمون مع بعضهم ومع مشافهيهم. أما مدينة نيويورك (عدد سكانها 8.000.000) فما زالت تنتظر مثل ذلك النظام. حصلت بلدة كولشيستر في فيرمونت على عربة انقاذ بثمن $58.000 تستطيع أن تشق طريقها عبر الإسمنت للبحث عن الضحايا في الأبنية المتهدمة. يبلغ عدد السكان في لولشيستر 18.000 ولا توجد فيها أبنية عالية.

وهناك أفظع في ذلك. يطالب التأمين الصحي الحكومي الولايات بدفع نقود مقابل عملية الانتصاب عند الرجال. أنا أدعم فكرة حياة جنسية صحية للرجال ولكن لم تدفع الحكومة إعانة مالية لذلك؟

لا تستطيــع حكومتنـــا المنفوخــة التوقــف عن تقيّــؤ النقــود. لعدة سنــوات أنفقت المساعـدات الطبيــة ملايين مــن الــدولارات على الفيـاغــرا وعقاقير أخــرى لمعالجة ضعــف الانتصاب. طالبت حكومة كلنتون الولايات بالدفع لأن القانون يقضي أن تدفع المساعدات الطبية لكل دواء تقرّ الـ FDA أنه ضروري طبياً. وحافظ موظفو بوش على تلك السياسة لكنهم رفضوا إجراء مقابلة تلفازية حول هذا الموضوع.

أدمــن الأطبــاء علــى التمويل الحكومي حتى أنهــم يدافعون عــن أي إعانة مالية حكوميــة مهمــا كانــت جنونية ومحرجة «ضعــف الانتصــاب ليس أمراً ممتعــاً، إنه مرض» قال د. ستيفن لامب الذي يظهر غالباً على قناة ABC «يجب علاجه، يجب أن ندفع لعلاجه».

مازحته بقسوة قائلاً: «هل الجنس من شؤون الحكومة الآن؟ هل تفكر في الميزانية؟ وما يدفعه دافعو الضرائب؟».

قال: «نحن نهتم بالدفاع عنكم ولا نبالي بالتكلفة».

بالطبــع لا. التأمين الطبي الحكومي يحث الأطبــاء على إعلان «حاجات» لا نهائية من الأدوية ـ وهم يعرفون أن الآخرين سيدفعون ثمنها.

في النتيجــة ثار غضب عارم، وللأسف لم يحدث ذلك، لأن الناس أدركوا فجأة أنه لا يجب على الحكومة أن تمول الفياغرا. بل عندما ظهرت الحاجة إلى النقود لإسعاف ضحايا إعصــار كاترينا، واكتشف الناس أن الحكومة كانــت بدعمها للفياغرا تعطي ذلك العقار للمتحرشين بالأطفال، عندها سمح الكونغرس بإيقاف دفع أموال الرعاية الطبية والمساعدات الطبية لإحداث الانتصابات.

سمــح الكونغرس بذلك لكن بعضــ الولايات مازالت تدفــع. وملخص كل ذلك أنه يمكــن إيقاف المشاريع الحكوميــة. كل ما يقتضيه ذلك هو كارثة إنسانية وإعانة مالية جنونية ومحرجة.

خرافة: أنتم تعلمون ما هي الضرائب التي تدفعونها.

حقيقة: ليست لديكم أي فكرة عن ذلك.

تتفوق الحكومة على كل النشالين في التسلل إلى جيوبكم وسرقة نقودكم حتى إنكم لا تلاحظون اختفاء نقودكم.

قسم كبير من الضرائب التي ندفعها كلنا هو قسم خفي. إسهام مدير العمل في نقود الضرائب التي تذهب إلى الضمان الاجتماعي أو الرعاية الصحية لا تشاهد على وصل شيك الراتب. لكن عبأها يُنقل إلى العمال بشكل حد أدنى من الراتب، أسعار خفية أو استثمار مخفض. سبع وثلاثون بالمئة من الضرائب الفيدرالية خفية. ونتيجة لذلك لا يدرك الناس حقيقة الكلفة (العالية) للحكومة، وبناء على ذلك يطلبون خدمات حكومية أكثر.

بفضل معجزة التكنولوجية الحديثة والسوق التنافسية أصبحت المكالمات الهاتفية أرخص. تكلف مكالمة هاتفية بمدة ثلاث دقائق من ولاية إلى أخرى عشرين سنتاً، وكانت تكلف فيما مضى دولارين. ولكن لماذا تكون فواتير الهاتف مرتفعة جداً؟ لأن الحكومة تأخذ أكثر. تفحص فاتورتك بدقة تجد: «أجرة الخدمة الدولية الفيدرالية»، «غرامة الولاية»، «ضريبة الرخصة المحلية»، «ضريبة استلام للولاية»، «غرامة هاتف الطوارئ 911»، «ضريبة رسم»، «أجرة الولاية».

هذه كلها ضرائب تسلل وتضاف إلى كلفة مكالماتك. عندما ذهبت لمقابلة شخص ما في مجال الهواتف الجوالة، فوجئت أن المتحدث باسم الهواتف الجوالة ستيف لارجانت كان عضواً بارزاً في الكونغرس، والآن عليه أن يجمع نقوده من أشخاص مثلي. عندما سألته لماذا يجب علينا أن ندفع أكثر بكثير من الأجرة الشهرية للجوال، وهي «39$ في الشهر»، وهي الأجرة التي يدعونها في إعلاناتهم؟ قال لارجانت: «إنها ليست غلطتنا، معظم تلك الغرامات هي أجرة تفرضها الحكومة، وتضيفها هي إلى فواتيركم وليست شركات الهواتف» إنه محق. إذا أراد سياسي جشع نيل المزيد من

أموالكـم فبإمكانــه أن يرفع ضرائب الدخـل أو ضرائب العقــارات، لكنكم ستنتبهون إلى ذلــك وتغضبون. ولعلكم ستصوتون ضــده في الانتخابات، كيف لهم إذاً أن يرفعوا الضرائــب دون جلـب الانتبــاه؟ يطلبون مــن الشــركات أن تزيدها. تضيــف ضرائب نبراســكا 25% على فاتــورة الهاتف الخلوي للزبائــن. وأضيفــوا إلى ذلك الضرائب المحليــة وضرائب الولاية والضرائب الفيدرالية وهذا يعني إضافة 8 إلى 34 بالمئة إلى فاتــورة الهاتف الشهرية. يفعل السياسيون ذلــك أيضاً في مجالات الفنادق والتاكسي وشركات تأجير السيارات أيضاً.

تقــول شركة ترافيلوسيتــي Travelocity: إن استئجار سيارة في المطار يكلف أكثر بــ 26 بالمئة من استئجارها عن طريق الإنترنت، وذلك بسبب الضرائب المتسللة. هذه خطة ذكية: أن تجعل الناس يلومون الشركات مثل هيرتزو فرايزون عوضاً عن لومهم السياسيين العطشين للنقود.

كل ما يضع السياسيون يدهم عليه يصبح غالياً.

خرافة: «أسألك بتواضع أن تصوّت لي».
حقيقة: لا تواضع في ذلك أبداً.

في رواية إدوين أوكونر Edwin O`connor الشهيرة: صيحة الانتصار الأخيرة The Last hurrah يبطل مايور سكيفينفتون المحتال معارضة عائلة أرستقراطية عن طريق إغواء أحــد أفرادها الصغار بالانضمام إلى الخدمة العامــة. إذ يستهدف غرور ذلك الوريــث، ويغويــه بمزايا الانضمام إلى الإطفائية: خوذة حمــراء ليموزين لها صفارات إنــذار، وأضــواء لامعــة، وبطاقة اسم ذهبية براقــة. تقع العائلة في الفــخ وتتعاون معه سياسياً. يعلم سكيفينغتون Skeffington مدى تأثير إثارة الغرور لدى الأشخاص.

إنها أداة مهمة كالمشاريع الحكومية المتألقة وتأخذ أهمية عظيمة عندما تحاك بيد أعضاء الكونغرس المهرة. الأداة المهمة التي يستخدمونها هي نشرة تدعى خطأ سجل الكونغرس Congrational record.

عندمـا ينتهي يوم أعضاء مجلس النـواب ومجلس الشيوخ تبقى الأضواء منارة في مبنى قرب شارع نورث كابيتال.

إنه مكتب مطبعة الحكومة أو الـ GPO. وبينما تنام واشنطن، يدون الـ GPO التاريخ أو بالأحـرى يطبـع التاريخ منذ عـام 1873 وفي كل ليلة يجتمع فيهـا الكونغرس يطبع GPO «سجلاً» بكل ما قيل. تسجل الآلات الكاتبة في مجلس الشيوخ ومجلس النواب كل كلمة تاريخية تقال، ثم تشحن الأوراق إلى مكتب المطبعة. يظل مكتب المطبعة مفتوحاً طيلة الليل، حتى يضمن أن يكون السجل الرسمي موجوداً على طاولة كل شخص يعمل في الكونغرس في الساعـة التاسعة من صبـاح اليوم التالي. ولكن عندمـا تقرأ سجل الكونغرس تجد أن هناك شيئاً غريباً في هذه العملية فالسجل هو في الواقع ليس سجلاً عما قيل في الكونغرس. لن يرغب أعضاء الكونغرس في تعريض أنفسهم لذلك السجل هو سجل لما يريد أعضاء الكونغرس أن يظن الناس أنهم قالوه.

فحصـ طاقم برنامج 20/20 آلاف من صفحـات السجل واكتشفوا أمثلة فاضحة عما دعاه أحدهم حبراً مهدوراً. ففي إحدى نشرات سجل الكونغرس كُتب أن عضواً من أعضــاء الكونغرس هب واقفاً أمام زملائه ودعا ممثلـة المسلسلات التلفازية الشائعة كيلـي مينيغـان menighin «امرأة موهوبة وذكيـة» وكتب في السجل أيضـاً أن عضواً من أعضــاء الكونغرس أطرى على مغني الروك تيدنوجنت Nugent بكونه «ماهراً في استخدام القوس والسهم، ولمهارته في العزف على الغيتار».

وأطـرت عضوة في الكونغرس على فرقة موسيقية لمدرسـة ثانوية استخدمت آلات موسيقيـة صنعت مـن القمامة. كان هناك أيضاً تقدير لأشهـر محبي الديك الرومي وتقديـر لهـواة مراقبة الطيـور في معسكـر تشيريكاهـوا Chiricahua ولمربي النحل وغلاتهـم ولعازفة طبلـة في الثامنة والسبعين من العمر: كتب في السجل أن عضواً من أعضاء الكونغرس قال: «السيد رئيس اللجنة، أطلب إلى زملائي الانضمام إلي بتحية دوت هيل الأسطورة ليس فقط في بلدتها بل في العالم كله».

لم تذكـر في الواقع أي من تلك المقولات الإطراءات علـى أرض الكونغرس، ولكنها طبعـت وستخلد في التاريخ إلى جانب مـا تم ذكره فعلاً. كيف جرى ذلك؟ لأن السجل

الرسمي مزيف. ينص القانون على أن سجل الكونغرس يجب أن يكون «تقريراً حرفياً غنياً» أخذ الكونغرس من ذلك كله «غنياً» ولكن لم أضافوا تلك المقولات؟

حسناً افترض أنني عضو كونغرس متلهف لإعادة انتخابي. أريد أن أُبهر الناخبين ما الذي يبهرهم أكثر من ذكر مديح للشعب في سجل الكونغرس؟

إن هذا الإطراء الذي يدغدغ الغرور هو بمثابة القيام بأعمال خيرية في بلدتي.

بالطبع سأشعر بالإحراج لو وقفت فعلاً أمام زملائي وأطريت أشهر محبي لحم الديك الرومي ـ لا أحد لديه الوقت لذلك ـ إذاً سأجعل من يكتبون السجل يدونون أنني قلت ذلك. أستطيع أن أستخدم عبارات مثل «سيدي رئيس الجلسة. أقف أمامك اليوم» هذه العبارات تبدو مقنعة كما لو أنني قلتها فعلاً أمام زملائي. إضافة مقولات مثل هذه تكلف دافعي الضرائب ملايين الدولارات ولكن ماذا في ذلك؟ إنها لن تكلفني شيئاً.

لقد ذهبنا إلى بعض الناخبين الذين قدم لهم الثناء في السجل. لقد ظن ديريك فوت الشاب في ميسيسيبي أن عضو الكونغرس في ولايته مايك إيبسي وقف فعلاً أمام الجميع ليثني على مهارته في الكاراتيه. قال ديريك «لقد فكرت أن ذلك أمر رائع» لكن والد ديريك كان يعلم أكثر منه لكنه مع ذلك كان مسروراً إذ قال لنا: «إن كانوا سيهدرون النقود فأفضل أن يهدروها على ابني».

الهدر يقدر بـ 675$ للصفحة. لاحظ عضو الكونغرس كولين بيترسون من مينسوتا «كأن الكونغرس لا يستطيع التوقف عن هدر النقود على أي شيء».

نعم لا يستطيع.

لا يستطيع أعضاء الكونغرس إضافة «التطويلات» إلى السجل وحسب بل يستطيعون تغيير أي كلمات قالوها ولم تعجبهم. أحد التغيرات المشهورة عندما غضب النائب جيرالد سولمون على النائبة لويز سلاتر وقال:

جيرالد سولمون نيويورك: ماذا قلت؟ أتحاولين إخراسي. يجدر بك ألا تفعلي ذلك يا سيدتي... من تظنين نفسك؟

لكـن ذلك لم يكتب في سجل الكونغرس بـل غير سولمون وموظفوه ذلك التعليق إلى هذا الشكل:

جيرالد سولمون نيويورك: أقول إلى السيدة اللطيفة التي أكن لها فائق الاحترام...

سيخلـد التاريخ أن هذا هو ما حصل فعلاً في ذلك اليوم على أرض مجلس النواب في الولايـات المتحدة الأمريكية. إنها واحدة من الأكاذيب العديدة التي تطبع يومياً في نشرات مجلس الكونغرس.

عندما تفحصنا صفحات السجل وجدنا أن الشخص الأكثر كذباً من السجل كانت عضو الكونغرس من فلوريدا إيلنا روز ليتينن lethinen لقد وضعت فيه إطراءات لمطعم محلـي، ولفريق الكشافة من الفتيـات، ولوكالة سيارات محلية، وللفرقة الموسيقية من الأطفال الذين صنعوا آلات موسيقية من القمامة. رفضت روز ليتينن مقابلتنا فقابلنا!! الشخص الثاني في الكذب وهو جيمس ترافيكان من أوهايو.

مـلأ النائب ترافيكان السجـل بإطراءات لعلـب الصابـون derby، وحفلة العيد السنوي للثانوية التي درس فيها، ولصديق له بجمع السيارات القديمة، ولمحب تنس محلي وأشياء أخرى.

كانت مواجهته في ذلك مغامرة.

النائـب جميس ترافيكان (أوهايـو): ماذا تفعل ياجون هنا في مبنى الكابيتول؟ مـاذا تفعـل لي بحق الجحيم؟ هيا سجـل على الشريط أريـد أن أعرف ماذا تفعل هنا...

ستوسل: أنا هنا ـ

ترافيكان: أنـت تحشرني في زمـرة السياسيـين الأغبياء البلهـاء الذين يهدرون النقـود هباء، أنـا لا أفعل ذلك، لكنك هنا تكلمني عـن كتابة بعض الإطراءات للإنجازات التي حصلت؟

ستوسل: لكنك تهدر النقود. كتابة الإطراءات هي هدر لنقودي.

ترافيكان: أنا لم أسألك ذلك. بل سألتك من الذي أرسلك إلى هنا؟ ومن قال لك إن إطراءاتي هي هدر للنقود؟

ستوسل: «أرسلني» هنا؟

ترافيكان: لأنهم كاذبون. أنا أذكر إنجازات معينة في سجل الكونغرس، لا أعتذر عن ذلك، بل أنا سعيد أنه يمكنني أن أذكر إنجازاتهم تلك. ما يجب أن يفعله أولئك الجبناء ـ هو أن يصدروا قراراً بإيقافي عن ذلك. جيم ترافيكان سيذكر كل إنجازات ناخبيه كما يفعل كل زملائه الآخرين في الكونغرس.

ستوسل: هل يحق لك أن تصرف بعض النقود لأن زملاءك يصرفون الكثير منها؟

ترافيكان: لا، أنا لا أقول إن ذلك هدر للنقود. أنت من يُعد ذلك هدراً لنقودنا.

ستوسل: لكن لم يجب علي أن أدفع أنا لذلك؟

ترافيكان: لأن هذا التصرف موجود في الكونغرس ويجب على الجميع المشاركة به.

يجب على الجميع المشاركة، وأعضاء الكونغرس يفعلون تقريباً كل ما يشاؤون. أقول تقريباً: لأنه بعد المقابلة تم القبض على ترافيكان بتهمة أنه كان يأخذ الرشاوى ويستخدم موظفي الحكومة للعمل في مزرعته، لقد أدين بأخذ الرشوة، وإساءة استخدام السلطة، والفساد، وطرد من مجلس النواب وسجن.

ولم يذكر ذلك في سجل الكونغرس.

خرافة: «أقسم أن أتولى منصبي ليس أكثر من مدة (كذا دورة).

حقيقة: «أشعر الآن أنني عظيم؛ لذلك سأتمسك بالسلطة لأطول مدة ممكنة».

قد يقول سياسي ما أحياناً: إنه سيأتي إلى واشنطن لمدة معينة فقط. إنه سيكون مختلفاً إذ لن يجعل من السياسة حرفته، لكنه سيكون مواطناً منتخباً، مثل إبراهام لنكولن يخدم بلاده بضعة سنوات، ثم يعود إلى حياته الخاصة. قبل أن يصبح رئيساً لأمريكا خدم لنكولن دورة واحدة في الكونغرس، وقال: إن أكبر خطر يتهدد أمريكا يأتي من «الرغبة الجشعة في تولي المناصب لشق الطريق في الحياة دون كفاح».

نحن لا نسمع سياسيينا اليوم يعترفون بذلك. ومثال ذلك جورج نيثركت Nethercut مـن ولاية واشنطن. ففي عام 1994 عندما رشح نفسه مقابل المتحدث باسم المجلس التشريعي توم فولي وعد أنه سيتولى منصبه ست سنوات فقط.

وفـولي كان قد خدم مدة ثلاثين سنة. نشر نثركت إعلانات ادعى فيها أن «ثلاثين سنة مدة بالغة الطول».

ساعـدت تلك الإعلانات نثركـت على الفوز، ثم أتـى إلى العاصمة واشنطن حيث يعامـل أعضـاء الكونغرس وأعضاء مجلس الشيوخ كالملـوك. إذ يملكون مكاتب فخمة أنيقة، ولديهـم طاقم من الموظفين لخدمتهم، وقطار مترو خاص. تدعوهم الشركات التجارية إلى أماكن ساحرة غريبة. فيشعرون أنهم أشخاص متميزون، ويندمون أنهم وعدوا بالرحيل عن المنصب يوماً ما. هذا ماجرى لنثركت إذ أعلن: «لقد غيرت رأيي» والدافع في ذلك ليس المعاملة الملوكية كما قال: «لقد فكرت ملياً وصليت كثيراً كي أعلم ما في صالح الولاية».

بعض الأشخاص الذيـن تحدثنا إليهـم في ولايـة واشنطن لم يكونـوا سعداء لانقلابه هذا.

رجل أول: أعتقد أنه يظن أننا أغبياء جداً.

رجل ثان: ما إن دخل سلب لبه ذلك الأسلوب في الحياة.

ومـع ذلـك أعيد انتخـاب نثركت، فنظام الكونغرس صارم جـداً، ولا يطرد من حنث بوعده. في عام 2004 بلغ معدل إعادة انتخاب الأعضاء في الكونغرس أكثر من 99 بالمئة.

عندما يتسلم السياسيون السلطة يبقون فيها حتى مماتهم ـ أو حتى يتم تجريمهم.

وعد سكوت ماك أنيس، عضو الكونغرس من ولاية كولورادو أن سيخدم فقط ثلاث دورات، لكنه بعد ذلك أصبح قوياً ومقرباً من السلطة ـ أو حسب ما يقول هو، قريباً من المعرفـة. فقرر أنه كان «جاهلاً» عندما وعد أنـه سيرحل عن منصبه «كان تصريحي ذلك مبنياً على الجهل» هذا ما قاله لناخبيه: «لقد اكتشفت الآن أهمية الأقدمية».

أخرجـوا الرفش للتنقيب. أمضى مـاك أنيس سنـوات في المجلس التشريعي في ولايتـه. إنـه يعرف أهمية الأقدميـة كلهم يعرفون ذلك. لكنهـم عندما يتذوقون طعم المجد لايريدون أن يتخلوا عن مناصبهم.

فـاز النائب تـوم تانكريـدو Tancredo بفضل الدعاية التي حظـي بها قسمه. إذ أرسل بريداً إلكترونياً لكل داعميه يحدد به المدة التي سيشغلها في منصبه ويشير فيه إلى خـداع السياسيين في هذا المجـال. كتب تاندكريدو «لقد قدمـت عهداً وأنا ملتزم بـه.. مواطن مشرع أفضل من سياسي يدوم أبداً.. لقد كنا دائماً صريحين بعضنا مع بعض، ولن أغير ذلك. أؤمن أن مساعدتكم.. حاسمة لفوزي في الانتخابات. بعد ذلك بستـة عشر شهراً نشـرت صحيفة روكي ماونتن نيـوز Rocky Mountain News أن تانكريدو قال لناخبيه: «إنه كان يتحدث مع الرب الذي أعفاه من الالتزام بقسمه».

أقسـم زاك وامب نائب مـن تنسي أن يتـولى منصبه اثنتي عشـرة سنة. وعندما سألتـه مجلة وال ستريت Wall street journal لِمَ لَمْ يحدد مدته بست سنوات أجاب وامب: «لقد زحفت على الزجاج كي أصل إلى هنا».

لذلك تبدو فكرة المواطن الذي يخدم بلده لمدة محددة محببة، إذ يبدو أنه مخلص في الخدمة ولم يزحف على الزجاج كي ينتفع من المنصب مدى الحياة.

الخبر الجيد هو أنه لم تتم ترقية أي ممن حنثوا بالقسم إلى مناصب عليا، وذلك علـى عكس من التزمـوا بالقسم مثل توم كوبورن (OK)، وجيـم دوميت (SC)، وجون ثون (SD)، وهم الآن أعضاء في مجلس الشيوخ، وكذلك مارك سانفورد (SC)، وجون باداتشي (ME)، وبوب ريلي (AL)، وهم اليوم محافظون.

خرافة: العاملون في المناصب الحكومية مثل عليا لبقية المواطنين.
حقيقة: العاملون في المناصب الحكومية منافقون غالباً.

في عام 1992 عندما سُئل المرشح لرئاسة الجمهورية بيل كلينتون إذا ماكان جرب المخـدرات أجاب: «أنا لم أخرق قط قوانين بلادي» تبـين أن قوله ذلك كان واحداً من

الألاعيــب اللغويــة التي يتقنها المحامون. وهذا ما اتضــح عندما سأله مراسل صحفي آخر بعد ذلك عما إذا كان قد خرق قوانين بلاد أخرى.

فقــال: «جــواب هذا السؤال أنني لم أخرق أي قانــون ولاية. عندما كنت في إنكلترا جرّبت الماريجوانا مرة أو مرتين ولم أحبها ولم أستنشقها».

كانــت هناك ابتسامــة مصطنعة على وجهــه، وكان من الواضــح أن المخدرات لم تعنــه كثيراً. هل تتذكــرون عندما عزف ساكسفون في التلفاز؟ الأمر الذي أثار حماس المشاهديــن في تلك الليلة هو الحديث في الماريجوانا: «لقد تعلمت كيف أستنشقها عن طريــق عزف الساكسفون» قال كلنتون وهو يبتسم «يجب أن تنفخ ثم تستنشق» ضحك الجميع عندها وصفقوا.

يا للمتعة يتعاطى الرئيس المخدرات، وكذلك سياسيون آخرون.

آل غور: عندما كنت طالباً بضعة مرات في الجيش.

بيل برادلي عضو أسبق في مجلس الشيوخ: لقد دخنت الماريجوانا عدة مرات في حياتي، لكني لم أتعاط الكوكائين أبداً.

بروس بابيت، أمين سر الداخلية الأسبق: لم يبد عندها ذلك الأمر ذو شأن.

اعترف الرئيس جورج W بوش بـ «أخطاء» في شبابه. قال أبوه ـ عندما سئل إن كان دخن الحشيش ـ: «لا، لكنني لا أستطيع الجزم بالنسبة لأولادي» يبدو أن لا أحد يأخذ هــذا الأمر على محمل الجد. بل إنه مدعاة للمزاح. لقــد أشارت الإحصائية الأخيرة لتعاطــي المخدرات أن أكثر من ثلاثين مليون أمريكي جربوا الكوكائين، وتسعين مليوناً تعاطوا الماريجوانا على الأقل لمرة واحدة. «لا أهمية لذلك» كما قال بيل كلينتون.

ولكن إن كان الأمر قليل الأهمية فلماذا طالب هو ونائبه تشديد قوانين المخدرات، وإطالــة عقوبــة الحبس؟ ولمــاذا يقبض على 1.5 مليــون أمريكي كل سنــة بتهم تتعلق بالمخــدرات؟ وأكــبر نسبة مــن الأشخاص المعتقلــين اتهموا بحيــازة الماريجوانا. عدد الأشخاص المعتقلين بتهمة تعاطــي الماريجوانا أكبر من مجمــوع الأشخاص المعتقلين بتهم الاغتصاب والسرقة والقتل معاً. ثمان من كل عشرة اعتقالات تتم بسبب الحيازة

على الماريجوانا فقط. وهو ما يعترف السياسيون بفعله. هاها نحن ندخن الحشيش ونمزح في الأمر ولكن إن قمتم أنتم بذلك سيقبض عليكم. ياللنفاق.

ويتجلى النفاق أيضاً عندما يمسك بأحد أقرباء أو أصدقاء السياسيين .

أدين ابن دوك كانينغهام (نائب في كاليفورنيا) لحيازة أربع مئة باوند من الماريجوانا، ونقلت صحيفة Mother Jones مازر جونس أنه أثناء المحكمة بكي عضو الكونغرس، وتوسل طالباً الرحمة وشارحاً أن ابنه «طيب القلب ومجدّ». كان هذا هو عضو الكونغرس نفسه الذي كان يدين «المتساهلين من القضاة الليبراليين» ويثور ضد «تخفيف عقوبة المتاجرة بالمخدرات» ـ خففت العقوبة على ابنه ونال الرحمة التي حُرم منها الآخرون. حكم على ابن كانينغهام بالسجن ثلاثين شهراً ـــ وهي نصف المدة الإجبارية من العقوبة المخففة. ومن السخرية أن عضو الكونغرس كانينغهام نفسه اعترف فيما بعد بأخذ 2.5 مليون دولار من الرشاوى شملت سيارة رولزرويس ويختاً. لقد استقال من الكونغرس ولعله قابع في السجن وأنتم تقرؤون الآن ذلك.

كذلك كانت حال المرشح للرئاسة جون ماك كين (نائب في أريزونا) في عام 2008 وهو الذي يدافع دائماً على تشديد قوانين المخدرات، ولكن عندما اعترفت زوجته سيندي بسرقة البيركوسيت والفيكودين من جمعية خيرية، لم تُدَن. يدرج البيركوسيت والفيكودين في اللائحة II من المخدرات وفي نفس اللائحة التي يصنف فيها الأفيون. كل حبة مسروقة يُعاقب عليها بالسجن لسنة كاملة وبغرامة مالية لكن السيدة ماك كين ذهبت إلى برنامج قبل المحكمة، وتمكنت من التملص، ولم تدخل تلك الجنحة في سجلها.

ينافق السياسيون في شتى وجوه حياتهم الخاصة. يتحدث بيل كلينتون وزوجته هيلاري عن أهمية التعليم الحكومي، ويعارضان كفلاء المدارس الذين يجعلون الفقراء يهربون من المدارس الحكومية. ولكن عندما انتقلت عائلة كلينتون إلى واشنطن سجلوا ابنتهم تشلسي في مدرسة خاصة فاخرة تدعى سيدول فريندز Sid Will Friends ويبلغ قسطها 24.000$.

وجـدت مؤسســة المـيراث Heritage Foundation أن تقريبـاً نصـف أعضـاء الكونغرس الذين لديهم أولاد يرسلوهم إلى مدارس خاصة في مرحلة ما في تعليمهم. ولم يرغـب بالتحدث إلينا عن ذلك سوى عضو الكونغرس جيسي جاكسون لقد أرسله أبوه ريفرند جيسي إلى أفضل المدارس الخاصة والحكومية بحسب المنطقة التي سكنوا فيهـا. لقد أمضى الثانويـة في مدرسة سانت آلبانز المخصصـة للنخبة، وحيث أرسل أيضـاً آل غـور النائب الأسبـق للرئيس ابنه، واليوم يبلغ قسط تلـك المدرسة أكثر من 24.000 دولار ومـع أن جاكسون تمتع بفوائد التعليم الخاص فإنه منع إعطاء الأهالي كفلاء، ذلك الأمر الذي سيؤدي إلى إعطاء الفقراء ما ناله هو من فوائد التعليم.

النائب جيمس جاكسون: عندما ذهبت إلى المدرسة الثانوية لم يكن متاحاً لأهلي استخدام كفيل.

ستوسـل: لكن أهلك كانوا يستطيعـون تحمل نفقات المدارس الخاصة. الكثير من الناس لا يستطيعون؟

جاكسون: بالطبع الكثير من الأمريكيين لا يستطيعون.

ستوسل: إذاً دعهم ينالون ما نلته أنت من التعليم.

جاكسون: لا أحد يمنعهم عن ذلك اليوم. إنهم يختارون لأنفسهم.

ستوسل: الأهل الذين لا يملكون النقود عالقون، عالقون في سجن من...

جاكسون: أنا لا أدعوه سجناً إنه ليس أفضل نظام تعليم متوفر.

ستوسل: لديك أولاد. إلى أين سترسلهم؟

جاكسـون: إلى مزيـج مـن مدارسـ حكومية خاصة دينيـة ودنيويـة. أريدهم أن يحصلوا على أفضل تعليم أستطيع أن أقدمه إليهم.

بالطبع يريد ذلك. وبعد المقابلة علمنا أنه سجل ابنته في مدرسة خاصة.

أليسـ لطيفـاً أن يملك الجميـع ذلك الخيار؟ لكنهـم لا يملكونـه؛ لأن السياسيين المنافقين يتملقون اتحادات الأساتذة . لا كفلاء لكم ولهم مدرسة سانت ألبانز.

خرافة: «أنا من الحكومة وأنا هنا لأحميكم».

حقيقة: النجدة.

أحيانـاً يتسبـب ازدراء السياسيـين لخيـارات السـوق إصدارهـم مراسيم بالغة السخـف. ومثال جيد على ذلـك عندما حاولت لجنة فرص العمـل المتساوية EEOC تحقيق «المساواة» بين عدد الرجال والنساء العاملين في مطاعم هوترز. إن لجنة فرص العمل المتساوية EEOC هي هيئة أنشأها الكونغرس عام 1964 لتعزيز قانون الحقوق المدنيـة. ويقضي ذلك القانـون بمنع التفرقة في أماكن اللهـو والتسلية العامة. هوترز هي سلسلة مطاعـم تشتهر باجتذاب الزبائن الرجال عن طريق توظيف نساء نادلات بأجسام مغرية وثياب تبرز مفاتنهن.

لقد توسعت شركة المطاعم تلك حتى أنها اليوم توظف 30.000 شخص. يعد الكثير من الناس أن هذه المطاعم ناجحة لكن حكومتنا لا تعدها كذلك. وهذا ليس لأن هوترز تستخـدم الإثـارة الجنسية لتبيع؛ بل لأن النساء النادلات هـن جميعاً.. نساء يا للهول جميع نادلات هوترز نساء! صرخت لجنة الفرص المتساوية: «إنها تفرقة!».

كانـت التفرقة العنصرية هي السبب الذي دعا الكونغرس إلى إحداث لجنة فرص العمل المتساوية EEOC وعلى مدى السنين وجدت هذه الهيئة لائحة طويلة من الأماكن التي تحتاج إلى ضبط. والآن وجدت أن مطاعم هوترز تخرق قوانين المساواة، لأنها لا توظف عدداً كافياً من الرجال.

قالـت الحكومة: إن عمل هوترز هـو تقديم الطعام و «لا توجد سمات جسدية خاصة فقط بالنساء يتطلبها تقديم الطعام والشراب إلى الزبائن في المطعم». طالب محامو لجنة فرص العمل المتساوية من مطاعم هوترز تقديم بيانات التوظيف لديهم ولاحقوهم لأربع سنوات. تكلفت شركة مطاعم هوترز مايقرب من مئات الآلاف من الدولارات للغرامات القانونيـة وحدها. قال لنـا نائب رئيس مطاعم هوترز مايك ماك نيل: إن موظفي لجنة فرص العمل المتساوية طلبوا مراجعة الكثير من الأوراق مثل «كتيبات الموظفين، كتيبات التدريب، كتيبات التسويق ـ كل شيء له علاقة بكيفية إدارة شركتنا..».

ثـم أصدرت اللجنة لائحة من المطالـب. وأول مافعلته هو اختلاق و «تحديد» زمرة من الرجال الخائبين الذين لم توظفهم شركة مطاعم هوترز. (بالطبع هؤلاء الرجال لم يرسلوا طلبات توظيف ـ لكن تحديد أمور لا وجود لها لا يصعب أبداً على الحكومة) حسـب ما قالـه ماك نيل فإن اللجنة أعلنت الآتي: «نريدكـم أن تؤسسوا ذخيرة مالية بمبلـغ اثنـين وعشريـن مليـون دولار لتلك الزمـرة الافتراضيـة من الرجـال الذين سيبتغون العمل عندكـم» نريدكم أن تقوموا بدراسات حول تدريب الحساسية؛ لتعليم كل موظفيكم كيف يكونون حساسين لفهم حاجات الرجال.

قـررت شركة مطاعم هوترز المقاومة، وشنت حربها بذكاء، ليس في المحكمة وإنما في محكمة الرأي العام.

تظاهرت نادلات هوترز في واشنطن مناديات «احموا وظائفنا»، ولبس أحد مديري هوتـرز ثيـاب نادلة، وطلب إلى الكامـيرات تصويره وهو في لحيتـه، مثال عما سيبدو «نادل هوترز» عليه. كان الأمر ممتعاً للمشاهدة، ونجحت الخطة. رضي محامو «زمرة الرجال طالبي العمل» بتسوية خارج المحكمة بلغت 3.75 مليون دولاراً. كان المبلغ كبيراً، لكنـه أقل بكثير من مبلغ اثنين وعشريـن مليون دولار الذي طالبوا فيه سابقاً. تنازلت لجنة فرص العمل المتساوية عن مطالبها في تدريب الحساسية. ورضيت شركة هوترز بتوفير عدد أكبر من الوظائف لقيادة الباص مثلاً. أو في الإدارة. وظائف لا تحتاج أن تقوم بها امرأة.

هـل تسببـت شعبية هوترز ومبالغات اللجنة (انظر الفصـل2 هووهي) في إحراج الحكومـة كي تقلص من عمل تلـك اللجنة؟ بالطبع لا. اليوم يبلـغ عدد موظفي لجنة فرص العمـل المتساويـة 2.400، وصرفت 326.8 مليـون دولار عـام 2005، أي أكثر بملايين من العام السابق.

خرافة: العاملون في حماية البيئة علماء نزيهون.

حقيقة: العديد منهم ناشطون متطرفون.

أنا أريد أن تحمى الأجناس المهددة بالانقراض. وأعتقد أنكم تريدون الشيء نفسه فمن الذي لا يريد ذلك؟ لكن قبل عدة سنوات قال لي أصحاب المزارع: إن هيئات حماية البيئة الحكومية أصبحت تسيطر عليها مجموعات متطرفة (متعصبون للبيئة)، وهم شديدو العداء، ويكرهون فكرة الملكية الخاصة بشدة، فيستخدمون موضوع الأجناس المهددة بالانقراض كي يدفعوا أصحاب المزارع إلى التخلي عن أراضيهم.

ظننت أنهم كانوا يبالغون إلا أنني عرفت قصة وشق كندا. الأوشاق حيوانات محببة، ذات فرو تشبه القطط المنزلية ولكن بحجم أكبر. تعيش عشرات الألوف منها في شمال أمريكا. لم يعلم العاملون في البيئة ما إذا كانت تلك الحيوانات تعيش في غيفورد بينشوت وفي غابات ويناتشي. فقاموا بتمويل مليون دولار لإجراء دراسة ومعرفة ذلك.

هذا قد يسبب الخوف للأشخاص الذين يعيشون ويعملون في تلك المناطق: لأن وجود أجناس مهددة بالانقراض سيؤدي إلى زيادة المراقبة، مما يدفع الأشخاص إلى الهرب من تلك المناطق. استخدم قانون حماية الأجناس المهددة بالانقراض لمنع التحطيب، ومنع التصرف بالمياه وإيقاف عدد كبير من مشاريع البناء والتطوير. قد تكون لافتة «منطقة مغلقة» نتيجة لاكتشاف وجود أجناس مهددة بالانقراض. اكتشاف وجود أجناس مهددة بالانقراض يُذعر المزارعين وأصحاب الأراضي الذين يعيشون من مزارعهم وأراضيهم.

قال لنا محامو حقوق الملكية مايك بولسون: «نحن نقول لهم: إذا وجدت حيوانات مهددة بالانقراض في منطقتكم، فسنأخذ منكم معيشتكم، وسندمر مجتمعاتكم، وسنجعل بقاء عائلاتكم صعباً». في كولتون، كاليفورنيا سبب اكتشاف وجود الذبابة المحبة للورود Dehli Sands وهي مهددة بالانقراض سبب اكتشافها إجبار مقاطعة سان برنار دينو على تغيير موقع مركزهم الطبي الجديد ـ كلف ذلك ثلاثة ملايين دولار ـ وذلك لتجنب إزعاج «عادات الذبابة». هناك عشرات من الأمثلة الأخرى على جنون حماية الأجناس المنقرضة، ولكن لذكرها جميعاً سأحتاج إلى كتاب آخر. لإجراء الدراسة في ولاية واشنطن لتحري وجود الأوشاق، علّق علماء البيولوجيا الحكوميون على الأشجار أجزاء من سجادة نُقعت في مزيج من النعنع البري آملين أن

يحكّ الوشق نفسه فيها فتعلق عليها الأوبار ـ وهي دليل على وجود الأوشاق في منطقة الغابـات هذه. وبعد مدة عندما أرسل علماء البيولوجيا تلك النماذج إلى المخبر كانت النتيجة إيجابية بوجود شعر من وشق كندا.

هـل كان ذلك دليلاً علـى أن الوشق الكندي المهدد بالانقراض كان قد انتقل إلى تلـك المنطقة مـن واشنطن؟ في الواقع لا فلقد تبين أن علمـاء البيولوجيا أولئك زوّروا الاختبار. لقد ذهبوا إلى حديقة حيوان قريبة فيها عدد من أوشاق كندا وأخذوا عينات مـن شعرهـا وبعثوا بهذا الشعـر إلى المختبر للفحص. لقد اعـترف علماء البيولوجيا بذلـك عندما شاهدهم موظف من هيئة الأسماك والحياة البرية. وكان متقاعداً فلم يخش غضب زملائه فشكاهم.

لم يفاجـأ جـين بيرز بهذا الغش، وكان قد عمل عامل بيولوجيـا في هيئة الأسماك والحياة البرية لثلاثين عاماً. لقد قال لي: إنه شهد تلك الهيئة تتغير من هيئة تدعو إلى العلم إلى هيئة تدفع نحو التطرف والمبالغة في حماية البيئة. وقال: إن علماء البيولوجيا في هيئة الأسماك والحياة البرية يشنّون حملة لطرد الأشخاص من مناطق الغابات.

جين بيرز: الهيئات اليوم مجهزة بموظفين من الناشطين المتطرفين لحماية البيئة.

ستوسل: أيسيطر المتطرفون على هيئة حكومية؟

جين بيرز: هذا صحيح.

ستوسل: ألا يريدون الأشخاص «الذين يعيشون في مناطق الغابات؟».

جين بيرز: لا. هذا صحيح.

ستوسـل: إحـدى طرق إخـلاء الغابات مـن النـاس هـي اكتشـاف أجناس مهددة بالانقراض.

جين بيرز: ما إن تثبت أن هناك أي وشق في المنطقة، وأن هناك بضعة أوشاق هنا أو هناك، حتى يغدو من الضروري، منع تعمير الطرقات، ومنع ممرات التزلـج على الثلج ومنع رعي المواشي. ومن ثـم منعنا جميعاً من القيادة في هذه المناطق للنزهة.

عندما أمسك بعلماء البيولوجيا وأيديهم في القفص قالوا: إنهم لم ينووا الغش بل يريدون «التحقق» من المخبر للتثبت من قدرته على كشف وبر الوشق. وذلك عن طريق إرسال عينات «مراقبة»، وقالوا: إنهم كانوا يريدون إخبار الجميع بتحقيقهم الصغير هـذا مـا إن تظهر النتائج. قـال بيرز: «هذا مثـل قولك لي: إنك قبضـت عليهم وهم يغـادرون مصرفاً ويحملون الأموال ويقولـون: (أوه نحن فقط نختبر نظام الأمان هنا سنعيد المال غداً)».

لو أن علماء البيولوجيا كانوا فعلاً «يتحققون من المخبر» ببراءة لكانوا أمضوا وقتاً طويلاً في تصحيح السجل بعد تلك الواقعة. أشار تقرير من مكتب المحاسبة الحكومي إلى أنـه «لم تكن هنـاك إجراءات يتلقى فيها علماء البيولوجيـا الذين بعثوا بالعينات نتائج أولى. حتى ينبهوا المخبر لاحقاً عن إرسالهم غير المرخص».

لم يطرد أي عالم من علماء البيولوجيا أولئك. بل «تم تأديبهم». المتطرفون يحمون بعضهـم بعضاً. كيف يمكن لمتطرفي حماية البيئة السيطرة على هيئة حكومية؟ حسناً تأمل في الأمر. من سيتطوع لوظيفة منخفضة الراتب مع هيئة بيروقراطية ليس لديها إلا مزيـة إعطـاء السلطة والسيطرة علـى المزارعين وملاك الأراضـي؟ عالم نزيه أم متحمس متعصب؟ لهذا يسيطر في الحكومة متعصبون.

خرافة: يشجع الزعماء السياسيون على دعم المصالح العامة.
حقيقـة: إن الزعمـاء السياسيـين هـم علـى الأغلب أناسـ متطفلون يريدون أن يفرضوا أذواقهم علينا.

أعتقـد أحيانـاً أن الناس الذين يعملـون في المكاتب هم أكثر النـاسـ خطراً. يريد معظـم النـاسـ أن يدبروا شؤون حياتهـم بأنفسهم، أو يساعدوا النـاسـ، بأن يحسنوا إليهـم أو يبيعونهـم أشياء، ولكن الذين يريدون أن يديروا حياة الآخرين هم على غير هـذه الشاكلة. ففـي السعي إلى وجهة نظرهـم عن عالم كامل يـبررون وضع أسخف القيود على حريتنا مثل:

في بلتون من ولاية ميسوري يعد إلقاء كرة الثلج مخالفاً للقانون.

في نيوجرسي وأوريغون يعد تزويدك الوقود بنفسك لسيارتك مخالفاً للقانون.

في إقليم كيرن من ولاية كاليفورنيا يعد لعب BINGO البينغو أثناء السكر غير قانوني.

في إبلينوي يعد مخالفاً للقانون استعمال السلاح الناري لصيد ذكور الضفادع.

في ماساشوستس يعد غير قانوني محو ما كتب على علبة الحليب.

في فيرفاكس ولاية فرجينيا يعد خارج القانون استعمال عصي البوغو Pogo sticks في باصات المدينة.

في بالم هاربر من فلوريدا يعد مخالفاً للقانون أن يكون لديك عشب اصطناعي.

بعض هذه القوانين السخيفة قديم ورغم غباء هذه القوانين فإنها مازالت موجودة في كتب القانون. إن أفكار البيروقراطيين السيئة لا تزول أبداً. إنهم لا يلغون القوانين القديمة بل يشرعون فقط قوانين جديدة.

هل خططت أن تدهن شرفتك في أحد أيام العطل؟ لا تفعل ذلك في سبرنغ هيل من ولاية تنيسي. لأن مجلس المدينة يمنع أي «تغيير أو إصلاح في أي مبنى» في الأحياء السكنية أيام الآحاد ولو كنت ستقوم بالعمل بنفسك.

قال محافظ مجموعة صغيرة في فريندشيب هايس في ميريلاند إنه كان عليه أن يحمي مواطنيه من تدخين السجائر. فجعل بلدته تشرع أقسى قانون ضد التدخين في أمريكا. ومنع تدخين السجائر لا في المطاعم والبارات والمكاتب وحسب، بل أيضاً في الهواء الطلق.

المحافظ هو دكتور ولابد أنه أن يعرف الدراسات التي تشير إلى أن دخان سجائر الآخرين مؤذٍ وهي من أضعف الدراسات.

هذه الدراسات التي اقترحت وجود خطورة قليلة من دخان سجائر الآخرين قام بها أشخاص كانوا يعيشون مع المدخنين، ويستنشقون رائحة سجائرهم في البيت وفي

السيارات. إن فكرة أن دخان السجائر في الهواء الطلق يسبب أذىً جسيماً للصحة هي فكرة سخيفة. ولا شك أن رائحة الدخان مزعجة مثل أشياء أخرى كثيرة.

لكن المحافظ كان متحمساً متعصباً، ومنع التدخين في كل أرجاء المدينة التي تشمل الممرات الجانبية والشوارع والحدائق.

ستوسل: أنت واحد من أولئك السياسيين المتطفلين الذين يريدون أن يعلموا الناس كيف يعيشون حياتهم.

الفردمولر: حسناً لقد تم انتخابنا لندعم المصلحة العامة، وهذا جزء من المصلحة العامة.

بدا المحافظ صادقاً وشعر مواطنو فرنشيب هاير أنه يحميهم بقلق. ومع ذلك وبعد مدة قليلة من إجراء تلك المقابلة تم القبض عليه: لأنه لامس الأعضاء التناسلية لصبي في الرابعة عشرة من العمر في حمام في كاتدرائية واشنطن الوطنية. ووضع تحت المراقبة، وأبطل مجلس القرية قانونه. الآن نعلم ما يتطلبه إبطال القانون.

الأشخاص الذين يملأهم شغف هائل بتحديد تصرفات الآخرين هم الأشخاص الذين يجب أن نتوخى الحذر منهم. ولكن للأسف مازالوا يتقلدون المناصب. والأمر الحسن أنهم لا يستطيعون السيطرة على معظم أمور حياتنا.

خرافة: يحكم الرئيس والكونغرس أمريكا.

حقيقة: الشعب هو الذي يحكم أمريكا.

يتحدث السياسيون ووسائل الإعلام حول موضوع «من يحكم البلاد؟» يا للغرور!

سيناتور جون درو: [في قناة CNN] «يجب علينا أن نتذكر أنه علينا أن نحكم هذه البلاد في السنوات الأربع القادمة...» (26-11-2000).

فلاڤيا كولغان: [في قناة MSNBC] «يمثل عجز بوش رئيساً في حكم البلاد الآن (28-10-2005).

رالف نادر: [برنامج شارلي روز] «إنهم يعرفون من يحكم البلاد» (13-8-2005).

كريس ماتيوز: [هاردبول] «الحشد الحالي يحكم البلاد الآن...» (2-11-2005)

ستيف كرموفت: [برنامج ستين دقيقة] «هل تعتقد أن الرئيس بوش سيأتي؟»

جون ستوارت: «إنه مشغول بحكم البلاد» (24-10-2004)

أخرج الرفش للتنقيب.

أيعتقد هؤلاء السياسيون والحكام أن الحكومة بالغة الأهمية فإذا غاب السياسيون ستتوقف حياة أمريكا؟ هذا هراء. لا يحكم السياسيون هذا البلد. أمريكا ليست سيارة ستتحطـم إن لم يقدها رئيس. يحكم أمريكا ملايين الأشخاص الأحرار الذين يسلون أنفسهم ويبنون صروحاً مدهشة وينشرون ألوف الاختراعات الجديدة الرائعة.

نعم تخلق الحكومة الجيدة شروطاً ملائمة للإبداع وتجعل الحكومة السيئة الحياة أسـوأ، لكن لحسن الحظ، العملاق المعقد والناشط وهو الولايات المتحدة يحكم نفسه بنفسه. وكما أشار توماس بين ببلاغة في كتابه حقوق الإنسان The Rights of Man «تؤدي المجتمعات بأنفسها كل الأعمال التي تنسب إلى الحكومة».

لا تبدع الحكومة مسرحيات موسيقية، أو تهندس بنايات شامخة، أو تكتشف أدوية معجزة. لاتبني الحكومة سياراتنا، أو تمد أمريكا بالأنواع المذهلة من الطعام والبيوت والألبسة. والحمد لله أن معظم ما في الحياة وأجمل ما في الحياة يحدث بشكل مستقل عن أي سياسي مسؤول.

الفصل الخامس

غباء المدارس

هل الأولاد الأمريكيون أغبياء؟ فقرة الكوميدي جي لينو التي تجري فيها مقابلات مع أولاد تجعلنا نتساءل عن ذكائهم.

جي لينو: ما الولاية التي تجري سباق كنتاكي ديربي كل سنة؟

[يسأل ذلك إلى شابة تقف ساكنة] فكري في ذلك.. أي ولاية... تجري سباق كنتاكي... ديربي كل سنة؟

الشابة: كنساس؟

جي لينو: ما اسم الكاتب الأمريكي؟ أرنست...

الشابة: تشامب؟

جي لينو: أرنست تشامب؟ لا أرنست همـ... همنغـ...

الشابة: همنغتون؟

جي لينو: أكمل اسم هذا الكتاب؟ الحرب والـ...

الشاب: الجنس؟

ليست الإجابات هذه من اختلاقات هوليوود وإنما إجابات حقيقية. مع ذلك فإن كلمة «غباء» استعمالها بشع عنواناً لفصل يتناول التعليم من الحضانة إلى الثانوية. لكن ذلك كان عنوان فقرة وصفتها في أخبار ABC أنا فخور بذلك البرنامج. كنت أريد تسمية البرنامج «التعليم» أو «النظام في حالة فوضى» لكن رئيسي قال لي «أجننت؟ كلمة (تعليم) تبدو مضجرة وكلمة (نظام) كلمة مملة. المنافسة على المشاهدين أشد من أي وقت مضى، يجب أن نعطي هذا البرنامج عنواناً يجذب فضول الناس سندعوه (غباء)».

لقــد جادلته في الأمر لكنــه كان محقاً. «غباء» كلمة ممتازة لأن قرار أمريكا بتولي الحكومــة حصراً للمدارس الحكومية قرار غبـي للغاية. وجعـل إدارة يسيطر عليها الاتحــاد تدير المدارس أمر أغبـى. الهيئات المحتكرة الاتحاديــة تخلف بيروقراطيات رهيبة لا تخدم الناس جيداً.

علـى عكس ذلـك تحسن المنافسة الخدمـات بشكل ملحوظ. لقد غـيرت المنافسة تصــري في برنامج 20/20 لـو لم يهددني المنافسون لكنت سأبـث القصة تلو الأخرى حـول الاقتصاد اللبرالي والسياسـات العامة المحلية التي أجدهـا أنا مذهلة. ستكون تلك القصص طويلة وشائقة بالنسبة لي لكنها قد تثير مللكم.

لأنني أعرف أن لدى المشاهدين خيـارات عديدة وجهها رومونت كونترول، أحاول أقصى جهدي فأجد صوراً ممتعة ترافق التقرير وألاحق الخبراء المهمين، وأمشي فوق الفحـم المحترق، وأرمي نفسي بنهر هدسون، وأشياء أخرى غريبة أقوم بها كي أجعل التقارير ممتعة وشائقة.

أعطتنا المنافسة أفضـل قنوات التلفاز والبيوت والسيارات والطعام والهواتف وكل شـيء. البريد الحكومي لا يستطيع توصيل البريـد في ليلة واحدة، لا أحد من مديريه اللامعـين مـن الحكومــة استطاع فعـل ذلك، ولكـن عندما فتـح باب المنافســة أمام شركات أخرى استطاعت Federal Express و United parcel service وAirborne Express توصيـل البريد في ليلة واحدة. والآن حتى البريد الحكومي يمكنه فعل ذلك (أحياناً). المنافسة تلهم الناس فعل مالم يظنوا أنهم قادرون على فعله من قبل.

فلم لا نسخر ميزاتها في تعليم أولادنا؟

خرافة: تعليم الأطفال موضوع أهم من أن يترك لغموض منافسة السوق.
حقيقة: تعليم الأطفال موضوع أهم من أن يترك لاحتكار الحكومة.

فكر في الخيارات المتاحة أمامك عندما تذهب لشراء هاتف جوال تقدم الشركات عروضــاً مختلفة مبنية على عـدد الدقائق التي تريد الحصــول عليها وحجم أسرتك

وإذا كنــت تسافــر كثــيراً أم لا وملايين من الأمــور الأخرى. لا تقدم شــركات الهاتف الجوال كل تلك العروض لأنها تحبك أو لأنها تهتم بأعمالك.

لم لا يكــون التعليم مماثلاً لذلك؟ لو أتيــح للناس اختيار المدارس لأولادهم لكانت الخيــارات لا نهائية. ستكون هناك قريباً مدارس تكنولوجيــا، مدارس رخيصة تشبه وال مارت، مدارس افتراضية يتعلم الأطفال في منازلهم وبوساطة الحاسوب، مدارس رياضة، مدارس موسيقى، مدارس تعمل على مدار السنة، مدارس الزي الموحد، مدارس تفتــح أبوابهــا باكراً وتغلقهــا في ساعة متأخرة. ومن يستطيــع التكهن بما سيحدث لو كانت هناك منافسة؟ ستزدهر كل الأفكار الجديدة الخلاقة.

هذا ما جرى فعلاً في بلاد أخرى.

لقــد أعطينــا امتحانات مماثلة لتلاميــذ ثانوية في نيو جرســي وفي بلجيكا وسألنا الأولاد البلجيكين، «ما رأيكم في هذا الامتحان؟»

صبي أول: حسناً لقد شعرت أنه سهل جداً بالمقارنة مع الامتحانات التي نأخذها هنا عادة. (لقد كان الامتحان سهلاً كشربة ماء).

صبــي ثــان: كان الامتحان سهلاً جداً أعتقد أنــه إن لم يستطع الأولاد الأمريكيون النجاح به فهذا يعني أنهم حقاً أغبياء.

كانت كلمة «أغبياء» قاسية لكن الأولاد البلجيكين تمكنوا من الإجابات الصحيحة بنسبــة 76 بالمئــة مقابل 47 بالمئــة مــن الأولاد الأمريكين. لن ننتــق أولاداً أذكياء في بلجيــكا وأولاداً أغبيــاء في أمريــكا التلاميــذ الأمريكيون أخذناهم مــن مدرسة فوق الوســط في نيو جرســي وأولاد نيو جرسي فازوا بنتائج امتحانــات أفضل من الوسط على مستوى أمريكا.

قال لي ولد أمريكي أحرز أعلى مجموع نقاط في الامتحان: «أنا مصدوم إذ يوضح هذا كم هم متقدمون بالمقارنة معنا».

سألت الأولاد في نيو جرسي:

ستوسل: حسناً هل التلاميذ الأمريكيون أغبياء؟

التلميذ الأول: لا نحن لسنا أغبياء.

التلميذ الثاني: أعتقد أن الأمر يتعلق بالمدرسة فأنا لا أعتقد أننا أغبى منهم.

أنا أوافقه الرأي. إنها المدارس ففي عمر العاشرة أجرى تلاميذ من خمسة وعشرين بلداً نفس الامتحان وكان ترتيب التلامذة الأمريكين في الدرجة الثامنة أي أكثر بكثير من الوسط العالمي. ولكن في عمر خمس عشرة سنة عندما أجري الامتحان لتلامذة من أربعين بلداً حلّ الأمريكيون في المرتبة الخامسة والعشرين أي دون الوسط العالمي بكثير. (انظر المخطط ص151) أي كلما طال بقاء الأولاد الأمريكين في المدرسة انخفض مستوى أدائهم في المنافسة العالمية. وكان أداؤهم أقل بكثير من أولاد في بلدان فقيرة وغير متقدمة مثل كوريا وبولندا التي تنفق من المال على التعليم أقل مما تنفقه الولايات المتحدة الأمريكية.

هذا الأمر لا يجب أن يفاجئنا خاصة عندما نتذكر أن التعليم الحكومي (العام) في أمريكا هو احتكار حكومي. ترسل العائلات أولادها إلى مدارس تختارها الحكومة. ماذا لو كنت تكره المدارس الحكومية؟ هذا مؤسف. ماذا لو كانت المدرسة رديئة؟ هذا مؤسف. تذهب نقود الضرائب التي تدفعها إلى مدرسة ما بغض النظر إن كانت جيدة أو سيئة.

تخيب احتكارات الحكومة بشكل مستمر آمال زبائنها.

عمر 10

الصف	البلد
1	سنغافورة
2	هونغ كونغ SAR
2	اليابان
2	الصين تايبي
5	لاتفيا
6	إنكلترة
7	هولندة
8	بلجيكا (فلمنغ)
8	بلجيكا (الفيدرالية)
8	الولايات المتحدة
11	هنغاريا
12	ليتوانيا
13	أستراليا
14	إيطاليا
14	نيوزيلندة
16	جمهورية مولدوفا
17	قبرص
18	سكوتلندة
19	سلوتانيا
20	أمرينيا
20	النرويج
22	الجمهورية الإسلامية في إيران
23	الفلبين
24	مراكش
24	تونس

عمر 15

الصف	البلد
1	فنلندا
2	كوريا
3	هونغ كونغ – الصين
4	ليشتنشتاين
5	اليابان
6	أوستراليا
7	كندا
8	نيوزيلندة
9	هولندة
10	ماكاد ـــ الصين
11	بلجيكا
12	سويسرة
13	السويد
14	فرنسة
15	جمهورية التشيك
16	إيرلندا
17	إيسلندا
18	ألمانيا
19	دانمرك
20	النمسا
21	بولونيا
22	النرويج
23	هنغاريا
24	جمهورية سلوفاكيا
25	الولايات المتحدة
26	لاتفيا
27	لوكسمبورغ
28	أسبانيا
29	روسية الفيدرالية
30	إيطاليا
31	البرتغال
32	اليونان
33	تركيا
34	صربيا
35	أورغوي
36	تايلاند
37	المكسيك
38	البرازيا
39	إندونيسيا
40	تونس

إن شـركات الطيران الحكومية تملـك العديد من الطائرات القـذرة والتي لا تصل في مواعيدها أبـداً. وأفضل سيارة صنعها معمل سيارات حكومي (تدعى تارابان، فخر ألمانيا الشرقية) لا تصمد أمام منافسة أي نوع متوسط من سيارات المعامل الخاصة.

في أمريكا كانت الحكومة تسيطر على شركة الهاتف. وكانت عندها جميع الهواتف سوداء وجميع المكالمات مكلفة. وكان اقتناء جهاز الرد على المكالمات أمراً غير قانوني ـ دعتـه الحكومة تركيب «جهاز أجنبي». وعندما هُدمت سيطرة الحكومة على الهواتف واحتكارها لها رخصت أسعار المكالمات وتنوعت أجهزة الهواتف مثلما لدينا اليوم.

لم علينا أن نأتمن الحكومة على التعليم الأمريكي؟

معظـم البلدان التي بذتنا في الامتحانـات العالمية لديها مدارس تدعمها الحكومة ولكنهـا تعطي الطـلاب أيضاً خيارات أخـرى. في بلجيكا تصـرف الحكومة أقل مما تصرفـه المدارس الأمريكية على كل طالب. لكن المـال يتعلق بالأولاد ولا يمكن صرفه على أي مدرسة حكومية أو دينية أو دنيوية.

تديـر كات فاندنسافيل مدرسة حكومية بلجيكيـة ولكن عليها أن تنافس. قالت لنا إن عليهـا أن تعمل جهدها كي تعجب الأهـالي: «إن لم نقدم لهم ما يريدون لأطفالهم فإنهـم لن يأتوا إلى مدرستنا» هـذا الضغط مهم جداً إذ إنه يجبر المدارس البلجيكية على التجديد حتـى تروق للأهل والطلاب. تقدم مدرسة كات برامج رياضية إضافية ودروسـاً في تصفيف الشعر والميكانيك والطبخ وتصميـم الأثاث. قالت لنا: «يجب أن نعمـل بجد يومـاً بعد يوم. وإلا سنفشل في عملنا ونفلس. لا نستطيع أن نتحمل نفقات عشرة أساتذة لا يقومون بعملهم كما يجب من أصل 160 أستاذاً، لأن الزبائن سيعلمون بتقصيرهم ولن يأتوا إلينا».

قالـت لي عالمـة الاقتصـاد في هارفـرد كارولين هوكسبـاي: «هذا أمـر طبيعي في أوروبا، إن لم يكن أداء المدارس جيداً لا شيء يرغم الأهالي على الالتزام بتلك المدارس بالطريقـة التي يلزمون بها هنا في أمريكا» وتضيـف فادينسا فيل: «تبدو أمريكا كبلد مـن القـرون الوسطى... بلـد شيوعي في مستـوى التعليم، لأنه لا توجـد حرية اختيار للأهالي والطلاب على حد سواء».

قالت أندرياس شلايكر ـ التي أدارت الامتحانات العالمية التي أعطيت إلى الأولاد بعمر الخامسة عشرة (يدعى امتحان PISA) ـ قالت: إن حرية اختيار المدرسة وحرية المدارس بالإدارة تهمان أكثر ممن يحكم المدرسة. ويوافق على ذلك جان دو غروف ـ وهو واحد ممن شاركوا في كتابة أهم الدراسات العالمية حول التعليم ـ وهو يقول: إن المفتاح هو حرية الأهالي في الاختيار وأيضاً حرية المدارس بخلق نوعية المدرسة التي يسعون إليها: «بحثنا واضح جداً. كلما ازداد التمركز والتشدد بالزي الموحد... وسيطرة نظام الولاية، انخفضت نوعية التعليم».

ولقد رأينا الفروق ضمن بلجيكا أيضاً. فمنذ عام 1989 انفصل نظام المدارس بين المنطقة الفلمنكية والمنطقة الفرنسية. والحكومة تدفع إلى المدارس في الطرفين لكنها تعطي مدراس الناحية الفلمنكية استقلالاً أكبر. وكان أداء الأولاد في الجانب الفلمنكي أفضل في الفحوص العالمية.

تشير الإحصائيات إلى أن معظم الأهالي الأمريكيين يعتقدون أن مدارس أولادهم الحكومية جيدة، ولكنهم يعتقدون ذلك لأنهم لا يعرفون ما يفتقد إليه أولادهم في تلك المدارس! بدون منافسة حقيقية، يصعب تخيل ما أمكن توفيره لأطفالهم. قالت لنا أم بلجيكية: إنها عاشت هي وابنها مرة في أمريكا، وذهلت عندما حددت مدرسة معينة لابنها، ولم يكن لديها الخيار. «في أمريكا كان علي التوسل، أرجوكم، أرجوكم أعطوا ابني مدرسة جيدة. أما هنا فالمدارس الجيدة تنتشر في كل مكان».

خرافة: تضم المدارس الحكومية تلاميذ من مختلف البيئات.
حقيقة: تفرق المدارس الحكومية، أكثر من المدارس الخاصة بين التلاميذ من البيئات المختلفة.

يقول العاملون في المدارس الحكومية إن هذه المدارس «تحقق المساواة»، وعلى عكس المدارس الخاصة، فإنها تعطي الأقليات والفقراء الفرصة للنجاح. ولكن في الواقع تفصل المدارس الحكومية التلاميذ حسب بيئاتهم. تام جاي غرين مؤلف

كتـاب خرافـات التعليـم Education Myths أوضـح ببحث لـه أن 54.5 بالمئة من تلاميـذ المدارس الحكومية يذهبون إلى صفوف تحوي إمـا 90 بالمئة من البيض أو 90 بالمئـة من الأقليات. أمـا في المدارس الخاصة فبلغت نسبة التفرقة بين التلاميذ أقل وهي 41.1 بالمئة».

هذا ليس لأن العنصرين يوجهون الأولاد إلى مدارس مختلفة بل لأن الأهالي الأغنياء ينتقلون إلى مناطق فيها مدارس أفضل بينما يعلق الفقراء في مدرسة منطقتهم.

إن ثانوية بالو Ballou هي إحدى أسوأ المدارس في مدينة واشنطن. وعندما زرناها قالـت لنا الطالبة لاجوانا بـراون: إن الأساتذة في مدرستها لا يأتون لإعطاء الدروس، «ليسـ هناك مكان نذهب إليه سوى الأروقة، لا أحد يهتم، ولا يوجد شيء نفعله» كانت تعلـم أنها عالقة ومسجونة في هذه المدرسة، التـي خصصت لها: «ليس لدي أي خيار سوى المجيء إلى هنا».

إن اتبعـت القانـون فلا خيار لهـا. كان بإمكانها أن تتظاهر أنهـا تعيش في منطقة أخرى، ولكن قد يقبض عليها جواسيس مدارس المنطقة. في سانت خوزه في كاليفورنيا قمنـا بتصوير أحد أولئك التحريين جون لوزانا، وهـو يذهب من بيت إلى بيت ليتأكد مـن أن الأولاد يذهبـون إلى المدارس المخصصـة لهم في فريمونت يونيـون، وأنهم لا يكذبون حول منطقة إقامتهم. العديد يكذبون، لأن مدارس فريمونت أفضل من مدارس المنطقة المحيطة بها.

لوزانـا يعتز بعملـه، ولقد تتبعناه وهو يدخل إلى البيـوت، وحتى إلى غرف الأولاد، ويتحـرى وجود الحواسيـب والصور الشخصيـة والملابس على الأرضـ التي تثبت أن التلميـذ يعيشـ فعلاً هنـاك. لقد كشف حيلة جـدة كانت تساعد حفيدهـا، وتؤمن له تعليمـاً أفضـل بادعائها أنه كان يعيش معها في عنوان من منطقة مدارس جيدة: «لقد كشفهـا بـكل تأكيد كشفها» قـال لوزانا برضى: «هـذا الولد لن يمكنـه أن يذهب إلى مدارسنا؛ لأنه لا يعيش في منطقة مدارسنا هذه».

بعد يومين تحدثت مع الجدة حول هذا الأمر.

استر تابينغ: لقد بكيت، فكل ما أردت فعله هو تأمين تعليم أفضل لحفيدي.

ستوسل: إنه أمر مخيف أنهم اضطروك إلى الكذب كي توفري لولدك تعليماً أفضل.

استر تابينغ: لم لا يدعون الأهالي يختارون لأبنائهم المدرسة التي يريدونها؟

لأن الحكومة المسيطرة تعتقد أنها تعرف أكثر من الأهالي.

خرافة: يتعلم الأولاد القراءة في المدارس الابتدائية الحكومية.

حقيقة: معظمهم لا يستطيعون القراءة حتى في الثانوية.

لعلي أسمعك تقول لي: «أتجعل المدارس الأولاد أغبياء؟ هذا ليس صحيحاً، إنها ليست غلطة الأساتذة بل غلطة الأهالي اللامبالين!»

صحيح أن للأهل الدور الأهم فأولئك الذين يقرؤون لأولادهم، ويسألونهم عن عملهم في المدرسة، ويبدون الاهتمام في تعليمهم، هم الذين يربون الأولاد المتفوقين. وعندما يفشل الأهالي في ذلك تكون مهمة الأستاذ أصعب بآلاف المرات.

ولكن كثيراً من الأهالي المهتمين بتعليم أولادهم لا يملكون خياراً سوى أن يرسلوا أولادهم إلى مدارس سيئة. مراقبة الأهالي الذين يبتغون تعليماً جيداً لأولادهم عن طريق المدارس الحكومية، يشبه انتظار أشعة الشمس أن تدخل غرفة ليس لها نافذة. لا يصل الأهالي إلى أي نتيجة.

دوريان كين طالب في آخر صف في الثانوية في مدرسة لي سنترال Lee Central في ولاية ساوث كارولينا. هذه المدرسة أُدرجت في أسوأ مرتبة بدراسة قامت بها ولاية ساوث كارولينا. علماً بأن ولاية ساوث كارولينا حصلت على أضعف معدل درجات في فحوص SAT الأمريكية. عندما طلبت من دوريان أن يقرأ لي من كتاب التاريخ المقرر في مدرسته لم يستطع.

ستوسل: أتعلم أن هناك عالماً واسعاً سينفتح أمامك إن تعلمت القراءة؟!

دوريان: نعم أعلم ذلك. أعلم أنني لو كنت أقرأ بشكل أفضل لما كنت ولداً صعباً.

ستوسل: هل حاولوا أن يعلموك القراءة؟

دوريان: من وقت إلى آخر.

ستوسل: حسناً ماذا كانوا يفعلون؟

دوريان: كانوا يقولون اقرأ بنفسك. اذهب إلى المنزل واقرأ!! ولم أكن أفعل ذلك.

ستوسل: لكنهم كانوا ينجحونك إلى صفوف عليا باستمرار؟

دوريان: نعم يا سيدي.

هذا ليس أمراً غريباً إذا صرحت وزارة التعليم في أمريكا أن ربع طلاب السنة الأخيرة في الثانوية لا يستطيعون القراءة بمستوى أولي بسيط. كانت والدة دوريان تطلب المساعدة من المدرسة لمدة سنوات.

جينا كين: عليك أن تتوسل، مهما كان طلبك فإنك تتوسل يجب أن تترجاهم لأنهم أقوياء.

ستوسل: لقد قابلوك للتحدث بشأن ابنك.

جينا: نعم.

لقد سجلنا إحدى هذه المقابلات. كان الأمر لا يصدق. اجتمع العديد من «خبراء» التعليم: مدير «برنامج الأطفال المتميزين» و«الأستاذ المرجع» لدوريان وأستاذه في التربية البدنية والمشرف على المدرسة ومنظم التعليم الخاص في المنطقة. كانت والدة دوريان تحدق بذهول وهم يلقون عبارة رسمية فصيحة مثل «تقويم السلوك الوظيفي» و«بيئة أقل صرامة» قال مدير المدرسة: «أرى فيه تطوراً عظيماً، ليس لدي أي قلق» دام اللقاء خمساً وأربعين دقيقة. وكانت هناك العديد من الأوراق للتوقيع.

سألت فيما بعد رئيسة مجلس مدارس المنطقة دولوريس رايت ومراقب المنطقة د.ليود هانتر حول فشل مدارسهم، وفاجآني بردودهما حول ذلك الموضوع.

دولوريس رايت: أداء أطفالنا حسن.

ستوسل: لديكم أولاد مثل دوريان لا يستطيعون القراءة! أليست وظيفتكم أن تعلموهم القراءة؟

د. لويد هانتر: إنها مهمة المدرسة أن تعلم الأطفال القراءة.

ستوسل: إنكم تنجّحون بعض الأولاد في الصفوف على الرغم من أنهم لا يستطيعون القراءة.

د. لويد هانتر: هذا محتمل جداً.

ستوسل: ألا يستطيع كل ولد تعلم القراءة.

د. لويد هانتر: نحن نؤمن أن كل طفل يستطيع تعلم القراءة. لكن حصيلة ما تفعله في المدرسة يعتمد على قدرة تلك المدرسة.

ستوسل: لديكم اثنتا عشرة سنة وتصرفون 100.000$ على هؤلاء الأطفال ولا تستطيعون تعليم الطفل القراءة؟

د. لويد هانتر: لا أعتقد أن لدينا طلاباً بقوا في المدرسة اثنتي عشرة سنة ولا يستطيعون القراءة. أنا لا أقبل بذلك.

لعله لا يقبل ذلك لكن دوريان لا يستطيع القراءة. قررنا إرساله إلى مركز سيلفان للتعليم. هل تستطيع شركة خاصة النجاح فيما فشلت فيه مدرسة حكومية؟ نعم. فبعد اثنتين وسبعين ساعة فقط من الدروس قفزت قدرة دوريان على القراءة مستوى صفين.

لاحظت جينا التغيير في دوريان خلال تلك المدة القصيرة. كانت العائلة تتلقى دائماً مجلة رياضية في البريد. وفجأة بدأ دوريان يقرأها، وأيضاً بدأ دوريان استعمال البطاقات كي يعلم نفسه بعض المفردات في المنزل. قال لنا: «أنا أثق بنفسي أكثر من قبل»

كيف يمكن لسيلفان أن تُعلم في أسابيع مالم تعلمه المدرسة في اثنتي عشرة سنة؟ «نحن مسؤولون أمام الأهالي، نحن مسؤولون أمام طلابنا نحن نلتزم بما قلنا إننا نستطيع عمله». قالت ستفاني هولاندنتس واحدة من المديرين في مركز سيلفان الذي التحق به دوريان: «إن لم يكن لدينا طلاب في المركز سنفقد عملنا. نحن نريد أهالي سعداء».

يكلف برنامج سيلفان نحو 3000$، أنفقت المدارس الحكومية في ساوث كارولاينا 100.000$ على «تعليم» دوريان.

خرافة: المدارس الحكومية لا تملك موارد مالية كافية.

حقيقة: تملك المدارس الحكومية أموالاً طائلة.

كتب على لافتة في مظاهرة احتجاج قام بها اتحاد أساتذة أن الولايات المتحدة تنفق «الكثير على الحرب، والقليل على المدارس» يدرج الأهالي والمدرسون «قلة المال» في أول لوائح المشكلات التي تواجهها المدارس. كلهم يعلم أن الأموال قليلة في هذا المجال.

في جنوب كاليفورنيا قال لي أولئك المسؤولون الذين فشلوا في تعليم دوريان: إنهم يحتاجون إلى المزيد من النقود.

ستوسل: كم تبلغ الزيادة من النقود اللازمة؟

دولوريس رايت: كم؟ ملايين. ذلك سيصحح الأمور تماماً.

ستوسل: يُنفق الآن عشرة آلاف على الولد الواحد، فكم تريدون؟ خمسة عشر ألفاً؟ عشرين ألفاً؟

دولوريس رايت: عشرين ألفاً، خمسة وعشرين ألفاً، ثلاثين ألفاً، الأكثر أفضل.

طبعاً الأكثر أفضل. ولكن لنتوقف قليلاً ونجري الحساب: قالت إن 10.000$ للولد الواحد ليست كافية، لكن 10.000$ للطالب هي 250.000$ لصف مكون من خمسة وعشرين ولداً. هذه كلها مصاريف للتعليم وليست نفقات تصرف على المكان ـ فالأرض والبناء دفع ثمنهما من قبل. ألا تكفي 250.000$ ليتعين عدد من الأساتذة المرموقين، وشراء الحاجيات، وإجراء الرحلات التعليمية الترفيهية؟!

الحقيقة هي أن المدارس الحكومية تسبح في الأموال. واحتجاجات المدرسين حول إنفاق النقود على الحرب أكثر من المدارس خاطئة. في عام 2004 أنفقت أمريكا 454 بليون دولار على الالتزامات الحربية (بما فيها حرب العراق) و536 بليون دولار على المدارس الحكومية. ما «نعرفه» ليس صحيحاً.

تنفق أمريكا على المدارس أكثر مما تنفقه معظم البلاد التي بذتنا في الامتحانات العالمية.

لكـن البيروقراطيين مازالوا يعزون فشل المدارس إلى قلة الموارد المالية، ويطالبون بأمـوال أكثر. في عـام 1985 قال قاضي مدينة كانساس ـــ ويدعى رسل كلارك ـ : إن المدارس التي تحتوي على نسبة عالية من السود «ليست لائقة»، وأمر الحكومة أن تنفق بلايين أكثر عليها. ففعلت.

قامـوا بتجديـد مباني المدارس وإضافة صـالات رياضية ضخمـة ومسبح بحجم المسابـح الأولمبيـة، ومختبر للروبوتـات وأستوديوهات للتلفاز وحديقـة حيوان ومرصد للفضاء ومنتجع للحياة البرية وأضافوا أيضاً تعليماً مكثفاً للغات الأجنبية، لقد أنفقوا الكثير من النقود، حتى إنهم عندما قرروا ضم عدد أكبر من الأولاد البيض إلى مدارس المدينة لم ينقلوهم بالباصات بل دفعوا لـ 120 تاكسي (سيارة أجرة).

وانهالت التقارير حول تلك التعديلات.

مراسـل تلفـاز مدينـة كنسـاس: أي طالـب يريـد أن يتعلم اللغـة الفرنسية مثلاً يستطيع أن يُسجَّل في برنامج شامل تُعلم فيه كل الدروس باللغة الفرنسية.

طالب: ياإلهي!

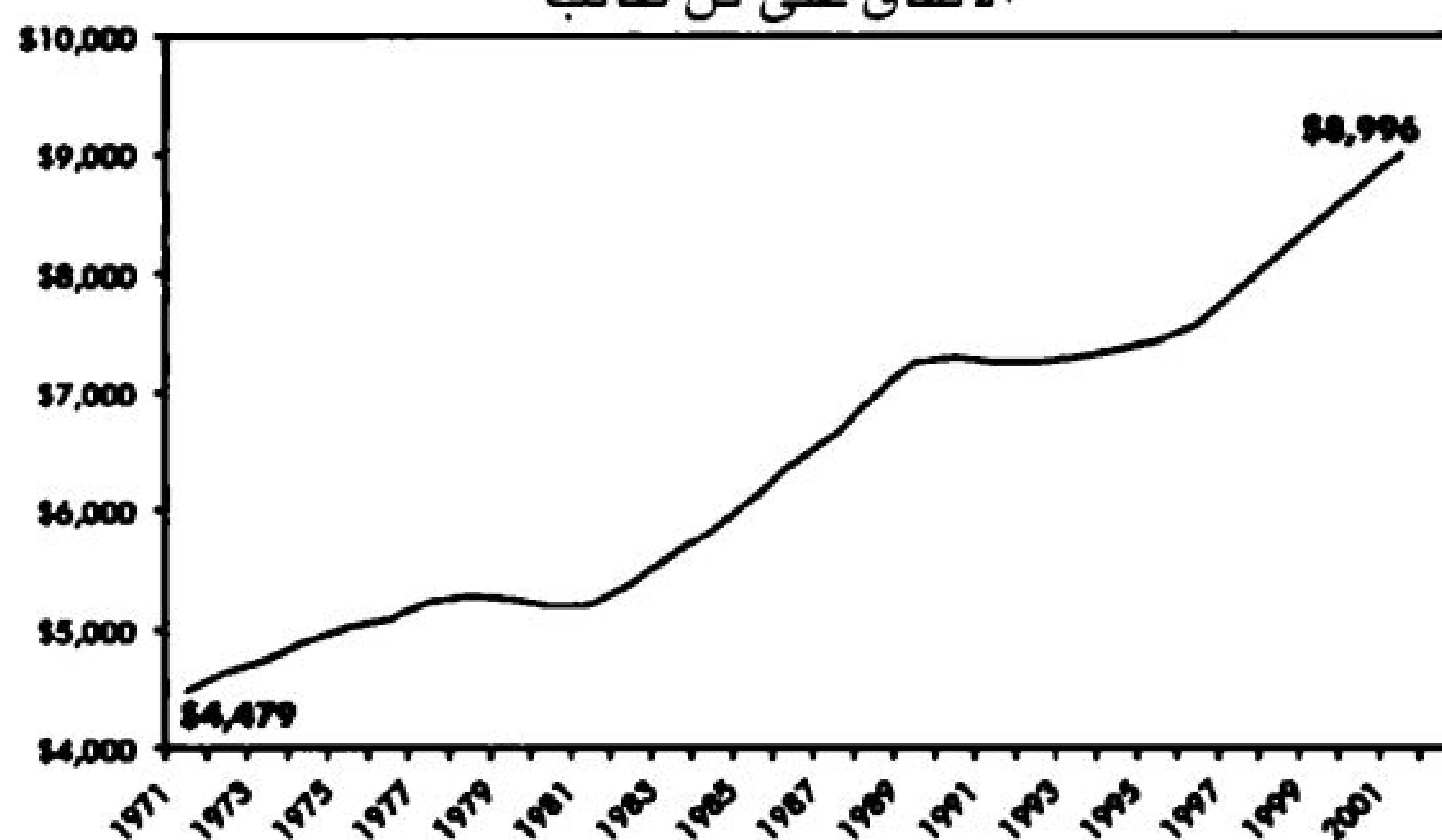
مــاذا كانت نتيجة إنفــاق بلايين الدولارات؟ لا شيء. بـل في الواقع تراجع مستوى المدارس في عام 1999 وبعد إنفاق بليوني دولار فشلت مدارس مدينة كنساس في أحد عشر اختباراً معيارياً وفقدت رخصتها لأول مرة في تاريخ تلك المدارس.

يشـير جاي غريـن إلى أن العديد من المدارس زادت مـن نفقاتها دون نتيجة «لقد ضاعفنـا في الثلاثـين سنة الأخيرة ما ينفق على كل طالـب، وذلك وفقاً للتضخم لكن المدارس لم تتحسن».

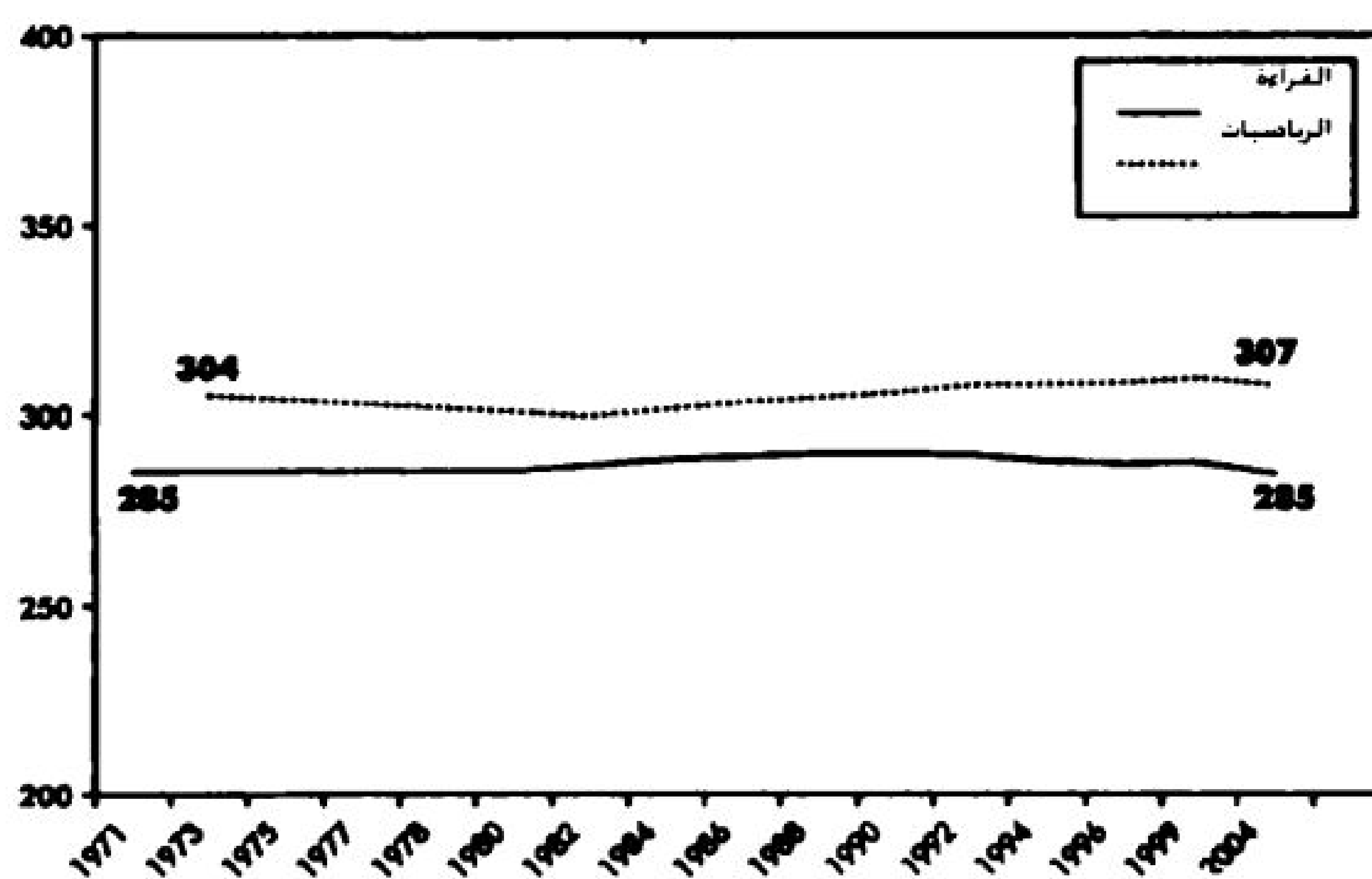
هذا خط بياني يوضح زيادة الإنفاق (معدلة حسب التضخم):

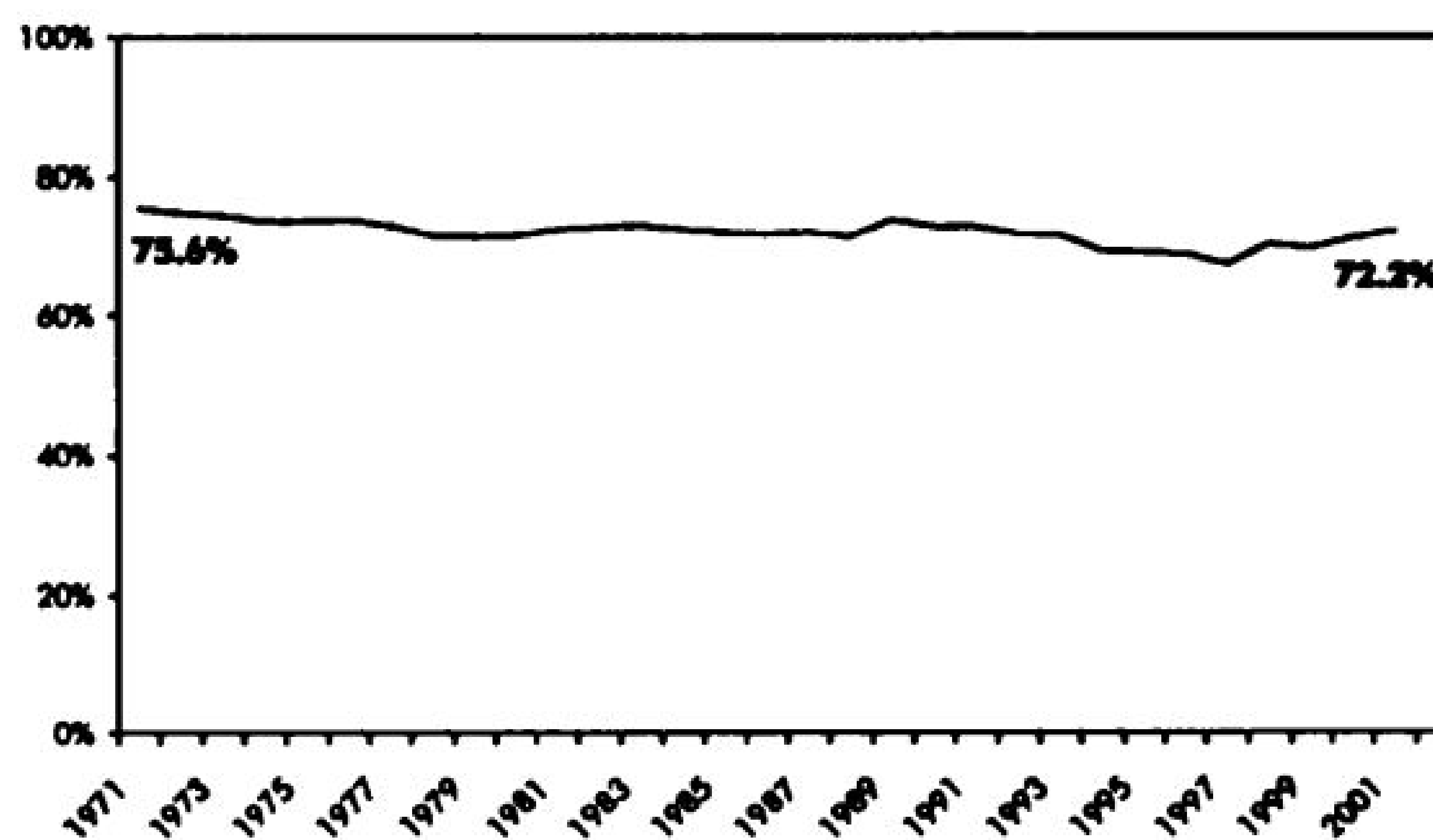
الإنفاق على كل طالب.

الانفاق على كل طالب



إنجازات الطالب ومعدلات التخرج





وهذا خط بياني يوضح إنجازات الطلاب ومعدلات التخرج

خــط الإنفاق يسير نحو الأعلــى، لكن خطوط الإنجازات ومعــدلات التخرج بقيت مستوية. فشلت مضاعفة الإنفاق في تحسين المدارس.

«الــكل درس الأمر بدقة. تستطيــع أن تعطي المدارس الحكوميــة كل أموال أمريكا لكنهــا لــن تكون كافية» هذا ما قاله ابن تشافيز وهو مديــر مدرسة سابق واليوم يدير مدرســة American Indian Public charter في أوكلانــد. تنفــق مدرسته آلافاً أقل مما تنفقه المدارس الحكومية في أوكلاند.

يوفــر تشافيز النقود بجعله الطلاب يساعــدون في تنظيف الأرض وتقديم الغذاء. «ليس لدينا حاجب بدوام كامل» قال لي: «ليس لدينا حارس أمان وليس لدينا حواسيب وليس لدينا موظفون في مقصف المدرسة».

الطلاب الذين لا يستطيعون شراء وجبة الغداء يحصلون على علب طعام في مطعم محلي مقابل عملهم في عطلة نهاية الأسبوع.

ليســ هناك صالة رياضة. ومن أجل اللياقــة البدنية يحرك الطلاب الطاولات في المقصف أو يركضون حول المدرسة. تجبر المنافسة تشافيز على التجديد.

تشافيــز: أعــد مدرستــي عملاً تجاريــاً يقاسمني به الطــلاب، إذ لهم حصة فيه وكذلك لأهاليهم حصة. يجب علي أن أؤمّن لهم أشياء معينة.

ستوسل: لقد غيرت المعايير بإنفاقك قدراً من النقود.

تشافيز: الأمر لا يتعلق بالنقود.

ستوسل: ماذا عن الأولاد الذين يأتون من عائلات مفككة أو فقيرة؟

تشافيــز: الأولاد الفقــراء هــم الأسهــل تحفيزاً. أعطنــي أولاداً فقــراء وسأجعل أداءهم يفوق الأولاد الأغنياء الذين يعيشون في المناطق المرفهة.

ستوسل: ماذا لو رفض الولد القيام بالعمل؟

تشافيز: سأحرجه [أمام] الأولاد الآخرين وأقول: أتريد أن تكبر لتصبح مثل ذلك المتســول الذي يعيش في الطرقات؟ سآخذه إلى الطريق وأريه المتسولين وأسأله أتريد أن تصبح مثل هذا؟

منــذ أن تولى تشافيز الإدارة قبل أربع سنوات أصبحت مدرسته أفضل مدرسة في أوكلاند بعد أن كانت الأسوأ.

هنــاك العديد من المدارس الحيويــة التي تنتشر في كل أرجــاء أمريكا والتي تنفق القليـل لكنها تبذ في أدائها المدارس الحكومية. في رســل فيل بولاية جنوب كاليفورنيا صورنــا طلاباً في مدرسة تيرزا ميدليتــون يقفزون من مقاعدهم للإجابة عن الأسئلة في «لعبة الرياضيات» ـ يصرخون الإجابات بحماس.

تجعل ميدلتون التعلم متعة. ما إن تدخل الصف حتى يسألها الطلاب: «هل نستطيع أن نلعــب تلك اللعبة اليــوم؟ هل نقوم بالحساب؟ هل نلعــب البينغو؟ هل نلعب أحرف الهجاء في مختلف أنحاء العالم؟».

بنــت ميدلتــون مدرستهــا عام 1996 بعــد أن رأت الطــلاب يفشلــون في المدارس الحكومية. لقــد أثارت حفيظتها قلة كفاءة تلك المدارســ. الآن عندما ينتقل الطلاب من مدرستها إلى مدرسة حكومية يقول أهاليهم: إنهم يبذون أقرانهم بكثير.

تأخــذ ميدلتون من الأهالي مبلــغ 3000 دولار عن كل طفل وهذا أقل من نصف الـ 8000 دولار التــي تصرفها الحكومة في المدارس الحكومية المجاورة. ولكن برغم هذا المقــدار الأقل من المال فإن أداء طلابها أفضل. قالت لنا ميدلتون: «كان عندي طلاب في الثالثــة من العمــر يهجئون الكلمات وكان لدي طالب شُخِّص أنه طفل متوحد لكننا استطعنــا تعليمه العد بالخمســات» يرغب زبائنها (الأهالي) في دفع 3000 دولار على الرغــم من أنهم يدفعــون للمدارس الحكومية قسماً من ضرائــب الملكية وذلك لأنهم يريــدون ذلــك الأداء المتفوق من المدرســة. قال لنا أحد الآبــاء: «يستحق ذلك الجهد الإضافي والنقود الإضافية: لأن ذلك كما أدعوه كسب لنقودنا».

أحد حجج البيروقراطيين المفضلة هي «أننا نحتاج إلى نقود أكثر: كي يصبح حجم الصفــوف أصغر» لكــن نسبة عدد الأساتذة إلى عدد الطلاب قــد قلت إذ بلغت 24.7 طالباً للأستاذ الواحد في عام 1965 ثم أصبحت 15.9 طالباً للأستاذ في عام 2002. مــن المنطقي الاعتقاد أن زيــادة عدد الأساتذة سيحسن النتائــج لكن تطبيق ذلك في المدارس الحكومية لم يحسن أداء الطلاب.

خرافة: يحتاج الأساتذة إلى رخصة تدريس، كي يدرسوا بصورة جيدة.

حقيقة: لا لا يحتاجون.

في جميع أرجاء أمريكا تتفوق المدارس الكاثوليكية بالأداء على المدارس الحكومية برغم أنها تنفق أقل من نصف ما تنفقه المدارس الحكومية، لقد ووجهت مديرة مدرسة في مدينة نيويورك بذلك.

ستوسل: إن راتب الأستاذ المتوسط في مدرستكم أعلى من راتب أفضل أستاذ في المدارس الكاثوليكية لكنهم يتفوقون عليكم.

ثيلما باكستر: إنهم يقومون بعملهم بشكل جيد؛ لأنهم يرغبون في البقاء في ذلك العمل. ولكن أرجوك أفهم أن العديد منهم ليسوا مؤهلين للتدريس. فبعضهم يدرس دون شهادة جامعية وبعضهم يدرس دون إجازة ماجستير.

ياللعيب! لكن انظروا إلى النتيجة أداء المدارس الكاثوليكية أفضل. ربما لا يحتاج الأساتذة إلى شهادة ماجستير أو شهادة جامعية من كلية التربية.

وبالإضافة إلى ذلك لاحظوا ما قالته باكستر: «إنهم يقومون بعملهم بشكل جيد؛ لأنهم يرغبون في البقاء في ذلك العمل» يالهذه الإدانة للمدارس الحكومية! ليس أمام أساتذة وطلاب باكستر إلا خيارات قليلة وعلى ما يبدو «لا يريدون البقاء في ذلك العمل». أما المدرسون قليلو الرواتب، قليلو الكفاءة في المدارس الكاثوليكية فيرغبون في البقاء في عملهم.

خرافة: تتفوق المدارس الكاثوليكية؛ لأنها تطرد الأولاد المشاغبين.

حقيقة: تعلم المدارس الكاثوليكية الأطفال المشاغبين.

يجادل العاملون في المدارس الحكومية بأن المدارس الكاثوليكية تتفوق برغم ميزانيتها القليلة؛ لأنها تستطيع انتقاء الطلاب، أما المدارس الحكومية فعليها أن تفتح أبوابها للجميع.

ثيلما باكستر: تستطيع المدارس الكاثوليكية أن تختار من ينضم إليها.

ستوسل: أبإمكانهم طرد المشاغبين؟

ثيلما باكستر: هذا صحيح.

ستوسل: أيطردون العديد منهم؟

ثيلما باكستر: نعم.

في الواقع، بإمكانهم فعل ذلك لكنهم قلّما يفعلون. لقد قابلت المونسنيور ولاس هاريس الذي يدير مدرسة في حي فقير في مدينة نيويورك ليس بعيداً عن مدرسة ثيلما باكستر الحكومية. بدت مدرسته مختلفة جداً. كانت منظمة برغم أن حجم الصفوف كان كبيراً (ستة وثلاثون طالباً) كان الأولاد يراقبون باهتمام.

ستوسل: كيف تستطيع أن تدرس ستة وثلاثين طالباً في الصف؟ هذا عدد كبير.

مونسنيور ولاس هاريس: نحن نتدبر أمرنا.

ستوسل: [يقولون] إنك تستطيع طرد المشاغبين.

مونسنيور ولاس هاريس: كلا. لا أستطيع فعل ذلك ولن أفعل ذلك.. إن طلب إلى واحد أو اثنين من الطلاب من أصل خمس مئة الرحيل عن المدرسة لأسباب تأديبية فإن ذلك أمر غير عادي.

ستوسل: إذاً ماذا تفعل بالأولاد المشاغبين؟

مونسنيور والاس هاريس: نبدأ بالتحدث مع الأهل فوراً.

هذا هو الفرق. يطرد عدد قليل من الأولاد لكن الأهالي والأولاد يعلمون أن ذلك ممكن الحدوث فيغيرون في تصرفاتهم. تعلم المدارس الكاثوليكية العديد من الأولاد «الصعبين».

تملك مدارس مدينة نيويورك الحكومية ثمانية آلاف موظف إداري.

هكذا تهدر النقود التي تدفعها للضرائب. أما في إدارة المدارس الكاثوليكية، فهناك ثلاثون موظفاً فقط. في مدرسة هاريس المسؤول هو والاس هاريس وهو الذي يقع على عاتقه إقناع الأهالي بأن مدرسته هي الأفضل لأولادهم.

ستوسل: أأنت من يتخذ القرارات؟

مونسنيور والاس هاريس: نعم.

ستوسل: أي لا يجب عليك أن تتصل برئيس مجلس المدرسة وتستأذنه؟

مونسنيور والاس هاريس: كلا. يتوقعون مني أن أحل المشكلات فوراً.

ستوسل: وماذا إن لم تقم بذلك؟

مونسنيور والاس هاريس: أتحمل مسؤولية ذلك وحدي.

احتمال الإخفاق هذا هو السبب في أن المدارس الكاثوليكية تتفوق في كل المدن بالرغم من ميزانيتها القليلة. في مدينة نيويورك تخدم المدارس الكاثوليكية الجالية الفقيرة نفسها التي تخدمها المدارس الحكومية لكن معدل التخرج بعد أربع سنوات في المدارس الكاثوليكية هو 99 بالمئة مقابل 54 بالمئة في المدارس الحكومية.

خرافة: يتحرى المسؤولون في المدارس الحكومية طرقاً جديدة لمساعدة الأولاد.

حقيقة: يقاوم المسؤولون في المدارس الحكومية أي تغير.

المربون الضليعون العاملون في المدارس الحكومية يدعون الانفتاح على محاولات التجدد والتجارب التربوية. إنهم يعارضون منافسة المدارس الخاصة لكنهم يقولون: إنهم يدعمون مدارس تشارتر[1] التي توافق عليها الحكومة. هذا ما يقولون. ولكن حاول أن تفتح مدرسة تشارتر.

يقول لنا المدرسون: إن محاولة فتح إحدى المدارس تماثل ضرب الرأس في الحائط.

«كانت قصة مرعبة» قالت لنا نانسي غريغوري مديرة مدرسة تشارتر في ولاية جنوب كاليفورنيا: «كل ذلك القيل والقال الذي وضعوه أمامنا عوضاً عن أن يقولوا لنا ماذا بوسعنا أن نفعل لمساعدتكم؟ هذه لائحة بالأشياء التي لا يجب أن تفعلوها... [إن بيروقراطيي التعليم] يشعرون بالتهديد. من قبل خيار مدارس التشارتر، إذ يخشون فقدان سلطتهم».

(1) مدارس تشارتر Charter: مدارس حكومية مستقلة لها منهاج مختلف وفلسفة تربوية خاصة.

واظبت نانسي ونجحت في إنشاء مدرسة تشارتر، لكنها قالت: إنها تحملت المخاطر: لأنها كانت تعلم أن الخطوة الآتية في حياتها المهنية هي التقاعد. «أنت تعلم أنك ميت ـ ميت لا محالة في مهنتك عندما تقوم بهذه المبادرات».

في منطقة لي في ولاية جنوب كاليفورنيا حيث فشلت المدارس السيئة في تعليم دوريان القراءة، حاولت مجموعة من الأهالي لمدة سنوات إنشاء مدرسة تشارتر لكن مجلس المدرسة حاربهم في كل خطوة. ملأ البيروقراطيون ملفات اعتراض وأوصلوها حتى إلى المحكمة العليا.

ستوسل: لم لَمْ تسهلوا الأمور عليهم؟

دولوريس رايت: لم نصعب الأمور عليهم.

ستوسل: ألم تؤجلوهم؟ لقد أوصلتم الأمور إلى المحكمة العليا.

دولوريس رايت: لم يملؤوا الأوراق في الوقت المناسب.

د. لويد هانتر: التغير دائماً صعب.

ستوسل: لم أوصلتم الأمور إلى المحكمة العليا؟

د. لويد هانتر: يحق للمدارس أن تدافع عن مصالحها.

قالت لي جيني سانفورد وهي إحدى الأمهات في جنوب كاليفورنيا: «إنهم ينظرون للأمر على أنه ذهاب النقود من مدارسهم أو منطقتهم الصغيرة. الأمر كله يتعلق بالمال. لذلك يفعلون ما بوسعهم لتصعيب إنشاء مدرسة تشارتر».

ليست جيني سانفورد أي أم إنها زوجة حاكم ولاية جنوب كاليفورنيا. بعد أن انُتخب زوجها مارك سانفورد رحلوا مع أولادهم الأربع إلى مقر حكومي في كولومبيا وكان التحدي الأكبر هو اختيار مدرسة جيدة للأولاد.

أرادوا أن يرسلوهم إلى المدارس الحكومية لكن المدرسة المتوسطة (الإعدادية) بالقرب من مقرهم كان ترتيب أدائها «أقل من الوسط» وسرعان ما علمت عائلة سانفورد أن بإمكانهم إرسال الأولاد إلى أي مدرسة يشاؤون نظراً لمنصب الأب حاكماً للولاية. قالت لي السيدة سانفورد: إن المشرفين على المدارس كتبوا إليها وتحدثوا إليها

بالهاتـف يدعونها إلى «اختيار أفضل مدرسة وإرسال أطفالي هناك. وقلت: لكن هذا ليس عدلاً؛ لأنه يجب علـي التقيد بمنطقة المدرسة، فقالوا: أنـت زوجة حاكم الولاية فانسي وجود القوانين».

هكـذا تسير الأمور. تعطى الميزات لأصحاب المناصب. لم تعتقد عائلة سانفورد أن ذلـك عدل وأنهم يجب أن يستغلوا تلك الحالة فجمعوا مدخراتهم وأرسلوا الأولاد إلى مدارس خاصة. ثم اقترح حاكم الولاية خطة تسهـل لكل الأولاد في جنوب كاليفورنيا الالتحاق بمدارس لائقة. دعا خطته «الأهالي المسؤولون».

إذ سمحـت تلـك الخطة للأهالي باختيـار أي مدرسة يريـدون وإذا ما أرادوا نقل أولادهـم من مدرسة حكومية إلى مدرسة خاصـة فإنهم يحصلون على مبلغ من نقود الضرائب يساعدهم في دفع القسط.

قال: إن حرية الأهالي في الاختيار تعزز المنافسة بين المدارس.

حاكم الولاية سنافورد: يطالب الناس بحريـة الاختيار في كل جوانب الحياة. لا أحـد يتقبـل فكرة أن يكون هناك نـوع واحد من فراشي الأسنـان. نحن نتفوق ونسعى إلى الأفضل دائماً بسبب المنافسة.

ستوسـل: بعض الأشخاص يقولون: إن الأولاد أهم مـن أن يتركوا لرحمة السوق والمنافسة إذ قد يقعون ضحايا الأخطاء.

حاكم ولاية سانفورد: إنهم واقعون ضحايا الأخطاء الآن.

إنـه محـق في ذلك. في ولايـة جنوب كاليفورنيـا لا يتخرج نصـف الأولاد بعد أربع سنوات في الثانوية. ولكن كيف ارتكست المؤسسات التعليمية على خطة حاكم الولاية؟ اعترضت مجالس المدارس، واعترضت اتحادات الأساتذة. وأرسلت مع الأولاد رسائل إلى الأهـالي تقول: «اتصلوا بالمسؤولين في منطقتكم. كيـف يمكننا إنفاق النقود على شيء لم تثبت صحته؟».

رفضـت اللجان التشريعية في الولاية خطـة اختيار المدارس بنسبة بلغت ستين إلى ثلاثـة وخمسين. إنه «نصر عظيم» للتعليـم كما قالت المشرفة على المدارس في الولاية أينر تيننبوم Tenen baum.

أينر تيننبوم: لقد كانت خطة غير متعبة وباهظة التكاليف وغير مسؤولة.

ستوسل: غير مثبتة لأن السياسيين والاتحادات لا يدعون أي شخص يجربها. لم لا تتركون آلاف أنواع الأزهار تتفتح؟

أينر تيننبوم: إنك تتصرف كما لو كانت تلك الأزهار ستتفتح فعلاً ليس لديك أي فكرة عما سينتجه القطاع الخاص.

ستوسل: هذا ما هو جميل في الأمر. ينتج القطاع الخاص أكثر مما نحلم به أنا وأنت؛ لأنه: بفتح المجال أمام ملايين العقول لتبدع.

أينر تيننبوم: أنا لا أؤمن بذلك.

قالت تيننبوم: إنه لا حاجة إلى خطة «غير مثبتة» لأن مدارسها تتحسن باستمرار.

أينر تيننبوم: يجب علينا أن نحافظ على وضعنا الحالي. كل الدلائل تشير إلى أن مدارس ولاية جنوب كاليفورنيا ليست الأخيرة بل أدرجنا في قائمة المدارس التي تملك أعلى معايير في التعليم في كل أمريكا.

ستوسل: لكن الأولاد لا يصلون إلى تلك المعايير كانت مرتبتكم هي الأخيرة في امتحانات SAT.

أينر تينابوم: لا يجب أن يكون امتحان SAT معياراً لتقويم أي مدرسة في أي ولاية.

ستوسل: أليس الأهالي قضاة أفضل في الحكم من فحوصكم. يقول الأهالي: «أنا أكره هذه المدرسة وأريد تسجيل ولدي في مدرسة [أخرى]»؟

أبنر تيننبوم: يستطيع الأهالي ترك المدرسة واختيار أي مدرسة أخرى حكومية.

ستوسل: أي خيار بين مدرسة حكومية سيئة ومدرسة حكومية سيئة!

لم لا تعطونهم خيارات أكثر لم لا تجعلوهم يأخذون نصف الأموال التي تنفقونها ويجربون المدارس الخاصة البديلة؟

أينر تينابوم: لأنه لا توجد في المدارس الخاصة المسؤولية التي توجد في المدارس الحكومية.

المسؤولية؟ رئيسة احتكار حكومي لها الجرأة على الكلام على المسؤولية.

المسؤولية هي التي تجعل المدارس الخاصة تتفوق في أدائها. في كل يوم تحاسب على أدائها من قبل الأهالي وعندما يفشل المسؤولون على المدرسة ويفشل التلاميذ

فـإن هؤلاء المسؤولين يفقدون عملهـم، أما المدارس الحكومية فهي مسؤولة فقط أمام السياسيين. هذا هو السبب في أنه مامن مدرسة حكومية أغلقت أبوابها أبداً مهما بلغت رداءتها. ولا أحد يفقد عمله عندما يفشل التلاميذ. ليس خبراً جديداً أن الاحتكارات الحكومية تقوم بعملها بشكل رديء. فانهيار الاتحاد السوفيتي ليس سراً. لم نعتقد أن الاحتكار سينجح في المدارس؟

خرافة: يكافأ امتياز الأساتذة.

حقيقة: الضعف هو الذي يكافأ.

الشـيء الوحيـد الأسوأ من الاحتـكار الحكومي هو الاحتـكار الحكومي المنظم في اتحادات متصلبة في المدن الأمريكية، يعلق معظم أطفال المدارس في تلك الهيئات.

قـال لنا أحد التلاميذ في ثانويـة في نيويورك: إن الأساتـذة في مدرسته لا يبذلون جهودهم. «أنا أقف اليوم في الحصة السادسة خارج صفي؛ لأنني لا أعلم أين أستاذي» قـال أحد التلاميذ وأضاف قائـلاً: «قال لي أحد أساتذتي: إنـه يدرس فقط من أجل الحصول على التأمين الصحي».

يبـدو هذا غريبـاً: لأن الأساتـذة الذين أعرفهـم يريدون مساعـدة الطلاب على التعلـم. وبعضهم متحمسون جداً لمواضيع التعليم ويأخـذون دروساً إضافية؛ ليتعلموا كيـف يصبحون أساتذة أفضل. وبعضهم يدفعون من أموالهم الخاصة: ليتعرفوا على أحدث تقنيات التعليم.

ولكن المرة تلو الأخرى كان الأولاد يقولون لنـا: «لدينا بعض الأساتذة يقولون: أنا لا أهتـم بعملي إذ أحصل على راتبي على كل حـال». يجب ألا أفاجأ بذلك. فعندما تدفـع للجميـع الراتب نفســه وتضمن لهم الاستمـرار في وظائفهـم ينعدم الحافز لديهم لرفع جهودهم.

لقد تحدثت إلى مجموعة من طلاب الثانوية من مدارس مدينة نيويورك.

ستوسل: أهناك أساتذة يمقتهم الطلاب؟

مجموعة الطلاب: [بصوت واحد] نعم!

باتريسيا ستوارت: إنهم يتحدثون كما لو كانوا أمواتاً ويجعلونك ترغب في النوم. وعندما تنام يغضبون. لكنك لا تستطيع أن تقاوم النوم؛ لأنهم يتحدثون كما لو أن أحدهم أجبرهم على أن يكونوا هنا.

عندما يفقدون حماستهم نفقد نحن حماستنا.

بعض الأساتذة يبعثون الملل وبعضهم الآخر ليسوا أذكياء.

في عام 1999 ابتكرتُ امتحاناً غير رسمي للأساتذة. من هم الأساتذة الأكثر ذكاءً؟ حاول أفراد طاقم قناة ABC إعطاء الامتحان للأساتذة في العشرات من المدن. لكن في المدينة تلو الأخرى رفض الأساتذة إجراء الامتحان. لقد أجريت مقابلة مع مجموعة من الأساتذة في مدينة نيويورك من الذين رفضوا إجراء امتحان. كانوا قد رفعوا دعوى على ولاية نيويورك التي تجرأت واستعملت امتحاناً يدعى امتحان الأساتذة الوطني National teacher examination NTE لتحديد بشكل تقريبي، إعطاء الفوائد وكمية الراتب. رسب بعض أولئك الأساتذة بفحص NTE مراراً.

امرأة أولى: لقد أجريت فحص NTE عشرين مرة أو أكثر.

رجل أول: لقد أجريته مرات عديدة. لم أواصل العد.

ستوسل: عادة إذا أجريت فحصاً ورسبت فإنك تدرس كي تنجح في المرة القادمة.

رجل ثان: لا يوجد شيء ندرسه.

امرأة ثانية: ليس من حاجة لامتحاني.

ستوسل: لكنكم تمتحنون الأولاد فلم لا يجب أن نمتحنكم؟

امرأة ثالثة: ليس من العدل أن يمتحنني أشخاص من الخارج، كل يوم أمضيه في الصف هو بمثابة امتحان لي.

لقد ادعوا في دعواهم القضائية أن الامتحان امتحان عنصري؛ لأن معظم من رسبوا فيه هم أفراد من الأقليات.

مارك بيسني أستاذ الدراسات الاجتماعية: الآن سأعطيك مثالاً على سؤال شائع. لنر إن كنت تستطيع الإجابة. ما رونق ذلك الجدار؟

ستوسل: رونق! أتعني لون ذلك الجدار؟

مارك بيسني: أنا سألتك هذا السؤال.

ستوسل: بيج.

مارك بيسني: حسناً. أنت محظوظ، حسب فهمك تعني كلمة رونق هنا لون الأشخاص الذين يأتون من بيئات فقيرة قد لا يملكون مفردات غنية مثل الأشخاص الذين يكتبون هذه الامتحانات.

هل كلمة رونق كلمة صعبة للفهم على أستاذ؟ شكا إلي جويل كلاين مستشار المدارس الحكومية في نيويورك «نحن نتحمل الضعف؛ لأن رواتب الأشخاص متساوية سواء أكانوا بارعين أو متوسطين أو دون الوسط».

المدارس التي يديرها كلاين هي أكبر احتكار حكومي بعد الصين. برز اسم كلاين في العناوين الرئيسة، وذلك عندما جعل وزارة العدل في زمن كلنتون تهاجم شركة ميكرو سوفت بسبب ما دعاه «احتكار لبرامج الحاسوب» لكن ميكرو سوفت لا تقضي على المنافسة كما تفعل منظمة كلاين الجديدة، احتكار صلب التنظيم، حتى إن الأساتذة الخطيرين لا يطردون منهم.

ستوسل: ألا تستطيع طردهم؟

جويل كلاين: هذا تقريباً مستحيل.

هذا تقريباً مستحيل بسبب الخطوات المعقدة التي يجب أن يتخذها المدير ليطرد أستاذاً سيئاً.

انظر الصفحة 175 - 178 خريطة توضح هذه الخطوات.

كانت تلك القوانين تقصد خيراً تحقيق العدالة بين الأساتذة. خشي اتحاد الأساتذة من أن يفضل المديرون تعيين أصدقائهم وأقاربهم ويطردوا الأساتذة الجيدين.

لـو تـرك التعليـم الحكومـي للمنافسة في السـوق الحـرة لكانت تلـك القوانين البيروقراطيـة غـير ضروريـة؛ لأن الأهالي سيعرفـون المديرين السيئـين فيرسلون أولادهـم إلى مدارس أخرى في العـام المقبل. يجب أن تُغلق المدارس الرديئة. لكن المدارس الحكومية لا تغلق أبداً؛ لذا كان من الضروري سن قوانين مستحيلة صارمة تشل إغلاق المدارس.

جويل كلاين: لدينا نظام لا يمكن فيه التمييز بين الأشخاص، ونتيجة لذلك نحن لا نكافئ الامتياز.

ستوسل: لم لا تكافئون الامتياز.

جويل كلاين: لأن ذلك ممنوع في العقد.

العقـد هو 205 صفحات مـن قوانين العمل. تخلق احتـكارات الاتحاد وثائق مثل هـذه. تمنع القوانين دفع نقودٍ أكثر للأساتـذة الممتازين، وتجعل طرد الأساتذة شبه مستحيل حتى طرد الأستـاذ الذي يبعث برسائل إلكترونية جنسية إلى طالبه البالغ ستة عشر تماماً.

جويـل كلايـن: هذه أكـثر القصص غرابـة بالنسبة لي: لأن البريـد الإلكتروني موجود وكان مهيناً تماماً.

ستوسل: واعترف هو بذلك.

جويل كلاين: كان البريد الإلكتروني عندنا.

ستوسل: إذاً على ما أعتقد وجب فصل الأستاذ.

جويل كلاين: لا يمكننا طرده.. لقد دفعنا له راتبه.

لم يكن يدرّس لكن كان علينا دفع راتبه؛ لأن هذا ما ينص عليه العقد.

لقـد دفعوا له مـا يزيد علـى 350.000$. وبعد ست سنوات فقط مـن التشريعات المكلفـة تمكنـوا من طرده، ومـازال كلايـن يدفع للمئات مـن الأساتذة غـير الأكفاء والعنيفين والمدانين بالتحرش الجنسي.

عنـد الخوف من عمـل أولئـك الأساتذة بالتدريـس، فإنهـم يضعونهم في «غرف مطاطيـة». ولا تدعـى بذلك؛ لأنها مصنوعـة من المطاط ـ إنها غـرف حيث يسكّنون الأساتذة الذين يخشون اقترابهم من الأولاد.

يقـرأ الأساتذة في الغرف المطاطية المجلات ويلعبون بـورق الشدة ويتحدثون فيما بينهـم. وفي أثناء إضاعتهم للوقـت يقبضون رواتبهم على حساب دافعي الضرائب في نيويورك والتي تبلغ عشرين مليون دولار في السنة.

ومـع أن القوانـين التي تجعل طرد الأساتـذة مستحيلاً تبدو قوانـين جنونية إلا أن اتحادات الأساتذة تدافع عنها. ولدى هذه الاتحادات سلطة خارقة تفرض التشريعات التي تدعم العمال، على الأساتذة دفعة تعرفة، حتى لو لم يوافقوا على مبادئ الاتحاد. هذا يخلق سلاحاً سياسياً يهمله السياسيون عند تعرضهم للخطر.

في نيويـورك أظهرت راندي وينغارتن رئيسة اتحـاد الأساتذة تلك القوة السياسية في عام 2005 عندما جعلت أكثر من 20.000 أستاذ يحتشدون في مظاهرة في حديقة ساحـة ماديسـون. كان علي أن أضع سدادات الأذن؛ لأتحمل تلـك الضوضاء، إذ كان الأساتـذة يغنون ويصرخـون بالشتائم على كل من يعترض (خطتهـم) عشرون ألف شخص يريدون التظاهر والصراخ لا عجب أن السياسيين يرتعدون.

بعـد المظاهـرة دافعت واينغارتن عـن قوانين العمل عندما ناقشتهـا فيها. دافعت حتى عن القانون الذي يقضي بألا يسمح لأي أستاذ بمساعدة طفل معاق على الخروج من الحافلة.

ستوسل: أليس للأساتذة واجبات في المقصف أو في قاعات الدراسة؟

راندي واينغارتن: للأساتذة واجبات مهنية!

ستوسل: يستطيع أعضاء الهيئة التدريسية التقاعد في سن 55 دون غرامة.

راندي واينغارتن: نعم.

ستوسـل: يعمـل جميع الأساتذة «مدة عمل في المدرسـة تبلغ ست ساعات وأربعين دقيقة في اليوم».

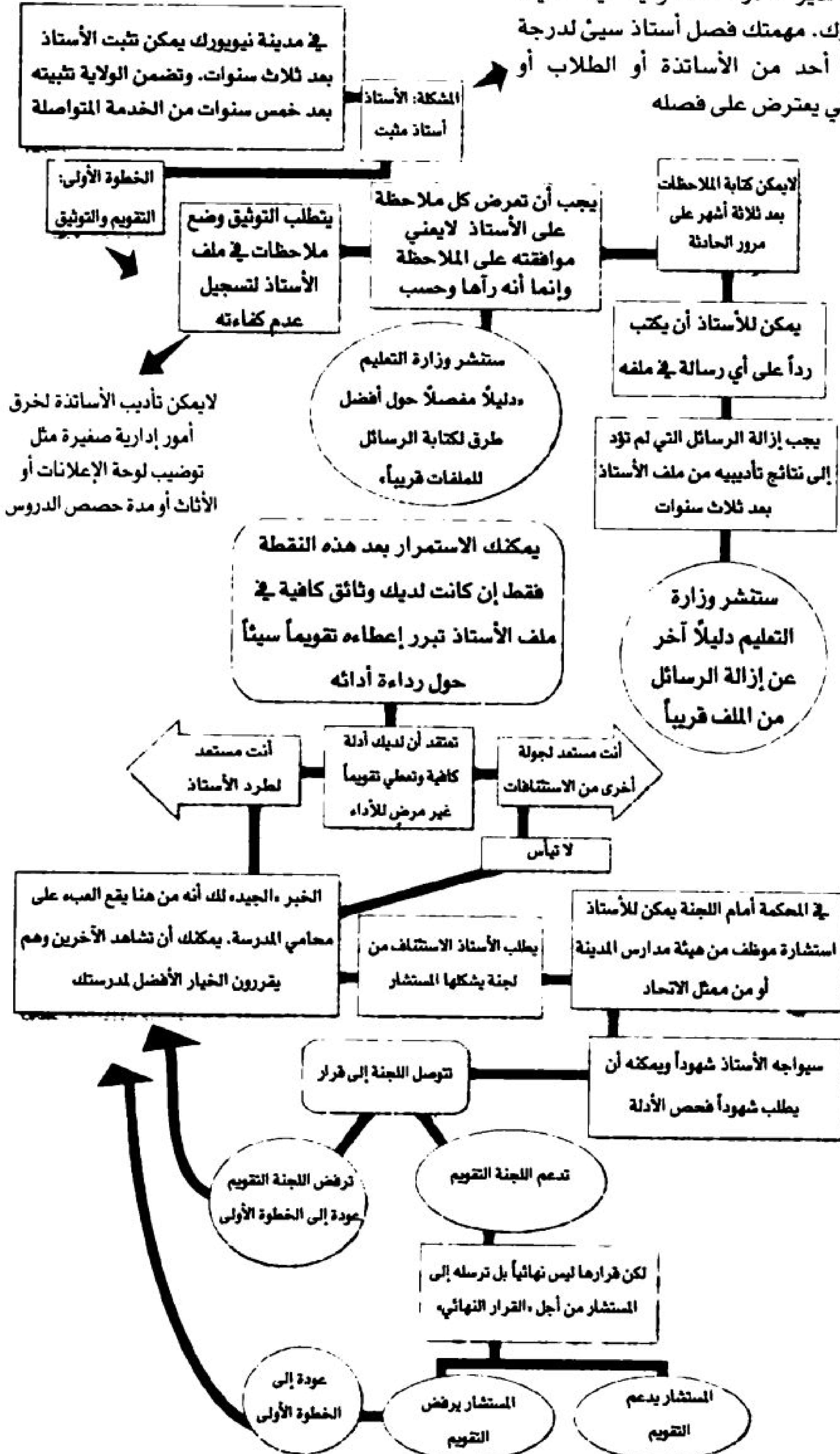
راندي واينغارتن: وذلك ما يحصل عادة في القطاع الخاص.

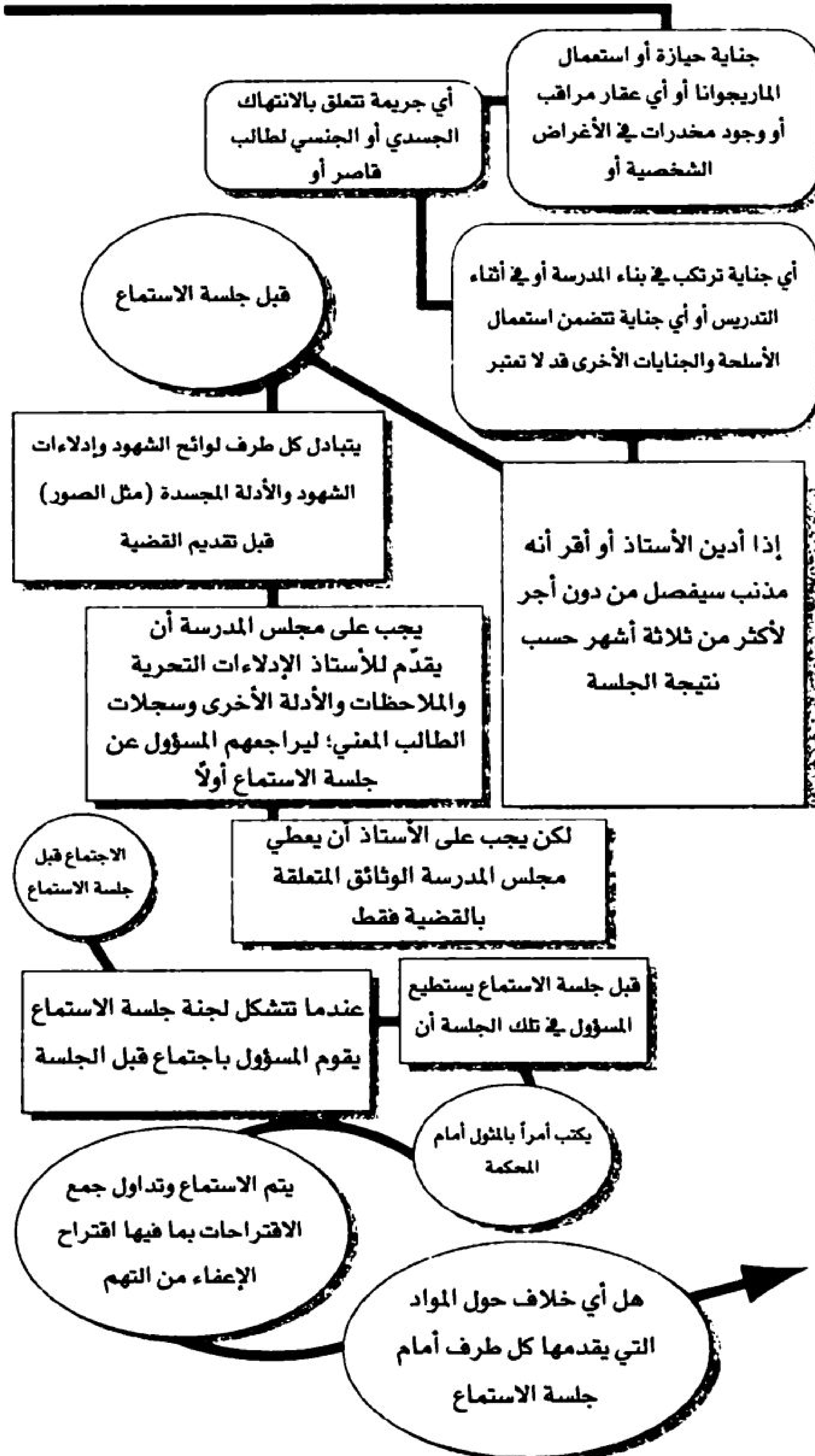
يعمـل الناس مـدة عمل في المدرسة تبلغ ست ساعات وأربعـين دقيقة في اليوم؟ إن الأشخاص المغرورين يعملـون في الاحتكارات الاتحادية ويفقـدون صلتهم مع الواقع. بعـد مقابلتي مع واينغارتن قررت هـي والمستشار كلاين اعتمـاد عقود جديدة تعطي الأساتـذة زيـادة في الرواتب بمقـدار 15 بالمئة. لقد وافقت على تغـير بعض القوانين الغبيـة مثل «عدم وجود واجبـات في قاعات الدراسة» لكن القوانين الأخرى بقيت على حالها والمخطط المعقد (ص 175 - 178) الذي يوضح خطوات طرد أستاذ تم إحداثه في العقود الجديدة التي (سهّلت) العملية.

لكن الأساتذة قاموا بتغير جم، إذ وافقوا على العمل عَشْر دقائق أكثر في اليوم.

كيف أفضل أستاذاً غير كفء؟

أنت مدير مدرسة حكومية في مدينة نيويورك. مهمتك فصل أستاذ سيئ لدرجة أن لا أحد من الأساتذة أو الطلاب أو الأهالي يعترض على فصله




جناية حيازة أو استعمال
الماريجوانا أو أي عقار مراقب
أو وجود مخدرات في الأغراض
الشخصية أو
أي جريمة تتعلق بالانتهاك
الجسدي أو الجنسي لطالب
قاصر أو
أي جناية ترتكب في بناء المدرسة أو في أثناء
التدريس أو أي جناية تتضمن استعمال
الأسلحة والجنايات الأخرى قد لا تعتبر
قبل جلسة الاستماع
يتبادل كل طرف لوائح الشهود وإدلاءات
الشهود والأدلة المجسدة (مثل الصور)
قبل تقديم القضية
إذا أدين الأستاذ أو أقر أنه
مذنب سيفصل من دون أجر
لأكثر من ثلاثة أشهر حسب
نتيجة الجلسة
يجب على مجلس المدرسة أن
يقدّم للأستاذ الإدلاءات التحرية
والملاحظات والأدلة الأخرى وسجلات
الطالب المعني؛ ليراجعهم المسؤول عن
جلسة الاستماع أولاً
لكن يجب على الأستاذ أن يعطي
مجلس المدرسة الوثائق المتعلقة
بالقضية فقط
الاجتماع قبل
جلسة الاستماع
عندما تتشكل لجنة جلسة الاستماع
يقوم المسؤول باجتماع قبل الجلسة
قبل جلسة الاستماع يستطيع
المسؤول في تلك الجلسة أن
يكتب أمراً بالمثول أمام
المحكمة
يتم الاستماع وتداول جمع
الاقتراحات بما فيها اقتراح
الإعفاء من التهم
هل أي خلاف حول المواد
التي يقدمها كل طرف أمام
جلسة الاستماع

لحماية الأستاذ في الفصل غير العادل أو الاعتباطي أمامه عدة خيارات للاستئناف

الخيار 1

طلب استئناف من مفوض هيئة التعليم في الولاية

في الواقع تؤمن قوانين الولاية لأي شخص يعد نفسه مظلوماً من سلطات المدرسة إمكانية رفع دعوى للمفوض من أجل الاستئناف

لدى المظلوم 30 يوماً بعد الواقعة لرفع دعوى الاستئناف

تقول وزارة التعليم: «نحن نحاول البت في قرار خلال ستة إلى ثمانية أشهر (أي ثمانية إلى عشرة أشهر بعد ملء طلب التظلم) لكن تملأ المديد من طلبات الاستئناف لحالات معقدة مما يجعل تحديد موعد معين أمراً مستحيلاً

إذاً الأستاذ غير الكفء سيعمل مدة أطول ولكن على الأقل يعطي المفوض «اهتماماً كبيراً للقرار الذي يتخذه المسؤولون المحليون» ولن يغير حكمهم إلا إن لم يجد أسساً عقلانية ومنطقية لذلك الفعل.

مقتنع؟ هذه هي بعض القرارات الفعلية

يقرر المفوض أنه يجب فصل الأستاذة سنة بدلاً من طردها؛ لأنه برغم غيابها المتكرر عن الدروس الذي كان له أثراً على الطلاب. لا يوجد دليل على تمارضها ويشير السجل إلى أنها حاولت إلى حد ما أن تخفف من غيابها وأن تؤمن أساتذة مساعدين ليحلوا محلها» (194) قرار رقم 13278

لم يوافق على أنها رخصة أستاذ مجرّب للمعوقين؛ لأن المجلس لم يلتزم بالنشرة التي أقرها المستشار حول تثبيت وتجريب الأساتذة. تقول النشرة: إنه قبل إنهاء رخصة أستاذ المعوقين يجب إحالتها إلى «التقويم والحقوق الأساسية من قبل قسم تعليم المعاقين ولجنة خدمات التلاميذ» (1981)

يجد المفوض أن تقويم أداء الأستاذ بأنه غير مرضٍ أمر عادل هذا التقويم تم دعمه من قبل لجنة التزمت بقوانين الإجراءات المدنية

عودة إلى الربع الأول

الخيار 2

رفع دعوى في محكمة الولاية للطعن بقرار المستشار

إلى قاعة المحكمة

لمراجعة ما حدث. لم يطرد الأستاذ غير الكفء حتى الآن. لقد نجحت بوضع ملاحظات في ملفه وتقويم بسوء أدائه يمكنك الآن أن تستمر بجلسة الفصل تحت قانون التعليم رقم S. 3020

الخيار 3

لا ترفع دعوى الاستئناف

حتى ولو لم يرفع الأستاذ دعوى للاستئناف لا يمكن طرده في هذه المرحلة الطرد لا يمكن أن يحدث إلا بعد استماع تحت قانون التعليم رقم S.3020-A

سجل ما في التهم ضد الأستاذ غير الكفء لطرده

بعد كتابة التهم سيصوت المجلس التنفيذي إذا ما كانت التهم صحيحة على الأغلب

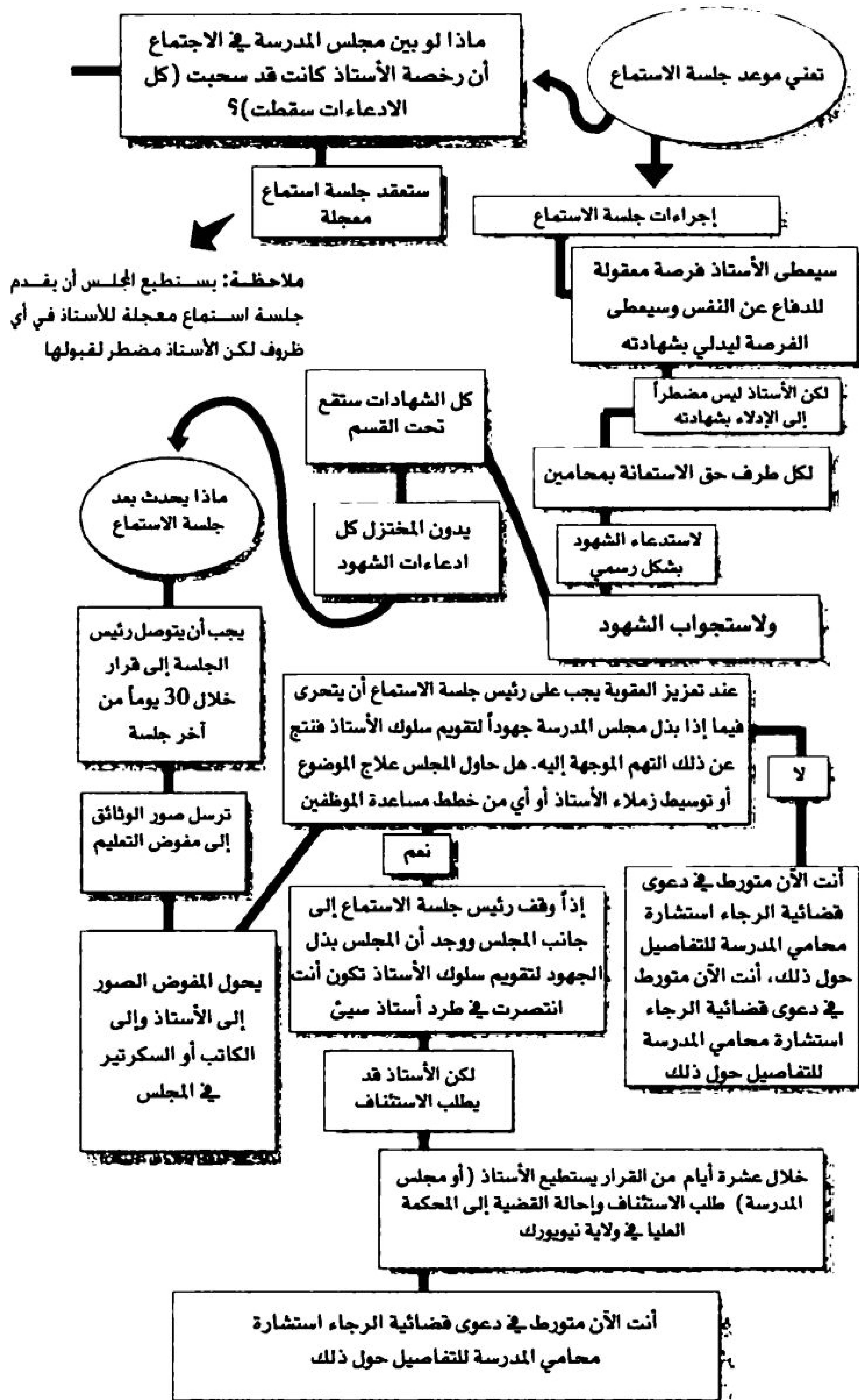
ليست صحيحة احصل على وثائق إضافية. عودة إلى الخطوة 1

صحيحة على الأغلب

يجب أن يصدر مجلس المدرسة لائحة بالتهم والعقوبة القصوى المحتملة وأن يرسل مذكرة تبين حقوق الأستاذ تحت قانون استماع رسمية

خلال عشرة أيام يستطيع الأستاذ أن يطلب جلسة استماع ويختار أن يمثل أمام مسؤول واحد أو لجنة من الحكام. وفي كل حال يشرف مسؤول حكومي على الجلسة

إذا ما فصل الأستاذ نتيجة قرار الجلسة يجب أن يدفع له خلال مدة الفصل إلا إذا وجد الحكم أن هناك تهماً تتعلق بأحد الأمور الآتية:


تعني موعد جلسة الاستماع
ماذا لو بين مجلس المدرسة في الاجتماع أن رخصة الأستاذ كانت قد سحبت (كل الادعاءات سقطت)؟
ستعقد جلسة استماع معجلة
ملاحظة: يستطيع المجلس أن يقدم جلسة استماع معجلة للأستاذ في أي ظروف لكن الأستاذ مضطر لقبولها
إجراءات جلسة الاستماع
سيعطى الأستاذ فرصة معقولة للدفاع عن النفس وسيعطى الفرصة ليدلي بشهادته
لكن الأستاذ ليس مضطراً إلى الإدلاء بشهادته
لكل طرف حق الاستعانة بمحامين
لاستدعاء الشهود بشكل رسمي
ولاستجواب الشهود
كل الشهادات ستقع تحت القسم
يدون المختزل كل ادعاءات الشهود
ماذا يحدث بعد جلسة الاستماع
يجب أن يتوصل رئيس الجلسة إلى قرار خلال 30 يوماً من آخر جلسة
ترسل صور الوثائق إلى مفوض التعليم
يحول المفوض الصور إلى الأستاذ وإلى الكاتب أو السكرتير في المجلس
عند تعزيز العقوبة يجب على رئيس جلسة الاستماع أن يتحرى فيما إذا بذل مجلس المدرسة جهوداً لتقويم سلوك الأستاذ فنتج عن ذلك التهم الموجهة إليه. هل حاول المجلس علاج الموضوع أو توسيط زملاء الأستاذ أو أي من خطط مساعدة الموظفين
لا
أنت الآن متورط في دعوى قضائية الرجاء استشارة محامي المدرسة للتفاصيل حول ذلك، أنت الآن متورط في دعوى قضائية الرجاء استشارة محامي المدرسة للتفاصيل حول ذلك
نعم
إذاً وقف رئيس جلسة الاستماع إلى جانب المجلس ووجد أن المجلس بذل الجهود لتقويم سلوك الأستاذ تكون أنت انتصرت في طرد أستاذ سيئ
لكن الأستاذ قد يطلب الاستئناف
خلال عشرة أيام من القرار يستطيع الأستاذ (أو مجلس المدرسة) طلب الاستئناف وإحالة القضية إلى المحكمة العليا في ولاية نيويورك
أنت الآن متورط في دعوى قضائية الرجاء استشارة محامي المدرسة للتفاصيل حول ذلك

بالطبع. يعمل الكثير من الأساتذة (الجيدين) في منازلهم مدة أطول من الست ساعات وأربعين دقيقة في المدرسة، إذ يصححون الوظائف ويحضرون دروس اليوم اللاحق. لكن بعض الأساتذة قالوا لي إنهم: «يخشون العمل بعد الساعة الثالثة بعد الظهر» في المدرسة؛ لأنهم قد «يقعون في مشكلات مع الاتحاد» حيثما توجد قوانين الاتحاد يسحب أكسل عضو الجميع إلى مستوى منخفض.

وعلى عكس ذلك نجد أن مدارس تشارتر التي تحررت من قوانين الاتحادات كانت تحوي أساتذة يسعدون بتجريب الأساليب الجديدة في التدريس. في مدرسة فرندشيب وهي مدرسة تشارتر في مدينة واشنطن معظم الطلاب يأتون من أنحاء المدينة التي تكثر فيها الجرائم والمخدرات. ولكن ما يثير العجب أن 90 بالمئة يتخرجون في المدرسة معظم هؤلاء الخريجين يذهبون إلى الجامعة، فيكونون على الأغلب أول من يذهب إلى الجامعة في عائلاتهم.

يقول المدير مايكل كورديل: إن ذلك يحدث لأنه هو وطاقمه يُسيّرون المدرسة حسب ما يعتقدون أنه الصحيح. «يمضي التعليم بسرعة ألف ميل في الساعة وهناك دائماً طرق جديدة لتعليم الأولاد. هذه مزية مدرستنا ـ نستطيع المضي قدماً بسرعة مع طلابنا» كونه مديراً لمدرسة تشارتر أعطاه الحرية في طرد الأساتذة السيئين. إن لم يقوموا بأدائهم كما يجب فإنهم يعلمون أن طردهم محتمل. وبعد السنة الأولى طرد كورديل ثلث الأساتذة. وكافأ الأساتذة الجيدين بزيادة رواتبهم وترقيتهم.

يلاحظ تلاميذ فريند شيب الفرق. يقول غيب نياهن البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً: «أظن أن الأساتذة باتوا يملكون دافعاً أقوى في نفوسهم لتقديم أفضل ما لديهم». ويضيف كورديل: إنه يعلم أن أمام طلابه خيارات أخرى لذا فإنه هو والأساتذة يبذلون أقصى جهودهم «نشعر بالضغط إذ هناك دائماً من يهتف إلينا ويقول: هذا غير مقبول. لا نستطيع أن نرضى بما هو متوسط الجودة».

يحرض ذلك الإحساس بالمنافسة الرغبة في التحديث. في مدارس KIPP الناجحة وهي مدارس تشارتر تنتشر في أرجاء أمريكا يبقى معظم الطلاب في الصفوف حتى

الساعــة الخامســة بعد الظهر ويذهبون إلى المدرسة يــوم السبت كل أسبوعين. يعطي الأساتــذة إلى الطلاب أرقــام هواتفهم الجوالة وهم جاهــزون للإجابة عن أسئلتهم حول الوظائف في كل مساء.

في ضاحيــة بوسطــن العنيفــة دورشستر خرّجــت أكاديمية تودمــان وهي مدرسة تشارتــر الثانويــة ـ طلابها حصراً مــن الفقراء والأقليات ـ خرّجــت أول صف لها في العــام الفائت وبلغ عدد الطلاب تسعة عشر. ومــع أن معدل الخريجين الذين يتابعون دراستهــم في الجامعة هو نصف عدد الصف المتخرج، فقد قبل كل تلميذ من خريجي كودمان في الجامعة.

للأســف يوجد عــدد أكبر من الأولاد والأهالي في أمريكا ممــن لا يتاح لهم المجال للالتحاق بمدارس مماثلة.

خرافة: رواتب الأساتذة قليلة.

حقيقة: ماذا قلتم؟

في تلك المظاهرة في مدينة نيويورك قال لي الأساتذة الغاضبون إن رواتبهم: «قليلة بشكل رهيب».

أنــا أفهم لم يشعرون بذلك؟ أوكلــت إلى الأساتذة مهمة عظيمة وهي تعليم أولادنا إحدى أهم الوظائف في العالم.

المعلم الأول: نحن نعمل كثيراً.

ستوسل: كم يبلغ راتبك الآن؟

الأستاذ الثاني: سبعون ألفاً.

ستوسل: كم يبلغ راتبك أنت؟

الأستاذ الثالث: ستون ألف دولار.

ستوسل: ما الراتب الأمثل لك؟

الأستاذ الثالث: خمسة وثمانون ألفاً.

هـل رواتب 60.000$ و70.000$ قليلة بالنسبـة لعمل مدة 9 أشهر في السنة؟ هذه الرواتـب لا تتضمـن الزيادات التي يكافـأ بها بعض الأساتذة. يحظـى أساتذة مدينة نيويـورك بمعاش تقاعدي تضمن الحكومة فيه فائدة معادة لهم بنسبة 8.25 بالمئة ولا تحسـم ضريبة المدينـة أو الدولة من ذلك المعاش. كما يعطى لهـم عشرة أيام إجازة مرضية في السنة.

معظـم الأساتـذة في أرجاء أمريكا الأخـرى رواتبهم أقل من ذلـك. وسطي راتب الأستاذ من الحضانة إلى صف الثاني عشر هو 45.081$ بالسنة. لكن معظم الأساتذة يعملون فقط تسعة شهور. إذا نظرنا إلى أجرة الساعة وسطياً للأساتذة من الحضانة إلى الصـف الثاني عشر نجد أنهـا 30.91$ أي أكثر مما يجنيه الكيميائيون 30.64$ ومبرمجو الحاسوب 28.98$ والمرضات 26.87$ وعلماء النفس 28.49$.

لـو كانت هنـاك سوق حرة في التعليم لجنى الأساتـذة الأفضل رواتب أكثر بكثير من غيرهم. ألا تصدقوا ذلك؟ تذكروا، تنفق معظم المدارس 250.000$ على الصف الواحد. لـو أعطي الأهالي حق الاختيار لانتقوا أفضل الأساتـذة لأولادهم. الطلب على الأساتذة الجيدين سيرفع من قيمتهم. فيجني الأستاذ راتباً قدره 200.000$ في السنة.

لا أعلم ماذا تعني عبارة /راتب قليل/ في مجتمع حر لا يجبر أحداً على أن يصبح أستاذاً أو أن يظل أستاذاً إن توافرت له فرص أخرى. لو كان راتب الأساتذة منخفضاً لواجهنـا أزمـة نقص في الأساتذة. لسنا نعـاني من ذلك. فمثـلاً في ميسوري هناك 25 طلبـاً لـكل وظيفة تعليم في المدارس الابتدائية. هناك نقص أحيانـاً في الأساتذة المختصـين بموضوع معين مثـل الرياضيات والعلوم لكن ذلـك نقص ناجم عن جنون المسـاواة في الرواتب بـين الأساتذة وليس بسبب انخفاض الرواتب. في مدارس KIPP تشارتر لا ينتمي الأساتذة للاتحادات لكنهم يعملون برواتب أعلى بمقدار 15-20 بالمئة من نظرائهم في المدارس الحكومية.

هنـاك كلف وفوائد لكل وظيفة والسوق الحرة أكثر قـدرة على حساب هذه الكلف والفوائد وأخذها في الحسبان عند تحديد الرواتب. العقود المتماثلة للجميع في المدارس الحكومية الاتحادية تعاقب الأساتذة الجيدين وتكافئ السيئين.

خرافة: الأهالي الذين يدّرسون أولادهم في المنزل عوضاً عن إرسالهم إلى المدرسة هم أشخاص مجانين ومتدينون ولا يتعلم أولادهم المهارات الاجتماعية.

حقيقة: تدريس الأولاد في المنزل عوضاً عن المدرسة هو خيار جيد أمام الأهالي الذين سئموا من سوء المدارس الحكومية. والأولاد الذين يتعلمون في المنزل ينجحون في الحياة.

اليوم يتلقى أكثر من مليون طفل أمريكي التعليم في منازلهم. أي 2 بالمئة من الأولاد في سن المدرسة، وهذه النسبة تزداد 10 بالمئة في كل سنة.

يختار بعض الأهالي التدريس في المنزل لأسباب دينية ولكن عدداً كبيراً من الأهالي يختارون ذلك: لأنهم سئموا سوء المدارس الحكومية.

يقول النقاد: إن الأولاد الذين يتعلمون في المنزل لا يتعلمون الاختلاط مع أقرانهم. ويرد الأهالي الذين يعلمون أولادهم في المنزل: لم الافتراض أن المدرسة هي أفضل مكان لإنشاء العلاقات الاجتماعية بين الأولاد؟ أليست المدرسة هي المكان الذي يجب على الولد فيه أن يصب جُلّ اهتمامه على الأستاذ وليس الأصحاب؟ يختلط الأولاد الذين يتعلمون في المنزل مع الأولاد الآخرين طوال الوقت في أمكنة مثل الكشافة، ودروس الباليه، فرق كرة القدم، جوقة الكنيسة. والعديد منهم يأخذون الدروس في المنزل مع غيرهم من الأولاد.

أحرزت تريستين شارب الأستاذة في ساوث كاليفورنيا لقب «أستاذة العام». درس ولداها في المدرسة نفسها، لكنها لاحظت أن أحدهما كان متأخراً في دروسه.

قال لها أستاذه: «لا أعلم ماذا يمكنني فعله» قررت شارب أنها تعلم ما يجب فعله. فاستقالت من وظيفتها وأصبحت تدرّس ولديها في المنزل. وسرعان مابدأ الأهالي يطلبون منها تعليم أولادهم أيضاً في المنزل. قالت تريستين: «أخذت من الطلاب

العدد الذي يمكنني أخذه» وأصبحت لديها لائحة انتظار طويلة «كان الأهالي يهتفون لي ويقولون: أليس هناك شيء يمكنك فعله؟ أي شيء؟ أي وقت من اليوم لديك فراغ؟ سأفعل كل شيء تطلبينه».

عندما زرنا تريستين في منزلها المدرسي، دهشنا من حماسة الطلاب للتعلم. قالت لنا كايمن يونغ التي كانت تكره حصة الرياضيات في المدارس الحكومية: «أحب الرياضيات، أنا مهووسة بالرياضيات». كانت حصة العلوم تعقد إلى جانب البحيرة قرب منزل تريستين: التقط الأولاد بعض الشراغيف (فراخ الضفادع) وركضوا إلينا ليشرحوا دورة حياة الضفادع. كان حبل معلق في الشجرة موضوعاً لحصة الفيزياء. أما في حصة الهندسة الفراغية فقد بنوا قلعة.

درس برايان راي في كل من المدارس الخاصة والمدارس الحكومية قبل أن يصبح رئيس المعهد الوطني لأبحاث التعليم المنزلي. قال: إن الطلاب الذين يدرسون في المنزل يبذون في إنجازاتهم أقرانهم في المدارس الحكومية وقال: «ظهر في دراسة تلو الأخرى أن الأطفال الذين تعلموا في المنزل سجلوا نقاطاً أعلى بنسبة 15-30 نقطة من المعدل الوطني. كما أن الأولاد الذين يدرسون في المنزل سجلوا معدلات أكثر بـ 10 بالمئة من تلاميذ المدارس الثانوية في فحوص الـ ACT.

لا أعلم كيف يستطيع الأهالي الذين يدرسون أولادهم في المنزل فعل ذلك. أنا لا يمكنني فعل ذلك. سينفد صبري وسأختلف مع أولادي كثيراً. ومع ذلك يتعلم أكثر من مليون طفل في المنزل ويتفوقون في أدائهم على طلاب المدارس الحكومية.

خرافة: تسيء السندات المالية إلى المدارس الحكومية.
حقيقة: تحسّن السندات جميع المدارس.

إحدى طرق تحسين المدارس هي إعطاء الأهالي «سندات مالية» للتعليم. قد يكلف السند المالي الواحد ما يعادل الـ 10.000$ التي تنفقها المدارس الحكومية على كل طفل أو أقل. ويغطي سند مالي بقيمة 5.000$ القسط بأكمله في معظم المدارس الحكومية. والمهم في الأمر أن السند المالي تخصص النقود فيه للطفل.

وبما أن الأهالي يستطيعون إعطاء السند إلى أي مدرسة، فإن ذلك سيجبر المدارس على التنافس.

يقول نقاد السندات المالية المدرسية إن هذه السندات: «تخرب التعليم الحكومي» يقولون: إن معظم الأهالي المطلعين والناشطين سيخرجون أولادهم من المدارس الحكومية ويتركونها لثلة الأولاد «المشاغبين» الذين لا يهتم بهم أهاليهم. وعندما ينسحب الأهالي المهتمون فإن ذلك يعني «سحب النقود من المدارس الحكومية». هذا يبدو معقولاً. بما أن مؤسسات التعليم الأمريكية منعت تطبيق برامج السندات المالية على نطاق واسع فإن اختبار هذه الخرافات صعب.

مع ذلك في عام 1990 ابتكرت مدينة ميلواكي برامج السندات المالية لبعض الأولاد. عندما بدأ البرنامج سخر روبرت بيتركين مدير مدرسة ميلواكي قائلاً: «ليس هناك أي أساس من الصحة لفكرة أن المنافسة ستحسن كل المدارس».

كان بيتركين مخطئاً. في عام 2001 قامت كارولين هوكسبي عالمة الاقتصاد في هارفرد ببحث لتوضيح تأثير السندات المالية على المدارس الحكومية المجاورة. وجدت هوكسبي أن الأولاد الذين استخدموا السندات المالية للذهاب إلى المدارس الخاصة حصلوا على علامات أفضل من قبل. وكذلك كانت حال الأولاد في المدارس الحكومية المنافسة في المنطقة نفسها. السندات المالية للمدارس الخاصة حسنت أداء المدارس الحكومية. قالت: «أعطيت لمديري المدارس الحكومية استقلالية أكبر».

وقالت أيضاً «تم التخلص من الأساتذة السيئين أو الأساتذة الذين لم يواظبوا على الدوام ووضعت أسساً جديدة للمناهج في بعض المدارس الابتدائية التي كانت بأمس الحاجة إليها وذلك لتحسين مهارات القراءة والحساب». ارتفعت نتائج الامتحانات في تلك المدارس الحكومية بمعدل 8.1 بالمئة للرياضيات و13.8 بالمئة في العلوم و8.0 بالمئة في اللغة.

ليس ذلك مفاجئاً. المنافسة تطورنا. لم تشأ المدارس الحكومية أن تخسر طلابها والسندات المالية فعلت جهدها للارتقاء بمستواها.

لم تخسر تلك المدارس المال. فالسندات المالية تعادل 3.878$ أقل مما تصرفه الحكومة على الطفل الواحد (11.178$) في المدارس الحكومية فإن استخدم الطفل السند المالي للذهاب إلى مدرسة خاصة فإن هذا يترك أموالاً إضافية للمدرسة الحكومية. ازداد الإنفاق المخصص لكل طالب في المدارس الحكومية في ميلووكي منذ أن بدأ برنامج السندات المالية.

خرافة: ترهق السندات المالية المدارس الحكومية «بالأولاد المشاغبين».
حقيقة: السندات المالية تساعد «الأولاد المشاغبين» أيضاً.

يدعي المدافعون عن المدارس الحكومية أن المدارس الخاصة تتفوق في أدائها؛ لأنها لا تأخذ الأولاد «المشاغبين» والأولاد ذوي الاحتياجات الخاصة الذين يصعب تدريسهم.

يقولون: إن المدارس الخاصة «لا تريد الأولاد المكلفين والذين يتطلبون الكثير من الوقت» فإذا أعطي للأهالي السندات المالية فإنهم سينقلون الأولاد الأذكياء إلى المدارس الخاصة و«سيترك الأولاد ذوو الاحتياجات الخاصة في المدارس الحكومية وحدهم».

لكن هذا غير صحيح. ففي فلوريدا الطلاب ذوو الإعاقة مؤهلون للحصول على سندات مالية تتراوح قيمتها بين 3.885$ و22.248$ وذلك بحسب شدة الإعاقة وخطورة وضعهم.

قال الكاتب جاي غرين إن: «الطلاب المشتركين في هذه البرامج لا يواجهون صعوبة في إيجاد المدارس الخاصة التي تضمهم إليها مهما بلغت شدة إعاقتهم». وأضاف قائلاً: «إن المدارس يسعدها أن تأخذ هؤلاء الطلاب؛ لأنهم يجلبون الكثير من الموارد التي تساعد تلك المدارس على تعليم أولئك الطلاب».

ترك جوزيف ذو الاثني عشر عاماً وآلين باور خمسة عشر عاماً مدرستهما الحكومية والتحقا بمدرسة خاصة تستقطب الطلاب ذوي الإعاقة في التعليم. تحول آلاف من طالب مشاغب درجاته قرب معدل الرسوب إلى طالب ناجح بدرجة مرتبة شرف. ملأت الدموع عيني الأم وهي تروي لنا هذا التحسن:

يدعي معلمو المدارس الحكومية أنه يجب محاربة برامج السندات المالية «لحماية» الأولاد ذوي الاحتياجات الخاصة، ولكن المدارس الحكومية هي التي تسيء إلى أولئك الأولاد وتسبب تخلفهم الدراسي.

أولاد مثل كيلة هاموند الذي يعاني من ADD (مرض نقص التركيز) وقد قال لجدته ديل: إنه لم يكن عليه الدراسة؛ لأنه كان قد حصل على نسخة من أسئلة الامتحان كتبت عليها الأجوبة.

ستوسل: هل أعطوه الأجوبة؟

ديل: قال لي: «نانا لقد فعلوا ذلك مراراً إنهم يريدون تعليمي الغش!»

وهذا بالضبط ما كانوا يفعلون؛ كي ينجحوه إلى صف أعلى. إنها سياسة لا تدع أي طفل يتخلف أنت تعلم ذلك؟ نجحوه إلى الصف الأعلى ودعوه يرحل عنا. إنهم لا يهتمون أبداً.

التحق كيلة الآن بمدرسة خاصة وتحسن أداؤه كثيراً. قالت جدته: «إنه ليس ذلك الطفل نفسه». إن الأطفال «المشاغبين» مثل كيلة هم الذين يستفيدون من الخيارات.

خرافة: تخرق السندات المالية قانون الفصل بين الكنيسة والولاية.

حقيقة: لا تفعل ذلك إن اختار الأهالي المدرسة.

معظم الأهالي الذين يتلقون السندات المالية المدرسية يستخدمونها لإرسال أولادهم إلى مدارس دينية. في عام 1999 رفعت جمعية التعليم في أوهايو مع مجموعات أخرى (مثل الناس من أجل الطريقة الأمريكية) دعوى قضائية قالت فيها: إن برنامج السندات المالية في كليفلاند يخرق قانون الفصل بين الكنيسة والولاية الذي ينص عليه البند الأول (لن يسن الكونغرس أي قانون يدعم المؤسسات الدينية...).

شكلت تلك الدعوى القضائية تهديداً حقيقياً لبرامج السندات المالية. فالسماح للأولاد باختيار المدارس الدينية هو على الأرجح الطريقة الوحيدة لنجاح برنامج

السنـدات المالية ـ على الأقل في بدايته ـ لأنه اليوم معظم المدارس غير الحكومية لها ممول ديني ـ عادة الكنيسة الكاثوليكية.

دافعـت الشركة القانونية لحمايـة مصلحة الجماهير ومعهـد العدالة عن برامج السنـدات الماليـة في كليفلانـد وجادلت أنـه طالما استطـاع الأهـالي والأولاد اختيار الذهـاب إلى المدارس الدينية ولم يجبروا من الحكومة على ذلك فإن البرنامج لا يُعدّ مؤسسة دينية.

وافقت المحكمة العليا في الولايات المتحدة الأمريكية. ابتهج الأهالي في كليفلاند الذيـن تأهلـوا للحصول علـى السندات المالية. قالـت روبرتا كيتشـن: «الآن أملك فرصـة انتقاء مدرسة جيدة لابني هذه الفرصة التـي كانت بملك الأهالي الأغنياء لعديـد مـن السنوات. يعنـي اختيار المدرسـة، أن أولادي لن يهملـوا أو يعاملوا دون اكـتراث. إن لم يحـظ أطفالي بتعليم لائـق لدينا القدرة على اختيـار شيء أفضل. لدينا الآن حق الانتقاء».

فكـرة السماح للناس بوضع النقود المخصصـة للتعليم في المدرسة التي يختارونها ليسـت فكرة جديدة. بعـد الحرب العالمية الثانية أرسل غـي بيل 2.230.000 محارب إلى الجامعـات التـي شملت الكليات الدينيـة مثل نوتردام (كاثوليـك)، بريهام يونغ (مورمـون) وبيلـور (باتيست). سمـح الجيش للمحاربـين بانتقاء أي كليـة يريدون. ساعـدت السندات الماليـة لغي بيل على احتـدام المنافسة بين الجامعـات الأمريكية، فأصبحت أعظم جامعات في العالم.

أما كان عظيماً لو أتيح لنظام التعليم من الحضانة إلى الثانوية الحصول على هذا التفوق أيضاً؟

خرافـة: التعليـم الحكومي من الحضانـة إلى الثانوية هو أفضل شيء في أمريكا.

حقيقة: التعليم الحكومي من الحضانة إلى الثانوية مخزٍ.

لم يكن في الولايات المتحدة مدارس تديرها الحكومة دائماً.

كان الأهالي يدرسون أولادهم في المنزل وكانت الجامعات والجاليات تبني مدارسها الخاصة: لتساعد الأولاد. في الثلاثينيات بدأت حملة لجعل حكومات الولايات تمحور التعليم.

بعد ذلك بدأت الشكوك الصحيحة تساير الأشخاص حول التعليم الحكومي. بعد أن شُكل مجلس التعليم في ولاية ماساشوستس تم إلغاؤه. بحجة أنه «يبدو أن تأسيس مجلس التعليم هو بداية لنظام مركزي محتكر يضع السلطة في أيدٍ قليلة وهذا يخالف من جميع الجوانب الروح الحقيقة لمعاهدنا الديمقراطية وهذا إن لم يتم مراقبته بدقة سيؤدي إلى نتائج خطيرة غير متوقعة».

كم كانوا محقين!

لكن هوراس مان الذي لقب أبا التعليم الحكومي نشر على الملأ فكرة أن التدريس الحكومي هو أداة لمعالجة كل الأمراض الاجتماعية.

قال: إنه ما إن يتم التعليم الحكومي حتى «تختفي تسعة أعشار الجرائم القانونية» كالمعتاد الحقيقة التي ينتجها الاشتراكيون لا تتطابق مع وعودهم.

حلم الاشتراكيين بالكمال يصبح عدو الجيد. لو تركت المدارس الخاصة المتنافسة لشأنها لتوسعت واستعملت نقود المساعدات الخيرية لخدمة الفقراء، لخدمتهم أفضل بكثير مما يفعل الاحتكار الحكومي الآن.

كم هو حزين أننا «نحمي» أطفالنا من فوائد المنافسة بإجبارهم على الخضوع للاحتكار. ماذا لو أجبرناكم على الحصول على الطعام بتلك الطريقة؟ كأن تدفعوا ضرائب لدعم «النظام الغذائي» ثم يخصص لكم مطعم واحد لأكل كل الوجبات. ما الخدمة التي ستحصلون عليها؟

الاحتكارات لا تحب التجديد. لم تمتد السنة الدراسية من أيلول إلى حزيران؟ لأن المدارس الحكومية مازالت تستعمل تقويم المزارع لتحديد متى يجب على الطلاب

الذهاب إلى المدرسة. في عام 1830 كان الأولاد يحتاجون إلى العطلة في الصيف: كي يزرعوا المحصول ويقتلعوا الأعشاب الضارة. يوضح ذلك أندرو كولسون مؤلف كتاب Market Education: «بالطبع لم نعد مجتمعاً زراعياً لذلك تغيرت متطلبات الدراسة لكن المدارس الحكومية ليست منظمة ترتكس لطلب المستهلكين».

بالتأكيد ليست كذلك. قد يفضل بعض الأهالي مدرسة تدوم كافة أشهر السنة. اليوم نسبة عائلات أقل من 2 بالمئة تحصل على دخلها من الزراعة. هل استجاب النظام التعليمي مع ذلك؟ لا.

لم لا يستطيع الأطفال تعلم الرياضيات من ألعاب الفيديو؟ لم لا يستطيع المراهقون الذهاب إلى المدرسة في الليل عندما تكون ساعاتهم البيولوجية في أفضل حالاتها؟ لم لا نملك حق الاختيار؟

التعليم الحكومي مقدس لا يمكن المساس به. لكن المدارس الحكومية أصبحت رديئة. يقول الناس إن: أمريكا تملك أفضل نظامٍ تعليمي في العالم لكنهم يقولون ذلك لأنهم لا يعرفون نظماً أخرى.

يقول الليبراليون الصرفون: إن الحل الوحيد هو إلغاء تورط الحكومة بالتعليم - التفرقة يجب أن تكون ليس بين الكنيسة والولاية وإنما بين المدرسة والولاية. الأهالي يدفعون لتعليم أولادهم والمساعدات الخيرية تدفع لتعليم الفقراء.

لكنني أعتقد أن الأمريكيين تعودوا على «تخويل الحكومة التعليم» ولهذا فإن التعليم الذي تموله الحكومة سيخلد.

مع ذلك فإن التمويل الحكومي يختلف عن الإدارة الحكومية.

يجدر بنا أن نعطي أولادنا فرصاً للالتحاق بمدارس جيدة كما نحظى نحن بخدمات ومنتجات جيدة في حياتنا. والطريق إلى ذلك هو بكسر أغلال الاحتكار الحكومي وإعطاء الأهالي الخيار.

يجب أن يختار المستهلكون أين يريدون التعلم.

الفصل السادس

المواقف السلبية للمستهلك

أنــا مراسل صحفي للمستهلكين. يحــب أعدائي الجدد أن يسموني محرراً صحفياً «سابقــاً» «أُشتريَ وأصبح شريكاً مسهماً» ولكني ما أزال مراسلاً صحفياً للمستهلكين. أنا فقط أدركت أن هناك سمكة أكبر للقلي. رأيت أن الحكومة الكبيرة تؤذي المستهلكين أكثر بكثير من الشركات التجارية.

ومع ذلك... لا يعني هذا أن الشركات التجارية لا تمزقنا، إنها تفعل ذلك وستفعل ذلــك كلما أتيحــت لها الفرصــة. يحــدّ التنافس وتغطيــة وسائل الإعــلام للأحداث و(أحيانــاً) المقاضاة القانونيــة فرص الشركات التجارية لإيــذاء المستهلكين ولكن ما زال هناك كثير من الغش ينبغي أن يُنبش.

تلقيت مساعدة عظيمة في كشف الغش. حين تتصل بالهاتف وتقول: «أنا من أخبار ABC» يكــون العلماء والاقتصاديون وجميع أنواع الباحثين متحمسين لتقديم خبرتهم لــك أو لفحص المنتجات. بعــد ذلك يصبح بوسعنا أن نتصــل بالهاتف مع الشركات. ولا يكــون أرباب الشركات راغبين في الحديث مثل أولئــك. ولكن ما إن يصبح البحث جاهــزاً عندنا حتى يكون بوسعنا أن نتخبط جيئــة وذهاباً بين البائعين والمرتابين إلى أن نصل إلى الرضى حين نجد الحقيقة.

إن الدروس التي تعلمتها من بحث ABC وفرت لي النقود والمتاعب وأنا متشوق أن أتقاسم ذلك معكم.

خرافة: العلامات التجارية المشهورة أفضل.

حقيقة: العلامات التجارية تكلف أكثر.

لقد رأيتم المنتجات الملفوفة ببساطة أو «غير المضمونة في علامة تجارية». قد تكونون جربتموها واحببتموها. إنها أرخص ثمناً ويمكن أن تكون أخفض بـ 30 إلى 50 من سعر أمثالها من التي تحمل علامات تجارية. لماذا إذاً لا يرغب إلا القليل منا في شراء الأشياء التي لا تحمل العلامات التجارية؟

ذلك لأننا نخاف من شرائها.

إن الرقعات البسيطة المظهر على الأشياء توحي بأنها «أدنى». والناس يعجبون متسائلين هل هي قذرة؟ قديمة؟ أخفض جودة؟ وفي الواقع أن العديد منها يأتي من المكان نفسه الذي تأتي منه الأشياء ذات العلامات التجارية.

خذ مثلاً البازلاء. تحدد «درجتها» من الوقت الذي عُلّبت فيه. تكون حبة البازلاء حين قطفها في أوجها فتية، حلوة، لينة ـ مدة نصف نهار فقط. والبازلاء المقطوفة حينئذٍ تكون بدرجة A الحكومية.

البازلاء التي تقطف بعد ثماني ساعات تصنف بدرجة B أو C لأنها أقدم ولذلك يكون فيها نشاء أكثر. قد تفقد البازلاء أيضاً درجة A إذا «لم يكن لها مظهر جيد».

البازلاء من درجة A يوضع عليها رقع يحمل اسم العلامة التجارية على حين لا توضع العلامة التجارية على العلب التي تكون بدرجة B وC.

وأنا أقول: إن ذلك يرجع عادة إلى أننا لو اشترينا بازلاء من مخازن في أطراف المنطقة وأخفينا الرقع الملصقة عليها وجعلنا المصنف الحكومي يعيد تصنيفها فسيجد أن الاثنتين اللتين لم يكتب عليهما لصاقة أعلى درجة من تلك المعبأة في علب (Del Monte)، التي تكلف نحو عشرين سنتاً إضافياً.

بشكل عام تميل الأطعمة التي ليس عليها علامة تجارية لأن تكون من درجة أخفض ولكن كما كانت الحال في البازلاء آنفاً لا تعني الدرجة المنخفضة بالضرورة أنها «سيئة».

وإذا علمت ضآلة الفرق بين الدرجة الأعلى والدرجة الأدنى في بعض الأطعمة فإنك لن تهتم بالدرجة على الإطلاق.

إن الأرز ذا الدرجـة الأدنـى هـو أرز عادي مع بعض الحبات الملونـة والمكسورة الباقيـة فيه. إن السباغيتي التي لا تحمل علامـة تجارية تصنع بالطريقة نفسها في المعمـل نفسه مثـل Prince Spaghetti. ولكن ببساطة الطحين الـذي يستعمل فيها يكون طحنه أقل تنعيماً.

الفرق الوحيد بين زبدة الفستق من دون علامة تجارية والأخرى بعلامة تجارية هو حجـم الفستق المستعمل. فإن الأكبر والأكثر ملاسة يذهب إلى ذات العلامة التجارية والأصغر والمغضّن يذهب إلى التي لا تحمل العلامة التجارية.

إن عبـوة زبدة الفستق من ماركـة Skippy التي تتسع لثمان وعشرين أونصة ذات العلامة التجارية تباع أغلى بمبلغ 1.80 دولاراً من تلك التي ليست ذات علامة تجارية. لا يوجد فرق من الناحية الغذائية. وفي الواقع كل شخص عالم بموضوع الغذاء تكلمنا معه قال حين يأتي الكلام إلى الأطعمة فإن الأطعمة متساوية في قيمتها الغذائية، ذات العلامة التجارية تساوي التي لا تحمل علامة.

إن المـذاق بالطبع هـو السبب الرئيس لتفضيلنا طعاماً علـى آخر. ولذا جرينا إلى اختبار المذاق: السباغيتي دون اسم معروف مقابل السباغيتي برنس Prince، البازلاء دون علامة تجارية والدراق مقابل ماركة ديل مونتي، زبدة الفستق بلفّة بسيطة مقابل ماركـة Skippy. دفعنا نقـوداً إلى مخبر علمي للتجارب لإحضـار عينة عشوائية من خمسـين راشـداً؛ ليذوقوا البـازلاء والسباغيتي والـدراق ومن أطفـال ليتذوقوا زبدة الفستـق. ولم يعـرف أي منهـم الغاية مـن الاختبار. ما كانـوا يعلمون أنهـم يقارنون العلامـات التجارية بالبضائع العادية كل ما كانـوا يعرفون أنهم كانوا هناك ليتذوقوا نوعين من الطعام ويخبرونا أي نوع وجدوه أفضل.

النتيجة أن معظم المتحنين فضلـوا البازلاء والسباغيتي بالعلامة التجارية ولكن الـدراق وزبدة الفستق المفحوصين تساوى منهما حكم المذاق وفوجئوا حين أخبرناهم ماذا انتقوا وقالت واحدة منهم إنها: «تعلمت» من الامتحان: قالت: «إنها لم تشترِ أبداً في حياتهـا شيئـاً بلا علامة تجارية كانت تظن أن التـي لا تحمل علامة هي من نوعية أردأ ولم يكن خيارها يستند على أسس».

وكانت مقابلتي المفضلة مع متسوّق قال: «حين يرى أولادي الرقعة العادية يقول جميعهم: (إنها سيئة) أو: (إنها رخيصة) وهكذا أنا أشتري أحياناً (جيلي) من نوع عادي وأضعها في وعاء ماركة ويلش Welch فيأكلونها وهم لا يعلمون».

وأظهر اختبارات أخرى أن الناس إذا لم يروا رقعة العلامة التجارية يفضل العديد منهم طعم النوع العادي. يمكنك أيضاً أن تجرب ذلك. إنه أرخص وقد تحبه أكثر. جرب وأعطِ أسرتك امتحان تذوق غامض (دون أن يدروا).

والمضحك أن المستهلكين أقل شكاً في الأمور العادية غير الطعام مثل المنظفات المنزلية والمناشف وأكياس القمامة ولكن مع هذه المنتجات ثمة سبب أكبر لكي يكونوا حذرين.

لقد فحصنا منظفات الصحون السائلة. في الواقع تجري معامل الصابون فحصاً معيارياً لمقارنة الأنواع يدعى «امتحان عدد الصحون» وهو تماماً ما يدل عليه اسمه: يغسل الباحثون الصحون باليد ويسجلون أسماء الأنواع الجيدة.

إن أفضل منظف أمريكي وهو إيفوري Ivory يغسل ثلاثة عشر صحناً على حين أفضل نوع عادي المسمى باثمارك يغسل أحد عشر صحناً.

وعلى هذا النحو تتسع أكياس القمامة Glad garbage لكميات قمامة أكبر من الأكياس العادية: لأن الأكياس العادية تتمزق (كان هذا برنامجاً جيداً للتلفاز) مواد الصابون والأكياس ومناشف الورق وغير ذلك ذوات العلامة التجارية هي عادةً أفضل وأقوى وأشد سماكة على أي حال. وربما تستحق ثمناً أغلى.

ولكن الأطعمة ذات العلامة التجارية قد لا تستحق ذلك.

خرافة: المياه المعبأة أفضل من مياه الصنبور.

حقيقة: معظمكم مخدوعون.

بدأ الأمر حين أطلقت شركة فرنسية تدعى Perrier بضعة أونصات من الماء في زجاجة أنيقة وأقنعت الأمريكيين أن يدفعوا برضى مبالغ كبيرة ثمناً لهم. ومنذ ذلك الوقت صرنا نشربها.

فاقــت مياه Evian في المبيعــات ماركة Perrier إنها الآن أفخــر مياه فرنسية عند الاختبــار. وهــي تكلف أكثر من الوقود ــ الغالون بسعر خمســة دولارات ــ وإن شئت أن تصفــف شعــرك بهذه المياه بــدل أن تشربها فإنــك تدفع عشــرة دولارات لعلبة بخاخ حجمها خمس أونصات (تحوي «ماء» ونتروجين).

ثــم كان هناك Dasani, Aquafina ودزينات من الميــاه المعبأة في ماركات جديدة التي قفزت إلى تجارة بليون من الدولارات، ومنها ماركات غريبة مثل فينوس Venus «ماء للنساء» وماركة Trump Ice مع عبارة على اللصاقة لا بد أن أكون شديد العطش لأشتري ذاك بتوقيع دونالد سكولينغ.

يأتــي الماء من الينابيع العامة مجاناً. إنه يأتي إلى الصنابير عندك مقابل بنسات لم إذاً شراء القوارير؟

يقول الناس: «لأن مذاقها أفضل». وهكذا أجرت (أخبار ABC) اختباراً للتذوق.

وضعنــا نوعــين من المــاء المستــورد Evian و Iceland spring في مقابل Aqafina (وهو أفضل المبيعات بأمريكا) و American Fare (وهي علامة تجارية مخفضة من Kmart) وPoland spring. (المعبأة في أمريكا لا في بولونيا).

وبعض الماء من ينابيع الشرب العامة في وسط مدينة نيويورك.

وسألنا الناس أن يثمنوا المياه. ماء واحد أخذ علامات «سيئة» أي ماء؟ إنه Evian أغلــى ماء، لقد جاء في المرتبة الأخيرة في اختبارنــا. والماء الذي أحبه المتحنون جاء مــن Kmart وثمنه يعــادل ثلث ثمــن Evian. (ربما لهذا السبب تهجــى كلمة Evian بشكل مقلوب فتصبح naïve أي «ساذج»).

كان ماء Aquafma في الدرجة الثانية.

وجاء Poland sprins الخامس في الترتيب.

وفي الدرجة الثالثة جاء الماء المستورد Iceland و... Drum roll.... ماء الصنبور في مدينــة نيويورك. بكلمات أخرى: إن مياه الخزان (المستودع) ــ المكبوسة في أنابيب

قديمــة في مدينة نيويــورك قبل أن تنبثق في ينبوع الماء في حي هــارلم ـ يعادل مذاقها مــذاق الميــاه المستوردة الغالية الثمن حتى الناس الذين قالــوا لنا: إنهم لم يحبوا مياه الصنبور أحبوها بالفعل عندما كانوا لا يعرفون أنها مياه من الصنبور.

حصــل الساخــران (بين) و(تيلر) علــى مطعم كاليفورنيا الحديــث؛ لكي يخدعا الزبائــن بماء سميــاه Water Steward على نحو نبيذ ستــوارد Wine Steward وقد وضع الماء بقوارير جميلة غريبة ومعظم الذين كانوا يتناولون العشاء هناك أحبوا هذا الماء الأنيق.

وقــال أحدهــم: «أوه نعم إنه بلا ريب أفضل من ماء الصنبــور!» والحقيقة أن مياه الصنبور هي التي كانت موجودة في قوارير Water Steward المعبأة وهي نفسها التي تستعمل بالخرطوم في باحة المطعم.

إن كان الطعم لا يبرر ثمن مياه القوارير ربما كانت «النقاوة» هي التي تبرره.

يعتقــد كثير مــن الناس أن المياه المعبأة أنظف. وهكذا أرسلنا نحن عينات من مياه القواريــر ومن ميــاه الصنبور إلى عالم الأحياء المجهري (ميكــرو بيولوجيست) آرون مارغــولان من جامعة نيو هامشر ليفحص البكتيريا . مثل E. Coli المتحولة القولونية التي يمكن أن تجعل الإنسان مريضاً قال: «لا يوجد فرق».

يقلــق بعضــ الناس حول وجــود آثــار للكيميائيات في المــاء مثل الكلــور والنحاس والرصاصــ والنحاس والحديــد. لعلك لا تتناول من هــذه الكيميائيات من بعض مياه الصنبور أكثر من الكيميائيات المعبأة ولكن أثراً ضئيلاً من الكيميائيات لا يؤذي بل إنه قد يكون مفيداً: ولهذا السبب يوضع الحديد والنحاس والكروم في حبوب الفيتامين.

أجريــت اختبــارات علمية غير التي أجريناهــا ووجدت أن ميــاه الصنبور هي بمثل جــودة المياه المعبأة التي تكلــف أكثر بـ 500 مرة. حتى جمعية المياه المعبأة لم تنكر ذلك. وقد سألت الرجل الذي رشحوه وقابله الدكتور ستيفن أيدبرغ من جامعة ييل كلية الطب: «هــل المياه المعبأة أفضل صحياً من مياه الصنبور؟ وأعطاني الجوهرة اللامعة في قوله: «ما كنت لأقول أوه إنها أفضل صحياً من مياه الصنبور. أعني، أوه، إن الاثنين ماء».

هــذا صحيــح، فجميع تلك الشــركات التي تكلفــك الكثير إنما تبيعــك أوه مـاء. لا أستطيع أن أناقش ذلك. إنهم بلا ريب كانوا يبيعونك ماء.

في أجــزاء قليلــة من البلاد قد لا تكون ميــاه الصنبور آمنة أو لذيــذة الطعم ولكن في معظم المناطق في أمريكا إذا أراد شخص أن يجعلك تشتري قارورة ماء أخرج منجلك.

خرافة: القهوة الغالية أفضل من القهوة الرخيصة.

حقيقة: ربما لا.

هــل تدفع نقوداً كثـيرة لشراء «نوعية أفضل» من القهــوة؟ لعلك تنطلق إلى ماركة حبــوب Dean and deluca التي تكلف اثني عشــر دولاراً للباوند. حسناً استيقظ بعد أن أخذت اختباراً في المياه المعبأة بالقوارير، دعهم يعطوك اختبار تذوق للقهوة؛ لأنك على الأغلب تضيع نقودك.

حقاً إن شركات القهوة المتحذلقة تعاني الكثير كي تنتج حب قهوة «أفضل». «يحمص حب القهوة الفاخر ويطحن من أجل ذلك الاختبار المهم المدعو The cupping».

هــذا مــا ذكــر في شريــط فيديــو أرسلتــه لي جمعيــة «The speciality coffee association of America» في تجربــة cupping «ارشــف كميــة قليلــة مــن القهوة المهيأة واحكم على طعمها وقوامها ورائحتها».

وأفضل ما استُحسن منها تبيعه فيما بعد الشركات الكبيرة مثل Starbucts وdean and Deluca وOrens Daily Roast التي تكلف الكثير.

قارن بين أسعارها: الباوند بسعر اثني عشر أو عشر دولارات ـ بالـ Folgers بسعر خمســة دولارات والتي تعد أفضل المبيعات الأمريكية وبسعر الأربعة دولارات وهي ثمن Marques de Paiva التي يبيعها نادي سام وول مارت.

حــين تكون القهــوة متاحة بأقل مــن أربعــة دولارات للباوند لم صــرف مبلغ أغلى بثلاث مرات؟ دعوت أناساً إلى تذوق قهوة نسكافيه الآنية وأنواع القهوة الخمسة ذات

العلامة التجارية والمذكورة آنفاً ولم أطلعهم على اسم النوع الذي يتذوقونه. ثم جلست مع بعض المتذوقين وكان معظمهم انتقى نوعه المفضل.

قـارن واحد منهم بين القهـوة «والنبيذ الرائع». بعض المتذوقين مـن أمثال السيد صاحـب «النبيذ الرائع» يستطيعون في الواقع أن يميزوا ماذا يفضلون. هو كان يفضل ستار باكس starbucks، التي كانت أبلت بلاءً حسناً في اختبارنا. وفي الواقع إن المرأة التي أخبرتنا أنها كانت تكره ستار بكس أحبتها حين لم يكن الاسم مكتوباً عليها قالت: «لعلي اخترت قهوة أخرى بالخطأ».

تحـدث أمور طريفة جديـرة بالملاحظة حين لا يكـون اسم القهـوة مكتوباً عليها. اكتشفـت تاريـن كوبر أنها تفضل القهـوة الآنيـة Instant coffee. قالت: «هذا ممتع ومشوق؛ لأنني أشعر أن القهوة الآنية هي تدنيس للقهوة الحقيقية».

دعتنـا الشركات الست لكي ترسـل ممثلين عنها، ليترقبـوا أو يخضعوا لاختبارنا الذي أجريناه. وحدهـا جينفييف كابلر ممثلة Orens rep امتلكت الجرأة لتواجه آلة التصويـر عندنـا في التلفاز وتعلن على المـلأ القهوة التي تفضلها ــ وكان يعرّف على القهـوة بالرقـم فقط. ترى هل كان مـا تفضله هو قهوة الشركة التـي بعثتها لتمثلها؟ أم لمنافستهـا؟ كانت تنتظر بعصبية حين أعلمتهـا بالنتيجة الآتية: «إن ما اخترته هو الأفضل Oren's». لقد اخترت شركتك قالت: «نعم» وأضافت متهربة! «إن أفضل قهوة ليست بلا ريب الأرخص ثمناً».

كان يمكن أن تكون هذه الجملة أكثر إقناعاً لو أحب متذوقون آخرون قهوتها. ولكن أغلبهـم لم يحبوها. النصف صنفها إنها «سيئة». وكان لدى كابلر جواب سريع قالت: «لم تحضّـر أي قهوة بالطريقة التـي نحضر نحن قهوتنا» وقالت: «وهكذا فإن النتيجة لن تكون جيدة بقدر ما يمكن أن تكون» أحقاً؟ لقد أشرف على تحضيرنا كيفن سينوت مؤلف كتاب Great Coffee: The Coffee Lovers Guide وإذا لم يستطع الشخص الذي يؤلف الكتب حول القهوة تحضيرها بشكل صحيح جيد فمن يستطيع ذلك؟

ومـع ذلـك، فقد خضعـت كابلر علـى الأقـل للاختبار. أمـا ريشـن بيرتانيا Rich Bertagna ممثـل Folgers فقد تراجع. وقال: إنه ما كان ليخضع لاختبار الطعم؛ لأن

المتذوقـين الآخرين «يفوح منهم العطر» (وهذا لا بد أن يفسر لم لا توجد أي رائحة في مخازن بيع القهوة).

في اختبارنـا جـاءت قهوة ستاربكس الأولى. والثانية قريبة مـن الأولى ذهبت ويا للدهشـة إلى Marques de paiva وهي الماركـة الرخيصة من نادي سام. أما الثالثة فجـاءت علـى بعد من الثانية إلى ماركة Oren ولحق بها بشـكل قريب نسكافة القهوة الآنية. وأغلى ماركة Dean and DeLuca's وثمن الباوند منها اثنا عشر دولاراً جاءت قبل الأخيرة وفي آخر مرتبة جاءت Folgers وهي أفضل المبيعات الأمريكية.

وحـين سألـت بيرتانيـا حول ذلـك قال: «حسنـاً كل صبـاح يستمتـع ملايين من الأمريكيـين بالاستيقـاظ مـع Folgers بسبب طعمهـا العظيم وقيمتهـا» على الأقل Folgers رخيصة الثمن.

خرافة: أطعمة الكلاب ذات السعر الأعلى هي أفضل.

حقيقة: ليست أفضل لكلبك.

تحتـل أطعمة الحيوانات الأليفة مساحات كبـيرة جداً على رفوف المخازن الكبيرة (سوبـر ماركت) هذا أمر مفاجئ إذ قبل خمسـين سنة لم يكن شخص واحد يشتري طعاماً للحيوانات. كنا نغذي حيواناتنا بفتات الطعام المتبقي على المائدة لا أكثر. الآن تصـل تجارة طعـام الحيوانات إلى أربعة عشر بليـون دولار، وهذا أكثر من مصروف المنتـج المحلي لأربعة وتسعين بلـداً. مع هذا الدعم المالي الكبير فـإن شركات أطعمة الحيوانات تعمل بجد عملاً شاقاً لكي ترضي الزبون. ولكن من هو الزبون: أهو الكائن الذي يملك أنفاً بارداً رطباً أم الشخص الغني الذي يملك مالاً.

اذهـب لزيارة مصنع أطعمة الحيوانات كما فعلـت أنا لتنظر وسترى أنهم يبذلون كل جهدهم لإرضاء الكائن الذي لا يتناول أبداً هذه الأطعمة. في صباحات أيام الجمع في معمـل Alpo يجتمـع المديرون التنفيذيون لنقد المنتج. إنهـم يشمونه. ويتفحصون كيـف ينزلق الطعام مـن العلبة ـ وهذا معروف باسـم Ploop factor عامل السقوط (وكأنك لا تستطيع أن ترفع تلك المادة من العلبة رفعاً).

إن الـكلاب مصابة بعمى الألوان ولكـن المديرين التنفيذيين يستعملون تعابير مثل «لـون جيد». وذلك لأننـا نحن مالكي الحيوانـات نعتقد أن حيواناتنـا تحب ما نحب. وهكذا فإن الشركات تصنع طعام الحيوانات مشابهاً لطعام الإنسان.

مـا يحبه الكلاب كثيراً قد يكـون مقززاً بالنسبة لمالكيها اقرأ الرقعة الملصقة على العديد من طعام الكلاب وسترى: «ماء ولحم ومنتجات ثانوية» و (منتجات ثانوية) لا تعنـي ستيك. إنها تعني شيئاً مثل الرئات والأمعاء والمري. المري هو حلق الماشية. إنها سوداء ومغطاة بأكملها بالفحم حين تسقط في طعام الكلاب المسمى المزيج (Slurry) ولون السواد مطلوب قانونياً للتثبت أنه لا يوجد من يبيع المري كطعام بشري.

وحين تحدثت مـع رئيس شركة Alpo وهو فرانك كروم أخبرني أن المزيج Slurry يتغـير من يوم إلى يوم قال: «قد يتغير المزيج... فبـدلاً من وضع 30 بالمئة من الرئات فيـه قد يوضع 25 بالمئة رئـة و 5بالمئة ضروع. ولكن لا بـد أن تستمر في وضع الضروع الكلاب تحت الضروع».

قـد تشمئـز أن حيواناتك تأكل الضروع، ولكن هذه الأعضـاء مثل الضرع والأكباد والرئـات هي مصادر جيدة للبروتـين وهي أفضل لحيواناتك مـن الشرحات Steak. وهـي أيضـاً مـا يحبه كلبك أكـثر وإذا لم تصدق ذلـك، فانظر حـين تشاهد في المرة القادمة سهول إفريقيا كيف أن الكلاب الوحشية تسارع حين عشائها إلى التهام المعدة والأحشاء الأخرى ذات الروائح.

ولكـن شركات طعام الـكلاب يهمها أن تعجب المالكين ولذا فإن المسوقين يختبرون الروائح. أخبرني فرانك كروم أنه كان عليهم أن يغيروا منتجاً من Alpo يحبه الكلاب؛ لأن المالكين ظنوا أنها نتنة الرائحة. «قال: وللمفاجأة وجدنا أن أفقر المنتجات وأنتنها رائحة هي التي يفضلها الكلاب».

تحتفظ الشركات الكبيرة بمئات القطط والكلاب لإجراء البحوث ولكن للمتسوقين المحتشديـن في ملاجئ الكلاب في ناطحات السحـاب في شارع ماديسون أهمية أكبر، إنهم يهتمون بالناس وكذلك سترى على رفوف السوبر ماركت ما يسمونه «Premium»

ممتـاز على أطعمة الحيوانات من ماركات مثل Lick Your Chops، Science Diet، و Sheba ومعنـى تلـك الكلمة أنها تكلـف أكثر. هل معنى ذلك أنـه يوجد نوع أفضل؟ طرحـت هـذا السؤال على عميد كليـة الطب البيطري في جامعـة تافتس قال الدكتور فرانكلـين لوي: «أجد صعوبة في إيجاد دليل علمي على أن هناك فروقاً مهمة» وأردف: «لا يوجـد سبـب لدفع مبلـغ أكبر إلا إذا كنـت تشعر شعوراً طيباً لسبـب ما حين تدفع أكـثر. وإذا قيل: «طعام كامل للكلب أو طعام كامل للقط» فذلك يلبي الحاجات نفسها التي تلبيها أكثر الماركات غلاءً في السعر. إنك لا ترى تعبير «كامل» أو «كامل ومتوازن» علـى الأطعمة الإنسانية. مما يعني أن بيروقراطيي الحكومة وضعوا معايير تقول: «إن كان حيوانـك يأكل هذا الطعام ولا شيء سـواه طوال حياته فهذا جيد: لأن هذا كل ما يحتاجـه» تستطيع أن تجد هذا الضمان حتـى في أرخص أصناف السوبر ماركت: لذا اجرف بالرفش بعيداً جميع مدمني شارع ماديسون: لا حاجة لأن تدفع مبلغاً أكبر.

خرافة: الشراء بالجملة يوفر نقوداً كثيرة.

حقيقة: إذا فعلت ذلك على نحو صحيح.

أكـثر الناس يشترون بالجملة في أماكن تدعى نوادي المستودعات. ويكون عليك أن تدفـع لقاء الانتساب إليهـا. هل الأمر يستحق ذلك؟ أحيانـاً. إن سلسلة المخازن مثل كوستكـو Costco الرئيس في المبيعات ونادي سام الـذي له أكثر المخازن هما شائعان إلى حـد بعيـد. هذه المخازن هي مستوعات كبيرة معبأة مـن الأرض إلى السـقف بكل ما هو عملي.

يقول فيل ليمبير محرر موقع Supermarketguru.com: إن الكمية الهائلة المعدة للبيـع تحرك البيع. «تنظر إلى مفروشات مصنوعة من القش وتقول: ياللعجب لابد! أنها رخيصة أريد أن أشتريها». هذا صحيح بلا ريب. عندما ذهبت إلى كوستكو أول مرة كانت أجنحة البضائع الواسعة مُسكرة. شعرت أني ملزم بأن أدفع البضائع إلى عربتي كلما أبعد الطاقم الكاميرا عني، وهذا سبب لكون هذه النوادي تحصّل مبالغ طائلة.

كان نــادي Price أول ناد رئيس يبيع تجهيــزات المكتب بخصم للشركات التجارية الصغيرة وذلــك في السبعينيات. لقد اندمج مع كوستكو، واليوم هناك سبعون مليون من الناس أعضاء في كوستكو وفي نادي سام وفي BJ وغيرها من النوادي.

الأسعــار جيــدة: بوسعــك أن توفــر 20 إلى 30 بالمئــة بالمقارنة مع محــالّ البقالة والمخــازن الكبــيرة. ولكن ثمة شــرك ـ فإن عليــك أن تصبح عضواً وهــذا يكلف نحو أربعــين دولاراً في السنة ـ أو مئة دولار إذا أخذت (كارت الرخصة) Premium card الذي يخولّك أن تسترد 2 بالمئة نقداً بعد شراء بضائعك.

عليك أن تشتري الكثير لتبرر دفع مئة دولار أي رسم العضوية. نجحت تيريزا أركا في ذلك بالمشاركة مع أصدقائها، دعوا ذلك «نظام الزمالة». كانوا يستخدمون بطاقة عضويــة (أركا) ثم يقتسمــون الأشياء فيما بعد، كانوا جميعــاً يتقاسمون التوفيرات. قالت أركا: إن كوستكو وفر لها «ألفان إلى أربعة آلاف دولار في السنة».

ولكــن بعض الناس يخسرون نقوداً من الشــراء في المخازن الكبيرة؛ لأنهم ينفقون أكــثر من المعتــاد. قالت لنا امرأة في كوستكــو: «إنك تستطيع أن تأتــي إلى هنا وتظن أنك ستصرف خمس وعشرين إلى خمسين دولاراً وتخرج وقد صرفت مئتي دولار بكل سهولــة. أتعلــم ماذا يجب أن يسمــوا هذا المكان؟ مفاجأة كوستكــو، لأنك حين تذهب لتدفــع تلمح كل وجه وكأنه يقــول: ماذا؟!» وأخبرنا الذين يقومــون بالبحوث أيضاً أن مشاهــدة كل هــذه الأطعمة في أطــراف المكان تجعــل الناس يفرطــون في الأكل. تابع البروفســور بريــان وانسنك أستــاذ التسوق في جامعة كورنيل عــادات الأكل عند 240 منتسبــاً إلى تلك النوادي مدة أسبوعين ووجد أن معظمهم أكلوا أكثر: لأنه كان لديهم أطعمة أكثر في البيت». وأردف: «حتى إن بعض الناس يفتحون الأغراض ويأكلون وهم في طريقهــم إلى البيــت!». يشتري منتسبو النوادي أطعمة مــدة شهر، ولكن معظمهم يأكلون نصف الطعام خلال عشرة أيام.

وهكذا إليكم تلك النصيحة من الخبراء:

- استعمــل قائمة بالمشتريــات لتجنب مشتريــات اندفاعية «مشتريــات النزوات impulse buys».

- لا تشترِ بالجملة إذا كان المنتج قابلاً للفساد.
- لا تشترِ شيئاً يمكن أن تسمن منه.
- استعمل نظام الزمالة: لتسوغ صرف نقودك على العضوية.

إذا فعلت ذلك توفر نقوداً كثيرة.

خرافة: الشراء بطريق الإنترنت يعرضك لخطر سرقة هويتك
حقيقة: الأخطار قليلة.

كان على وجه البروفسور سري سرينيفاسان الأستاذ في جامعة كولومبيا ابتسامة العارف حين قال لنا: «قال لي كثير من الناس: (لا أريد أن أشتري عبر الإنترنت) ولكن هؤلاء الناس يكونون مرتاحين تماماً حين يعطون بطاقة الائتمان إلى شخص غريب تماماً في المطعم يذهب وينسخ عنها المعلومات ويعيدها إليهم مع الفاتورة».

وسرينيفاسان هذا اختصاصي في مجال تجارة الحاسوب يقول: إن الشراء عبر الإنترنت ليس خطراً كبيراً. إن من مصالح تلك الشركات الكبيرة أن تتثبت من أن معلوماتك في أمان وقال: «ذلك لأن سمعة تلك الشركات تقوم على ذلك».

سجلت إحدى الدراسات الأسباب المعروفة لسرقة الهوية ووجدت أن المشتريات عبر الإنترنت تتعلق بأقل من 12 بالمئة منها. حتى عن هذا الرقم يقول الخبراء: إنه يمكن إنقاصه بوضع بندي حراسة بسيطين في آخر الصفقة مع المستهلك. تأكد أنك تتعامل مع موقع «أمين» يخبئ المعلومات (ينبغي أن يبدأ عنوان صفحة الإنترنت بـ https:// لا مجرد http://) وافحص الحاسوب عندك: خشية «تجسس» برامج التطفل التي تستطيع أن تخترق المعلومات السرية.

يمكنك أيضاً أن تحمي نفسك ببساطة بقراءتك بيانات بطاقة الائتمان التي تملكها. إذا وردت نفقة كاذبة مخادعة وذكرتها لشركة بطاقتك فوراً، فإن تعرضك للخطر لن يكون أكثر من خمسين دولاراً.

خرافة: الماس يعني الحب.

حقيقة: الماس يعني نقوداً لاتحاد المنتجين (كارتل) في جنوب إفريقيا.

حين يفكر الأمريكيون في الماس يفكرون في الحب. سبعون بالمئة من الرجال الأمريكيين المقدمين على الزواج يقدمون لعرائسهم خاتم خطبة من الماس. أصبحت المجوهرات الماسية عربون الحب ورمزاً للحب.

نفكر أيضاً أن الماس هو استثمار قيّم (نفيس) استثمار قيم؛ لأنه نادر.

إننا نفكر في هذين الأمرين؛ لأننا مخدوعون. فالماس يعني الحب ويكلف أكثر من الذهب؛ لأن شركة لامعة أقنعت الناس أن الماس كان استثنائياً.

ولدت إستراتيجية التسويق قبل مئة سنة في مناجم إفريقية حين اكتشفت مخزونات ضخمة من الماس، مخزونات غنية جداً حتى إن عاملي المناجم كانوا يستطيعون عملياً أن يغرفوا الماس ويخرجوه من حفر مفتوحة وقبل ذلك كان اكتشاف الماس نادراً جداً. حتى إن الماس كان رمزاً للملكية. ولكن مع الاكتشاف الذي حدث في جنوبي إفريقيا أصبح الماس فجأة أمراً عادياً. وهبطت الأسعار. ثم جاء شخص إنكليزي حاذق يدعى سيسيل رودس واشترى كمية كبيرة من مناجم الماس التي رخصت فجأة وأسس شركة محتكرة لتزويد الماس.

إليكم كيف عملت: اتصلت شركة رودس المسماة De Beers بمعظم منتجي الماس في البلاد لتبيع ماسهم فقط من خلالها وبالمقابل تكفل De Beers أن تبيع لهم كل ما يستخرجونه من ماس ووعدتهم أن تستخدم سلطة الاحتكار؛ لتحتفظ بسعر الماس عالياً. جلب هذا الاتفاق لشركة De Beers مقداراً مدهشاً من السيطرة على عالم الماس - يقدر بـ 80 بالمئة من السوق.

ولكن اكتشافات جديدة للماس وتغير التحالفات الدولية - مثلاً انحلال الاتحاد السوفيتي - انقصت حصة De Beers العالمية إلى نحو 65 بالمئة. ولكن هذا مع ذلك أبقى لديها سيطرة كافية؛ لتتلاعب بالسوق.

وللحفاظ على السعر المرتفع للماس اختزنت De Beers الماس. وهذا جعل الماس يبدو أكثر ندرة مما هو في الواقع.

إلا أن هذا كان نصف الإستراتيجية فقط. فحين عرف الناس أن الماس كان أحجاراً شائعة بقدر ما هي رخيصة وجدت De Beers نفسها رهينة كمية هائلة من الماس الذي لا يريده أحد. هنا لعب De Beers لعبة ماهرة وذلك بأن أطلقت دعاية وحملة من العلاقات العامة تجعل العالم يصدق أن الماس هو الطريقة الوحيدة للتعبير عن الحب «وقد نجحوا في إيجاد سوق الزواج» كما قال الكاتب إدوارد جي إبشتاين.

كتب إبشتاين كتاباً حول احتكار الماس وكيف هُزم رجال أمريكا: «هنا كان يوجد بلد فيه مئة ثقافة مختلفة أصبحت في الحقيقة مندمجة معاً في نهاية القرن التاسع عشر. لم يكن هناك تقاليد مشتركة، ولم يكن أحد يعرف كيف ينبغي أن يتصرف فقالوا [Beers] لهم ذلك بطريقة بسيطة جداً: تقيمون علاقات مع النساء، وتقدمون لهن بلوراً صخرياً متألقاً يضعنه في أصابعهن».

دعمت أستوديوهات الأفلام هذه القضية. قادوا الرجال إلى أن يركعوا على ركبهم ويقدموا الماس المتألق بالألوان إلى نجمات السينما اللاتي ينتشين بطلب الزواج هذا. أصبح شعار هوليوود: «الماس هو أفضل صديق للفتيات».

إن رسالة الماس تتغير حسب نموذج الماس الموجود في مستودع شركة De Beers. حين كان لديها كمية كبيرة من الماس أعلنت De Beers ما معناه: «كلما كانت الماسة أكبر كنت تحبها أكثر».

ثم زادت روسيا في استخراج ماسات أصغر حجماً. ولما كانت شركة De Beers قد أبرمت عقد بيع مع روسيا وكان عليها الإيفاء به فقد صار عندها فجأة ماس أصغر عليها بيعه. فصارت De Beers تروّج لفكرة أنه بعد أعوام من الزواج إذا كان الرجل يحب حقاً زوجته فإن عليه أن يظهر لها إخلاصه وتفانيه بأن يقدم لها «خاتم الأبدية» وهو خاتم عليه كثير من الماس الصغير. ونجحت الفكرة. واليوم ملايين من الأمريكيات يضعن في أصابعهن خاتم الأبدية بسبب أن شركة جنوبي إفريقيا تريد أن تتلاءم مع روسيا.

ومـن المذهل بالدرجة نفسهـا أيضاً أن De Beers أقنعت النساء أن يشتهين الماس مع أن أحجاراً ثمينة أخرى أجمل منه.

لقـد أجريت اختباراً. استعرت ماسة كبيرة ـ تسـاوي مبلغ 65000 دولار وقطعة زركـون كوبي تساوي أقل من مئة دولار. هل استطاع الناس التفريق بينهما؟ كلا. في مخـازن الصياغ كان العديد مـن الأزواج يشترون خواتم الماس لم يكن لديهم فكرة، أي من الحجرتين كان الماسة حقيقية. قالت لي عروس: «إن هذا مقزز، هذا ما هو، إنه مقزز».

هـل يستطيع الصياغ معرفـة الفرق؟ كلا. لا تستطيع الحكـم بمجرد النظر. أحد الصيـاغ كان معتقـداً أن الحجرتين زائفتان. وفي معهد أمريـكا للأحجار الثمينة بين لي المدير فيه كيف يستعملون آلات ليتخبروا الزيف. قلت له: ينبغي علي أن أذهب إلى التلفـاز وأخـبر الناس أن يشتروا الزائف مادام الصيَّـاغ أنفسهم لا يستطيعون تمييز الفـرق! فقال: «في أعماق نفسك، تعرف إن كنت لا تملك الحجرة الحقيقية وهذه هي أهم نقطة في الموضوع».

اجلـب لي الرفش. إن كان الناس لا يستطيعون معرفـة الفرق فإن اتحادات الماس تحقق نجاحاً مخادعاً في تجارتهـا. يستعملون إعلانات ذكية ويجعلون الناس ينفقون ألـوف الدولارات على حجـارة تبدو تماماً مثل حجارة بعشرة دولارات إذا لم يكن هذا خداعاً فإني لا أعرف ماذا يكون.

أتمنى لو أستطيع إقناع زوجتي.

إن الماسـ علـى الأقل هو استثمار جيد. إن لم يكن يعبر عـن الحب فإنه على الأقل يحتفظ بقيمته. إن كنت تحتاج إلى نقود تستطيع أن تبيعه وتغطي ما دفعته ثمناً له، بل وتحصل على مزيد من النقود.

هذا ما يفكر فيه الناس. ولكن هذا خرافة أيضاً. لقد أجريت اختياراً آخر: استعرت خاتم ماس من مساعدي الذي قال ثلاثة مخمنّين: إنه يساوي 2.400 دولار. ثم أخذناه إلى عشريـن صائغاً وقلنا لهم: نريد أن نبيعـه. بعضهم دفع 500 دولار وبعضهم 800

واحـد دفع 1200. ولا صائغ دفع شيئاً قارب 2.400. عدت إلى بعض هؤلاء في المخازن نفسهـا مـع طاقم كامـيرا لأرى إن كانوا يقدمـون المزيد وهم على التلفـاز. معظمهم زاد السعـر ولكـن حتى مـع الكاميرا لم يدفـع أي منهم أكثر مـن 1.500 دولار. وقال أحـد الصُّيَّاغ: كأنك تريـد أن تضيع نقودك إن أنت أقدمت علـى بيع الماس؛ لأن البيع بالتجزئة يجعل الخسارة 100 بالمئة.

ستوسـل: إذا أتيـت بهـذا الخاتم إليك وقلـت لك: أريد أن أبيعـه كم تدفع لي بالنقود Cash؟

الصائغ: ربما نحو ألف ومئة أو ألف ومئتي دولار.

ستوسل: أي نصف ما دفعت لشرائه بالتجزئة.

الصائغ: حتى قد يكون أقل من ذلك.

ستوسل: لا ينبغي إذاً أن يشتري شيئاً مثل هذا من أجل الاستثمار. إنه لغباء.

الصائغ: أنا لا أقول ينبغي أن تشتري.

ستوسل: الناس يفعلون ذلك في كل الأوقات.

الصائغ: نحن جميعاً جهلة، في أمور مختلفة.

إن صناعة الماس تربّي ثروة من جهلنا.

قد يكون الماس أفضل صديق للفتاة إلا أنه استثمار مشكوك فيه وهو أفضل صديق لها: لأنها خدعت به. وأخيراً قد ينهك الماس الرخيص احتكار De Beers: ثم تهبط الأسعـار. وكمـا قـال لي إدوارد جي إيشتايـن: «إن الغبي وحـده أو المجنون هو الذي يستثمر بالماس».

خرافة: الوقود الممتاز أفضل لسيارتك.

حقيقة: فقط إن كانت سيارتك غريبة.

إن الوقـود الممتـاز الغنـي بالأوكتان يكلف نحـو عشرين سنتاً إضافيـاً فوق سعر الوقود العادي.

لأن الوقـود الممتـاز يكلف أكثر، من المنطقي الظن أنـه أفضل لسيارتك. إنه يدعى «ممتـاز» على كل حال. في سباق NASCAR يقول لنا المعجبون: إنهم يشترون أوكتاناً عاليـاً؛ لأنه يعطيهم وقوداً لأميال أكثر وقوة أكبر ومحركاً أنظف. قالت لنا سيدة: «إن الوقـود العادي» يترك كمية كبيرة من الرواسب في المحرك، والدي علمني ذلك. ولكن أباها وكثير منكم يضيعون نقودهم. لو سألت سائقي NASCAR لعرفت الحقيقة.

قـال سائـق مـن NASCAR: «صدقني لقد جربـت وقود جميع المحطـات تقريباً عندما تضع الوقود العادي فإن السيارة تعمل دائماً»

بالنسبـة لـ 90 بالمئة من السيـارات المباعة اليـوم ليس الوقود الغنـي بالأوكتان الأفضـل. إنـه لا يعطيك أميـالاً أكثر ولا قوة أكـثر ولا محركاً أنظـف. تحتاج بعض السيـارات القديمة إلى نسبة أعلى من الأوكتـان، إذ من دونه قد تقرقع وتضطرب. والسيارات ذات الضغط العالي والمحركات العالية مثل الفيراري والبنتلي والجاغوار والأكـورا والمرسيدس والكومينت تحتاج وقود الأوكتان؛ لكي تجري بنعومة وسلاسة. ولكن هذا حول الموضوع تفحص دليل الإرشاد معظم السيارات فيها محركات بضغط منخفـض. وهـي لا تحتاج إلى وقود غني بالأوكتان العـالي وأنت تضيع نقودك؛ حتى تشتريـه. حتـى شركات الوقود تعـترف أن معظمكم لا يحتاجـه (إلا أنهم لا يغيرون طريقهم وينبئونكم بذلك).

خرافة: الوقود ذو العلامة التجارية أفضل.

حقيقة: الوقود ذو العلامة التجارية يكلف أكثر.

إن العلامـات التجارية الكبـيرة للوقود مثل موبيل وشيفـرون و BP وشل وسونوكو تصرف الكثير على الدعايات لإقناعك أن تشتري وقودها وقد نجحت الدعايات، ففي محطات الوقود يقول لنا الناس:

أول سائق مركبة: لقد حصلت على وقود أفضل من شركة وقود سونوكو وموبايل.

ثاني سائق مركبة: ما كنت لأذهب إلى محطة وقود وول مارت.

هـذه أخبار جيدة للشـركات الكبرى للوقود وأخبار جيـدة لأولئك الناس من بيننا العاملـين في التلفـاز والذين يريدون من الشركات أن تعلـم أن إعلاناتهم ناجحة؛ كي تشتري إعلانات أخرى.

ولكـن ذلك ليس جيداً بالنسبة للمستهلكين. كل أنواع الوقود بعلامة تجارية أو من دونهـا تأتي من مصافٍ واحدة. قد تضع شـركات العلامة التجارية بعض الإضافات، ولكن لا يوجد دليل على أنها أفضل. وفر نقودك.

خرافة: جرعات تنمية الشعر تنمي الشعر.

حقيقة: القليل منها الذي نجح لم ينجح كثيراً.

صرف ملايين من المال على أدوية الصلع. وفي كل سنة تصدر وعود جديدة: «هذه المادة الكيميائية تنجح حقاً!».

ينجـح البائعـون بذلك؛ لأن نمو الشعـر بطيء جداً والتحسن ذاتـي جداً، حتى إن مروجي استعمال هذه الطريق يُخدعون.

أذكـر بحنـان مقابلة أجريتها قبـل عشرين سنة مع رجل يدعـى بوب موريف. كان رئيسـ شركـة تدعـى New Generation Products منتجات الجيـل الجديد وكانت مجلـة Entrepreneur magazine قد سمّته أفضل متعهـد في الشهر entrepreneur of the month لأن طريقتـه في عـلاج الصلع جعلته ثريـاً. والأمر الغريب كان أنه هو نفسه له شعر قليل.

روبرت موريف: تلقينا رسائل تقول: «عظيم لقد غيّر هذا المنتج حياتي».

ستوسل: إذا كان هذا المنتج يعمل جيداً فكيف لا تزال أنت أصلع قليلاً؟

روبرت موريف: إنه يعمل على الأشخاص بدرجات متفاوتة من النجاح ياجون. لقد استرجعت تقريباً 50 بالمئة من شعري الضائع.

ستوسل: هذه صورة لك قبل ثلاث سنوات.

روبرت موريف: هذا صحيح.

ستوسل: والآن لديك شعر أكثر بكثير.

روبرت موري: أوه نعم.

ستوسل: هل تستطيع أن ترينا ذلك.

روبرت موري: بالتأكيد بالتأكيد أعني أن كل هذا جديد هنا (يشير إلى رأسه) كل هذا جديد.

كان يبدو بالتأكيد أن لديه شعراً أكثر مما كان لديه في الصورة القديمة ولكني ظننت أن ذلك كان بسبب انعكاس الضوء فوق رأسه الأصلع. وهكذا استعرت كاميرا موري البولارويد وتركني ألتقط بعض اللقطات لشعره، ومن المؤكد بدا في الصورة أنه أصلع بقدر ماكان «من قبل» حين أخذت له الصورة القديمة.

ستوسل: لا يوجد فرق.

روبرت موري: [يبدو مصدوماً] نعم لايوجد فرق إطلاقاً.

ستوسل: إن وهج الضوء يجعل الشعر يختفي.

روبرت موري: حسناً حسناً أنت على صواب لا أدري ماذا أقول لك.

كان موري يُري عموداً في صحيفة يقول الناس فيه كيف استفاد الجيل الجديد من المنتج. لم يكن موري يعلم أننا بذلنا جهداً لنجرّ هؤلاء الناس لقول الحق.

ستوسل: جميع هؤلاء الناس سعيدون بالمنتج؟

روبرت موري: بالتأكيد.

ستوسل: حسناً لقد خابرناهم اليوم وهم توقفوا عن استعماله وقالوا: إنه لم ينجح.

روبرت موري: بعضهم...

ستوسل: كل واحد في هذا المقال قال: إنك تنشر هذا المقال وتقول فيه: «لا نريد دجلاً». هذا يبدو وكأنه دجل. يجعلني هذا أشك أنك مخادع محتال.

روبرت موري: حسناً في الطريقة التي ترى فيها الأمور هذا صحيح. إنها تبدو كذلك.

وأخيراً، وبعد سنين من المجابهة مع فناني الخداع، وتسميتهم مخادعين محتلين، قبل واحد منهم أنهم يظهرون حقاً مخادعين محتالين!

إنــه مــوريـ في هو الوحيد الذي كان يقبل ذلك. ولم يكن لأمــر ليجرحه أو يؤذيه. ظل يبيع علاجه على الإنترنت.

اليوم يوجد منتجات تنمي الشعر حقاً: ماركة Preoecia and Rogaine بروبيسيا وروغــين. إنهما دواءان للصلع قالت الحكومــة: إنهما ناجحان. نجح الدواء روغين في الاختبارات؛ لأن الباحثين في الواقع أحصوا الشعر على رأس الشخص المعالَج ووجدوا فرقــاً بسيطــاً. ولكن هذا لا يعنـــي أن الناس العاديين يستطيعــون أن يروا الفرق. دعا برنامــج 20/20 ثلاثــين طبيباً للأمراض الجلديــة يصفون روغين ووجــد أن أقل من واحد في العشرة من مرضاهم نبت الشعر عنده لدرجة يمكن ملاحظتها.

أبــدى الــدواء بروبيسيا أملاً أكــبر في ظهور الشعــر. هذا الدواء يعمــل بأن يكبح تشكيــل الجسم للهرمون المسؤول عن ضعف جريبات الشعر: تقول منظمة فقد الشعر الأمريكيــة: «بروبيســيا هــو أول دواء في التاريخ يعالج بشكل ناجــع صلع الرجال لدى أغلبية الرجال الذين استعملوه».

ولكن إذا كان هذا الدواء ناجعاً لم لا يزال هؤلاء العديد من الرجال الصلع يمشون حولنا؟ لأن هذا الدواء قد يكون ناجعاً لدى العديد من الناس وقد لا يجدي نفعاً كبيراً الضرورة لدى بعضهم الآخر. لقد قيست النتائج بإحصاء عدد الشعر في اختبار على رؤوســ الناس المستعملين للدواء وتبين أن ثلث هؤلاء الذيــن يستعملونه لم يشهدوا أي نتائــج. وأيضــاً عليــك أن تستعمله كل يوم وإلى الأبــد، إنك إن توقفت فــإن أي منافع حصّلتها تتلاشى تدريجياً.

إن الخيبة التي ترتبت في موضوع فقدان الشعر جلبت زيادة في تجارة صنّاع الشعر المستعار. يمكن أن يكون الشعر الاصطناعي للرجال (وهو زي يطلق عليه مزودوه اسم «بديل الشعر») غالي الثمن.

يدفــع الرجــال ما يقــارب ثلاثــة آلاف دولار مــن أجــل «وحدتين» اثنتــين، بحيث يستطيعون أن يدعوا واحدة في أثناء إعداد الأخرى.

ويستطيــع النسـاء أن يدفعن ألفي دولار من أجل شعر مستعار من نوع جيد يحتجن إلى تبديله بعد مدة ولكنهن يتشوقن للدفع مهما كان الثمن خاصة أولئك اللواتي فقدن شعرهن بسبب علاج السرطان.

خبرتنــي مزينة شعــر أجريت معهــا مقابلة وتدعــى مادلين وايــت: «إن النساء يقلــن إن فقــدان شعرهن هو أصعب لديهن من فقدان الصــدر؛ لأنه ظاهر للعيان. إنهــم يفضلن المجازفة مع موضوع السرطان على أن يخسرن شعرهن. عرفت نساء رفضن المعالجة».

كان هــذا صعب التصديــق ولكننا تحدثنا مع مشايخ السرطــان وقالوا: نعم بعض النساء يرفضن العلاج الكيميائي حين يكون التأثير الجانبي له فقدان الشعر.

يسعى رجال ونساء كثيرون إلى الجراحين من أجل زراعة الشعر. يزرع الجراحون الشعــر كما تزرع النباتات. يحفرون ثقوباً في المناطــق الصلعاء ثم يأخذون قطعة من اللحــم والشعــر من خلف الرأس وطرفيه (حيث يكون الشعر غزيــراً فيها عادة حتى عنــد الصلع) ويزرعونه ثانيــة في تلك الثقوب. قد يكون علــى المرضى أن يجروا ست أو سبــع عمليات منفصلة. أجريــت مقابلة مع بيفرلي كروفشيك بعد جلستها الرابعة. كان لديها 264 ثقباً محفوراً في رأسها وكانت مستعدة لأكثر من ذلك. «حين تنظر إلى المرآة تفكر يا إلهي، أحب حقاً ما أرى وأنا أحب كل الشعر الذي حصلت عليه، يصبح المرء جشعاً ويريد منه المزيد!».

يكلف زرع الشعر عشرة آلاف دولار في كل زيارة، ولكن الناس قالوا لي: إنه لا شك لديهــم أن هــذا يستحق المبلغ. إن الــزرع يجعل الإنسان يبــدو وكأن على رأسه مزرعة شجر، ولكل واحد مزرعة.

إن أفضل حل لفقدان الشعر هو ما يفعله رجال جمعية الصلع في أمريكا. إنهم يحتفلون بالصلع ويختارون «أجمل رأس» سنوياً وفي مسيرة خاصة يغنون «الصلع جميل!».

إن زيــادة إفراز التستسترون يسبب فقــدان الشعر وهذا يعني «أننا حقاً رجال لا تضع هرموناتك على أمور سخيفة مثل تنمية الشعر». إن الموقف الجيد يحل مشكلات كثيرة.

خرافة: الصراصير تدخل إلى البناء ولا تخرج.

حقيقة: معظم الصراصير لا تدخل إلى البناء.

عاشت الصراصير على هذه الأرض مدة 350 مليون سنة، وهي الآن تريد أن تعيش معنا: يسمي الناس في الجنوب الصراصير الكبيرة الأمريكية: «حشرات الماء» أو «حشرات النخل». نتعذب نحن الشماليون أكثر من الصراصير الألمانية الصغيرة (بالمتو) الأصغر حجماً. ما الذي في هذه الحشرات يثير الناس كثيراً؟

إنها بشعة ولكن النحل بشع أيضاً وهو لا يثيرنا، بينما الصراصير تثيرنا أظن لأنها سريعة. الصراصير تبعث الكره في نفوس الناس. قاد صنّاع مبيدات الحشرات جماعات بحث ويقول المستهلكون فيها للباحثين: إنهم عندما يرون هذه الحشرات يريدونها أن تموت بسرعة.

عضو في الجماعة الأولى: حين ترى أنها ميتة تعرف على الأقل أنك تخلصت من بعضها.

عضو في الجماعة الثانية: ابني سيقتلها بيديه ويقول: «هاك ياأمي» كان كرهنا للصراصير أمراً جيداً لشركات مبيدات الحشرات. وأشهرها ماركة ريد Raid و SC شركة جونسون. أمضى علماء شركة SC جونسون ثلاثين سنة يبحثون عن طرق أفضل لقتل الصراصير. وفي موازاة ذلك أخبرنا الباحث في شركة ريد الدكتور م. كيث كيندي أنه أصبح يحمل عاطفة تجاه الصراصير.

قال لي: «نحن نعير كمية كبيرة من الاهتمام والتفاصيل في تربية حشراتنا» وأردف: «وعندنا أفضلها جودة صراصير درجة A هنا». أجل لقد قال: «نربي حشراتنا» ومع ذلك إن كنت ستجرب أن تجد أفضل وسيلة لقتل الصراصير فعليك أن تربي الكثير منها. وهذا ما يفعلونه في «معمل تربية الحشرات» غرفة كبيرة مليئة بأواني حفظ الصراصير. هذا مكان لن ترغب في زيارته.

مع هذا العدد الكبير من الناس الذين يريدون «أن يروا الصراصير ميتة» تصف دعايات شركة (ريد) بخاخات ومصايد تقتل الحشرات بشكل ملحوظ مثل Roach Motel. إلا أن هذه المنتجات نادراً ما تحل مشكلة الصراصير.

إن رش هذا المبيد أو سواه من المبيدات على الصراصير التي تراها لن ينهي المسألة: لأنه وراء كل صرصور تراه يوجد مئات مخبأة وراء الجدران؛ لأن زوجاً واحداً منه يستطيع أن يولد 20.000 من الصراصير الصغيرة فلا ينجز شيئاً بخّك لصرصور صادف أن رأيته. وكذلك المصايد The Roach Motels.

حيث «الصراصير تدخل ولا تخرج».

إن العلب تصيد بعض الصراصير التي تمشي فيها بأن تلصق أرجلها بالأرض ولكن ماذا بعد؟ إن معظم الصراصير لن تزور العلب بعد ذلك أبداً.

ماركة Foggers التي تبث المنزل بضباب غاز سام هي أفضل القتلة لهذه الحشرات؛ لأنها تحمل المبيد إلى الأماكن المخبأة. ولكن عليك أن تترك المنزل لساعات؛ لأن الكيميائيات تذهب في كل مكان.

قال لنا الخبراء: إن ثمة حلاً أفضل وأسهل: إنه الطعم السام مثل Bait Raid`s Combat. تذهب الصراصير إلى صحن Combat وتأكل الطعام السام. والسم يقتل الصراصير ببطء وهذا أمر جيد؛ لأنه يعطيها الوقت كي تعود إلى أعشاشها وتقتل ألوفاً من إخوتها وأخواتها. الصراصير تقوم بالعمل بأكمله. كل خبير سألناه قال: إذا أردت أن تقتل الصراصير فإن الطعم يعمل بشكل أفضل. ولكن الطعم مزعج. إنه يقتل بشكل غير مرئي وراء الجدران. أدركت شركة (ريد) أن هذا ما كان ليرضي رغبة الزبائن في قتل الصراصير. وفي اليوم الذي زرت فيه شاحنة ريد المملتئة بالصراصير كانت ريد تدعو لاستعمال بخاخ مرتفع الثمن. والتقيت بعالم الحشرات في شركة ريد المدعو جون راندال؛ لنتحدث عن هذا الموضوع.

ستوسل: هذا البخاخ يكلف خمسة دولارات للعلبة الواحدة.

دكتور راندال: نعم.

ستوسل: إن ما لا أفهمه هو أنكم تشجعون أغلى منتج وهو ليس جيداً أيضاً.

دكتور راندال: إننا نعزز أغلى منتج ممتاز نظن أنه مزيج من aerosal, Forgger والطعم السام، وهو يعمل بشكل أفضل.

ستوسل: ولكنكم لا تشجعون على استعمال الطعم السام، حتى إنكم لا تعرضونه في خارج هذا المكان.

دكتور راندال: حسناً لدينا الطعم السام هنا نحن نستعمله.

ستوسل: هنا في الشاحنة في مكان ما.

دكتور راندال: نعم في مكان ما.

ستوسل: إذا أردت أن تستعمل منتجاً واحداً فماذا تستعمل؟

دكتور راندال: هذا سؤال مهم. [توقف] استعمل الطعم السام إذا استطعت أن تحصل على واحد منه.

ارفش بعيداً البخاخ Roach Motel، واشترِ الطعم السام.

الطعم السام جيد للنمل أيضاً.

خرافة: سيساعدك معدو الجنائز في اختيار جنازة رخيصة.

حقيقة: بعض منهم سوف يؤذيك وقت حاجتك.

قالت جيسيكا ميتفورد: «إن إيذاء المستهلك في صناعة الجنائز ضخم من دون ريب». قبل أربعين سنة كتبت ميتفورد كتاباً قاسياً مريراً كان من أفضل المبيعات تذكر أن شركات الجنائز الأمريكية بنت مقابر عائلية بأسعار باهظة. كانت على حق في ذلك الوقت وقد اكتشفت أنه منذ ذلك الوقت لم تتغير الأمور كثيراً.

إن الكلفة الوسطية للجنازة والدفن في هذه البلاد هي 6.500 دولارات. قد ترغب في دفع ذلك: لأن تهيئة احتفال تساعدك على تحمل موت شخص عزيز. ولكن الناس يدفعون غالباً لأنهم لا يعرفون أن بوسعهم أن يدفعوا 2.000 أو أقل. حين يموت شخص عزيز ليس لك قلب أن تساوم من حولك. وهذا يعطي معد الجنازة فرصة رائعة

ليتلاعب بك. من أجل تقرير لبرنامج 20/20 زرنا ستاً وعشرين شركة جنائزية في أربع ولايات. أعطانا بعض منها خدمة عادلة رحيمة. ولكن نصف الوقت كان يذهب؛ لأن البائعين كانوا يكذبون علينا ويخرقون القوانين ويضللونا بطريقة ما.

قال المدير في كنيتيكت: إنه يمكن أن يساعد المنتج عندنا ليختار جنازة ليست غالية الثمن قال: «سنبقي السعر منخفضاً» حين كانت الكاميرا تدور مصورة. وقال: «دع الأمور بسيطة ثم تعرف كل شيء يحدث عندما تترك هنا هل تثق بي في هذا الأمر؟» تلخصت «الثقة» بفاتورة كبيرة: 2.300 دولار للتابوت و 800 دولار للحاوية التي يوضع فيها التابوت و 1.600 للخدمات المهنية... إلخ. هذه الجنازة (الرخيصة) تكلف 7000 دولار.

قد يسأل زبون واسع الاطلاع عن قائمة الأسعار في الشركة الجنائزية مما يتيح له المقارنة بسهولة. فالقانون يقول: إن على المديرين الجنائزيين أن يقدموا قائمة أسعار إلى الزبائن ولكن ما يزال هناك قانون للمستهلك يجهله الكثيرون. وإليكم بعض ترتيبات المبيعات التي التقطتها كاميرتنا الخفية حين أراد المنتج لدينا مارك غولين أن يشتري تابوتاً أرخص.

بائع في شركة الجنائز رقم1: لكي أكون صريحاً وصادقاً تماماً معك فإن معدن التابوت هو أفضل من علبة قهوة ماكسويل بدرجة واحدة.

بائع في شركة الجنائز رقم2: إنها تدعى علبة الجثة. تذهب إلى فناء الأخشاب المعدة للبيع وتشتري لوح خشب وتدقه ببعض المسامير؛ إن الأمر سهل جداً جداً.

كأنك تنصت لبائعي سيارات يريدون أن يبيعوك خيارات وموديلات هواة.

واحد يريد أن يبيعك غطاء بمبلغ ألفي دولار من أجل قبة حامية. قال: «هذه لكي تحمي التابوت» وأردف: «لأن ثقل الأرض ألوف الباوندات سوف تدفع إلى أسفل التابوت وتحطمه». شخص آخر أخذ يمجّد فضائل الأشياء الأغلى سعراً، وخاصة التابوت المقفول: «لا يمكن أن ينفذ إليه الماء لا يمكن أن ينفذ إليه الهواء، الحشرات لا يمكن أن تنفذ إليه المخلوقات الصغيرة لايمكن أن تنفذ إليه».

قال الباحث كارين ليونار الذي يعمل مع جيسيكا ميتفورد: «إنهم باستمرار يبيعون أشياء محمية، توابيت محمية، قباب محمية، لكي تحمي الشخص الذي تحبه» وأردف يقـول: «هـذا انتهاك حقاً حين تضع جسداً في تابوت محمي بـدلاً من أن تتركه لعملية التحلـل الطبيعيـة فينشف ويصبح هيـكلاً عظمياً بدلاً من أن تتـم عملية لزجة قذرة moldy slimiy متعفنة أبطأ وهي عملية أشنع كثيراً. ولكنهم لا يقولون لك ذلك».

إن حرق جثث الموتى أرخص وكان بعض مديري الجنائز يزدرونها. قال أحدهم: «كأن الشخص حين يفعل ذلك يقول: إن موت أبي غير ملائم دعه يذهب بعيداً». وحين سألنا عـن أسعار الحرق أخبرنا أنها 3.300 دولار من أجل «صفقة الحرق». إن حرق الجثث لا يكلـف هذا المبلـغ في أي مكان آخر. تقوم بعض الجماعات التـي لا تهدف إلى الاستفادة بترتيبـات حرق الجثث بمبلغ لا يجـاوز أربع مئة دولار يمكنك أن تجد هذه الجماعات في رابطة المستهلكين الجنائزية على الإنترنت بموقع www.funerals.org.

وهنـاك بديـل أرخص أيضاً وهـو أن تهب جسـدك للعلم، وهو خيار ليـس سائداً كثيراً في الصناعة الجنائزية. حين سأل المنتج لدينا مدير الجنائز في كونيتيكت حول الخيـار قالوا لـه: «إننا دخلنا في هذا المجال منذ مدة قصـيرة مع مشفى نيوهيفن في ييـل. أرادت امرأة أن تـترك جسمها للعلم فوهبته إلى ييـل. ورفضت ييل هذا الطلب إذ لديهـم جثـث كثيرة ولا يعرفون مـاذا يفعلون بها». ولكن كانت هـذه كذبة أخبرتنا ييـل أنهم نادراً ما يرفضون الجثـث وأنه بالقرب من جامعة كونيكتيكت يوجد برنامج لهبة الأجساد. وبالنسبة لأولئك الذين يهبون أجسادهم من خلال هذا البرنامج تأخذ المدرسة على عاتقها كل التكاليف بشأن جلب الأجسام بعد الموت وحرق البقايا وإعادة الرماد إلى الأسرة. وكل ذلك مجاناً.

بالطبـع إن الشـركات الجنائزيـة في أمريـكا لم تستطع أن تستمـر في تكليف هذه المبالـغ الطائلة حـين علم الناس أن هناك بدائل أقل كلفـة. الآن وقد علمتَ أن الدفن ممكن بدفع ألفي دولار فقط وأن الحرق لا يكلف أكثر من أربع مئة دولار أو هبة الجثة للعلم: لذا سيكون صعباً على تلك الشركات أن تنهبك.

خرافة: الشركات التجارية تنهبنا.

حقيقة: معظمها لا يفعل ذلك.

ظللت سنين أكتب تقرير المستهلك يومياً. وبصفتي مراسلاً لمحطات التلفاز في بورتلاند من ولاية أوريغون ثم في مدينة نيويورك لم أكن أجد أي عناء في اكتشاف شركات تقوم بأشياء سيئة قذرة حين ذهبت إلى العمل في برنامج 20/20 استمررت في تقديم تقرير عن أدوية كاذبة للحمية ، وعلاجات الصلع، وتكبير حجم الثدي وحيل الطلبات البريدية وغير ذلك من الأمور التي تخدم المستهلكين، مهما تكرر تنبيهنا لهم ولكنني في النهاية لاحظت أن معظم المحتالين وراء هذه الحيل كانوا فنانين في الخداع. وكان رؤسائي يقولون: «هذا احتيال ماهر ولكن هل يستحق أن يوضع في برنامج 20/20؟

هل هو نهب كبير حتى يستحق أن ينشر في الأخبار (الوطنية) للمجلات؟ غالباً لم يكن الأمر كذلك.

فكر في هذه الأمثلة في هذا الفصل: قد تدفع مبالغ كثيرة من أجل بازلاء أو بخاخ صراصير أو علاج كاذب للصلع فإن هذا مزعج ولكن ليس بهذه الدرجة من الخطورة. لا يستطيع الغشاشون أن يغشوا إلى هذا الحد ولا إلى هذه المدة الطويلة من الزمن فقد شاع أمرهم. والشركات الصادقة تأخذ منهم زبائنهم.

قد لا يحدث هذا في أمور الجنائز وفي صناعة الماس. فإن الإسراف في صرف النقود على الجنائز مستمر؛ لأن الجنائز هي دفعة لمرة واحدة ولا نحب أن نتكلم عن الموت وبعض الصحف ترفض حتى نشر أسعار الجنائز في إعلاناتها؛ لأنها تعد ذلك ذوقاً غير سليم.

هنا لم يشع أمرهم. إن الخداع في مجال الماس يستمر؛ لأن الزبائن مفتونون بالدعايات التي يريدون أن يصدقوها. ولكن هؤلاء هم الاستثناءات. وعادة الشركات

التي تعطي الزبائن أفضل الأشياء بأرخص الأثمان هي الشركات التي تنمو. والغشاشون وفنانو النهب يبقون على الهامش. يوجد قليل من المخادعين أمثال إنرون Enron ولكنهم استثناء. يوجد أكثر من واحد وعشرين مليوناً من الشركات التجارية في أمريكا والقسم الأكبر منها يبقى ويستمر، السبب خدمتها الجيدة للزبائن.

حتى هاليبورتون، هاليبورتن هو ولد اليسار المهدد. ولكن لنفرض أن نقاده يقولون الحقيقة: تدفع إدارة بوش لها ليبوتون أكثر مما يجب وهو هاليبورتون غير فاعل إلى حد كبير ويسرق الحكومة. ويوقع عقوداً خفية مع الأصدقاء الحميمين بأسعار فاضحة وتتسرب الملايين إلى ديك تشيني وأصدقائه. وما يزال هاليبوتون قادراً على أن يأخذ الوجبات لفرق الجيش، ويسلم البريد ويغسل ملايين من الرزم المالية وينقل الوقود نصف النقود التي تحتاجها الحكومة لكي تفعل ذلك. وفي الواقع فإن مكتب ميزانية الكونغرس يقول: إنه إذا استبدل بالمتعهدين من أمثال هاليبوتون في العراق أناساً آخرين فإن الأمر يحتاج إلى ثلاثة جنود بدلاً من موظف واحد من القطاع الخاص: لأن القطاع الخاص هو موضوع منافسة، وهو دوماً يستخدم المستهلكين بشكل أفضل مما تفعل الحكومة، حتى حين يخرق القواعد.

لقد استغرقني الأمر وقتاً طويلاً لأرى أن أكبر السيئين لم تكن الشركات الكبرى، بل إن السيئين الحقيقيين هم الناس الذين يقولون: إنهم «سيساعدوننا»: الحكومة ومحامو «المصلحة العامة».

الفصل السابع

لفظ الدعاوى القضائية

قـد تعتقـدون أنني أحـب الدعـاوى القضائيـة؛ لكوني مؤمنـاً بالأسـواق الحرة. فالدعـاوى القضائية تعد بحلول ناجعة للمشكلات. توفر الدعـاوى القضائية العدالة للأفراد. بدلاً من القوانين الحكومية الموحدة التي تفرض على الجميع. كما يقول والتر أولسـون مؤلف كتـاب قاعدة المحامـين The rule of lawyers يمكن تلقيب المحامين المدعـين بقبضـة اليد الخفية. فإذا أذيت شخصاً مـا أو خرقت القانون تضربك هذه القبضة. ونظرياً يجب أن يكون حل المشكلات بصورة شرعية وقانونية أمراً حسناً.

ولكـن في الحقيقـة تؤذي القوانين عدداً من الأشخاص أكثر بكثير من الأشخاص الذين تساعدهم.

استغرقنـي فهم ذلك عدداً مـن السنين. عندما بدأت بتغطيـة تقارير المستهلكين كان محامـو الإصابات الشخصية مصدري الأهم، كانوا يتلهفون لمساعدتي لإدراكهم هدفنا المشترك: سيدعمون قضاياهم لجلب اهتمام الرأي العام عن طريق مساعدتي في تحـري قصصـي. كما سنرى لهـذه الشراكة بين المراسلـين الصحفيين والمحامين نتائـج شريرة ولكن يصعب علـى الصحفيين مقاومة إغراء إشـراك المحامين؛ لأنهم يشكلـون مصـادر ممتـازة إذ يقومون بتحريـات مكلفة للحصول علـى الحقائق التي تسهل صياغتها فيما بعد مقالات في الصحف أو حلقات في البرامج التلفازية.

لقـد شعرت أنني عادل ومحـق في أثناء تغطيتي لتلك القصـص شعرت أنني أنا والمحامـون كنـا الرجال الأخيـار الذين يقاتلـون الأشخاص المتنمريـن. لكن أخرج الرفش للتنقيب. لقد اكتشفت الآن أن المحامين هـم المتنمرون وأنا كنت أساعدهم بشق طريقهم.

خرافة: تناصر الدعاوى القضائية المستضعفين.

حقيقة: مقابل كل واحد ممن تناصر يتأذى مئات آخرون.

«ربحت دعوى قضائية مليون دولار لأجل طفل متأذ» كان هذا عنوان رئيس ظهر بعد أن تأذى طفل بآلة طبية. يشير هذا العنوان إلى أن العدالة تحققت.

من الواضح أن الدعوى القضائية تلك كانت في صالح العائلة التي كانت تعتني بالطفل.

لكن هذا العنوان يغفل ذكر كثير من التفاصيل المهمة. أولها أن الدعوى القضائية كلفت كل من تورط بها ـ وذلك يشملك ـ أكثر بكثير من مليون دولار. فبالإضافة إلى تسوية المليون دولار المدفوعة كانت هناك تكاليف المحكمة وأتعاب محامي الدفاع ـ كثير من محامي الدفاع رفعوا على الأرجح دعاوى قضائية ضد صانع الآلة الطبية بالإضافة إلى الجراح والطبيب المقيم وبعض الممرضات والمشفى والله يعلم كم من الآخرين. يُذكر في الدعاوى القضائية بشكل روتيني أسماء دزينة من الأشخاص؛ لأنه إن أغفل اسم أحدهم وتبين فيما بعد أن الخطأ كان خطأه فسيعرض ذلك المحامي إلى تهمة سوء التصرف في المهنة.

بالنسبة للمحامين ولأشخاص مثلي الدعوى القضائية هي جزء من عملنا الذي اعتدنا عليه ولكن بالنسبة لمعظم الأشخاص الدعوى القضائية هي تجربة تخرب الحياة. تذعر الممرضات ويفقد الأطباء قدرتهم على التركيز ويأرقون. سمعتهم الطبية التي تكبدوا الصعاب للحصول عليها تمزقها الصحف التي تنشر أقوال المحامين المدعين الذين يرسمون صوراً خادعة عن عدم كفاءة الأطباء وإهمالهم. يضطر الأطباء إلى استخدام محامي دفاع يشغلون كل وقتهم ويمتصون طاقتهم وينهبون مدخراتهم، يعاني المرضى ويتألمون بينما يصرف أطباؤهم عدة ساعات في الأسبوع مع المحامين يحضرون الرد على التهم وتطول الدعاوى القضائية سنوات من الزمن.

وبسرعة هرع الأطباء إلى ممارسة نوع من الطب الدفاعي فأخذوا يطلبون الاختبارات والتحاليل المكلفة وغير الضرورية في محاولة لتجنب الدعاوى القضائية. بعض هذه الاختبارات مؤلمة للمرضى. واليوم تطلب نسبة 51 بالمئة من الأطباء إجراءات مزعجة، مثل أخذ الخزعات دون وجود ضرورات طبية لذلك.

أصبح الأطباء أشد تكتماً، وباتوا يتحدثون مع المرضى بشفافية أقل، ولا يحبون أبداً الاعتراف بأي خطأ. ارتفعت كلفة التأمين ونقل الأطباء والمشافي الكلفة إلى المرضى. وقرر صانعو المعدات الطبية المذعورين التزام التقنيات القديمة المثبتة، والتخلي عن خطط إيجاد أدوات محدثة، تجعل الجراحة أقل ألماً وخطورة. بإمكاني المواصلة لكنني أعتقد أنكم فهمتم الفكرة.

عانى عديد من الأشخاص من الألم والخوف والخسائر المادية للحصول على تسوية المليون دولار. بل حصلوا على نحو 600.000$ بعد أن اقتطع المحامي أتعابه وأجوره.

هل عوقب الأشخاص «عديمو الكفاءة» أو «المهملون»؟ على الأرجح لا. قد يكون صانعو الآلة الطبية / الأطباء / المشفى / الممرضات كلهم أبرياء. أثبتت دراسة في هارفرد أن معظم الأشخاص الذين يفوزون بتسويات ناجحة عن سوء تصرف مهني لم يكونوا أبداً ضحية لسوء التصرف المهني ذلك.

لتغطية أتعاب المحامين ترتفع أسعار كل البضائع التي يشتريها المستهلكون ارتفاعاً طفيفاً. والمنتجات المنقذة للحياة هي التي يكون عقابها أشد من جراء «ضريبة المحامي». المعمل الذي ينتج الناظمات القلبية يقول: إن الدعاوى القضائية تضيف آلافاً من الدولارات إلى كلفة كل ناظمة قلبية Pacemaker. تعاقب الدعاوى القضائية مئات بل آلافاً من الأشخاص الأبرياء.

يركز ناقدو استغلال الدعاوى القضائية على كلف المحاكم والتشريعات، وهي كلفة هائلة دون شك. لكن الكلفة الأكبر هي الآثار الجانبية السيئة. ماهو أسوأ أن الخوف من الدعاوى القضائية يحرمنا من الأشياء التي تحسن حياتنا.

خرافة: الدعاوى القضائية ضد «المنتجات المعطوبة» تجعل المنتجات أكثر أماناً.

حقيقة: الدعاوى القضائية ضد المنتجات تحرمنا من منتجات أكثر أماناً.

بالطبع يجعل الخوف من «قبضة اليد الخفية» المصنّعين أكثر حذراً. ولقد أُنقذت حياة بعض الأشخاص لأن التهديد القضائي جعل الشركات تصنع منتجات أأمن. هذه هي النتائج الحسنة «المرئية».

لكن هذه النتائج الحسنة تأتي بثمن أكبر غير مرئي: الخوف الذي يوقف الأشياء السيئة يوقف الأشياء الحسنة أيضاً. يخنق الخوف التحديث الذي ساعدنا في القرن الماضي على تمديد مدة حياتنا ثلاثين سنة أكثر. نحن نفقد أشياء جيدة كل يوم.

في عام 1987 طورت مونسانتو بديلاً عن الحرير الصخري (اسبستوس)، وهو نوع من العازل المقاوم للنار الذي قد ينقذ حياة الآلاف من الأشخاص، لكن مونسانتو قررت ألا تبيع هذا المنتج بسبب الخوف من الدعاوى القضائية. قال ريتشاردف ماهوني وكان هو المدير في ذلك الوقت ـ: «كان من الممكن إيجاد بديل فعال للأسبستوس في السوق، لكن الآن هذا غير ممكن».

لم كان علينا أن نقلق من نقص لقاح الأنفلونزا؟ لأن أربع شركات فقط مازالت تصنّعه.

ولم ذلك؟ لأنه من بين ملايين الأشخاص الذين يتلقون اللقاح قد يمرض بعضهم فيرفعون دعوى قضائية.

بين عامي 1980 و1986 طالب محامو الإصابات الشخصية مصنعي اللقاحات بملايين الدولارات، معظمهم لم يفز، لكن ذلك أثار الذعر في شركات الأدوية الأمريكية التي أقفلت أبوابها.

في عـام 1986 تدخـل الكونغرس وذلـك لكبح الدعاوى القضائيـة التي ثبطت من إنتـاج اللقاحات. أسست الحكومة ميزانية مالية دعتهـا البرنامج الوطني لتعويضات التـأذي من لقاحـات الأطفال. سيدفع من هذه الميزانيـة إلى أهالي الضحايا بصورة مباشـرة، حتى لا يلجـؤوا إلى استخدام المحامين، ويعانوا مـن مماطلة القضاء. كان يفترض أن يحـث هذا الإصلاح صانعـي اللقاحات على الإنتاج لكـن شركات الأدوية بقيت متخوّفة تهاب أن يرفع المحامون المدعون عليها الدعاوى القضائية في كل حال.

كانوا محقّين في قلقهم. قبل أربعين سنة طورت إيلي ليلي مادة حافظة ذات أساس زئبقي دعيـت ثيميروزال، واستخدمت في العديد من لقاحات الأطفال. قفز المحامون المدعـون إلى إثارة الذعر، لادعاء أن الزئبق يسبـب مرض التوحد عند الأطفال. ومع أن دراسـة حكومية لم تجـد أي علاقة بينهما، رفعت أكثر من مئة دعوى قضائية حول التوحـد ضد صانعـي اللقاحات منـذ أن طُبق قانـون تعويضات التـأذي من لقاحات الأطفال. لا عجب إذاً إذا لم ينأَ صانعو الأدوية عن أبحاث اللقاحات.

حتـى عندمـا تُكتشف لقاحـات جديدة تخاف شـركات الأدوية أحيانـاً من بيعها. وافقـت FDA على لقاح ضـد (داء لايم). أتريد أخذه؟ انسـى الموضوع. ما من شركة تريد المخاطرة ببيعه.

الخـوف من الدعاوى القضائية قلّص عدد الشركات الأمريكية التي تجري أبحاثاً عن موانع الحمل من ثلاث عشرة شركة إلى اثنتين.

بعد أن جعلت دعوى قضائية خالية من أي أساس علمي شركة داون كورينغ للأثداء الاصطناعيـة تفلس، توقـف صانعو السيليكـون اليابانيون عن إنتـاج طبقة واقية من السيليكـون المخفف للألم في الإبر التي تحقن تحـت الجلد. قال مدير الشركة: «نحن واثقون من أن منتجنا آمن، ولكننا لا نريد أن نخاطر في مواجهة دعوى قضائية».

اخترعت شركة يونيون كاربيد آلة صغيرة متنقلة لغسل الكلية، كانت ستسهل كثيراً حيـاة الأشخاص الذين يعانون من مرض في الكلية، لكن يونيون كاربيد قررت ألا تبيع تلـك الآلة. فبوجود الطفيليات القانونيـة المتربصة، فاقت خطورة الدعاوى القضائية المكلفة أي نفع محتمل.

هـل أنـت حامل؟ أتعانـين من الغثيـان الصباحي؟ مـن الأرجح أن يشفـي الدواء (بندكتـين) ذلك «لسبع وعشرين سنـة مضت، وصف الأطباء هـذا الدواء لأكثر من ثـلاث وثلاثين مليون امـرأة» إذ إنه جيد، أو كان جيـداً في معالجة الغثيان الصباحي والإقياء. لكنك اليوم لا تستطيعين شراءه وذلك لأن المحامين واظبوا على رفع الدعاوى القضائيـة ضـد شركة ميريـل دو التي كانت تصنّعـه، مدّعين أن ذلك الـدواء تسبب بتشوهات ولادية.

لم تظهر الدراسات أن البندكتين يسبب تشوهات ولادية، وفازت ميريل دو بمعظم الدعاوى القضائية. ولكن بعد إنفاق مئات ملايين من الدولارات أجوراً قضائية، قررت الشركـة عدم بيـع الدواء. لم يحل أي دواء آخر محل البندكتـين واليوم يشكل الغثيان الصباحي السبب الأساس في التجفاف أثناء الحمل.

يقـول د. بول أدفيـت أستاذ طب الأطفـال بجامعة بنسلفانيا كليـة الطب: «خلال سنتـين من إيقاف البندكتين تضاعفت الإصابات الحادة بالتجفاف في المرحلة الأولى من الحمل، لكن الإصابات بالتشوهات الولادية لم تتغير.

هذه بضعة أمثلة عن خسائرنا، ولا يمكننا تصور المنتجات المنقذة للحياة التي كان يمكن ابتكارها ـ لو أن المحدثين لم يعيشوا في مناخ من الذعر.

خرافـة: تحمـي الدعـاوى القضائيـة المتعلقة بسـوء التصرف في المهنة المرضى.

حقيقة: تـؤذي الدعاوى القضائية المتعلقـة بسوء التصرف العديد من المرضى.

نشـر المحامون ذعراً شديداً في المشـافي فأصبح المرضى أكثر عرضة للخطر. قال لي إدغـار ماندفيـل الجـراح في نيويورك: «يعيش الجميع في ذعر قاتل مـن أن ترفع عليهم دعوى قضائية». إنه أستاذ في علم التوليد ويظهر اسمه في لائحة «أفضل أطباء في نيويورك».

ومع ذلك رفعت عليه دعوى قضائية عشرات المرات. إن اختصاصه الطبي، التوليد، هدف رئيس للقضايا القانونية: 76 بالمئة من أطباء التوليد الأمريكيين واجهوا دعاوى قضائية رفعت ضدهم. أنا أفهم أن هناك أطباء سيئين ولكن هل ثلاثة أرباع أطباء التوليد سيئون؟

أجريت مقابلة حول هذا الموضوع مع واحد من أنجح محامي المحكمة في أمريكا واسمه ديكي سكرغس Dikie scruggs.

ديكي سكرغس: هناك فقط مجموعة معينة من الأطباء الذين يثيرون كل المشكلات.

ستوسل: ولكن أين العدل إن كانت الدعاوى القضائية ترفع على ثلاثة أرباع أطباء التوليد؟

ديكي سكرغس: حسناً، لهذا السبب لديهم تأمين.

يعطي الناس غالباً إجابات كهذه، كأنهم يعتقدون أن التأمين يجعل كل شيء مجانياً... لعل النقود تنمو على أشجار التأمين.

لكنكم تدفعون لذلك التأمين من خلال ارتفاع الأسعار. وتدفعون أيضاً ثمن طائرتي ديكي سكرغس ويخته وأسلوب حياته المسرف المرفّه. إنه ملك الدعوى القضائية «Class action» (تحرك الطبقات) إذ وضع ملايين الدولارات في حسابه المصرفي وبليون دولار ـ نعم بليون دولار ـ من تسوية هائلة ضد شركات التبغ.

دفعت شركات التبغ الكبيرة تسوية للقضية بلغت 206 بليون دولار، معظمها دفعها مدخنو السجائر عند شراء السجائر التي ارتفعت أسعارها.

سكرغس معجب بملك رفع دعاوى آخرين وهو السناتور السابق والمرشح نائب رئيس للجمهورية جون إدواردز. «إنه نوع من الفن بالنسبة لي» قال لي سكرغس «ومارسه جون إدواردز بنجاح متألق». بالطبع وكان لإدواردز تأثير أساسي في مجال الدكتور ماندفيل وهو طب التوليد.

حصل إداواردز على ما يقارب أربعين إلى ثمانين مليون دولار (إنه لا يعلن المبلغ) من جراء رفع الدعاوى على الأطباء في المشافي. لقد جنى أكبر أجوره من رفع الدعاوى

بالنيابة عن الأطفال الذين ولدوا بشلل دماغي. قال إدواردز: إن الشلل الدماغي حدث بسبب نقص الأوكسجين المتدفق إلى دماغ الوليد أثناء الولادة. وجادل إدواردز بعنفوان وعاطفة مشيراً إلى أن الطبيب لو أجرى عملية ولادية قيصرية لتحاشى الشلل الدماغي عند الطفل.

يملك إدواردز بعض التكتيكات الذكية التي يقوم بها في قاعة المحكمة. ذات مرة فاز برقم قياسي في حكم المحلفين عندما قام بتمثيل دور الوليد المتأذي في رحم الأم. قال للمحكمة: «الآن، أنا أشعر بها، أشعر بحضورها. إنها بداخلي وهي تتحدث إليكم وتقول أنا أعاني من مشكلات، أريد الخروج» استجابت لجنة المحلفين بمنح 605 مليون دولار.

الشيء الذي تعلمه الأطباء في تهريج إدواردز والمحامين الآخرين هو الإكثار من إجراء العمليات القيصرية. تضاعفت العمليات القيصرية أكثر من 4 مرات ـ كانت نسبتها 6 بالمئة من كل الولادات عام 1970 وأصبحت 28 بالمئة في عام 2003، اليوم شاع انتشار الولادة القيصرية لأسباب متعددة لكن الخوف من الدعوى القضائية حول الشلل الدماغي كان له تأثير كبير. قد تعتقدون أنه إذا كانت حجة إداوردز صحيحة ستندثر كل حالات الشلل الدماغي تقريباً. لكن هذا لم يحدث. د. ماندفيل البارع في استخدام المشرط ساعدني في استخدام الرفش هذه المرة.

د. إدغار ماندفيل: لم يكن هناك أي انخفاض طفيف في معدلات الشلل الدماغي في أمريكا.

ستوسل: يعتقد المرء أن المعدل سينخفض بعد كل هذه...

د. إدغار ماندفيل: هذا ما يبدو؟ أليس كذلك يا سيدي؟ هذا ما يبدو.

لكن الأطباء المرتاعين من جون إدواردز وأمثاله مازالوا يسرعون إلى إجراء الولادات القيصرية. قال لي أحدهم: «الأمان أفضل من الندم».

ستوسل: أيسبب ذلك ألماً أشد للنساء؟

د. إدغار مادنفيل: من الواضح أن الألم أشد، أشد بكثير.

ستوسل: لكن الولادة الطبيعية مؤلمة.

د. إدغار ماندفيل: لكنها ليست في مثل ألم الجرح الطويل على البطن. كما أن الولادة القيصرية تحمل عوامل خطر أكبر بثلاثة إلى خمسة مرات مثل النزيف ـ الإنتانات، انسداد أوعية الرئة وعدد من الأخطار الأخرى.

لا أريد نشر الخوف ـ الولادة القيصرية آمنة نسبياً، لكنها عملية كبيرة، يتحمل العديد من النساء ألماً غير ضروري وخطر الموت أثناء الولادة لأن محامين مثل جون إدواردز أرعبوا الأطباء فجعلوهم يكثرون من إجراء العمليات القيصرية.

ما يدعو للسخرية أن العلماء اليوم يقولون إن الشلل الدماغي يندر أن يحدث بسبب أي فعل يقوم به الأطباء في غرفة الولادة. هل سيعيد إدواردز ملايينه؟ لا.

لقد بدأنا نتعلم الآثار الجانبية الحزينة للدعاوى القضائية المتعلقة بسوء التصرف في المهنة. السرية إحداها. أتذكرون تشارلز كولين الملقب «الممرض القاتل؟» لقد طرد من مشفى تلو آخر لكن المشفى لم تقل للأخرى: «لا توظفوه! إننا نعتقد أنه تسبب في قتل مرضانا». الخوف من الدعاوى القضائية أخرسهم.

قال المدير المسؤول في المركز الطبي سمرست في سمرفيل نيو جرسي، حيث عمل السيد كولين لآخر مرة (ويحتمل أنه قتل اثني عشر أو خمسة عشر مريضاً) قال: «إن كانت توجد نتيجة حسنة من هذا كله، فهي أن ننتبه إلى إصلاح النظام الذي نمنع من خلاله من أن نقول للآخرين ما يحدث وذلك بصراحة، بسبب الخوف من الدعاوى القضائية».

الخوف من الدعاوى القضائية يجعل الأطباء أيضاً يتسترون على الأخطاء، ومن ثم استنتجت دراسة قامت بها هيئة الصحة والخدمات الإنسانية أن «المشافي والممرضين والأطباء يكرهون الإخبار عن المشكلات: ويحاولون جمع جهودهم لتحسين الرعاية بسبب خوفهم من أن يجرّوا في دعاوى قضائية، حتى ولو لم يرتكبوا أي خطأ. نتيجة لذلك «ما يقرب من 95 بالمئة من الحوادث المزعجة لا يتم التبليغ عنها».

الخسارة مضاعفة: نحن المرضى نخسر لأن الأطباء يتسترون على الأخطاء. والمحامون يأخذون نقودنا ويهربون.

خرافة: تهديد الدعاوى القضائية يجعل العالم مكاناً أكثر أماناً.

حقيقة: الدعاوى القضائية تزيل خياراتنا.

الدعـاوى القضائيــة لا تنقصـ شعورنــا بالأمان وحسب بـل إنها تزيـل المتعة من حياتنا. فكر فيما يلي: طلب إلى لاعبي البيسبول أتلانتا بريف «لا تقذفوا الكرات على المشجعين بعد الآن. لأن في ذلك خطر من دعاوى قضائية ترفع عليكم».

أنقصت المخيمات في رياضة الفروسية. المدارس تحذف برامج الرياضة. قد تكون هذه أنشطة ممتعة ولكن، لا سمح الله قد يُجرح أحد.

هل يريد أولادك تعلم الفوضى؟ تكون محظوظاً إن وجدت مسبحاً فيه لوحة للقفز. (منصة). لقد ألغاها مديرو المسابح لأنهم يخافون الدعاوى القضائية.

هل تذكر أيام السباحة في برك الماء الطبيعية؟ يجدر بك أن تنسى تلك الأيام، فبشكل متزايـد أصبـح الناس الذين يتوجهـون إلى برك السباحة القديمة تلـك، والتي يقابلون عندهـا بإشارات تقول: «ابقوا بعيداً». هذه الإشارات وضعت أيضاً في نيويورك عند برك السباحـة التي هي ملك روبرت إيفيري. لقد أمتعت هـذه الملكية أجيالاً من سكان المدن، وكان هذا يعجب إيفري. ولكن محاميه بعد ذلك أخبره أنه إذا حدث وتأذى أحدهم فقد يرفع عليه دعوى قضائية. فنُصب السياج ووضعت إشارات «ابقوا بعيداً».

وقال إيفري: «السبب أني خشيت أن ترفع علي دعوى، إن بوسعهم أخذ كل ما أملك».

إنــه على صواب. فالمقاضاة في أمريكا باهظة الثمن، ودعوى قضائية واحدة يمكن أن تأخذ منك كل ما تملك ـ حتى لو ربحتها.

هـل وضع إشارات «ابق بعيداً» تجعلنا أكثر أماناً؟ ليس ذلك بالضرورة في الواقع ـ لأنهـم يشجعون الناس على أخذ مخاطـرات أكبر. قبل بضعة أشهر صيف كان هناك شـاب في الواحـدة والعشرين مـن عمره، لم يكـن بوسعه الوصـول إلى مسبح روبرت إيفري من المدخل الرئيس لأن البوابة كانت مغلقة، وإشارة ابق بعيداً موجودة، فذهب إلى جزء أكثر خطورة من بركة السباحة لكي يصل. وقد غرق.

مــاذا يعني إغلاق بــرك السباحة بالنسبة لــلأولاد؟ تجارب تعليميــة أقل. يتعلم الأولاد مــن اختبارهــم لقدراتهــم. بعضــ الأولاد يسقطون ويجرحــون بالسباحة، أو بالسقــوط مــن الأشجار. ولكن هل مجتمعنا أكثر سعادة وأكــثر أماناً الآن إن لم يعط الأطفال فرصة المحاولة.

خرافة: الدعاوى القضائية تحمي الأولاد.

حقيقة: الدعاوى القضائية تجعل العالم مكاناً أشد برودة.

يوجــد تغير عميق يأخذ مكانــه في المدارس لعلك لست عالماً بــه، ولكن تأثيره على ابنــك قد يكون دراميــاً. لقد كان التعليم مهنــة ملاطفة بحيث إن تربيتــاً أو ملامسة للظهر تعد نوعاً من التشجيع.

ولكن اليوم معظم المعلمين يبقون مسافة (أمان) مع الطلاب، وذلك لسبب معقول.

ألبرت تومبسون أستاذ بديل في شيكاغو، طُلب إليه أن يدرس الصف الرابع. قال لي: «لقد قضيت يوماً واحداً مع ذلك الصف المتميز ـ ست ساعات غيرت حياتي بأكملها».

لقد تطوع تومبسون للعمل في جوار مضطرب، حيث ظن أن بوسعه أن يساعد أكثر الأولاد حاجــة إليــه. وللحفاظ على النظام في تلك الصفوف ألح على نظام قاس. وقد استــاء بعضــ الأولاد من ذلــك، ولم يأبه تومبسون لذلــك، إلى أن استيقظ في يوم من الأيام وارتاع إذ وجد أنهم يتحدثون في التلفاز.

«أعلــن صبي وتسعة فتيات أن أستاذاً بديــلاً لامسهم هنا يوم الجمعة» قال المذيع: «يتحدث المرشدون الاجتماعيون مع كل الطلاب المصدومين بهذه القصة».

قالــت فتــاة: إن تومبسون لامس ثدييها. وقال صبــي: إن تومبسون تحسس قضيبه بينمــا كان يقــف أمــام الصف. قال عشر أطفــال: إن تومبسون تحرشــ بهم. قال لي تومبســون «إنهــا مؤامرة»، ولكن مــن سيصدق ما يقولــه أستاذ بديل أمــام اتهامات العديــد من الأطفال؟ لحســن حظ تومبسون، كشف عمل الشرطة الجيد على أن ذلك

كلـه كان كذباً. لقـد غضبت فتاة لأنها عوقبت، فدفعت دولاراً لـكل من أصدقائها كي يختلقوا قصصاً حول تحرش تومبسون بهم. أسقطت التهم.

ترك تومبسون التدريس، وعمل في مخزن لبيع الطعام الصحي. إنه يقول: إنني أصبحـت خائفاً من الرجـوع إلى التدريس. قال لنا بعض الأسـاتـذة: إن تومبسون كان محظوظاً، لأن التهم أسقطت بسرعة نسبياً. فلقد دمرت حياة أساتذة بريئين آخرين من تهم مماثلة.

لقـد أجريت مقابلة مع مجموعة من الأساتذة يبلـغ مجموع خبراتهم في التدريس مئـة سنـة. قالت سانـدي لينكيمر: إنهـا تسمـع أولاداً في الصف الرابـع أو الخامس يستخدمـون عبارات مثـل: «التحرش بالأطفال»، و«الدعـاوى القضائية» للانتقام من أساتذة لا يحبونهم. «إنهم لا يعرفون معنى الكلمة لكنهم يعرفون أنها سلاح».

هذا غير من طريقة تدريس الأساتذة. عندما تلقوا التدريب كان يقال لهم: «يحتاج الأطفال إلى الحنان الجسدي» أما الآن إذا لمسهم طفل ينأون عنه.

شارون كليغهورن: ننكمش خوفاً ونقطب وجهنا ونتأمل «أرجوك ابتعد عني».

ستوسل: أليس هذا رهيباً بالنسبة للطفل؟

شارون كليغهورن: قد تشعر الطفلة أنها منبوذة.

ريتشارد كليغهورن: إن هذا حرمان الطفل.

كريس ويتشسـر: قـد يتسبب ذلـك بدفعهم بعيـداً عن التعلـم، إذ ينغلقون على أنفسهم، ولن يريدوا من أحد التواصل معهم.

ستوسل: عندما بدأت مهنتك في التعليم هل كنت تفكر ملياً قبل أن تعانق طفلاً ما؟!

كريس ويتشسـتر: كلا. بل كنـت أشجعهم على الجلوس في حضنـي كنت أقول: «أتريـد أن تجلسـ على حضنـي وتساعدني في قـراءة هذه القصـة؟» اليوم لا أستطيع أبداً فعل ذلك.

ستوسل: لو أتت إليك الطفلة وكانت تريد الجلوس في حضنك.

كريس ويتشستر: سأقول «حسناً أتعلمين ماذا؟ تستطيعين الجلوس هنا إلى جانبي وهذا سيكون رائعاً» قد ينظر الأهالي من النافذة فيقولون: «ماذا تفعل ابنتي؟ جالسة على حضنك؟»

ستوسل: أتستطيعون إيصال الطفل بالسيارة إلى منزله؟

جون غري: أبداً.

قال لي كيث كينر الرئيس السابق لأكبر اتحاد أساتذة في أمريكا: إنه كان يعلّم الأساتذة وجوب الابتعاد عن التلاميذ «نحن نقول للأساتذة بشكل عام درسوا ولكن لا تلامسوا».

لنشر هذه الرسالة تعين اتحادات الأساتذة محامين ليحاضروا ويرشدوا الأساتذة كيف يحمون أنفسهم. لقد صورنا بالفيديو مايكل روتشايلد وهو يخبر مجموعة من الأساتذة: «لا تدعوهم إلى منازلكم، في أي ظروف ومهما أردتم ذلك لا تدعوهم إلى منازلكم. إنه الانتحار. لا تقوموا بذلك!»

الحمامات مشكلة خاصة بالنسبة لأساتذة الحضانة إذ قد يطلب الأولاد المساعدة.

كريس ويتشستر: قد ينفد الورق في المرحاض. لهذا أنا أضع دائماً عدة لفافات من الورق، لأن ذلك يحدث ـ كنت في الماضي أذهب وأغير الورق وأخرج. الآن لا. الآن استدعي الممرضة، هي التي تدخل وتنظف الطفل، وأنا أبقى عند الباب، وتذهب هي بعد ذلك فوراً وتتصل بالأهل وتقول لهم: «هذا ما فعلته للتو».

ستوسل: أليس هذا جنوناً؟

كريس ويتشستر: لقد قيل لنا: إن هذه هي الطريقة لحماية أنفسنا. وضع الطفل على الحضن يدعى «استغلال المعهد»! نحن نفقد شيئاً ما ـ شيء من التواصل مع الأطفال. أشعر بالشفقة عليهم.

أنا أيضاً. ليس فقط الأساتذة من ينسحبون، الأطباء ورؤساء فرق الكشاف والمرشدون الاجتماعيون، كلهم يوقفون حنانهم بسبب الخوف من الدعاوى القضائية بهدف حماية الأطفال. تجعل الدعاوى القضائية العالم بارداً تجاههم؟!

خرافة: تزيد الدعـاوى القضائية مـن الأمان بجعل الشـركات تضع لصاقات تحذير على المنتوجات.

حقيقة: تقلل الدعاوى القضائية من الأمان بخلق تحذيرات لا معنى لها.

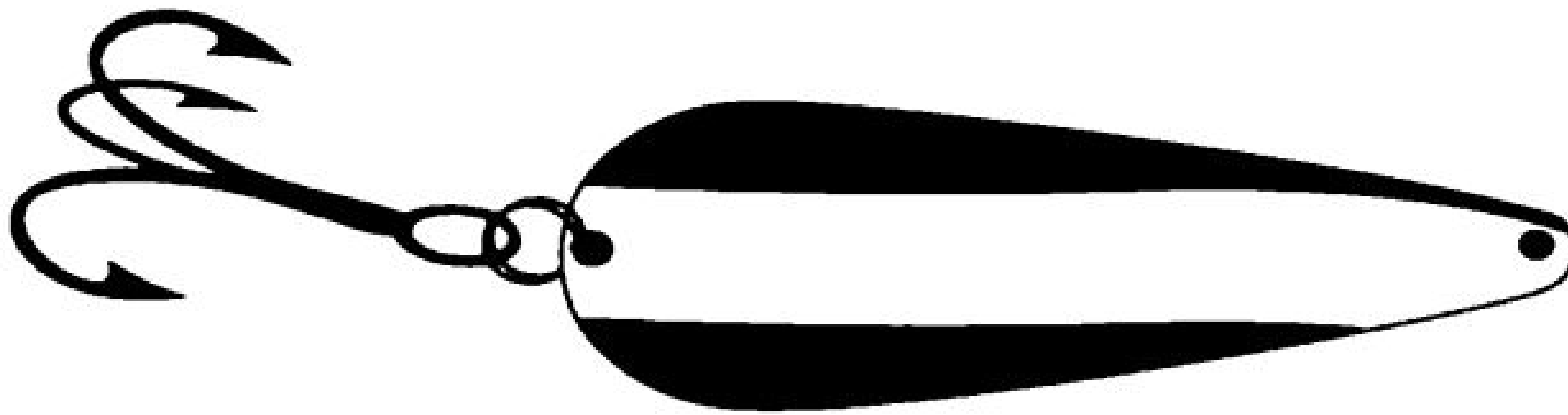
يجني المحامون الملايين من جراء إخبار هيئة المحلفين «ما كان الحادث ليقع لو أُنذر موكلي بصورة صحيحة!» استجابت الشركات المتخوفة بوضع تحذيرات على كل شيء.

يكتب في تعليمات جهاز تجفيف الشعر «لا يستخدم أثناء النوم» وعلى شموع أعياد الميـلاد «لا تستخدم الشمع سـدادات للأذن» وكتب على لصاقـة حفارة طرقات قوية «ليست معدة للاستخدام كحفارة أسنان».

تلـك التي أفضلها هي لصاقة تحذير على طعم لصيد السمك. كتب عليها «ضارة إذا ابتلعت».

أضافـت كاريـن ايبينغـر Eppinger التحذير لطعـم صيد السمك كانـت عائلتها تستخدم الرصاص لصنع طعم داردفيل، وذلك لمدة قرن من الزمن تقريباً في دير بورن ميشيفـان، وكانوا يحرصون على وضع لصاقات التحذير المناسبة. ثم قرر السياسيون في كاليفورنيا إلزام الشركات التجارية بتوفير تحذير «واضح ومعقول» قبل تعريض أي شخصـ إلى إحدى المـواد الكيميائية الـ 700 التي تشمل الرصاص. كان هذا القانون منجماً للذهب أمام المحامين المدعين والخوف منه أنتج آثاراً غير مرغوبة.

قالـت لنا كارين: «كان علينا أن نطبع لصاقات بسرعة فلقد تم رفع دعوى قضائية علـى دال مـارت. وتم تهديد شركة كابيلا وباس برو بالدعـاوى القضائية: لأن أساس الطعوم التي شحنت إلى كاليفورنيا لم يوضع عليها بطاقة تحذير بأنها لا تؤكل».



كمـا ترى أشك في أنـك تستطيع أن تبتلع واحدة من هـذه. ولكن حتى لو استطعت تحـوي طعوم كارين كمية ضئيلة جداً مـن الرصاص، لذا يلزم ابتلاع العديد منها كي تحدث تأثيراً مؤذياً. لكن ذلك لم يهم. أذعر المحامون كارين فكان عليها إعادة كتابة اللصاقات وإعادة تغليف الطعوم. قالت: «كلف ذلك ما بين 100.000$ و150.000$.

وهذا هو السبب في غلاء المنتجات.

خرافة: طعام الوجبات السريعة يجعلكم أسمن.

حقيقة: أنتم تجعلون أنفسكم أسمن.

أنا أحب طعام الوجبات السريعة إنه سريع و.. رخيص. وهذا هو السبب في شعبية ماكدونالدز وبيرغر كينغ وويندز وكانتاكي فرايد تشيكن وتاكو بيل. إنهم يخدمون ما يقرب 100 مليون شخص في اليوم.

بالطبع تناول طعام الوجبات السريعة مراراً يجعلك سميناً. الناس يعرفون ذلك.

لكـن المحامـين يقولـون: إن بعضـ الأشخاص لا يعرفون ذلـك، ولهذا فإنهم يرفعـون الدعـاوى على تلك المطاعم. قـال لي جون بانز هـاف الأستاذ في جامعة واشنطن: «مانحاول فعله في محاربة مشكلة البدانة هو نفس ما قمنا به في محاربة مشكلة التدخين».

إنه يعرف ذلك جيداً.

خاضـ بانز هاف معركـة في الدعـاوى القضائية ضد مصانـع السجائر. ولاحظ قائلاً: «كان الناس يقولون: إن تلك الدعاوى القضائية تافهة. حسناً اليوم نلقب أولئك المحامين أصحاب ملايين multi millionaim».

للأسـف هذا صحيح. فهـو وأصحابه المتبجحـون يملكون أفـكاراً يرفضها معظم الناس، ولكن لكونهم محامين، والمحامون يستخدمون القوة، فإنهم غالباً ما يفوزون ـ إن لم يكن الفوز في البداية فإنه يحدث مع مرور الوقت. إنهم يستمرون في رفع الدعاوى.

لقـد خسـروا 700 دعوى قضائية قبل أن يبدؤوا بالفوز ضـد مصنعي السجائر. وكان فوزهـم عظيمـاً. وكان جزءاً من التسويـة أن تدفع شركات التبـغ الكبيرة ثلاثة عشر بليون دولار فقط أتعاباً للمحامين ـ مبلغ يكفي لشراء 80.000 سيارة بنتلي للمحامين. قال لي بانز هاف: إن شركات الطعام أكبر «إنها قضية التبغ الجديدة».

ستوسل: ألسنـا نحن من نسمن أنفسنا؟ الحق ليس على ماكدونالدز. إن دخلت المطعم وتناولت ثلاثة أكواب ميلك شيك! الحق علي.

جون بانزهاف: ولكـن أليست الشـركات مسؤولـة جزئياً إن أخطـأت في تقديم نفسها، أو فشلت في التحذير من الخطر؟

ستوسل: بإمكانـك ملاحقة حلوى فتيـات الكشافة وبطاطـا الشيبس والمثلجات! هناك الكثير من الأشياء التي تجعلنا نسمن.

جون بانـز هـاف: يحتمل أنه توجد كثير مـن الأشياء التي تسهـم في سمنتنا، لكـن ثمة دراسات أشارت إلى أن وبـاء البدانة انتشر بسبب شركات أطعمة الوجبات السريعة.

إنهـم يجـدون دائمـاً دراسة ما لدعـم أقوالهـم. وإن كانوا محظوظـين تؤثر هذه الدراسـة في لجنـة المحلفين. أنا أعتقـد أن البدانة ناجمة عـن أن الناس يأكلون أكثر مما ينبغي، ولا يقومون بالتمارين الرياضية بدرجة كافية. لعله سيرفع دعوى قضائية علـى مصنعي الأرائك تحت شعار «الأرائك تشجـع الكسل»، أو لعله سيرفع دعوى على برنامـج 20/20 وعلي لتشجيع الناس على مشاهدة التلفـاز في أمسيات الجمعة. على الأقـل مـازال ماكدونالدز يقاوم هذه الدعـاوى القضائية ويمكن مـن كبح بانز هاف وأمثاله. لكن الأجور القضائية هي السبب في ارتفاع سعر شطيرة البغ ماك.

خرافة: الدعاوى القضائية ضد التفرقة توقف التفرقة.

حقيقة: غير صحيح أبداً.

لقـد أصبحت مراسلاً صحفيـاً لتقارير المستهلكين لأنني لا أحب المتنمرين. في طفولتـي كان الأولاد يتنمرون علـي، ولم أستطع أن أقوم بأي شيء لإيقافهم. ولكوني

اليوم مراسلاً صحفياً أملك كاميرا وجمهوراً أستطيع أن أفضح المتنمرين. في البداية كما قلت، ظننت أن الشركات التجارية هي المتنمرة، لكنني أدركت أن الشركات التجارية تعتمد على تعاوننا الإرادي الحر. أما المحامون فيستخدمون القوة. إن المحامين هم المتنمرون.

حتى الدعاوى القضائية التي يلقبونها «خدمة الشعب» تبدو لي نهباً للأموال.

في عام 1990 شرع الكونغرس قانون الأمريكيين ذوي الإعاقة ورمزه ADA Americans with Disabities Act وكان هدفه النبيل: إلغاء الحواجز الجسدية والقانونية أمام المعاقين. خلق قانون ADA فرص عمل قذرة أمام محامين مثل أنتوني برادي من كامدن في نيو جرسي.

تشارك برادي مع شخص معاق لرفع عشرات الدعاوى القضائية على شركات أعمال صغيرة بتهمة الفشل في تطبيق قانون ADA. لم يكن هو ضابطاً مسؤولاً عن تطبيق النظام، بطاقة الشراكة المهنية هي كل ما كان يلزمه. علاقة مموهة مع ADA تمكن المحامين من رفع الدعاوى القضائية لدعم تطبيق القانون. حول برادي هذه الهدية القانونية إلى بقرة لحلب النقود.

لقد رفع دعوى قضائية على نادٍ ذي طابقين في فلوريدا بحجة أنه يمارس التفرقة ضد الأشخاص الذين يستعملون الكراسي المتحركة، إذ إنهم لا يستطيعون الصعود إلى الطابق العلوي، «إنها التفرقة والأذية العاطفية» صرخ برادي في دعواه القضائية. يجب أن يدفع النادي الأموال ثمناً لذلك التخريب. وطبعاً أتعاباً لأنتوني برادي.

قال لنا أصحاب الشركات الصغيرة التي كان يرفع عليها الدعاوى القضائية: إن تلك الدعاوى كانت بمثابة شخص يركض وراءهم وهو يحمل مضرباً. مهما بلغت سخافة التهمة أجبروا على استخدام محامين. وقال لهم محاموهم: «اقبلوا بتسوية تدفعون فيها مبلغاً صغيراً وإلا ستضطرون إلى دفع ثروة إلى خصومكم ثم ستصابون بألم أكبر عندما ستجبرون على الذهاب إلى المحكمة» ولم يلزم أصحاب الشركات معرفة الكثير عن الأمور القانونية لفهم ما يجري. قال أحدهم: «ياله من نهب! ياله من نهب!».

رفعت الدعاوى على الكثير من الشركات بسبب شركات محامين مثل شركة برادي. إحدى الدعاوى القضائية التي رفعها ويليام تاكر ولورنس ماك غينيس كانت لشكوى عن عشاء في مطعم فورت لو دير ديل في فلوريدا، إذ لم يلتزم المطعم بالمعايير القانونية. ومنها أن جهاز الإمداد بورق التنشيف في الحمام كان أعلى بإنش ونصف مما يجب أن يكون عليه وفقاً لقانون ADA.

كان تجديد الحمام رخيصاً أمام ما اضطر أصحاب المطعم إلى دفعه للتسوية مع تاكر وماك غينيس 3.500$، يجب أن يدفع المحامون قسماً من ذلك المبلغ إلى واشنطن لشكر زملائهم المبتزين في الكونغرس.

خرافة: محامو حقوق الجماعات يؤمنون العدالة للمستهلكين.

حقيقة: محامو حقوق الجماعات يزيدون ثراءهم على حساب المستهلكين.

الكونغرس لطيف مع المحامين، ولكن هناك فرع من الحكومة ألطف بكثير منه معهم ألا وهو: القضاة. في حين أن 41 بالمئة «فقط» من أعضاء الكونغرس هم من المحامين، 100 بالمئة من القضاة محامون. وفي بعض النظم القضائية تقلل السياسات كثيراً من الاختلاف بين المحامين والقضاة. أحد الأمكنة التي تم فيها ذلك هي مقاطعة ماديسون في إلينوي.

تضم مقاطعة ماديسون نحو 250 ألف نسمة ينتشرون في أرجاء ريفية. ويبلغ سكان مدينة إيدوار دزفيل Edwards Ville الصغيرة أقل من 25.000 نسمة. لكن المحاكم في إيداوار دزفيل قوية للغاية، وتجذب شركات القضاء من نيويورك إلى كاليفورنيا.

لماذا؟ لأنها تشتهر بتاريخ من استضافة أكثر الاختراعات القانونية مكسباً: الدعاوى القضائية المرافعة عن حقوق المجموعات. الدعوى القضائية لحقوق الجماعات هي دعوى قضائية رفعت باسم مجموعة من مستهلكين شاكين مثلاً، نظرياً تبدو طريقة

جيدة لحماية المستهلكين. لو أن شركة تجارية سرقت منك عشرة دولارات؛ فإن هذا لا يبرر رفع دعوى قضائية، إذ إن استشارة المحامي ستكلفك أكثر من ذلك، ولكن إن استطاع المحامي جمع آلاف من الأشخاص الذين سرقوا بقضية واحدة فإن مجموع تلك السرقات تستحق الملاحقة. وهذا السبب في ازدهار موضوع حقوق الجماعات. معظمنا شارك في «الاشتكاء» في بعض هذه القضايا.

يأتيك الخبر في رسالة أنيقة من شركة محاماة لم تسمع باسمها من قبل. للوهلة الأولى تظن أنك ربحت اليانصيب: لقد فزت «بالاستحقاقات» من «محاميك». لكن الحقيقة مختلفة.

لقد أخبرت برسالة أنني رفعت دعوى على شركة آيوا وفزت بتسوية. أنا أملك مسجلة آيوا CD (أسطوانات ليزر لكنني لم أظن أبدا أنني رفعت دعوى عليهم. كتب في الرسالة أن بعض أجهزة آيوا لا تستطيع قراءة الأسطوانات الليزرية وأدى ذلك إلى «إخفاق في النتاج السماعي» كانت مسجلتي تعمل جيداً. ولكني حق لي استرداد بعض المال لأن شركة آيوا غشت بعض الناس ببيعهم أجهزة لم تعمل.

عندما تقرأ رسالة المحامي تصعب معرفة كم من النقود ربحت. شرح في رسالتي عن شركة آيوا (بطباعة صغيرة ورديئة) أن كمية النقود التي سأحصل عليها تتعلق بحالة جهاز التسجيل ما إذا كان قد كسر أو أجريت عليه تصليحات أو تم إرساله بالبريد... إلخ. وبعد قراءة مضنية استنتجت أنه يحق لي استرجاع عشرة دولارات. وللحصول عليها وجب عليَّ أن أسجل رقم نموذج مسجلتي ثم «توفير جميع الوثائق والمعلومات المذكورة في الجزء III من وثيقة الطلب المرافقة...» العملية صعبة ومربكة حتى إن معظم «الزبائن» لن يزعجوا أنفسهم بتعبئة الطلب للحصول على حصتهم. لكن المحامين لم يرتبكوا أبداً ـ بل جنوا 1.687.500$ من القضية. إنهم الجماعة ذات الأفضلية!

يجني محامو حقوق الجماعات بشكل دوري أكثر من أي فرد في الجماعة. في تسوية قضائية مع شركة جنرال ميلز لحبوب الإفطار، بعد أن اتهمت أنها تعرضت لمبيدات حشرية، جنى المحامون ما يقرب من مليوني دولار ـ حصل المستهلكون على

قسائـم للحصـول على علب حبوب مجانيــة. تسويات مثل هذه ألهمـت الصحفي بيل مــاك كليــلان بكتابة مقــال في صحيفــة St louis post dispatch وصف فيه محامي حقــوق الجماعات أنهــم أسوأ من لصوص المصارف. قــال لي: «لصوص المصارف لا ينهبون المصارف ثم يدعون أنهم يفعلون ذلك من أجلنا».

رفع محامو حقوق الجماعات في سانت لويز دعوى قضائية على ماك كليلان بتهمة التشهــير: وطالبــوه أن يدفع لهم ثلاثة ملايــين دولار. علم ماك كليــلان عن موضوع حقوق الجماعات؛ لأن سانت لويز تجاور مقاطعة ماديسون في إلينوي.

لم كانت مقاطعة ماديسون ضحية لمحامي حقوق الجماعات؟ قال لي أستاذ الحقوق جــون بيسنر: «يتنقل سيرك الطفيليــات من مكان إلى مكان، ثم ينتقون المقاطعة التي يعتقدون أنها ستمدهم بالقوة لممارسة دعاويهم القضائية».

تساعد الإسهامات في الحملات الانتخابية المحامين بالحصول على القوة اللازمة لعملهــم. لقد قــدت سيارتي في مقاطعة ماديســون ودهشت من اللافتــات التي تروج لانتخــاب هذا القاضــي أو ذاك ـ وكلهــا تنتشر في أملاك شــركات المحامين. تسعون بالمئة من التبرعات الانتخابية القضائية في هذه المنطقة تأتي من المحامين. بدا الأمر كما لو أن المحامين يساعدون على اختيار أصدقائهم من القضاة، ثم يكافئهم القضاة بدعمهم في المحكمة.

بــدت مقاطعة ماديسون مثل واحدة من «نظم القضاء السحرية» التي وضعها ملك حقوق الجماعات ديكي سكرغس scriggs.

يقــول سكرغســ في هــذه النظــم القضائيــة: «أسســ محامــو المحكمــة علاقات مــع القضــاة.. من المستحيــل أن تحصل على محاكمــة عادلة إن كنــت متهماً في تلك المناطــق... لا يتم الفوز بالقضايا في قاعة المحكمــة، وإنما يتم الفوز بها في الطرقات الخلفية قبل أن تذهب القضية إلى المحكمة».

كنت أريد سؤال القضاة في مقاطعة ماديسون عن ذلك، لكنهم لم يشاؤوا مقابلتي والتحــدث معي. لكــن أحد القضاة السابقــين وافق على الحديث للدفــاع عن السمعة

المحليــة. قال لي إن الإسهامات في الحملات الانتخابية لا يؤثر في القرارات، وقال: إن محامي حقــوق الجماعات يختارون المرافعة عن قضاياهــم في مقاطعة ماديسون لأن القضاة «أكفاء للغاية».

ستوسل: أأنتم أسرع هنا؟

القاضــي السابــق: نعم ولدينــا أفضل محامين في البلاد. لدينــا محامون وقضاة لهــم خبرات طويلة في معالجة المواضيع القانونية المعقدة. هناك رجال جيدون ومجدون في العمل.

ستوسل: أهم مجدون في العمل وأذكياء أكثر من كل المحامين في أمريكا؟

القاضي السابق: إن محامينا هم أفضل محامين.

هــذا القاضي السابق ترأس قضية حقوق جماعات رفعت ضد شركة هاتف كبرى. ادعــى المحامون أن تلك الشركة تقاضــت أجرة كفالة للخطوط الهاتفية دون أن تسأل الأشخاص إن كانــوا يريدونها. قالت الشركة: «إنها لم تفعــل أي شيء خاطئ» وقبلت بتسويــة ماليــة لتجنب الكلــف الباهظة للدعــاوى القضائية، هذا مــا تفعله الشركات عادة، تدفع التسوية. تدفع للمحامين كي يتركوها وشأنها.

قال لي الصحفي ماك كليلان: «إنهم يشبهون عصابة سيحطمون نافذتك إن لم تعطهم النقود، فتفكر وتقول لنفسك: من الأسهل إعطاؤهم النقود كي لا يكسروا النافذة».

وافــق القاضي السابق علــى التسوية ولكن لم ينب المستهلكــين حصة كبيرة منها. أعطــت التسويــة للمستهلكين بطاقــات مكالمات بقيمــة خمسة عشــر دولاراً، وأعطت للمحامين ستة عشر مليون دولار.

قلــت للقاضــي: إن تسويــات حقوق الجماعات هــذه تبدو نهبــاً. فابتسم وقال لي: «بإمكانك أن تقول ذلك عن أي تسوية، أليس كذلك؟»

ـ نعم بإمكاني.

تحتاج مقاطعة ماديسون إلى رفش.

خرافة: محامو المصلحة العامة يخدمون المصلحة العامة.

حقيقة: محامو المصلحة العامة يجبرونكم على الدفع لتحقيق رؤيتهم السياسية.

في شيكاغو رفع محامو «المصلحة العامة» قضية حقوق الجماعات بالنيابة عن المتسولين. لقد كانت قضية يسأل فيها المحامون دافعي الضرائب: «أخي هل لي بحسنة منك تبلغ بضعة مئات آلاف؟» يجب أن أسحب قولي هذا، المحامون لا يسألون، بل يطالبون.

كانت شرطة شيكاغو تلقي القبض على الأشخاص بتهمة التسول. رفع المحامي مارك واينبرغ دعوى قضائية يقول فيها: إن القانون سلب المتسولين حقوق حرية التعبير، وادعى أنه يمثل شحاذي شيكاغو.

كان واينبرغ محقاً بعض الشيء في موضوع حرية التعبير. فطلب النقود هو نوع من حرية التعبير. ويمكننا بالمقابل أن نجادل أن هناك شعرة بين التسول وبين التسول العدائي، أو قضية التعبير والتعبير للتهديد.

في التسعينيات وفي بلدتي الأم كان المتسولون يطلبون النقود أثناء قيامهم بغسيل زجاج السيارة أردت ذلك أم لم ترد. جعل المختار رودي جولياني الشرطة تلقي القبض على أولئك المتسولين. ولقد جادلته في الأمر.

ستوسل: أليس الأمر سليماً... شخص محتاج يطلب المساعدة؟

رودي جولياني: بالطبع إنه كذلك، ولكن هذا الشخص المحتاج قد يغرز السكين فيك، وعندها ستنظر إلى الأمر بطريقة مختلفة.

لقيت أفعال جولياني شعبية في نيويورك. الآن أعترف أنه كان محقاً وكنت أنا مخطئاً. لقد أصبحت المدينة أكثر أماناً لأن جولياني فرض نظاماً معيناً بدا فيه واضحاً أن تصرفاً مدنياً كان متوقعاً من كل الجماهير. ولكن عندما فاز مارك

واينبرغ بدعواه القضائية أصبح المتسولون يضايقون الناس في شيكاغو. لقد صورناهم بالفيديو يلاحقون الناس. شتمت إحداهن من لم يعطها المال، ولم يبد أن ذلك يزعج محامي المتسولين.

ستوسل: إذاً أستطيع أن أذهب إلى شيكاغو وأزعج الناس في الطرقات.

مارك وايندر: حسناً تستطيع أن تمارس البند الأول من حقوقك القانونية وتطلب من أحد ربع دولار.

ستوسل: هل أستطيع أن أسألهم ثانية بعد أن يقولوا: لا؟

مارك وايندر: نعم تستطيع أن تسألهم ثانية.

ستوسل: أأستطيع أن أسألهم مراراً؟

مارد وايندر: تستطيع أن تسألهم مراراً كما يسأل سياسي أن تعطيه صوتك مراراً عندما يصافحك.

ستوسل: من طلب إليك أن تقرر بالنيابة عن كل شيكاغو.

مارك وايندر: حسناً أنا أعرف المتسولين، ولقد وافقوا معي على أنه يجب القيام بشيء حول هذا الموضوع.

إذاً هذا المحامي وحده الذي «يعرف» المتسولين، فيقرر سياسة التسول في المدينة بأكملها.

أمر سيئ أن يملك محامو «المصلحة العامة» كل هذه القوة، ولكن الأسوأ هو أنهم يجمعون نقود الضرائب التي تدفعونها عندما يمارسون قوتهم ونفوذهم.

اقتضى جزء من التسوية أن يحصل «موكلو» واينبرغ المتسولون على خمسين دولارٍ لكل واحد منهم، أو أربع مئة دولار لمن يثبت أنه اعتقل. أما واينبرغ وشريكه فحصلا على 375 ألف دولار.

مارك وايبرغ: يا جون إن هذي ليست قضية يحصل فيها محامون جشعون على مبالغ خيالية.

ستوسل: لكنها تبدو كذلك لناظري أنت حصلت على 375 ألف دولار؟

مـارك واينـبرغ: نعـم أنا أعتقد أن هـذه الدعوى القضائية هـي مثال على نجاح النظام. نجاح النظام أم «استغلال النظام» أخرج الرفش.

بعـد أن وضعـت فقرة عن ذلـك في قسم «أعطني فرصة» مـن برنامج 20/20 قام مجلس مدينة شيكاغو بتشريع قانون يسمح بمقاضاة التسول «العدائي». ارتاح المشاة في شيكاغو قليلاً: لكنهم مازالوا مستائين من خسارة مئات آلاف الدولارات.

فكر بهذا في المرة القادمة عندما يقول لك محام إنه يخدم «المصلحة العامة».

خرافة: يرفع المحامون الدعاوى القضائية دفاعاً عن الظلم.

حقيقة: يرفع المحامون الدعاوى القضائية لأنهم يستطيعون فعل ذلك.

بعض المحامين الناجحين يبرعون في قدرتهم على التنمّر لدرجة الاحتيال. لو كان هنـاك جائزة للوقاحة الجريئـة لأفضل محامٍ لبرز متبار فيها هـو هوارد سميغل من مدينـة نيويورك. إنه محام لشخص مشهـور، ولقد كتب رسالة أنيقة من مكتبه الأنيق في شـارع بارك أفنيو Park Avenue إلى صحيفـة Atlanta Journal Constitution «إن صحيفتكم تنشر مقالات شخص يستخدم اسم بيل ويلمان، نعتقد أن هذا تضليل خطير واستغلال مقصود غير مرخص لاسم موكلنا».

كانت الصحيفة مذنبة، إذ إنها استخدمت مراسلاً يدعى بيل ويمان تنشر مقالاته بشـكل دوري في الصحيفـة. كان اسم مـوكل المحامي أيضاً بيل وايمـان، وكان عازف الغيتـار في فرقة رولينغ ستون ويشبه مريضاً في الكوما. بيل وايمان الذي تحدثت إليه لم يكن غاضباً من هذه القصة، بل متسلياً بها بعض الشيء.

ستوسل: ما الذي تريد فعله؟

بيـل وايمـان: إنهم يريدونني أن أتوقف عن استعمال اسمي، أو أستطيع استعماله إن أجريت إنكاراً علنياً.

ستوسل: أهو اسمك الحقيقي.

بيل وايمان: بالطبع.

ستوسل: ولكـن كتب في رسالـة المحامي «لا يمكنك استخدامـه بطريقة تضلل أو تسبب الارتباك للجماهير»

بيل وايمان: هل أعتقد أن هناك أي شخص سليم عقلياً سيظن أن بيل وايمان من فرقة الرولينغ ستون سيكتب مقالات لأتلانتا جورنال أنستيتوشن؟

سُمـي وايمـان الصحيفة قبـل وايمان نجم الـروك الشهير. دعـي الموسيقي عند ولادتـه وليام بيرك لكنه غير اسمه إلى وايمان بعد ثلاث سنوات من ولادة بيل وايمان في أتلانتا. الصحفي حصل على الاسم قبل!

لكـن ماهو معقول ليس معيـاراً عندما يستطيع المحامون جنـي النقود من التنمر على الآخرين.

خرافة: المحامي وحده يستطيع المساعدة.

حقيقة: يسمح للمحامي وحده بالمساعدة.

ينجح المحامون في استغلال النظام لأنهم هم يكتبون بنود القانون. ينص أحد هذه البنود: «لا أحد يستطيع التنافس معنا خاصة إذا كان عملهم رخيص الثمن».

حسنـاً لا يوجـد قانـون ينص علـى ذلك، لكـن هذا وصـف لبنـد «الممارسة غير المرخصـة للمحاماة». هناك قانـون ينص على أنه: «يحق للمحامـين وحدهم إعطاء النصيحـة القانونيـة» هذا يعنـي أن المحامـين المتنمرين لا يحبـون أن يشاركهم أحد اللعب في حديقتهم، لذلك يستخدمون قوتهم الخاصة لطرد الدخلاء.

تجرأ جيروم بابانيا في بحيرة تشارلز في لويزيانا على تحديهم:

جيروم بابانيا: أتى سبعة مندوبين لاعتقالي.

ستوسل: سبعة مندوبين.

جـيروم بابانيـا: سبعة أمسكوا بي وأخذوا بصماتي، ووضعوا الأغلال في يدي، ثم ذهبت إلى السجن.

كان جــرم جيروم أنه ساعد بعض المقيمين في دور العجزة وبعضاً من جيرانه على ملء وثائق قانونية تتعلق بالوصايا وبالإفلاس.

وكان الجرم الحقيقي لمهنة المحاماة هو الأجرة التي تقاضاها مقابل تلك المساعدة، وبلغــت خمسين دولاراً للوصية وتسعــين للإفلاس. يالها من إســاءة إلى المهنة النبيلة (وتهديد لذوقها الغالي)!

ألجأت إلى محام منذ مدة قريبة؟ يسهل إيجادهم. إنهم يتكاثرون بمعدلات تفوق معــدلات تكاثر السكان العاديــين. ومع ذلك فإن كثرتهم لا تعنــي انخفاض أجورهم. في المبــدأ كل الأمريكيــين لديهم فرصة استخدام المحامين، أما في الواقع فإن الأثرياء وحدهم هم الذين يستطيعون استخدام المحامي.

قــال لي جــيروم: كان هناك إقبال واسع على خدماتــه «لم يكن ذلك لأنهم يحبون تلك الخدمات ولكن لأنه يحتاجونها».

أرادت جــارة جــيروم لورين ماركانتــل أن تكتب وصيتها، ولكنهــا لم تستطع تحمل نفقــات شــركات المحامين: «إنهــا تكلف الكثير لم يجب علــي أن أدفع 250$ لرجل كي يقول لي أين يجب أن أكتب القلة التي سأتركها لأولادي؟»

جعل مرض طويل وفاتــورة مشفى باهظة الدائنين يلاحقون عائلة شارون كورمير قالت لي شارون: «كانوا يهتفون إلينا ويكلموننا بفظاظة كانوا يريدون مصادرة أموال زوجي وهذا يجعلنا نضيع تماماً».

كانــت الطريقــة الوحيدة أمامهم هــو إشــهار الإفلاس. لكــن المحــامين طلبوا خمســ مئــة دولار قالت شــارون: «لو كان لدينــا خمس مئــة دولار ندفعها للمحامي لدفعنا فواتيرنا وديوننا!».

ساعدها جيروم ولم يرق ذلك للمدعي العام ريتشارد ليوب فاتهم جيروم «بممارسة غــير مرخصــة للمحاماة» وهو جرم عقوبتــه في لويزيانا تبلغ سنتــين في السجن. لقد أخذت طاقماً للتصوير وذهبت لمقابلة ليوب وقاومت رغبتي باستخدام الرفش لضربه.

قال لي: إن محاكمة جيروم كانت ضرورية، لأنه كان من الممكن أن يعطي نصيحة غير جيدة في الأمور القانونية. طبعاً هناك محامون يفعلون ذلك أيضاً.

ستوسل: لم لا تتركون للزبائن الاختيار؟ لقد علم زبائنه أنه لم يكن محامياً.

ريتشارد ليوب: قد لا يعلم الزبائن تأثير الاستشارة القانونية السيئة.

ستوسل: محاموك يحاولون إبقاء كل شيء تحت سيطرتهم.

ريتشارد ليوب: هذا خطأ تماماً. إن المحامين بشكل عام يُنقدون بشدة. لكننا نمارس مهنة رائعة. أقول لك: إن هناك محامين في هذه المنطقة يقومون بأعمال للفقراء دون أجر، أو بأجر يشابه ما تقاضاه السيد بابانيا.

ستوسل: عفواً لكنني أجريت الاتصالات ولم أجد أحداً يفعل ذلك.

ريتشارد ليوب: أستطيع أن أسمي لك محامياً يفعل ذلك، لكنني لا أريد تسميته في بث على الهواء.

ولكن عندما أوقفنا التصوير لم يعطني الاسم أيضاً قال: إنه «لا يستطيع تذكره لكن من السهل علينا إيجاد أولئك المحامين. لذا اتصلنا بأكثر من دزينة محاولين إيجاد من يساعد الفقراء مثلما فعل جيروم. لقد اتصلنا عدة مرات ولم نجد أحداً يساعد الفقراء بنفس الأجر الذي كان يتقاضاه جيروم أو مجاناً.

قال لنا المدعي العام أيضاً أثناء المقابلة: إنه سيطلعني على الشكاوي التي تلقاها مكتبه حول جيروم، ولكن بعد أن توقف التصوير لم يدعنا نراها. أعطانا اسماً واحداً فقط هو ماري سالير قائلاً: إنها كانت إحدى الشاكيات. عندما ذهبنا لمقابلة ماري أعطتنا قصة مختلفة تماماً قالت: «شعرت أنه كان يعرف تماماً ما يقوم به، لقد أعدّ لي الأوراق، وكان طلاقاً سهلاً».

قال لنا المدعي العام: إن جيروم شكل خطراً على الشعب لأنه كان يعطي النصح في «مجال تقني. لكن مساعدة الناس في ملء وثائق الوصية والإفلاس والطلاق المتفق عليه ليس أمراً «تقنياً» معقداً لا يستطيع ممارسته إلا مجموعة مقدسة من المحامين».

عـادة عندما نشـتري الأشياء نجد أمامنـا خيارات متعددة. تستطيـع أن تشتري سيـارة ليكسوس أو شفروليـه أو تستطيع أن تركب الدراجـة أو الحافلة. ولكن عندما تتعامل مع المحامين يجبرونك على شراء ليكسوس أو مرسيدس. لا يوجد خيار.

عندمـا سن القانون الأمريكي لم يكن فيه ما يقـول إن المحامي يجب أن يساعدك في مـلء الوثائق. ولكـن قبل مئة سنة شرع المحامون قانـون UPL بحجة أنهم يحمون الشعـب. كما قال لي جـيروم: «يشبه الأمر لعبة كرة سلة يملـك المحامون فيها الملعب والكرة وهم الحكام واللاعبون».

ثبتـت التهمـة على جيروم وغرم بخمس مئة دولار، ووضـع تحت التجربة لمدة ستة أشهـر. لم تحصـل الحكومة على الغرامة: مـن المحزن أن جيروم أعلـن نفسه فقيراً معـوزاً لأن نائب رئيس الشرطة صادر حواسيبـه وملفاته التي كان يحتاج إليها لعمله. لقد دمروا حياته بأكملها.

في أريزونـا قبل عامين غلب معهد للعدالة محاولة مـن شركة محامين ارتأت فيها منـع الزبائـن من استخدام غـير المحامين «لتحضـير أي وثائق بأي شـكل لتطبيق أو ممارسـة حقوق شرعية لشخص مـا أو هيئة. ذلك القانون المقـترح تسبب في إغلاق المئـات من المكاتب التـي تساعد في تحضـير الوثائق وتوفر بديلاً قليـل التكاليف عن المحامين باهظـي الأتعاب لسكان أريزونا. ادعت شركـة المحامين أنها تلقت أربع مئة شكـوى ضد ممارسي القانون من غير المحامين في أريزونا. ولكن عندما تحرى معهد العدالة عن تلـك الشكاوى وجد أنها ملفقة كلها. معظمها كانت شكاوى على المحامين أو شكاوى كتبها المحامـون أنفسهم وليس الزبائن. استخدمت المحكمة العليا في ولاية أريزونا الرفش للتنقيب عن حقيقة ذلك الادعاء.

ولكن في كل ولاية عدا أريزونا يسيطر المحامون سيطرة تامة.

وفي الواقـع في العديـد من الولايـات ينص القانون على وجـوب حضور محام لدى إبـرام أي صفقة عقارية. حاول محامون في تكساس منع دار نشر من بيع كتب تساعد الناس على توفير النقود بتلقينهم طريقة كتابة وصاياهم بأنفسهم.

في ديلاوير ساعدت امرأة تدعى مارلين آرونس الأهالي بالدفاع عن الحقوق التعليمية لأولادهم المعاقين أمام مجلس التعليم في الولاية. لم يحتمل معظم الأهالي تكلفة محام لذا ساعدتهم آرنز التي لديها طفل معاق، مجاناً. اشتكى المحامون للمحكمة العليا في ديلاوير، فتوقفت مارلين عن مساعدة الأهالي كان ذلك مؤسفاً. لعل المحامين يحتاجون للرعاية أكثر من الأطفال المعاقين.

إذا تركنا المحامين يصيغون القوانين فإنهم لن يتوقفوا إلى أن يحصلوا على كل وقتنا وحريتنا ونقودنا.

الفصل الثامن

خبراء في كل شيء

إن الخبراء مهمون بالنسبة لعملي. نحن دائماً نبحث عنهم حين نهيئ التقارير، وأنا راضٍ ومسرور من رغبتهم في إعطاء وقتهم، والمشاركة في المعرفة. (الأنا) تلعب دوراً في الموضوع لأن الأغلبية منهم تريد «الظهور» على شاشة التلفاز. ولكن ليس الموضوع حول (الأنا) وحسب، فإن مجال خبرتهم مهم بالنسبة لهم، ويريدون أن يتثبتوا أننا «نتلقى تلك الخبرة بشكل صحيح».

ولكن الوصول إلى الخبير المناسب قد يكون شاقاً. إذ يوجد الكثير من الدجالين والمدعين بيننا. والمعتوهون غريبو الأطوار هم غالباً الذين يثيرون ضجة، وفي الواقع أنا واثق من أن الخبرة تتناسب عكساً بين كمية الدعايات التي يقدمها «خبير»، والوقت الذي يمضيه في التلفاز. لقد تعلمنا أن ننظر إلى ما وراء البزات النظامية، والمنشورات الرسمية، والياقات الكهنوتية، والمكاتب المصنوعة من خشب الماهوغاني، لنتصور إن كان الشخص يعرف عم يتحدث. بعض الخبراء الكاذبين هم جد مقنعون، وجد عفويون مما يجعل ما لا معنى له مما يقولون يبدو معقولاً.

خرافة: يستطيع الخبراء أن يشفوا المثلية الجنسية.
حقيقة: الخبراء يضللون أنفسهم.

إن تعبير «قل: (لا) فقط» يستعمل عادة في موضوع «المخدرات»، ولكنه الآن يستعمل في موضوع المثلية الجنسية؛ لأن بعض «الخبراء» يقولون: أنْ يكون الإنسان مثلياً جنسياً هو خيار، وأي شخص بوسعه أن يقول لا.

معظم هؤلاء «الخبراء» هم رؤساء جماعات دينية تقدم برامج علاج، تدعي أنها تساعد المثليين الجنسيين كي يتصلوا بنفوسهم الداخلية المتغايرة. وقد برهنت

الحركـة على أنها ذات جاذبيـة قوية لألوف من الرجال والنسـاء الذين يريدون أن يكونـوا «طبيعيـين»، وقد قدم لنا المعالجون في أشرطة فيديـو مسجلة أدلةً من أناس يدعون أن الأمر نجح معهم.

رجل: قبل عقد من الزمن نجوت من المثلية الجنسية بفضل الله.

امرأة أولى: لقد عانيت من ذلك مدة ست سنوات.

امرأة ثانية: أما أنا فأربع، ثم نجونا من ذلك الموضوع.

أردت أن أقابـل بعضـ هـؤلاء النـاسـ الذين «نجوا من ذلـك»، لأطرح عليهم أسئلتي الخاصة.

أكـبر تلك الجماعـات يدعـى Exodus International. سمت نفسهـا هكذا بعد الاطلاع على كتاب في التوراة يفصّل تحرر الإسرائيليين من العبودية. تقول إيكسودوس: «بنفس الطريقة يتقاسم الناس الذين عانوا تجربة التغير من المثلية الجنسية قصصاً مشابهـة لتلك المذكورة في التوراة. تذكر كيف تحـرروا من أمر ما كانوا يشعرون أنهم عبيد له». حين سألت إيكسودوس أن أجري مقابلة معها، قالوا: إنه علي أن أتحدث مع شخص نجح في التحول من شاذ جنسياً إلى شخص سوي يدعى ألان شامبرز.

ستوسل: كنت شاذاً جنسياً، ولكنك لست كذلك الآن.

ألان شامبرز: لم أعد شاذاً الآن.

ستوسل: كان هذا أمراً جديداً تعلمته؟

الان شامبرز: نعم لقد كان انتقالاً إلى الرشد في سن الخامسة والعشرين.

يقـول شامبرز: إنه في الطريق القـويم منذ خمسة عشر عاماً حتى الآن، وقد تزوج منذ ثماني سنوات، والآن هو رئيس لجماعة إيكسودوس.

ستوسل: الرجال الذين كانوا يثيرونك لا يؤثرون فيك الآن. أليس كذلك؟

ألان شامبرز: نعم لا يؤثرون.

ستوسل: والنساء غيّروك، أليس كذلك؟

ألان شامبرز: زوجتي غيّرتني.

ستوسل: بوسعك أن تختار رفض تلك المشاعر؟

ألان شامبرز: نعم.

تقول إيكسودوس والبرامج المماثلة لها: «إن الله يغيّر الناس بالصلوات ـ الله إلى جانب مساعدة العلاج الجماعي، والعلاج بالتكريه» يعلم أحد البرامج مثلاً: «إن كان عندك أفكار جنسية مثلية تنشق أمونيا» بعض البرامج تقول للشاذ جنسياً «مارس الرياضة»، وللنساء السحاقيات «استعملن مستحضرات التجميل».

أنا مرتاب. إن القول بأن الشواذّ جنسياً يستطيعون أن يختاروا الطرق المستقيمة، معناه أنهم اختاروا أن يكونوا شواذ. لا أصدق أن أي أحد اختار أن يكون شاذاً. إنه لأمر صعب أن يكون المرء شاذاً جنسياً. يعرف الأولاد أن الأهل سوف ينزعجون، وأن الزملاء ورفاق المدرسة قد يضحكون منهم، إن لم ينهكوهم بالسخرية. إن اقتراح أن الشواذ الجنسيين يمكن أن يعودوا طبيعيين بمجرد أن يحاولوا يبدو مستحيلاً. لقد جرب العديد منهم مدة سنين طويلة وبمشقة كي لا يكونوا شواذ جنسياً قبل أن يقبلوا ذلك الأمر. قد يتعلم الشواذ أن يكبتوا مشاعر المثلية الجنسية، ولكن أن يكونوا مستقيمين تماماً؟ لا أظن ذلك.

ولكن إيكسودوس أذهلت الناس «بقصص ناجحة» مثل قصة الشاب المكلف بالإعلان (جون بولك)، الذي يدعي في أحد شرائط فيديو إيكسودوس:

«لقد تركت المثلية الجنسية مدة أربعة عشر عاماً، وتزوجت منذ ثماني سنين». بولك ـ الذي كان رئيس إيكسودوس ـ حين سجل شريط الفيديو ذاك، غالباً ما كان يُجري مقابلات حول نجاحه هو وزوجته ـ التي كانت سحاقية ـ أصبحا قصة الغلاف في مجلة نيوزويك. وقد صور تحوله في برنامج (أوبرا)، وفي برنامج (60 دقيقة)، ولكن بعض المدافعين عن حقوق الشواذ اتهموا بولك بأنه تناول شراباً في بار للشواذ في واشنطن DC، وحين أرادوا أن يصوروه هرب.

قال فيما بعد: إنه لم يكن يعرف أن ذلك البار خاص بالمثليين جنسياً، وأنه أراد أن يستخدم الحمام فقط. ولكن بعد ذلك قَبِل أن قصة الحمام كانت كذبة، ولكنه قال: إنه لم يذهب إلى هناك من أجل الجنس. وأنه أراد فقط أن يرى «كيف كان المشهد».

عندما ضغطت على جماعة إيكسودوس أن يدعموا ادعاءهم بأن «الألوف نجحوا في التغيير»، قالوا إنهم لم يحتفظوا بالسجلات. قالوا لنا: «من غير المعقول الاحتفاظ بذلك» هذا غريب. لو كنت «غيّرت ألوفاً» لكنت أُوثّق ذلك.

على أي حال لم نجد كبير مشقة في لقاء أناس حاولوا التغيير ولكنهم أخفقوا. بعضهم قام بجهود جدية فاجعة دون نجاح. قالت إحدى النساء: «أردت قبول أسرتي للموضوع في الأساس» إنها عضو في أكبر كنيسة طائفة من الجنسين المثليين في البلاد وهي كاتدرائية الأمل في دالاس (يؤمها 1.700 مستمع تقريباً). شاهدنا في صبيحة الأحد عميدهم الموقر مايكل بيازا نظر إلى جماعة الكنيسة وسأل: «كم منكم حاول بطريقة ما في حياته ألا يكون شاذاً؟»

معظم الناس في الكنيسة رفعوا أيديهم. بعد ذلك ذكر لي بعضهم كيف حاولوا أن يدخلوا في جماعة إيكسودوس وفي برامج أخرى بأمل أن يهربوا «مما أصبحوا فيه». إن المثلية الجنسية خرقت معتقداتهم الدينية. وقال لهم «الخبراء» إنهم لا يستطيعون في الواقع أن يصبحوا شواذ.

الرجل الأول: أنت تعرف «ما كان الله ليخلق الشخص شاذاً» أنت تعلم؟ «كم ذلك مخيف» أنت تعلم؟

الرجل الثاني: «الله لا يرتكب أغلاطاً».

المرأة الأولى: حسناً إنه أمر مُسَلَّم، لأنه كان خطيئة، أعني هذا هو المبدأ الأساس.

جون ستوسل: لا أحد عليه أن يكون جنسياً مثلياً.

المرأة الثانية: صحيح ـ صحيح.

الرجل الثالث: إنك تنهي البرنامج وتصبح متغير الجنس، أنت تعرف ـ إنك سوف تعيش حياة سعيدة، تحقق الحياة التي ـ أنت تعرف ـ يعيشها كل امرئ آخر.

ستوسل: وهل كان ذلك ذا جدوى؟

المرأة الأولى: لا، إن الأمر لم ينجح.

ستوسل: هل أخفق الأمر لديكم جميعاً؟

المرأة الأولى: نعم.

الرجل الثالث: يا للبؤس.

ستوسل: ربما لم تحاولوا بما فيه الكفاية؟ هل صليتم بما فيه الكفاية؟ ألم تحاولوا بما فيه الكفاية لتكونوا في الطريق القويم؟

الرجل الثاني: حسناً يمكنك أن تصلي من أجل الحصول على عينين عسليتين، وليس معنى ذلك أن تستيقظ في اليوم اللاحق وتكون عيناك عسليتين.

الرجل الرابع: إن رئيس الجماعة التي كنت فيها غير رأيه في إحدى المراحل، وحاول أن يغويني.

بالنسبة لبعض الذين يحاولون تغيير توجههم الجنسي، كان الأمر مؤلماً جداً إلى حد أنهم أرادوا أن يضعوا حداً لحياتهم.

ستوسل: هذا يقود العديد منكم إلى التفكير في الانتحار؟

الرجل الأول: نعم.

الرجل الثاني: نعم.

المرأة الأولى: نعم.

ستوسل: تقريباً جميعهم يهز رأسه بالإيجاب.

المرأة الأولى: لم أعد أتحمل أن أخيب أسرتي أكثر من ذلك.

الرجل الثالث: كأن الأمر كما يلي: «ما خطبي؟ لم لا يتوقف ذلك؟ لم أنا سيئ إلى هذا الحد؟» والشعور بالذنب يعزز ويعزز.

الرجل الرابع: إنك تذكّر مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع بأنك ناقص، ثمة خلل أو عيب فيك، وأن فيك شيئاً يكرهه الله. وأنك لا تستطيع أن تبقى عشر سنين دون أن تتأذى.

لخص الموقر بيازا الموضوع بأسلوبه اللبق قال لنا: «لدينا ألوف ممن كانوا مثليين جنسيين» وأردف: «علموهم الكبت، الكبت النفسي والعاطفي. والآن من يعتقد أن هذه الطريقة صحية يجدر به العودة إلى المدرسة».

خرافة: يعرف «الخبراء» حين يظهرون على التلفاز كيف ستتحرك الأسهم.

حقيقة: أعطِ ذاك الخبير موزة.

تاريخياً كان وضع النقود في سوق الأسهم حركة جيدة. فالأسهم ترتفع وتنخفض. ولكن في النهاية معظمها يرتفع، وهكذا إن أنت استثمرت وثابرت فمن الأرجح أنك ستنجح.

وكما قال لي أستاذي في برنستون البروفسور الاقتصادي بورتون مالكييل: «إن سوق الأسهم أشبه ما تكون بنادي القمار مع فوائد، هي لمصلحتك، وعلى المدى الطويل تهزم التضخم بمقدار كبير.» وهكذا إن كانت سوق الأسهم استثماراً جيداً، من المنطقي أن نفكر أن استثماراً ممتازاً يمكن الحصول عليه باتباع نصيحة «الخبراء». في محطة CNBC وبرامج النصائح المالية الأخرى يظهر الخبراء، ويبدون أهلاً للثقة:

- «الدراجات والسيارات ـ انسها إنها لن تحقق أي (رالي). أنا أبيعها لو كانت ما تزال معي».
- «انتهى الأمر مع شركة IBM».
- «أظن أن شركة pfizer لديها متسع لتزيد 30 بالمئة خلال ستة أشهر».

هؤلاء رجال ونساء يعيشون من دراسة الأسهم، وهكذا فإن المرء يفكر أن اتباع نصيحة هؤلاء الخبراء يساعد على ارتفاع قيمة الاستثمارات أكثر. هنا أتدخل أنا وأحدث شجاراً.

أنا لست وحدي. يقول جيم كريمر: «معظم الفتيان على التلفاز ـ ليسوا جيدين، كريمر يعلم ذلك: إنه هو نفسه يظهر على تلفاز CNBC، وله موقع على الإنترنت Thestreet.com. كريمر نفسه يعرف عنه بأنه لا يحبس لسانه تحت أي ظرف من الظروف، ولكنه يقول على الأقل ليس لديه دوافع مخبأة. والعديد من المتحدثين الآخرين في التلفاز يعملون لصالح شركات تتعامل مع الشركات التجارية ذات الأسهم

المتداولة. لديهم باعث لتعزيز تلك الشركات. قال لي كريمر: «أظن أنك إن عرفت أن شركاتهم كانت تتلقى مبالغ من الشركة الكبيرة، فقد يساعدك هذا على وضع حكم أفضل وأكثر حكمة».

جيم كريمر: يظهر رجل ما في برنامج تلفازي: يفكر الشخص الجالس في المنزل: «هذا شخص راقب الشركات كلها ووضع أحكاماً حول أفضل الأسهم» هذا خطأ خطأ! وأسوأ منه الرجال الذين يقولون إنهم يحبون سهماً. وإنهم يبيعون السهم. هذا يحدث طوال الوقت.

ستوسل: أعني أن هذا كذب على الناس. إن هذا خداع لهم.

جيم كريمر: انظر، إن هذا جزء من العملية.

جزء من العملية. يذهب خبير إلى التلفاز ليقوم بالدعاية لسهم؛ لأنه يريدك أن تشتري كميات كبيرة بسعر زهيد. معظم النزاعات هي إما أقل فساداً، ويمكنك أن تسميها حينئذ طبيعة إنسانية ـ فالناس يزكون بعض الناس، أو يزكون شركات يعرفونها. وإما أن تكون النزاعات أكثر فساداً: وهي تزكية شركات يقيمون معها أعمالاً تجارية.

في أحد فصول الربيع وضع غولدمان ساشس قائمة بالشركات التجارية الاقتصادية e -commerce التي ستنجح غالباً. سبع من ثمان كانوا في قمة المرشحين ويا للمفاجأة ـ إنهم زبائن غولدمان ساشس. قد تكون قد تعلمت حول العلاقات بين الشركات تلك في تقارير الأبحاث، لكنها تطبع في خط صغير جداً، وفي النهاية من يقرأ ذلك؟

إن معظم المتنبئين بحركة الأسهم يقدمون تخمينات صادقة دون محاباة أصدقائهم وتجارتهم، ولكن «الخبراء» ليس عليهم أن يدخلوا في نزاعات تجعلك تخسر نقودك.

قال لنا ديفيد تاليفي: «انتهى الأمر بأني خسرت أكثر من أربعين ألف دولار». كان هذا مقدار راتب تاليفي مدة سنة كاملة، وكان يدير بقعة تتجمع فيها المقطورات في ويلز من ولاية مين. وقد أضاعها بشرائه أسهماً مدحوها وزكّوها في التلفاز. قال: «إنك تأخذ كلامهم أمراً مفروغاً منه» وقال: «لقد تخيلت أن تلك الأمور ستثمر» ولكن بدلاً من ذلك تحطمت، وتاليفي خدع و(دمر).

كيـف يمكن أن يكون خـبراء التلفاز على هـذه الدرجة من الخطـأ؟ إنهم جميعاً مثقفـون جيداً، يتصلون بالشركات ويزورونها، ويدرسـون نشرات الموازنة والمنتجات الجديـدة وتقنيـات التسويق. إنك لتظـن أن هذا ينبغـي أن يعطيهم تفوقـاً ومزايا. إلا أن ذلـك لا يتم كما يقـول الأستاذ في برنستون البروفسـور مالكييل لأن ما تعلموه مـن معلومات يعرفهـا جميع المحللين. كتب مالكييل كتاباً حـول العملية عنوانه (سير عشوائي في وول ستريت) درس فيه حركات الأسهم في الماضي، واستنتج أن النصيحة التـي يصل إليها خبراء في منظمـة أو شركة لها قيمة ضئيلة. قـال لي: «إن معظمها هـراء مطلـق» وقال: «إن معظمها صُمّم في الواقع لجعـل الشعب يتداول الأسهم أكثر مما ينبغي».

إن شـركات السمسرة تريـدك أن تتداول الأسهم أكثر لأنهـا تأخذ عمولة على كل تـداول. ولكن مـع أن أرض ناطحـات السحاب مليئـة بالناس الذين يحللـون الأسهم الماليـة، فإن النصيحة التجارية التي تبرز سنة بعد سنة من معظم شركات السمسرة ليسـت أفضـل في اختيار الأسهـم الرابحة من انتقائها بصـورة عشوائية أو جعل قرد يختارها. وفي الواقع أن النصيحة هي عادة أسوأ! أعلم أن هذا صعب أن يُصدق، ولكن الناس الذين يخططون توصيات شركات السمسرة يقولون: إن هذه هي الحقيقة.

«دعنـا ننظر إلى الأعداد» كما يقولون في البرامـج المالية. على مدى خمس عشرة سنـة تنتهـي في 31 تشريـن أول 2005 (وهي أحدث أرقام أثناء هـذه الكتابة) هناك فقـط 5.72 بالمئة من الموارد المالية المتبادلة المُـدارة بشكل فاعل هزمت الـ 500 سهم الـذي يشـكل standard and poor`s index بمعنـى آخر 94 بالمئـة كان عملها أسوأ. وعلـى مـدى خمس عشرة سنـة كان عندك 94 بالمئة من الفرص لجلـب المال إن كنت تجاهلت النصيحة من أولئك المهنيين ذوي الرواتب العالية من محللي الأسهم.

ستوسل: هكذا إذاً جميع هؤلاء الخبراء يخدعون أنفسهم؟

البروفسور مالكييل: ذلك أشبه بالتخلي عن الاعتقاد بوجود سانتا كلوز. مع أنك أنت تعرف أن سانتا كلوز غير موجود، فإنك تحب أن تتعلق بهذا الاعتقاد. الآن أنـا لا أقول: إن ذلك خداع. إنهم يعتقدون بصـدق أنهم يستطيعون فعل ذلك.

والدليـل هو على أي حال أنهم لايستطيعـون. لم تتحدث معي أي من الشركات الكبـيرة عـن إخفاقها في التفوق علـى أداء القرود في اختيـار الأسهم. وهكذا أجريـت مقابلات مع مدير مالي ناجح يدعى روبرت ستوفال. كان يدير أقسام البحـوث في EF Hntton وDean witter Reynolds وقد دافع عن الخبراء... على نحو ما.

روبرت ستوفال: إن ثلث المديرين الماليين يسبقون السوق كل سنة.

ستوسل: ثلثان يفعلان الأسوأ!

روبرت ستوفال: ثلثان يفعلان الأسوأ، ولكن في كل مرة ثلثان مختلفان.

ستوسل: لمـاذا لدى شـركات السمسرة هذه أقسـام كبيرة للبحـث إذا كانت لا تحصّل نقوداً؟

روبـرت ستوفـال: كل شخصـ لـه رب عمـل. ومـا كان المهنيـون ليشـتروا أسهم كوكاكـولا أو أسهمـا أخـرى إلا إذا كان لديهـم تقاريـر في الملف الـذي يضعه محللون معروفون. وهكذا إذا جرت الأمور بشكل سيئ في الأسهم التي يشترون، يستطيعون عرضها على أرباب عملهم ويقولون: «لقد جلبت ملفاً كبيراً عن هذا السهم. جميع هؤلاء المحللين قالوا: إنه كان جيداً. ولكن شيئاً ما جرى على غير ما يرام» يعرف هذا بأنه احتراس وتعقل.

ستوسل: إذاً حتى لو كان البحث سخيفاً فإنه يحميهم.

روبرت ستوفال: هذا صحيح.

هـذا هو السبب بـأني أستثمر في صناديـق الادخار، تكاليفهـا أخفض دون تجارة غبيـة. في المـرة القادمـة إذا سمعت الخبراء يتكلمـون في التلفـاز، ويقدمون باعتداد توقعاتهم، اجلب الرفش وأفضل من ذلك اجلب قرداً ومعه رفش.

خرافـة: يستطيع المعالـج Chiropractor اليـدوي (معالج للأمراض بتقويم العمود الفقري يدوياً) أن يشفي ولدك من الربو.

حقيقة: خذ ابنك واهرب.

يدعي هؤلاء المعالجون اليدويون أنهم يعرفون كيف يعالجون ألم الظهر. من الصعب معرفة إن كانوا حقاً يستطيعون ذلك، لأن ألم الظهر يأتي ويذهب وحده دون تدخل وبشكل مستقل. بعض الأطباء يقولون إن هؤلاء المعالجين للظهر بتقويم العمود الفقري لا يعرفون ماذا يفعلون. ولكن بعض الأطباء أيضاً لا يعرفون ماذا يفعلون! فمن يستطيع الحكم؟

ما هو مقلق هو أن العديد من هؤلاء المعالجين يدّعون أنهم يستطيعون أن يساعدوا المرضى في مشكلات يبدو أنها لا علاقة لها مع الظهر. وبعضهم وسّع ممارساته حتى تصدت لأمراض الأطفال مثل نزلات البرد، وإنتان الأذن، والربو، والبول في الفراش، وأكثر من ذلك.

تسهم الشركات في تعليم هؤلاء المعالجين باليد كيف «يعززون ممارستهم». إحدى الشركات طلبت من هؤلاء المعالجين أن يقدموا شرائح لحم مجانية على العشاء للأهل الذين ينصتون لعلاجهم. ويحصل الأطفال على كتب ملونة تبين متع العلاج اليدوي.

يدعي المعالجون اليدويون أن علاجاتهم أفضل لأنها «طبيعية»، وهذا يعجب الكثير من الأهل ـ علاجات غير مهددة ـ لا حبوب ولا حقن ولا دواء ولا جراحة.

يقول المعالجون اليدويون: إن تقويم العمود الفقري يخلّص مما يدعونه «الخلع الجزئي» الذي ينجم عن خروج العظام عن الخط المستقيم مما يضغط على الأعصاب. إنهم يدعون أن ذلك يسمح «بالرسائل أن تجري بحرية من الدماغ» وتدع الجسم يشفي نفسه. قال لي الدكتور موراي كاتز من كيبك: «كل ذلك هراء وأساليب (تكتيك) مخيفة». كان هذا الدكتور مديراً لأكبر مراكز طب الأطفال في أمريكا الشمالية. وأصبح شديد الاهتمام بما كان يعد به «خبراء» العلاج اليدوي. كاتز كان واحداً فقط من بين العديد من الأطباء المرتابين، ولكنه كان على غير عادتهم يخصص وقتاً ليدرس حقاً ماذا يفعل العلاج اليدوي. وخصص وقتاً لزيارة جامعات المعالجة اليدوية، وحضور المقررات فيها. وانضم إلى الجمعية الدولية للمعالجة اليدوية في طب الأطفال. وخرج من ذلك كله مرتاباً عديم التصديق.

قـال لي: «المرضى لا يتحسنـون». وأضاف قائلاً: «يؤمن النـاس بأنهم يتحسنون. نحـن نعلم أن إنتـان الأذن يمكن أن ينتهي في يومين. ونعلـم أن هجمة الربو يمكن أن تتوقف فجأة. ونعلم أن التبول في الفراش ـ يتوقف في آخر الأمر عند الكبر».

إن توقـف الولـد عن التبول في الفراش بعد مراجعة المعالج اليـدوي تجعل الأهل يثقـون بهـذا المعالـج. ولما كان الأولاد يراجعون المعالجـين اليدوين مـن أجل تكرار العـلاج، يكون لدى هؤلاء المعالجين فرصة قوية لنيل ثقة الأهل، في الوقت الذي يكون المرض تراجع بذاته دون تدخلهم. أجريت مقابلات مع بعض الأهالي ـ منها في مكتب الدكتـور لاري وبسـتر في أتلانتا ـ الذي كان مقتنعـاً أن المعالج اليدوي كان خبيراً في الشفاء «الطبيعي». كان لدى هؤلاء المعالجين الذين شهدناهم أسلوب رائع في الفحص السريـري. كان دكتـور وبستر يلعب مـع الأولاد ويصرف أوقاتاً كثـيرة لشرح الأمور. والأهـل يحبـون ذلك، والعديد منهـم كان يرتاد المعالج اليدوي وحـده ولا يذهب إلى أطباء آخرين.

ستوسل: هل تذهبون إلى طبيب أطفال أيضاً؟

أم: لا أذهب إلى طبيب أطفال.

ستوسل: ابنك إذاً لم يأخذ اللقاحات اللازمة؟

أم: لا أبداً.

هذا تفكير مخيف. إن كان الأهل يقتصرون على إعطاء الطفل علاجات «طبيعية» دون لقـاح، فنحن علـى الأرجح سوف نعاني مـن تفشي السعال الديكـي، والحصبة، والأمراض الأخرى التي وضعت اللقاحات حداً لها.

ادعى دكتور وبستر أنه شفى الصمم عند الأولاد.

دكتور وبستر: ربما كان أكثر الأمور إثارة (درامية) معالجتي لطفل من ساو باولو. إنه الآن يسمع بشكل طبيعي.

ستوسل: هل أستطيع التكلم مع هذه الأسر؟

دكتور وبستر: حسناً إن ذهبت إلى ساوباولو في البرازيل أنا لا أعلم.

ستوسل: نستطيع أن نجري مكالمة هاتفية مع البرازيل.

دكتور وبستر: بالتأكيد حسناً لا يوجد مشكلة أبداً.

عندما توقفت الكاميرا قال إنه لم يجد الرقم.

إن العديد من المعالجين اليدويين للأطفال تأثر بشخصين يدعوان نفسيهما «مقومي الأطفال» وهما بالمر وجنيفر بيت. إنهم يُريان الآخرين كيف يروجان ممارستهما بشتى الأمور، مثل: تقديم القمصان المجانية T. Shirts وكيف يقومان «بالتعديلات» في العمود الفقري للأطفال بطريقة تجعل أجسامهم «تشفي نفسها، بنفسها» مما يجعلهم يتخلصون من إنتانات الأذن، والنزلات الوافدة (البرد) والربو.

لقد أعلماني أنهما كانا يطبقان ما تعلماه في مساعدة ألوف الأولاد، ولكن كما سترى فإن المناقشة معهما غدت غير مريحة عندما حاولت أن أصل إلى أمر دقيق معين.

دكتور بالمربيت: إنهم يأتون ومعهم حمى فنقوّمهم. يذهب الولد إلى السرير وفي الصباح التالي ينهض وكأن شيئاً سيئاً لم يكن. كان لدينا حالة تلو حالة.

ستوسل: أنت تقول «المعالجة اليدوية تنجح، والإجراءات الطبية تخفق عادة».

دكتور جنيفر بيت: في بعض الحالات هذا صحيح. وما أظنك سوف تجادل الناس أكثر مما يجب حول هذه الأمور.

ستوسل: «هل تخفق الإجراءات الطبية عادة؟»

دكتور بالمربيت: حسب القصص المروية عن ألوف الأطفال الذين استقبلناهم في مكتبنا لنفحصهم تبين أن العديد منهم جاؤوا بعد إخفاقات طبية في معالجتهم.

ستوسل: وأنتم تستطيعون أن تساعدوا هؤلاء الأطفال أكثر مما يستطيع الأطباء التقليديون.

دكتور جنيفر بيت: إن كان معهم خلع في العمود الفقري، فأنا من النوع الوحيد من الأطباء الذي يستطيع شفاءهم.

ستوسل: وكم عدد الناس الذين لديهم هذا الخلع.

دكتور جنيفر بيت: نحو 95 بالمئة من الأطفال لديهم خلع في العمود الفقري.

نشـر هذان الطبيبان مقولة تدعي: «إن الخلـع إن لم يُكشف ويقوّم سيكون مصدر تهديد للحياة نفسها».

ستوسل: قد يسقط المريض ميتاً إن لم يعالج؟

دكتور جنيفر بيت: هذا صحيح.

دكتور بالمربيت: هذا صحيح.

ستوسل [وهو يقرأ في كتاباتهما]: «حان الوقت الآن لإخبار زبائنكم أن الخلع يقتل أطفالهم ببطء»

دكتور جنيفر بيت: هذا صحيح.

دكتور بالمربيت: هذا صحيح.

ستوسل: أنتم تخيفون الناس لتحصلوا على النقود.

دكتور جنيفر بيت: أوه، لا.

قال لي الدكتور كاتز: «هذا ليس صراعاً بين الأطباء والمعالجين اليدويين، إنه صراع بـين العلم والخرافات. لقـد صُرفت مئات الملايين من الدولارات لعلاج خمسة عشر أو عشرين مليون طفل في العام من أجل «الخلع» الذي لا يوجد عند أي واحد منهم».

لا يوجـد عند أي واحـد منهم؟ «والخبراء» يتخيلون هذا الخلـع؟ يقول العديد من الأطباء: إن الخلع غير موجود بين الأمراض ـ وإنك إذا عرضت على معالجين يدويين مختلفـين نفس الصـورة الشعاعية، فإن هؤلاء المعالجـين لا يتفقون على تحديد مكان الخلع. فكرت أن هذا يصلح لاختبار إفشاء وكشف.

ستوسل: تستطيع أن تجد الخلع بالصورة الشعاعية؟

د. بالمربيت: بلا ريب.

ستوسل: حقاً؟

دكتور جنيفر بيت: وإنه يبلغ 97 بالمئة نسبة عالية جداً.

ستوسل: حسناً دعني إذاً أسألك أن تفحص صورة واحدة أو قليلاً من الصور.

دكتور جنيفر بيت: لا أستطيع . ليس لدي مبصار الأشعة.

دكتور بالمربيت: نعم ليس لدينا التجهيزات.

دكتور جنيفر بيت: آسفون أننا لم نستقر بعد.

دكتور بالمربيت: وأيضاً ليس لدينا الوقت لأن علينا أن ..

ستوسل: حسناً هل نترك الصور معكم أم ..

دكتور جنيفر بيت: حسناً إن الأمر يتعلق مِنْ أي نوع من التصوير الشعاعي هي. دعني ألقي نظرة [أعطيتها بعض الصور الشعاعية].

دكتور جنيفر بيت: هذه ليست صور شعاعية جيدة مَنْ صوّرها؟ وتلك، إنك لا تستطيع تحليل تلك.

ستوسل: إن كنت لا تستطيعين قراءة هذه الصور الشعاعية هل نستطيع أن نأخذ بعض صوركم الشعاعية ونريها لمعالجين يدويين آخرين ونرى إن كانوا سيقولون نفس الشيء.

د. جنيفر بيت: نعم.

كنت أتطلع بشغف لعمل ذلك، ولكن عندما توقفت الكاميرا قالا: إنهما لن يعطيانا الصور.

وهكذا قمنا بتجربة مختلفة. وجدنا صبياً يدعى بليك يعاني من إنتانات في الأذن. قام برنامج 20/20 مع كاميرا خفية بمرافقة والدة بليك حين أخذت ابنها إلى تسعة معالجين يدويين. لو كانت معالجة الأطفال اليدوية علماً لفكرت بأن المعالجين يتفقون على تشخيص مرض الولد بليك ولكنهم لم يفعلوا ذلك.

المعالج اليدوي الأول: بليك معه سوء تراصف بين العظمتين الأولى والثانية في رقبته.

المعالج اليدوي الثاني: إنه سوء تراصف في الجانب الأيمن من الرقبة بين العظمتين الأولى والثانية.

المعالج اليدوي الثالث: يوجد ضعف في غدد الأدرينالين.

المعالج اليدوي الرابع: يوجد هرس في القذال (مؤخرة الرأس) إنها قمة العظمة عنده في ...

حامل الكاميرا المصور: في ماذا؟

المعالج اليدوي الرابع: في القذال عنده وهو العظمة الخلفية من الجمجمة.

إلى مـا هنالك. مـع أن المعالجين اليدويين وجدوا مشـكلات مختلفة فإنهم اتفقوا على شيء واحد: إن بوسعهم مدّ يد العون. ويمكن أن يكون العلاج باهظ الثمن لأنه قد يمتد من عدة أسابيع إلى الحياة بأكملها.

حاولنـا مـرة ثانية مـع ولد آخر يدعى كـودي كان لديه التهابـات مزمنة في الأذن ودفعت محطة ABC أجوراً ليفحصه ثمانية معالجين يدويين.

مـرة ثانية وجد الثمانيـة مشكلة ولكن ليست نفس المشكلـة. قال أحد المعالجين: كودي لديـه عصب مضغوط في رقبته. وآخر قال: إن رِجْل كودي اليسرى أقصر من اليمنـى. ويـا للعجب قال آخر: إن رجلـه اليمنى أقصر من اليسـرى. اثنان قالا: إن المشكلـة غذائيـة. وقال واحـد: إن كودي يعاني من عـوز الزنك، بينما قـال آخر إن تحسساً غذائياً كان المشكلة. قال المعالج اليدوي لأم كودي: «أبعديه عن الذرة وحليب البقر والطحين الأبيض».

وهو لم يفحص أذني كودي على الإطلاق.

مـن المحزن أن يضيـع الناس نقودهم علـى المعالجة «الطبيعية» وهـذا أسوأ حين يضيعون نقودك أنت. لسوء الحظ أن التأمين يغطي العديد من أنواع العلاج هذا، وبذا يكـون علينا جميعـاً أن ندفع من أجل هذه الترهات السحريـة. والسياسيون المتأثرون بجمعيـات المعالجين اليدويين يجبرون أحياناً شركات التأمين أن تدفع من أجل ذلك. وغالبـاً ما تدفع شركتا Medicare و Medicaid من أجـل ذلك. إن ضرائبك العالية والتأمينات العالية تقدم العون المالي لمعالجات مشكوك فيها.

حتـى المعالجون اليدويون ينقدون بعض الممارسات التي كشفنا عنها. تقول جمعية المعالجين اليدويين الأمريكية: إنه ليس هناك من دليل على أن الخلع يهدد الحياة، وأن التعليقات مثل تلك التي ذكرها الزوجان بيتس هي تعليقات غير مسؤولة.

وكان شارلس دوفال من الجمعية الوطنية لطب المعالجة اليدوية وهم جماعة معالجة يدوية أصغر كان أكثر نقداً حين قال: إن المعالجين اليدويين في طب الأطفال يجعلون جميع المعالجين اليدويين «يبدون وكأنهم دجالون بلا ريب».

ستوسل: هل يوجد كثير من المال في هذا؟

شارلس دوفال: أوه، يوجد كمية كبيرة من المال تُنهب. يريدون من المريض أن يبدأ المعالجة من اليوم الذي خلق فيه ويبقى يعالج إلى الأبد.

فكر بهذا قبل أن تأخذ ابنك إلى معالج يدوي للأطفال.

خرافة: ألعاب الفيديو العنيفة تنشئ أطفالاً عنيفين.

حقيقة: ينال الخبراء تغطية تلفازية بادعائهم أن الألعاب تسبب العنف.

إن الخبراء الذين عينوا أنفسهم هم ناجحون تماماً في بعض الأحيان في نشر حججهم، إلى حد أن المنبع الأصلي يضيع في التشوش. على هذا النحو غالباً تولد «الحكمة العامة».

لقد كسب عالم النفس والمؤلف ديف غروسمان شهرة من كتابه ذي العنوان المثير «أوقفوا تعليم أولادنا القتل». إنه يجادل في أن ألعاب الفيديو العنيفة ذات تأثير رهيب على أولادنا. أجريت مقابلة مع غروسمان أسوشيتدبرس وصحف ومحطات تلفازية في كل أنحاء البلاد. وجعل لنفسه مظاهر وطنية بصفته خبيراً في Fox`s O`Reilly Factor وفي Court TV. ووضع حججاً نفسية سهلة على الأسماع مثل: «نحن نُعَلِّم الأطفال أن يجعلوا متعتهم مرتبطة بموت الإنسان وعذابه. نحن نكافئهم على قتل الناس» وقد كان غروسمان موضع اعتماد. كان في السابق عالم نفس تخصص في تدريب الجنود على أن يقتلوا بلا تردد. قال لي: «من الصعب جداً أن تجعل الإنسان يقتل. علينا أن ندربه على فعل ذلك». وقال إنه كان يستعين بألعاب الفيديو في عمله في الجيش «هذه الأمور تحاكي القتل». بعد فيض من إطلاق نار مخيف في المدارس

الثانوية تطوع غروسمان ليكون شاهداً خبيراً في دعاوٍ أقامتها أسر الضحايا يطلبون فيها أموالاً من صنّاع ألعاب الفيديو. وقال غروسمان: إن صنّاع الألعاب مسؤولون عن أعمال العنف التي يقوم بها الأطفال، إنها «تؤثر»، لأن ألعاب الفيديو «تبرمج العديد من أولادنا كي يقتلوا».

وذكر غروسمان بادوكا و كينتكي كيف أطلقا النار وهما في الرابعة عشرة من العمر. ومايكل كارنيل كيف أطلق النار على ثمانية من رفاق صفه، مستوحياً من لعب الفيديو دوم وكويك ـ كما قال غروسمان.

ديفيد غروسمان: هذا الصبي أطلق ثماني طلقات. وقعت ثماني إصابات على ثمانية أطفال مختلفين. خمسة منهم كانت الطلقات في رؤوسهم. والثلاث الآخرون أصيبوا في القسم الأعلى من الجذع. من أين تعلم هذا؟ من ألعاب الفيديو.

ستوسل: هل يجب أن يدفعوا؟

ديفيد غروسمان: إنهم محرضون على الجريمة. إننا نعلم الأطفال أن يجعلوا متعتهم مرتبطة بموت الإنسان وعذابه. نحن نكافئهم على قتل الناس. ونحن نعلمهم أن يحبوا ذلك.

ستوسل: أين تضع الحد لذلك؟ وماذا عن المصارعة في التلفاز؟

ديفيد غروسمان: المصارعة شيء يستطيع الراشدون أن يروه. ولكن لا ينبغي أن يشاهدها الأطفال.

ستوسل: إن الأطفال هم الذين يشاهدونها على الأغلب.

ديفيد غروسمان: الأطفال يقتل واحدهم الآخر. حين يقلدون ما يحدث في المصارعة.

ستوسل: لا ينبغي أن تعرض المصارعة في التلفاز؟

ديفيد غروسمان: هل ينبغي عرض أفلام البورنو (الإباحية الفاحشة) على التلفاز؟

بصراحة أكون سعيداً إذا حُذفت البرامج المزيفة التي تشجع المصارعة من التلفاز، ولكن ليست هذه هي النقطة المهمة. النقطة المهمة هي أن الحكام المستبدين يدعون أن جميع أنواع التسليات لها آثار سيئة، ولكن يوجد برهان ضئيل على ذلك.

حين سألت الأولاد عن ادعاءات غروسمان أخذوا بالضحك حول فكرة أن الألعاب أو الأفلام على التلفاز تجعل الأولاد يرتكبون أموراً عنيفة. سألني غروسمان: «من تصدق: الأولاد؟ أم كبير الأطباء في الجيش؟»

كان غروسمان متحدثاً بارعاً وبعد أن يسمعه الناس يريدون أن يقوم أحدهم بأخذ المبادرة لحذف الألعاب. ولكن البرهان ليس ما اختلقه غروسمان. إن كبير الأطباء في الجيش في الولايات المتحدة قال حقاً شيئاً عن تأثر الأولاد بالعنف المعروض في التلفاز ودراسات قليلة دعمت ذلك. ولكن دراسات عديدة أخرى لم تدعمه. وانتهى الأمر إلى أن عدداً كبيراً من الناس الذين ذكروا العلاقة ـ ذكروا أن المصدر غروسمان.

حتى مكتب كبير الأطباء في الجيش أخبرنا: «يستعمل المارينز لعبة دوم Doom لتحجير قلوب المجندين الجدد» من أين تعلموا ذلك؟ من غروسمان. اتصلنا هاتفياً بالمارينز. قالوا: إن الألعاب لا تستعمل لتحجير قلوب المارينز. قالوا: إنهم يستعملون نسخة من البرنامج لتعليمهم التوافق بين العين واليد، وتعليمهم العمل الجماعي هذا كل ما في الأمر.

كيف علم أعضاء الكونغرس أن هذه الألعاب تسبب العنف؟ لقد سمعوا إلى شهود «خبراء» أعلن السيناتور كي بيلي هتشيسون (ممثل تكساس): «قال أحد الشهود اليوم: إن ألعاب الفيديو تستخدم عمداً تقنيات نفسية لتحجير القلب تستعمل لتعليم الجنود كيف يقتلون في المعركة».

من كان هذا الشاهد الخبير؟ اليوتنانت كولونيل غروسمان ثانية.

هل نقرر نحن الآباء أنفسنا ما نفعله أو ما يفعله أطفالنا؟ أم نجعل الحكومة تعين خبيراً ما مثل ديفيد غروسمان ليقرر عنا؟ لعله مصدر «الحكمة العامة» حول هذا الموضوع أخرج الرفش للتنقيب عن الحقيقة.

خرافة: الـزواج مـن أقربـاء الدرجـة الأولى (أولاد العمومـة وأولاد الخال) أمر سيئ خاصة لإنجاب الأطفال.

حقيقة: تزوجوا وتكاثروا دون خوف.

لقـد اعتقـدت دوماً أن الـزواج من أقربـاء الدرجة الأولى هو أمـر محرّم بل غير قانوني وخطر إن كنتم تريدون إنجاب الأولاد.

تقول الحكمـة العامة: إن الأشخاص البدائيين الذين يعيشـون في أماكن منعزلة هـم وحدهم الذين يتزوجـون من أقربائهـم. إذ ينجبون أطفالاً أغبيـاء. العديد من «الخبراء» السياسيين ورجال الدين يتخذون موقفاً صلباً ضد هذا الزواج. ولقد أقنعوا معظم الناس أن الزواج من أولاد العمومة أمر سيئ جداً.

ولكـن كمـا هي الحال غالباً، مـا نعرفه هو الخطأ. إن كنـت تستلطف إحدى بنات عمومتك ستسعدك قراءة هذه السطور:

كان أهـل ألـبرت أنشتاين أولاد عم، وأنشتاين نفسه تـزوج ابنة عمه. كذلك كانت حـال تشارلس داروين. كان الأمير ألبرت والملكة فكتوريا أولاد عمومة. وتزوج رودولف جيوليـاني مدة قصـيرة من إحـدى قريباته من الدرجـة الثانية. عشـرون بالمئة من الأزواج في العالم هم أقرباء.

ولكـن نصف الولايات في أمريكا يعـد الزواج من أقرباء الدرجة الأولى زواجاً غير قانوني. وكما هو الحال في معظم قوانيننا ذرائع هذا المنع واهية.

هـذه القوانـين تعـود إلى مئات من السنـين إلى الوقـت الذي شنت فيـه الكنيسة الكاثوليكيـة حملة ضد الزواج من الأقرباء؛ لأن الإنجيل في ليفيتيكوس يذكر: «لا يدنو أحد منكم من أي نسيب قريب له».

لكن ابن العم ليس «قريباً جداً». اسأل فقط برايان وكارن فاجنر عن ذلك.

أبو برايان وأم كارن كانا أخاً وأختاً. لذا أمضى برايان وكارن وقتاً طويلاً سوية مع أسرتيهمـا. ومع مرور الوقت وقعا في الحب وقررا الزواج. لكن هذا القرار لم يستسغه أسرتاهما وخاصة أسرة كارن.

كارن فاجنر: هتفت أمي إلى والد برايان تقول: «ماذا سنفعل بهذا الموضوع؟».
بات برافيلد (أم كارن): لقد صدمني الأمر نوع ما.
دنيـنر فاجـنر (أبو برايان): قلنا: «حسناً عندنـا خياران إما أن نقول: لا، لا نريد حـدوث ذلك» ـ وهذا لم يكـن خيارنا أمام عزمهما على فعـل ذلك. لقد جاوز كلاهما الواحد والعشرين. قلت أنا: لا نريد خسارتكما.
بات برادفيلد: آخر شيء نريده هو أن نخسر أولادنا.

بـارك الأهل ذلك الزواج. ثـم أراد برايان وكارن إنجاب الأولاد لكنهما كانا قلقين بشـأن التشوهات الولادية وقلقين من إنجاب أولاد أغبيـاء. والآن لدى برايان وكارين صبيان كل منهما الأول في صفه.

هـذا يتعارض مـع «الحكمـة العامـة». روايـات مثـل روايـة Deliverance لجيمس ديكـي وأفـلام مثـل Brighton Beach Memoirs (عندمـا يعـترف أوجـين بحبـه لابنة عمه نـورا ويقال لـه: «ستنجبـان طفـلاً بتسعة رؤوس!») . تعمل علـى تأكيـد فكـرة أن الـزواج مـن أقربـاء الدرجـة الأولـة سينتـج أولاداً معاقـين. لكـن دراسـة مدهشـة مولتهـا الجمعيـة الوطنيـة للمستشاريـن في أمـور الوراثـة National Society of Genetic Counselers كشفـت أن الافتراضـات حـول زواج الأقربـاء لا أساس لهـا. وجدت الدراسة أن عامل الخطـورة في التشوهات الولادية أو الإعاقـة العقلية كان أكبر بـ 2 - 3 بالمئة عند المتزوجين من أبناء عمومتهم. يبدو هذا سيئـاً. لكـن عوامل خطر أخرى كانـت أعلى. فمثلاً العمر رفع الخطـورة أكثر بكثير. هناك احتمال 8 - 9 بالمئة أن تنجب امرأة فوق الأربعين طفلا بتشوهات ولادية.

قبـل أن نترك خرافـة الأقرباء أريـد أن أشير إلى عامل خطـورة حقيقي. حذرت بـات برافيلد أم كارين فاجنر حول موضـوع الطلاق. قالت لكارن: «يمكنك أن تطلقي زوجـك، ولكن لا يمكنك أن تطلقي العائلة بأكملهـا، فحماتك وحموك سيبقيان عمك وعمتك» وجهة نظر الأهالي الخبراء هي دائماً الأفضل.

الفصل التاسع

قوة الإيمان

أنا مثل معظم الناس تربيت على احترام العلم والعلماء. أبي كان مهندساً وأخي عالماً. وكنت أحسب أن كل شخص يريد أن يرى دليلاً قبل أن يؤمن. ولكني كنت على خطأ.

لقد تعلمت أن العديد من الناس يؤمنون تماماً بما يعلّمه الدين وبما يعتقد به حزبهم السياسي وبما يقوله أصدقاؤهم أو بما يجعلهم يشعرون شعوراً طيباً.

خرافة: إن الارتفاع الحروري في الأرض سوف يوقع أشكالاً من الفوضى في الطقس، ويسبب حدوث عواصف أكثر وفيضاناتٍ في الشواطئ. وإن على أمريكا أن توقع معاهدة كيوتو.
حقيقة: هذه الخرافة ينبغي أن تنقسم إلى أربعة أقسام.

خرافة 1: ترتفع حرارة الأرض!
حقيقة: ترتفع حرارة الأرض.

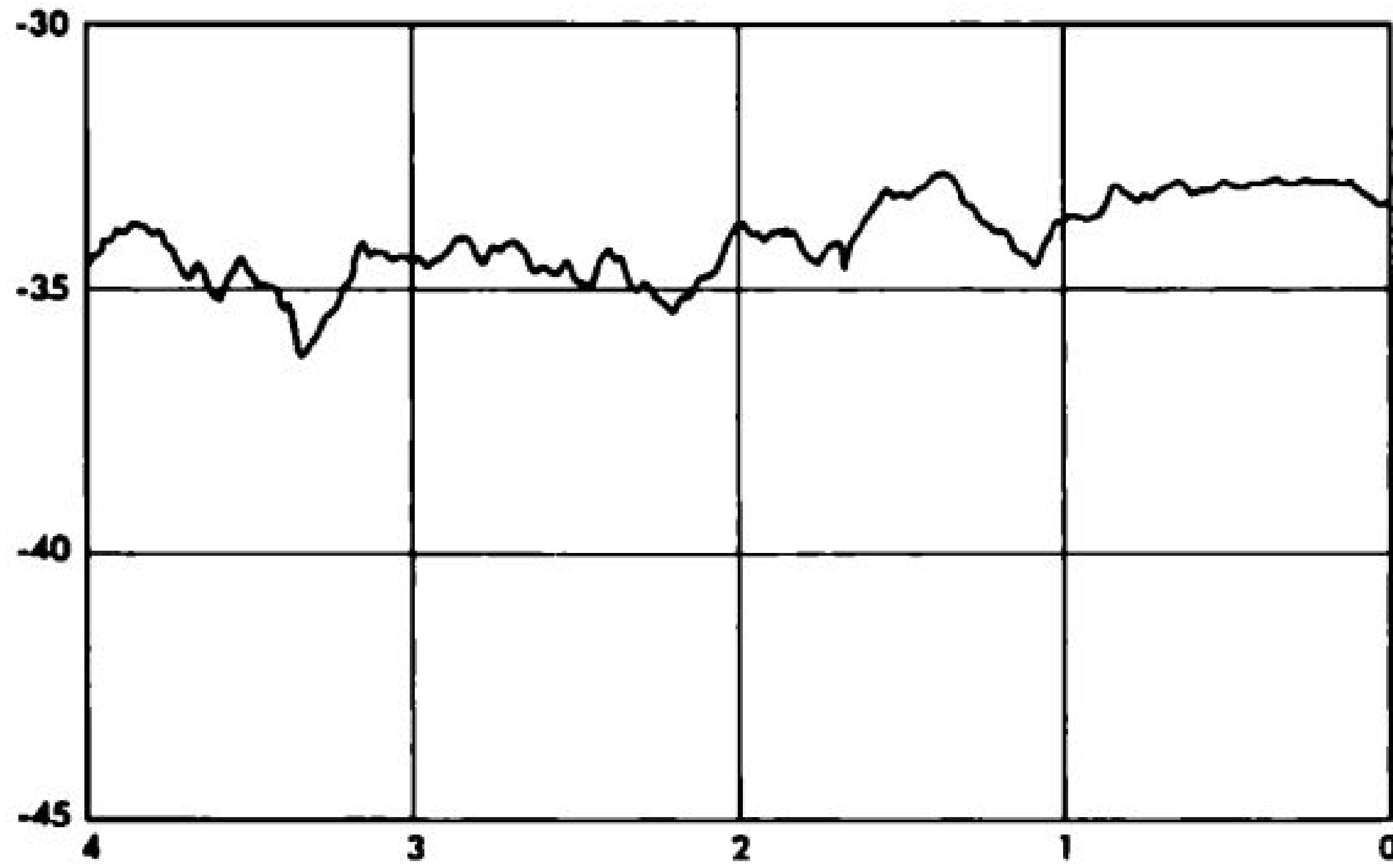
هذا صحيح. وتقول هيئة Ipcc (وهي هيئة قائمة بين الحكومات تدرس تغيرات الطقس) إن معدل حرارة سطح الأرض ازداد 0.6 درجة سيلسيوس في القرن العشرين.

خرافة 2: تزداد حرارة الأرض بسببنا!.
حقيقة: ربما.

إن كان حرقنـا لما يستخرج من الأرض من فحم هو سبب تسخين الأرض فإن ذلك يبدو غير معقول. إن نصف الارتفاع الحروري حصل في القرن الماضي من عام 1900 إلى عـام 1945. ولـو كان الإنسان مسؤولاً لم لم يحدث مزيد من التسخين في النصف الثـاني من القرن. لقد أحرقنا وقـوداً أكثر بكثير في هذه المدة. ماذا عن ذلك؟ ماذا؟ أنت لا تسمع منذري البيئة يتحدثون عن ذلك..

إن الأرض في اتجاه ارتفاع حرارة تدريجي ناتج عما يسميه العلماء «عصر الجليد الصغير» والذي انتهى عام 1800. إن طقسنا كان دائماً يخضع لتغيرات، ومن الغرور أن نفكـر أن التأثـير الإنسـاني مهـم جـداً بالمقارنة مـع التاريـخ الجيولوجي المخيف للأرض. والرسم البياني عن درجات الحـرارة في الأربعة آلاف سنة الأخيرة يبين أن سخونة الأرض الآن ليست بالأمر العظيم.

درجات الحرارة في 4000 سنة الأخيرة



خرافة3: ستكون هناك عواصف، وفيضانات على الشواطئ واضطراب كبير جداً في الطقس.

حقيقة: قد لا يحدث ذلك.

كان أطفال المدارس الذين أجريت معهم مقابلات مقتنعين أن أمريكا «تموت» في بحر من التلوث، و«المدن ستصبح قريباً تحت الماء!».

حذر محامون من مجلس الدفاع عن الموارد الطبيعية وهي (جماعة بيئية أخرى تضم محامين أكثر من علماء) من أن «مستويات البحر سوف ترتفع وتغمر مناطق الشواطئ. وأمواج الحر سوف تكون أكثر تواتراً وأكثر حدة. وسوف يزداد حدوث جفاف وحرائق هائلة».

ياللفظاعة.

ولكن كثيراً من العلماء يضحكون من هذا الذعر.

يقول الدكتور جون كريستي - أستاذ علم المناخ في جامعة آلاباما في هانتسفيل -: «أنا أذكر عندما كنت طالباً في الجامعة، أول مرة احتفل فيها بيوم الأرض أُخبرنا أن من المؤكد في عام 2000 سيكون العالم جائعاً وقد فقد طاقته. نبوءات يوم الحساب، هذه تخاطفتها عناوين الصحف آنذاك ولكن ثبت أنها خاطئة تماماً.

تصدر اليوم بيانات مشابهة حول الكوارث التي تسببها يد الإنسان في تغيير الطقس وتبدو مألوفة تماماً بل مبالغاً فيها بالنسبة لي بصفتي شخصاً يحلل الأخبار والمعلومات عن الطقس».

ولكن وسائل الإعلام تحب الادعاءات المبالغ فيها.

ذكرت صحيفة واشنطون بوست: «النهاية قريبة!» بسبب ذوبان الغطاء الجليدي والجموديات.

ولكن الدكتور باتريك مايكلز وهو كاتب بحث طقس عام 2003 الذي أصدرته جمعية الجغرافيين الأمريكيين أشار إلى أن ذوبان غطاء الأرتيك لا يرفع مستويات البحر مثلما لا يسبب ذوبان الثلج في شرابك طفح الكأس «إن الغطاء الجليدي في القطب هو جليد طاف... وإن ذاب.. فلن يكون كتلة أرض تضاف إلى الماء».

ومنذ عهد قريب أصبحت قصص ذوبان الثلوج موضوعاً تناقلته إذاعتا MSNBC و BBC وهـي قصص عن الكارثة الآتية مـن ذوبان الجليديـات في غرينلاند. وقال المنـذرون إنه على خـلاف الجليد القطبي فـإن هذه الجموديات الذائبـة سوف ترفع مستويات البحر حول الكرة الأرضية.

ولكـن الجموديـات الجنوبية في غرينلاند هـي وحدها التي تذوب. أمـا الشمالية فهـي لا تـذوب. وفي تشرين أول عـام 2005 أصـدر العلماء النرويجيـون والروسيون والأمريكيون تقريراً يقول: إن جليد غرينلاند يسمك ولا يذوب.

معظم الدعاوى المروعة حول أمواج الحر والقحط تعتمد على نماذج حاسوب توهم بأنها تتنبأ بأحوال الطقس في المستقبل. ولكن نماذج الحاسوب رديئة في التنبؤ بأحوال الطقس؛ لأن تأثير بخار الماء والغيم يسبب تغييرات لا يستطيع الحاسوب التنبؤ بها. في منتصـف السبعينيات كانت نماذج الحاسـوب تخبرنا أن علينا أن نتوقع برودة شاملة في طقس الكرة الأرضية.

يقـول العلماء للمراسلين إن نماذج الحاسوب ينبغي «أن ينظر إليها بأقصى درجة من الارتياب».

حسناً لم لا ننظر هكذا.

ويتجاهـل تجـار القرار مـن المتعصبين العلماء الذيـن يقولـون: إن تأثير الارتفاع الحـروري في الأرض قد يكون حميداً. تقـول سالي باليوناس - وهي الفيزيائية الفلكية في جامعـة هارفارد - : إن إضافة ثـاني أوكسيد الكربون Co_2 في الجو قد يفيد العالم لأن ازدياد CO_2 يساعد النبات على النمو. والشتاءات الدافئة قد تعطي المزارعين وقتاً أطول لموسم الحصاد وقد تنهي القحط في الصحارى.

لماذا لا نسمع هذا الرأي من نقاش الارتفاع الحروري في الأرض؟

تقـول الدكتورة باليونوسـ: «إنها النقود!» «خمس وعشرون بليـون دولار من أموال الحكومة صرفوا منذ عام 1990 للبحث في موضوع الارتفاع الحروري. إن نشر العلماء والباحثـون تقاريـر عـن أن الارتفاع الحـروري لا يتعلق كثـيراً بأفعـال الإنسان وإنما بالمصير الطبيعي للكوكب فإن النقود لن تنفق على ذلك النحو لدراسة ذلك».

خرافة 4: التوقيع على معاهدة كيوتو قد يوقف الارتفاع الحروري.

حقيقة: بصعوبة.

التقــت الأمم المتحــدة في كيوتو في اليابان عــام 1997 وسألت الــدول المتقدمة في العالم أن توقف إصدار ثاني أوكسيد الكربون Co_2 وترده إلى مستوياته عام 1990.

وحتــى محامو كيوتو يعترفــون أنه إن وقعت جميــع دول العالم علــى اتفاقية كيوتو وخضعت لها فإن الحرارة في الكون ستستمر في الزيادة. الفارق سيكون في عام 2050 أقــل من عشر الدرجة. إن الهياج حول كيوتــو أمر مضحك، حتى لو كان لكيوتو تأثير. هــل تظن أن جميــع الموقعين سوف يحترمون توقيعهم؟ من المتوقــع أن تسبقنا الصين في إصــدار Co_2 خــلال خمس أو عشر سنــين. والهند سوف تتبعها. مــا الحافز الذي سيدفعها لإيقاف استخدام وقود المستحاثات CO_2؟ اجلب الرفش.

يلمــح المتعصبون من جماعة الخضــر أننا لو حفظنا الطاقــة وحسب وتحولنا من وقــود النبــات تحت الأرضــ إلى استخدام الريــاح والطاقة الشمسية (وهــم نادراً ما يذكــرون الطاقة النوويــة وهي أفضل بديل عملي) فإننا ســوف نعيش في أرض أحلام سعيدة دون ارتفاع حروري. إلا أن اقتراحاتهم ليست عملية أبداً.

إن بناء التجهيزات الشمسية تستنفد الطاقة ـ حين تجهيزها وتركيبها ـ ثم إنزالها لإصلاحها مرة ثانية.

إن التفكــير بــأن الطاقة الشمسية بوسعهــا أن توقف زيادة الحــرارة المتوقعة على الأرضــ تفكير تافه. EPCOT مدينة ملاهٍ تعمل على الطاقة الشمسية، وتستهلك نحو 395.000 كيلــو واط في الساعــة في اليوم. تقول وزارة الطاقــة: إنك ستحتاج إلى ألف فــدان من التجهيــزات الشمسية لتصدر مثل هذه الكهربــاء وإن EPCOT نفسها تقع علــى ثــلاث مئة فدان فقــط، وهكذا سيكون عليــك أن تضاعف حجمهــا ثلاث مرات لتحصل على رقعة الأرض التي تحتاج إليها لتشغيلها!

ليس لطواحين الهواء تأثير فاعل. إنها أدوات عملاقة لقتل الطيور، وعلينا أن نبني الكثير منها كي ننتج طاقة ذات شأن.

في عام 2000 كان هناك جماعة يطلق عليها اسم Cape Wind، عرضت أن تشيد 130 طاحونة هواء في نانتوكر ساوند على شاطئ ماساشوستس أظن أن رسومها جعلتها تبدو مشوقة ـ ولكنها مخيفة! ـ كان يمكن رؤيتها من الطابق الذي تقضي فيه عائلة كينيدي عطلتها في مرفأ هيانيس.

قاد روبرت كينيدي Jr ـ الذي تبوأ عدة مناصب مهمة، وكان من الحركة المتحمسة للبيئة ـ قاد حملة لإزالة طواحين الهواء من نانتوكر ساوند.

والجماعة التي قادها وهي جماعة الحفاظ على الماء Water keeper Alliance. تقول: إنها تدعم طواحين الهواء ـ ولكن كينيدي قاوم تلك الطواحين القريبة من منزله. ياله من منافق!!

يأتي تسعون بالمئة من الطاقة في العالم من حرق الوقود. وقد تهلك معاهدة كيوتو اقتصاد دول العالم الثالث وتسلم الكارثة إلى دولنا.

وإذاً ماذا نصنع بتهديد الارتفاع الحروري في العالم؟

أولاً: التزام الهدوء.

ثانياً: إن كان العالم يسخن من الأفضل التلاؤم مع ذلك بدلاً من إيقافه: إذا كانت مستويات البحر ترتفع يمكننا أن نبني حواجز ونبتعد عن الشواطئ. وهذا نجح في هولندا. يستطيع المزارعون زراعة محاصيل مختلفة أو يتحركون نحو الشمال.

لقد زرع الفلاحون الروس شمالي سيبريا على مدى قرون. وعندما أصبحت المنطقة باردة هجروها وتحركوا نحو الجنوب.

يجدر بنا أن نستمر في دراسة الارتفاع الحروري وندع العلم يأخذ مجراه: فنتلاءم مع ما يحدث بدلاً من أن نخرب الحياة كما نعرفها بمحاولة إيقافه.

أنا آسف أني أطلت الحديث عن الارتفاع الحروري في العالم. لقد اضطررت لذلك لأن صانعي خرافة الارتفاع الحروري منافقون وملحّون. على خرافة بسيطة.

خرافة: زيادة قيادة المركبات تساوي زيادة التلوث.

حقيقة: ليس المهم كم تقود ولكن ماذا تقود؟

بدعة من بدع جماعة البيئة هي محاولتها تخليص العالم من السيارات. يقولون: إن قيادة المركبات هي التي تسبب كل هذا التلوث في الهواء وتخرب الرئات. يريدون أن يأخذ كل امرئ الحافلات العامة، في تنقله، أو يمشي، أو يركب الدراجات. هذا لن يغير حياتي كثيراً. أنا عادة أركب دراجتي للذهاب إلى العمل، ولكن هل على كل امرئ أن يعيش بالطريقة التي أعيش بها أنا؟

من حسن حظكم، كلا.

ليست السيارات سيئة. صحيح أنك كلما قدت أكثر تزيد تلوث الجو. ولكن الواقع إن السيارات القديمة التي حُفظت على نحو سيئ هي وحدها الأكثر تلويثاً للجو. لأن إصدارات التكنولوجيا تحسنت جداً، والسيارات الجديدة اليوم أنظف بـ 98% من السيارات التي صُنّعت في الستينيات. يقول جو نوربك ـ وهو باحث بيئي في U.C. Riverside envronmental. يقول: «إن ما تنفثه عشرات السيارات في نماذجها الحديثة أمر لا يذكر».

إذاً فإن الهواء يصبح أنظف حتى لو زادت قيادة الناس للمركبات. وقد رسمت وكالة حماية البيئة خطة لتلوث الهواء لمدة 30 سنة. وأثناء ذلك الوقت ازداد عدد الأميال التي قطعت 170% ولكن تلوث الهواء زاد 54%.

وفي كل مرة نغير سيارتنا القديمة ونأخذ موديلاً أحدث نسهم في إنقاص التلوث. فإن أردت حقاً أن تساعد على تخفيض التلوث ليس عليك أن تستعمل الدراجة. ابقِ سيارتك بحالة مناسبة والأفضل أن تشتري سيارة جديدة ودع العم جون يصلح سيارته القديمة القذرة.

خرافة: لابـد أن علـم التنجيم فيه شـيء من الحقيقـة وإلا لم يؤمن ملايين الناس به.

حقيقة: ملايين الناس يؤمنون بأشياء مضحكة.

علـم التنجيم علم ضخم. اطلب الكلمـة في Google في الإنترنت ويظهر لك أكثر مـن ثمانين مليون موقع والمنجمون الناجحون يجنون ألـوف الدولارات، وهم يكشفون الطالع للزبائن. يحلف الناس بهم ـ يحلفون أن المنجم يعرف من الأمور «ما لا يعرفها أحـد!» ويحلفون أن المنجم يتنبأ بأمور تحدث في الواقع فيما بعد فكيف يمكن أن يكون الأمر مضحكاً إذا كان العديد من الناس يؤمنون به؟

ذلـك لأن بعض الأشيـاء تنطبق على معظم الناس، مثلاً، 95 بالمئة من الأمريكيين يعتقدون أن لديهم «حس الفكاهة أعلى من المعدل» وحين يقول المنجم ذلك لهم يظنون أنه يتحدث عنهم بالذات. كذلك هم يضعون ألفاً من التوقعات للمستقبل.

ويميـل الناس إلى نسيـان التوقعات الخاطئة ولكنهم يتذكـرون «الناجحة» (انظر الوسطاء ص).

عرفـت مرة منجماً وضع مخططـاً لحياة إد كمـبر E. kemper وهو قاتل ومحب للجثث في كاليفورنيا. قتل ست نساء من اللواتي يوقفن السيارات في الطريق ويركبنها مجانـاً. كما أنه قتل أمه. ثم أعطيت هذا التقريـر الذي وضعه المنجم عن حياة ذلك الشخص ويقع في خمس وعشرين صفحة إلى طلاب في الجامعة، وأخبرتهم أن ذلك يتعلق بطالعهـم وحياتهم (وكنت جمعت تواريخ أعيـاد ميلادهم من قبل). معظمهم تأثـر. وقليل منهم كانوا «مندهشين» كيـف أن المنجم استطاع أن يعرف الكثير عنهم. وقـال بعضهـم: إنهم كانـوا مرتابين في علم التنجيـم من قبل، ولكن قـراءة طالعهم بالتفصيـل هـذا جعلهم جميعاً مؤمنين بعلم التنجيم. بعـد ذلك أخبرتهم أن ذلك لم يكن طالعهـم وإن جميع الطوالع متماثلة. وأخبرتهم مـن كان «كمبر Kemper ذاك. وكانت «لقطة تلفازية» جيدة.

سألت المنجمة سوزان ميللر أن تكشف طالعي. تكتب ميللر أعمدة فلكية في المجلات، ولها موقع في الإنترنت يُشاهد خمسة عشر مليون مرة في الشهر. وقد وضعت لي مخططاً طوله اثنتان وعشرون صفحة مع ملاحظات مثل: «إن جوبتر معك في سابع بيت لك، وهكذا أنت تعمل بشكل جيد مع شركاء، أناس يعملون معك كي يساعدوك».

إلى ما هنالك إلى ما هنالك. وحين يقول أحد الناس شيئاً مثل هذا في اثنتين وعشرين صفحة فإنهم حريصون أن يعثروا بالمصادفة على أمر قد يقع. فتقول: «أوه، هذا أنا في الحقيقة!» إنه ما يدعى في الحرفة «قراءات باردة». والمنجمون يضيفون كثيراً من المديح لأننا نكون سعيدين بأن نسمع أموراً طيبة عن أنفسنا.

سوزان ميللر: عندك فينوس في البيت العاشر، تجعلك زعيماً شعبياً أو شخصية مهمة. هل تريدني أن أستمر (وتضحك).

ستوسل: استمري.

سوزان ميللر: بالإضافة إلى ذلك هذه الكواكب الثلاثة في برج الحوت تجعلك حدسياً جداً.

ستوسل: هذا غباء. إن ما تقولينه عني يمكن أن تقوليه عن أي إنسان. إن كنت تستطيعين أن تتوقعي هذا لماذا أنت لست غنية؟ لماذا كل المنجمين ليسوا أغنياء؟

سوزان ميللر: لأني من برج الحوت وأنا لا آبه بالنقود. وأصرفها كلها.

حسناً سوزان أعط كل نقودك. إن كان بإمكاني مساعدتك سأعيرك رفشي.

خرافة: المشعوذ الساحر له تأثيرات حقيقية.

حقيقة: فقط إذا آمنت أن له تلك التأثيرات.

ينظر ملايين الناس إلى المشعوذ الساحر أيضاً بجدية. إنهم يدفعون لكاهن الشعوذة أموالاً لكي يشفيهم، أو لكي يؤذي أناساً آخرين. وهذا ينجح في نظرهم. إذ يحسبون أن كهنة الشعوذة لابد أنها لعنت الناس الذين مرضوا مباشرة وماتوا. ولكن ذلك ليس من السحر في الشيء، إنها فقط قوة الإيحاء. وكما أن هناك ما يدعى

تأثيراً وهمياً، فهناك شيء يدعى تأثيراً سيئاً nocebo إنه التوأم الشرير للتأثر الوهمي Placebo. أخـبر بعض الناس أن أمراً سيئاً سوف يحدث يمكن أن توحي إليهم نفسياً بأن يجعلوه يحدث.

يقـول الكاهن الساحر إنك سوف تمرض ثـم تمرض فعلاً. يقول بعضهم: هذا هو موضـوع متلازمة حـرب الخليج. فقد ادعى آلاف من الجنـود أن الخدمة أثناء حرب الخليـج الأولى في الخليـج الفارسي (العربي) جعلتهم مرضـى. وكان لديهم أعراض حقيقيـة، آلام رأس وتحسس ونعاسـ... إلخ، ولكن أكثر الدراسات كشفت أنه لا يوجد جراثيم أو مواد كيميائية يمكنها أن تفسر كيف تسبب الحرب هذه المتلازمة. إن كانت كما يدعون سببها الكيميائيات فإنك تتوقع أن يكون الجنود الأقرب إلى ساحة المعركة أكثر مرضاً. ولكن الجنود البعيدين عن الكيميائيات يشكون من الأعراض أيضاً.

يظن علماء النفس أن الدعاية حول الغاز السام العراقي والبيئة المسممة وشهادات جنود آخرين أصيبوا بالمرض ربما كانت سبب أعراض حرب الخليج.

إن كنت تصدق حقاً أن الكيميائيات سممتك أو أن لعنة كاهن السحر لها قوة فقد ينهار جسمك تماماً.

إن ذلـك من يمـن الطالع بالنسبـة لي أني لا أؤمـن بذلك. إن الإنسـان ينبغي أن يؤمـن باللعنة لكي تؤثر فيه. من أجل حلقـة من البرنامج وضعنا عنواناً «قوة الإيمان» واستأجر المنتجون الذين يعملون معي كاهناً ساحراً يدعى ألمر غلوفر لكي يضع اللعنة علـي، واقترحـوا عليه «كسر عظمة من عظامي». طلب غلوفـر أن يرسل إليه عينة من شعري وأظافر أصابعي وشيئاً من ملابسي كنت لبسته مدة. وقد حفر بعد ذلك اسمي علـى شمعة وحملها إلى مقبرة في نيو أرليانز. وخلـط هناك شعري وأظافري، ثم من أجـل أن ينـادي أرواح الموتـى بخّ بعضاً من مشـروب الروم، ونفخ دخـان سيجار على شجـرة في مركز حديقة المقبرة، وعلق ملابسي علـى الشجرة كي تجدني الأرواح، ثم أشعـل الشمعة ودعا الأرواح لكـي تؤذيني. وكان الأمر مروعـاً أن تسمع كيف نادى أن تنزل اللعنة بي.

المر غلوفر: جون ستوسل! جون ستوسل! أنا أستغيث وأدعو أرواح السحرة الكهنة، أنا أدعو جميع كائنات السحر لكي تساعدني.

لقد مضى عدة سنين ـ وحتى الآن لم تنكسر عظامي. لو انكسرت عظمة سأتذكر المر غلوفر وأعجب.

خرافة: إن كان هذا حدث في مستشفى فلابد أنه علم.

حقيقة: ليس ذلك بالضرورة.

هناك أمر يصدمني مشابه لموضوع (السحر). يمارس اليوم كاتجاه سائد في مشافي أمريكية. ويسمى «اللمسة العلاجية».

في مستشفى كونيكتيكت جعلتنا الممرضة أن مينور نشاهدها وهي «تعالج» امرأة مصابة باللوكيميا. جعلت يديها على بعد ثلاث أو أربع إنشات من المريضة لتشعر بالطاقة وقالت: «أستطيع أن أشعر أين تكون الطاقة متوازنة وأين تكون غير متوازنة».

ثم وفقاً للنظرية وجّهت «الطاقة الشافية للكون» من خلال يديها إلى المريضة. قالت لنا المريضة: لا يهمني إن كان لا يوجد دليل على أن اللمسة العلاجية تنجح. قالت: «أنا لا أحتاج إلى تفسيرات لأن عندي إيماناً بالعملية» وأردفت: «إن هذا حقاً أمر رائع حين ينقذك من شعورك باليأس والخوف».

من الصعب أن تناقش مرضى راضين. ولكن قبل عدة سنين قدمت فتاة في التاسعة من عمرها في كولورادو وظيفة علوم في الصف الرابع، وكانت تجربة حول اللمسة العلاجية. اسم الفتاة إيميلي روزا وكان اختبارها سهلاً: طلبت من المعالجين أن يشعروا بالطاقة من يدها. ولكنها استعملت منشفة لتخفي يديها عن عيون المعالجين. ولم تسألهم إيميلي أن يشفوا أي شيء. بدلاً من ذلك سألتهم أبسط سؤال: «قل لي فوق أي يد من يديك أضع يدي؟» فشل معالجو اللمسة في هذا الاختبار المرة تلو الأخرى. كان يمكن أن يحصلوا على 50 بالمئة من الإجابات الصحيحة من الحزر فقط ولكنهم لم يستطيعوا حتى الحصول على 50 بالمئة.

ستوسل: وإذاً هل شعروا بالإحراج؟

إيميلي روزا: لا أبداً في الحقيقة. بعضهم فكر أنهم إذا حزروا 4 مرات من 10 سينجحون في الاختبار.

من الواضح أنهم لا يعرفون قواعد الإحصاء. ونُشر اختبار إيميلي في المجلة المشهورة التي تصدرها الجمعية الطبية الأمريكية ـ ولكن ليس بدون آثار سلبية كما قد تتصور. إن العلاج باللمسة العلاجية الآن له مئة ألف ممارس وهو يزدهر.

يتمنى الناس أن يعتقدوا أن ما فوق الطبيعة أمر قوي يؤثر في حياتهم.

خرافة: تستعمل الشرطة وسطاء للبحث عن الجثث. ولذا ينبغي أن يتحلى الوسطاء بملكات خاصة.

حقيقة: الشرطة تُخدع أيضاً.

إن كنت يائساً فإنك تجرب أنواع الأشياء كلها بما فيها أن تذهب إلى وسيط. لقد ذهبت كاتي كوبكا إلى عدة وسطاء.

قالت: «كنت صغيرة ومجنونة، أنت تعرف، ومع اليأس الذي كنت أعانيه وكل ما كنت أريده هو أن أجدها».

أفهم لم كانت كاتي منزعجة: لأن أختها الأصغر اختفت. لقد خصصت مكافأة ضخمة تبلغ 25.000 دولار. وبعد وقت قليل أخذ الوسطاء يرسلون إليها رسائل ـ أي رسائل من وراء المعقول. يقولون في الرسائل: «أنا أعرف أين أختك» وصاروا يبعثون إليها بموضع تلو موضع، وكانت تذهب ولا تجد أثراً لأختها.

وأُخبرت كوبكا أن تتصل بسيليفيا براون، وهي إحدى أشهر الوسطاء في أمريكا. يقول موقع براون على الإنترنت: «الزيارة هنا تفسر معنى الحياة».

قالت: إنها توقعت أن زواج براد بيت وجنفر آنيستون لن يدوم. عجباً. يالها من موهبة في التنبؤ. كيف لأي شخص أن يتوقع ذلك؟ كانت براون تدعي أنها تستطيع أن

تكلـم الموتى ثـم يخبرها الموتى أين يوجد المفقودون. وهكذا دبـرت كوبكا إن تأتي إلى التلفـاز حين كانت براون تعرض مهاراتها. قالت كوبـكا: «كنت مفعمة بالأمل». «كنت على شبه يقين أني سأجد أختي».

وقالـت براون بسرعة علـى البرنامج: إن أخت كوبكا ميتـة في نيو مكسيكو وهي تتصل ببراون.

كاتي كوبكا: هل ترانا؟

سيلفيـا بـراون: أوه بالتأكيـد أعني هذه هـي الطريقة الوحيدة التـي أستطيع أن أحصل بها على المعلومات.

عودة إلى هذا العالم. استقصت الشرطة مبادرة براون. وكانت وهماً وسراباً.

قالت لي كوبكا: «كان أمراً مدمراً لي، واليأس يجعل الناس يقومون بأعمال لا يقوم بها الناس العاقلون».

سألـت أخبار ABC براون أن تتكلم معنا حول هذا الموضوع. وافقت في البداية ثم تراجعـت في آخر دقيقـة. كانت قد أخبرتنا أنها حلت ألـوف الحالات. ولكن قبل عدة سنـين فحصت إحدى المجـلات خمساً وثلاثين حالة من «قضايـا» براون ولم تجد أي برهان على أن براون حلت أي واحدة منها.

على الأقل لم تطلب براون من كوبكا أن تدفع لها نقوداً.

يقول مايكل شيرمر رئيس تحرير مجلة Skeptic: إن شيئاً ما أقل سحراً من قدرات الوسيط هو مسؤول عن افتتان ضباط الشرطة بالوسطاء.

أخبـرنـا أن «هـؤلاء الضباط يخطـؤون في تذكر ما صح من قـول الوسيط وما فاتته معرفته».

يقـول شيرمر: «الوسطاء يذهبـون إلى قسم الشرطة» «يعطـون الكثير الكثير من الإفـادات» يقولون مثلاً: «لقد شاهدت الجثـة في الأدغال، الجثة هناك مع بعض الماء وآثـار سكة حديد. ولكن عندمـا تظهر الجثة يسترجع الضباط مـا قاله الوسيط من

عبـارات ليجـدوا إن كانت تطابق ماحدث فعلاً. (نعم لقد قال الوسيط شيئاً عن سكة الحديـد) ولكـن الوسيط قال شيئاً عن مئـات الأمور الأخرى». يقـول الوسيط غالباً: «الجثـة بالقـرب من ماء» ولكن الماء قد يعني المحيط أو النهـر أو البركة أو الحمام أو أنابيـب تحـت الأرض أو أي مكان آخر. إذا وجدت الجثـة في البركة قد يقول أحدهم: «عجباً قال الوسيط (بالقرب من الماء)».

ذهبـت أخبار ABC إلى وسيط آخر تدعى كاتلين ريا، قال بعض ضباط الشرطة: إنها ساعدتهم على كشف مكان الجثث.

تدعي ريا أنها تجد الأناس المفقودين دائماً –تجد ثلاثة أو أربعة كل أسبوع. وتؤكد FBI أن الوسطاء لم يعينوها أبداً في حل مشكلة شخص واحد مفقود.

كانت ريا تطلب مبالغ كبيرة وقد سعت (أخبار ABC) أن تحصل على سعر مخفض منها وكان السعر 1.800 دولار.

حينئـذ أخبرت كوبـكا أن كريستين قتلت، وكانت ريا على ثقـة أنها تعلم أين كانت توجـد جثـة كريستين: اذهبي ثلاثين ميـلاً شمال جوار كريستـين القديم وابحثي عن طريـق يتفرع مثل حرف Y تجدين بناء يشبه كنيسة ريفية وشيئاً مثل حرف S. تابعنا تعليماتها باستعمال خرائط واتصلنا بالشرطة وبعد عدة رحلات تبين أن هناك مئات مـن حـرف Y وحرف S في الطريق وجميع أنواع الإشـارات مع حرف S. وحين شكوت إلى ريـا حـول ذلك قالت: «ماذا تريـدني أن أفعل هل أنا جامعـة معلومات أمشي من مكان إلى آخر؟» وأجهشت كاتي بالبكاء حين تبين لها إخفاق وسيط آخر.

قالت كوبكا: «لقد تحطم قلبي».

إن الوسطاء لا يعرفون ولكنهم يحطمون القلوب.

خرافـة: إذا ركـزت ذهنـك بوسعك أن تمشـي على فحم محترق دون خوف.

حقيقة: لا علاقة لذهنك بهذا.

سمعتم كيف أن المتصوفة يستعملون أذهانهم ليوقفوا الألم وينجزوا مهمات مستحيلة، مثل السير على فحم محترق؟ حسناً أنا لا أستطيع أن أكفل كيف يفعل المتصوفة ذلك، تجاوز ذلك: أنت تستطيع أن تمشي فوق فحم حار إذا أردت، أنا أعرف لأني فعلت ذلك.

من أجل برنامج: «قوة الإيمان» ذهبت إلى جونستون في بنسلفانيا حيث يوجد «أطول ممشى نار في العالم» نظمه ديفيد ويلي. إنه ليس متصوفاً بل يدرّس الفيزياء في جامعة بتسبورغ، ودعانا أن نمشي على الفحم المحترق لكي يبرهن أنه لا يوجد أي تصوف في ذلك. وكان قد سمع القصص: عليك أن تركز، أن تتأمل، أن تركز على الله أن تركز على السلام... إلخ.

ديفيد ويلي [يقولون]: «إن أضعت تركيزك فإنك سوف تحترق» ذلك أن الجسم يضع مجالاً من حولك.

ستوسل: هل ذلك هراء؟

ديفيد ويلي: هراء كلمة يمكنك أن تستعملها. نعم.

وضع ويلي ألواح خشب بطول 165 قدماً وأشعل فيها النار وعندما كنا جالسين ننتظر ألواح الخشب كي تتحول إلى فحم محترق قال: أي إنسان يستطيع المشي على النار بقدميه الحافيتين مع استمرار التحرك، لأنك حين تمس الخشب المشتعل أو الفحم المحترق فإن الحرارة لا تصل فوراً إلى قدميك. إنك تحترق إذا سرت على معدن حار ولكن الخشب والفحم لا ينقلان الحرارة جيداً.

أردت أن أصدقه ولكني كنت خائفاً. أنا أقمّر (المارشمالو) على الفحم.

ستوسل: لماذا لن أحترق؟ أعني هذا حار كفاية لأن يقمّر المارشمالو.

ديفيد ويلي: لن تحترق لأن الخشب ضعيف النقل للحرارة.

ستوسل: كم هي الحرارة الآن فيه؟

ديفيد ويلي: نحو ألف درجة فهرنهايت.

ستوسل: وليس عليّ أن أؤمن بأي شيء أو أنشد أي شيء؟

ديفيد ويلي: ليس عليك، ليس عليك أن تؤمن بأي شيء. ليس عليك أن تنشد أي شيء. مشية لطيفة ثابتة تمشي على النار وحسب.

جعلته يمشي أمامي أولاً وحين لم يصرخ ذهبت وراءه كان على حق لم أحترق، ولم يحترق خمسة عشر من الناس الذين حطموا الرقم القياسي العالمي في المسافة التي قطعوها في ذلك اليوم: 165 قدماً على الفحم المحترق.

خرافة: السيارات الحمر تجتذب الشرطة ويكلف تأمينها سعراً أغلى.
حقيقة: إنها خرافة شائعة في المدن.

السيارات الحمر هي ملكة السيارات في العالم. ألصق بها تهم بدون عدل مدى سنين: السيارات الحمر سوف تجعل الشرطة تجرك على نحو أسرع، وسوف تكلفك أكثر من قسط تأمينها. يعلن مزود التأمين على الإنترنت المسمى Esurance.com «إن سائقي السيارات المنطلقة كسرعة البرق وخاصة السيارات الحمراء يرجح أن يعاقبوا على السرعة أو على المخالفات الأخرى».

ولكن هذا كلام شائع في المدينة فقط.

يقول معهد معلومات التأمين إن السيارات الحمراء لا يكلف تأمينها بعد الآن أكثر من تأمين السيارات الزرقاء والسوداء والخضراء، أو ذات اللون الأخضر الضارب إلى الصفرة. حتى Esurance عندما خابرناها قالت: إن اللون لا يهم. وتعتمد الأقساط على البيانات المجموعة من التجارب السابقة عند ملايين الزبائن، مثل العناية الطبية وأسعار تصليح السيارات، ومدى إمكانية سرقة السيارة، وعمر وتجربة السائق، وأين يعيش السائق. هناك سبب واحد يجعل السائقين في نيو جرسي يدفعون تأميناً أعلى ألا وهو:

أن نسبة عدد المحامين لكل شخص في نيوجرسي أعلى منها في أي ولاية أخرى، والسائقون هناك أكثر دخولاً في دعاوى قضائية حين وقوع الحوادث.

إن شركات التأمين تفعل ما بوسعها لتقليل الخطر. وحقيقة أن السيارات الحمراء لا تكلف كلفة إضافية في التأمين يدل على أنها ليست أكثر خطراً حين قيادتها.

هل حقاً أن السيارات الحمراء هدف لافت لنظر دورية الشرطة؟ يعتقد الناس ذلك. علقت لوحة النشرات التي تناقش هذه المسألة في الإنترنت: «منذ اشتريت سيارتي الساتورن Saturn الحمراء أخذت الكثير من بطاقات المخالفة.. أنا منزعج جداً... ومستعد أن أدهن سيارتي بلون آخر».

اتصلنا بست وكالات شرطة في الولاية وكل وكالة قالت إنه لا يوجد دليل كلامي أو علمي على أن السيارات الحمراء أفرد لها انتباه خاص. أخبرنا السرجنت بيل كرامبتون من شرطة ولاية كنتيكي: «إنك دائماً تسمع ذلك. ولكن ذلك ليس صحيحاً على الإطلاق ـ وهذا مدوّن».

خرافة: المعالجة بالمثل هي علاج جيد للحساسية وللأنفلونزا.
حقيقة: المعالجة بالمثل سخيفة مضحكة.

المعالجة بالمثل هي شكل آخر من الطب البديل «الطبيعي» وهو شائع جداً. ويدعي أطباء المعالجة بالمثل أن بوسعهم أن يشفوا الأمراض بإعطاء الناس جرعات ضئيلة من المواد التي سببت المرض. ويقولون: إن هذا يحرك جهاز المناعة كي يقاوم الأنفلونزا والنزلات والتحسس وأمراض أخرى.

كثير من الناس يؤمن بهذا النوع من الطب البديل.

تستعمل مارتينا نافراتيلوفا طب المعالجة بالمثل. وكذلك تفعل جلالة ملكة إنكلترا التي لها طبيبها الخاص في المعالجة بالمثل. المشكلة أن المعالجة بالمثل ليس لها معنى منطقي. تذكر المعاهد الوطنية للصحة عدداً من المفاهيم الرئيسة للمعالجة بالمثل ألا وهي: «لا تتبعوا قوانين العلم وخاصة الكيمياء والفيزياء».

تمدد منتجات المعالجـة بالمثل إلى درجات سخيفة. نقطة واحدة من الدواء في 99 نقطـة مـاء ويسمونها «1C». هـم يحتفظون بالتمديد حتـى «12C» وكأنها نقطة في المحيط الأطلسي. وحين يجعلونها «16C» تصبح كأنها نقطة في محيطات مليون أرض. ومع ذلك فإن أكثر سلعة رائجة وهو دواء للأنفلونزا ويدعى: Osciallo coccium هو ممدد في 200C.

أجريت مقابلة مع المؤلف دانا أولمان حول المعالجة بالمثل. وهو أول من تحدث بهذا الموضوع ووضع سبعة كتب حوله.

ستوسل: كلما مددتم الدواء يصبح أقوى تأثيراً؟

دانا أولمان: لا يصبح الدواء أقوى وحسب، بل نحتاج إلى جرعات أقل من الدواء.

ستوسـل: تقول وكالة الغـذاء والدواء: إن بعض هذه الأشيـاء لا يبقى فيها مثقال ذرة من الدواء.

دانـا أولمـان: في جميع الاحتمالات لا يبقى في الـدواء أي ذرات، ولكن الماء يتشرب بالمادة الأصلية من المعلومات أو من الذاكرة.

ستوسل: وهل الماء يتذكر؟

دانا أولمان: نعم.

الماء يتذكر! هل يتذكر أين تركت رفشي؟.

هـل لدى الماء عواطـف؟ هل يمكن أن يصبح حزيناً؟ هل كان جواب جيمس راندي على ادعاء أولمان جواباً بارعاً؟

رانـدي كان في السابـق ساحراً ثم تحول إلى رجل مرتـاب مهنياً. وهو على خلاف أكـثر المؤمنين بالمعالجة بالمثـل وبالوسطاء وبالتنجيم... إلخ. يضـع نقوده حيث يكون فمه. تقدم مؤسسته مليون دولار لأي شخص يبرهن على أن أي ظاهرة خارقة أو فوق طبيعية تنجح. مليون دولار! مع كل أولئك الشافين بالإيمان ومع المنجمين وقراء الورق Tarot card الذين يقدمون كل أنواع الادعاءات. كنت أظن أنهم يتوقون أن يختبرهم راندي. ولكنهم قلما طلبوا ذلك ـ ربما لأنهم لا يريدون اختباراً «علمياً». لقد كان يقدم المال منذ عام 1997 ولكن لا أحد جمع مليون دولار بعد.

قــال راندي: يمكن أن يعطيني مليون دولار إذا استطعت أن أبين أن المعالجة بالمثل تنجــح. وأنا طماع مثل غيري. وقــال دان أولمان: إنه كان يعــرف اختباراً يثبت قدرات المعالجــة بالمثل، وفكــرت أنه من الممكن أن نعطيه تلك المحاولــة. قال أولمان: يمكن أن نختبر كريات الدم البيضاء. وكان واثقاً جداً: «إن جرعات المعالجة بالمثل من الهستامين يمكــن أن يكون لها تأثير درامي في كريات الدم البيضاء، تلك الخلايا المتعقدة (خلية سريعة الاختضاب بالأصباغ القاعدية)، وإنها يمكن أن ينقص عددها».

أطلقنا تلك الصيحة في أوروبا، حيث ادعت اختبارات مشابهة أنها تجد هذا النوع من التأثير. أعدّ العلماء في مشفى Guy في لندن عيّنات من نموذج الهستامينات التي ينصــح بها دانا أولمان. واختبروا 400 عينة، ورأوا تأثيرها على كريات الدم البيضاء. استغــرق الاختبار أسبوعاً. تثبت ثلاثة معالجين بالمثــل أن التمديد تم بشكل مناسب. وأخــيراً وبعــد خمسة أيام مــن الاختبــار أحضر لنا النتائــج ج. مارتن بلانــد أستاذ الإحصاء الطبي.

هل وجدنا أن الماء له ذاكرة؟ هل ربحت مليون دولار؟

قــال دكتور بلاند: «أظن لا» «لا يوجــد أي دليل على الإطلاق أنه يوجد أي فرق بين الأقنية.. يستطيع السيد ستوسل أن يودع مليون دولار بالقبلات».

ومــن المحزن أن الأمريكيــين يودعون العديد من الملايين بالقبــلات. كل سنة تبيع الشركات بملايين الدولارات أدوية معالجة بالمثل.

خرافة: التنويم المغناطيسي الطبي هو غش آخر.

حقيقة: أعمال التنويم المغناطيسي ليتك تتركها.

حين يقنعني حدس الارتياب عندي فإني أعرف الهراء حين أراه. لقد أصابني الجنون!! كنت أفترض أن التنويم المغناطيسي في الطب كان أحد ألعاب الخداع الأخرى.

كنت أرى تلك الإعلانات الواعدة. «إن المعالجة بالتنويم المغناطيسي سوف يساعدك علــى إنقاص وزنك!» بلا مزاح، لو كان ذلك ينجح لمــا رأيت جميع هؤلاء البدينين من

حولك. يدعي المنومون المغناطيسيون أيضاً أن بوسعهم أن يساعدوا الناس على وقف التدخين. هذا جدير بالتصديق ـ أظن إذا كانوا يستطيعون أن ينوموا مغناطيسياً الناس ليجعلوهم يقرقون مثل الدجاج، كما يفعل المنومون المغناطيسيون في النادي الليلي، فلا بد أن يكونوا قادرين على مساعدة الناس كي يقل ولعهم بالسجائر. وهكذا استعملت نقود ABC لأختبر نصف دزينة من التقنيات المضادة للتدخين، ووجدت أن المدخنين الذين ذهبوا إلى المنومين المغناطيسين لم يحرزوا نتائج أفضل من الذين لجؤوا لتقنيات أخرى، أو تركوا فجأة التدخين. ومعظم المدخنين المنومين مغناطيسياً عادوا إلى التنفيخ خلال شهرين.

حين كنت مراسل تلفزيون شاباً في بورتلاند من أوريغون ناداني منومون مغناطيسيون ليقدموا لي علاجاً للفأفأة عندي. جميل أن يظهر المرء في التلفاز. يأتي الناس إليه من «الأشغال الخشبية» Wood work ويقدمون له علاجات. لقد جربت منومين مغناطيسيين وعدا أن بوسعهما شفائي. وفي المرتين بعد المعالجة ظللت أفأفئ كالسابق. (والذي أعانني في النهاية على الكلام كان حضور دروس مدة ثلاثة أسابيع في معهد هولنز لبحوث التواصل بالكلام أو بغيره).

ولكن نفعاً آخر حظيت به من عملي، وهو أني كنت ألاقي تحديات بشكل منتظم. وقد لقي رأيي في التنويم المغناطيسي منافساً كُفْؤاً في شخص امرأة تزن ثمانية وثمانين باونداً، وتدعى كاتي بلاتوني، وهي من دايتون في أوهايو. شاهدتها وهي تخضع لجراحة مؤلمة دون تخدير.

ولدت كاتي مع عيوب في العظام؛ جعلها تمضي خمسة عشر عاماً تحاول تصليحها. والجراحة التي حضرناها كانت عملية ليزر للوجه لجروح حرق من جراحات سابقة. تحملت كاتي سلسلة من العمليات على مدى سنين، وكانت هذه العملية رقم خمسين ـ وكان عندها متاعب إن استعمل لها التخدير المعتاد.

قالت لي: «عانيت من صعوبات في الشفاء بعد الجراحة» وأردفت: «كان يستغرق ذلك مدة سنة لأشفى من التذكر وكان ذلك مدمراً لي».

ولكونها عالمة نفس تستعمل التنويم المغناطيسي مع مرضاها، كانت تؤمن أن التنويم المغناطيسي يمكن أن يحل مشكلتها. أقنعت جراحها أن يقوم بأمر لا يقوم به عادة ـ وهو إنجاز الجراحة دون تخدير لا عام ولا موضعي. كان الدكتور مرتاباً قائلاً: إن العملية تولد ألماً مبرحاً قال لها: «إنها مؤلمة جداً، وكأن عود ثقاب يذهب ويغدو على وجهك. إنها تؤلم» ألح الجراح على أن يقف مخدرٌ بالقرب منه أثناء إجرائها.

شاهدنا حين نوّم كاتي المعالج بالتنويم المغناطيسي جون بارن، وكان يخبرها أنه يخدر يدها بوضعها في دلو خيالي من الثلج. قال لها بلطف: «خذي يدك اليمنى وضعيها على خدك الأيسر» تتخدر جميع المناطق بشكل كامل كلي». وقال: إنها قد تشعر بشعور عائم مندفع، وكأنك تعومين على غيمة آمنة مطمئنة.

فعلت ذلك في غرفة العمليات وبين كل أنواع المشاهد المخيفة والأصوات ـ كان الليزر يحرق بكل معنى الكلمة عدة ثنيات في الجلد ـــ وكان عقل كاتي على بعد أميال من هناك. وقريباً من نهاية العملية دخل قطع عميق بشكل خاص غشيتها. وبدأت تشعر بالألم، ولكن جون بارن قادها ثانية إلى القطب الشمالي بكلمة تخيلية، فتمتم «جليد أزرق فولاذي» مثل جليديات القطب الشمالي، فهربت كاتي مرة ثانية وتراجع الألم.

وبعد العملية وصفت لنا لجوءها إلى التنويم المغناطيسي. قالت لي: «كان يوجد جبال جليدية عائمة، وأنا واقفة على واحدة آمنة تماماً» «وكانت السماء بنفس زرقة الماء الملكية العميقة. كنت أرى أمامي نحو مئة من طيور البطريق تقترب مني، وكأن من المفروض أن تكون هناك لمساعدتي فيما أمر به».

لقد مرت بالجراحة معتمدة على التنويم المغناطيسي وحده.

كنت ما أزال مرتاباً. لعل ذلك كان نوعاً من الأمر المرتب المصمم (مع أني لم أكن أستطيع أن أتخيل كيف يتم ذلك) هل يمكن أن يتم النجاح إذا اخترنا نحن المريض؟

اخترنا ستيف نورثلنجر وهو مريض بأسنانه من نيويورك. اخترناه لأنه كان حساساً جداً للألم. كان عنده نخر عميق يحتاج إلى كثير من الحفر، والذي كان بالنسبة لستيف يحتاج إلى الكثير من نوفوكاين.

وشاهدناه يسير في العملية بدون ارتعاش، يقوده جويس هانسون المعالج بالتنويم المغناطيسي.

ستوسل: كيف سار الأمر؟ ماذا فعل العقل؟

جويس هانسون: ما يفعله العقل بشكل أساس هو تحويل إحساسه إلى معرفة.

ستوسل: وإذاً فإن الألم الذي يحدث في نهايات العصب لا يصل أبداً إلى جزء الدماغ الذي يخبره أنه مؤلم؟

جويس هانسون: هذا صحيح. لأنه يختار أن يفكر في شيء آخر. ربما شيء مثل أشعة الشمس التي تظهر من وراء السحاب، وتولد إحساساً رائعاً بالاسترخاء.

يقول المنوم المغناطيسي: إن التنويم المغناطيسي هو تنويم مغناطيسي ذاتي. إنهم لا يستطيعون أن يجعلوا المرضى يقومون بأي شيء لا يريدون القيام به. إن المنومين المغناطيسيين هم مرشدون يعطون النصيحة، ولكن يجب أن يملك المنوِّم الرغبة في الإنصات لهذا النصيحة. وربما لهذا السبب يستمر المدخنون في التدخين، والشرهون في تناول الطعام. والإيحاء الذاتي ليس بديلاً عن الاقتناع. والمعالجة بالتنويم المغناطيسي لا تصلح لكل شخص. ولسوء الحظ لا تصلح لي.

ولكن مرة ثانية، تعلمت أن ما أظن معرفته ـ قد لا يكون كذلك.

الفصل العاشر

صحتنا

إن فضح زَيْف خرافات الصحة هو تحرر، ما إن تعرف الحقيقة حتى لا يكون عليك أن تزعج أطفالك حول تناولهم السكر، ولا تكون قلقاً عليهم أن يفرقعوا مفاصل أيديهم. ليس عليك أن تكسو نفسك بملابس دافئة في الشتاء، ولا أن تشعر بالذنب إن تناولت وجبة خفيفة في ساعة متأخرة من الليل. يالها من حرية!.

خرافة: إن تعرضت للبرد تصاب بنزلة وافدة.

حقيقة: لا يحدث ذلك.

إن هذه الحكاية التي ترويها الزوجات المسنات مقنعة. حتى إني لا أستطيع أن أقنع زوجتي أن هذه خرافة مع أن أطناناً من البحوث أجريت لكي تثبت خطأها. ذهبت مرة إلى «منتجع» إنكليزي رطب كئيب موحش، كان الباحثون يأخذون إليه متطوعين لإجراء تجارب طبية، وذلك بأن يقدموا لهم إقامة مجانية لمدة أسبوعين «عطلة». ثم ينشر العلماء فيروسات النزلة الوافدة (الرشح) في أنوف النزلاء ويراقبونهم. يُلزم نصف المجموعة بالبقاء داخل النُزُل في غرف مدفأة، بينما يطلب إلى النصف الآخر أن يمشوا خارج النزل أثناء هطول مطر بارد، ثم يجلسون وهم يرتجفون في غرف باردة. ولم تصب هذه المجموعة المرتجفة من البرد بفيروس النزلة الوافدة أكثر مما أصيب به الآخرون. ولم تكن هذه عطلة مسلية لهم، ولكن على الأقل علمتنا مشاركة هؤلاء الناس في الدراسة أنه لا يوجد فرق بين من يتعرض للبرد ومن لا يتعرض له في احتمال الإصابة بالنزلة.

نحن أكثر إصابة بالمرض حين يكون الطقس بارداً. ولكن ذلك يعود إلى أننا نقضي وقتاً أطول داخل المنزل يتنفس كل منا في وجه الآخر ونمرر الجرثوم جيئة وذهاباً. والبرد أيضاً يسيل الأنف، ولكن هذا لا علاقة له بالمرض.

عندما علمت ذلك أصبحت الأبوة أسهل بالنسبة لي. أصبحت قادراً على الاسترخاء عندما كان يلعب الأولاد خارج المنزل بدون معطف، ولم يكن علي أن أتشاجر معهم حول موضوع ملابسهم. كانت الأمهات يرمقنني شرزاً في الحدائق لأني لا أعطي أولادي الرعاية الكافية، وكنت أتجاهلهن متيقناً أني لا أفعل خطأ. وكان أولادي يستمتعون أكثر لأنه لم يكن هناك من يضايقهم.

سوف يسر أعضاء نوادي الدب القطبي أن يعلموك أموراً حول ذلك. ففي كل شتاء يقفز هؤلاء المجانين أقصد السباحين ـ إرادياً إلى البحيرات والمحيطات المتجمدة. في أحد الأيام الباردة من شهر كانون الأول قابلت مجموعة منهم في نيويورك، كانت تسبح في الأطلسي كل أحد. وما إن اقتربت من أحدهم وأنا بمعطفي الشتوي السميك حتى أبدوا بغضاً من مظهري.

عضو في نادي الدب القطبي: إنك تثقل ملابسك يا رفيق هيا بنا. أسبح هنا معنا. أزح ذلك المعطف.

ستوسل: في جميع أنحاء أمريكا تقول ملايين الأمهات لأطفالهن «لا تخرجوا بدون معاطف أو تمرضون».

عضو في نادي الدب القطبي: أظن أن ملايين الأمهات على خطأ.

نعم إنهن على خطأ.

اقترحت دراسة بريطانية جرت حديثاً أن التعرض للبرد يسبب النزلة الوافدة. وكان في (مركز النزلة الوافدة الشائعة) تسعون متطوعاً يضعون أقدامهم الحافية في الماء المثلج عشرين دقيقة. أصيب بالنزلة 29 بالمئة منهم مقابل 9 بالمئة في المجموعة المدروسة المراقبة. غطى هذا النبأ الصفحات الأولى في الصحف الأمريكية والعديد من عروض الصباح التلفازية البارزة.

ولكن العلماء «الحقيقيين» لن يبطلوا أية نظريات قامت على هذه الدراسة قائلين إن الناس الذين أجريت عليهم الدراسة كانوا عالمين بذلك. كانوا موجودين في ذلك المركز ويتوقعون إن يصابوا بالنزلة لأن أقدامهم كانت مبتلة وهذا ما قالوه فيما بعد.

ولإجـراء الدراسة بشكل مناسـب كان على العلماء أن يبقوا النـاسـ موضوع الدراسة جاهلـين بأنهم موضع دراسة ويأخـذون عينات سائلة لفحص وجـود جرثومة النزلة الوافدة. فذلك المركز لم يفعل ذلك وقال العلماء: أخرج الرفش.

خرافة: فرقعة الأصابع سيئة لك.
حقيقة: فرقعوا أصابعكم.

يقول الأهل للأولاد: لا تفرقعوا أصابعكم؛ لأن ذلك يجعلها كبيرة وقبيحة. ويخشى البالغون الفرقعة لئلا يصابوا بالتهاب المفاصل.

تقـول مؤسسة (التهـاب المفاصل): إن هذه مخاوف وخرافـات. إن الصوت الذي تسمعـه حـين تفرقع أصابعك هو انفجـار هواء الفقاعة الموجـودة داخل المفصل حين يسحب المفصل.

إن فقاعـات الهـواء في المفصل لا تسبب أي أذى ليدك، وليسـ لها علاقة بالتهاب المفاصل. قد تكون هذه الخرافة قد أطلقها أستاذ أو أهل غاضبون أو ساخطون.

تسبب إزعاجاً؟ نعم، التهاب مفاصل؟ لا.

خرافة: تتحول العضلة إلى دهن إن لم تتمرن.
حقيقة: الدهن دهن والعضلة عضلة لا تتحول.

يتمـرن بعض الناس من الخوف: فهم يشغلون عضلاتهم لا للمحافظة على شكلها من باب (استعملها أو تفقدها)، ولكن لأنهم يظنون أن العضلات غير المستعملة سوف تتحول إلى دهن.

هنـاك أسبـاب جيدة للعمـل، ولكن تحول العضلـة إلى دهن ليسـ من بين تلك الأسبـاب. قـال لنا الدكتور والـتر تومبسون ـ وهـو أستاذ علـم التمرين في جامعة ولايـة جورجيا، ومشارك في وضع كتاب «كيف تسجـل في الجامعة الأمريكية للطب

الرياضي» ـ قال: إنك إن توقفت عن التمرين فإن العضلة تصبح واهنة وغير فاعلة، ولكنها «لن تصبح دهناً أبداً».

إن الخلايا الدهنية مختلفة تماماً عن الخلايا العضلية «العضلة عضلة والدهن دهن». وتضيف خبيرة اللياقة دونا ريكادسون جونير: «ولا تستطيع أن تحول واحداً إلى الآخر».

توجد رابطة وحيدة بين الدهن والعضلة تستحق الاطلاع عليها: كلما كانت العضلة نحيلة عندك، فإنك تحرق المزيد من الحريرات لكي تعمل، وحرق الحريرات أكثر يخلصك من الدهن.

خرافة: إذا كتب على اللصاقة 100 حريرة، فالعبوة تعطيك 100 حريرة.

حقيقة: بعض حجوم العبوات غريب.

لا يمكنك أن تتوقع أن ما يسمى «قطعة البيتزا الخاصة بك» طعاماً تتقاسمه مع غيرك، ولكن الشركة أنتجت قطع البيتزا المجمدة الصغيرة. تدعي أنها ابتكرتها ليتناولها اثنان. أخذنا واحدة إلى متحدثين عن البيتزا في مدينة نيويورك، ووجدنا جمهوراً صارماً عسيراً.

صانع البيتزا: لا أظنك تستطيع أن تتقاسم هذه مع أي شخص آخر.

صانع بيتزا 2: قد يلقونها في وجهي.

زبون 1: أين بقيّتها؟

زبون 2: بوسع قطتي أن تأكلها.

لم الاكتراث إن كانت اللصاقة تحمل مفهوماً غريباً عن حجم العبوة؟

لأننا نعتمد على اللصاقات لنعدد الحريرات والدهن والملح. ربما تظن أن الكميات المذكورة على اللصاقات هي الحريرات الموجودة في كل ظرف، إلا أنها الحريرات الموجودة في كل عبوة، أو بالأحرى ما تدعيه الشركة في تلك «العبوة». وهكذا إن كانت

تلك العبوة صغيرة جداً إلى حد مضحك فإنك تأكل مرتين أو ثلاث مرات بما فيها من دهن/ ملح/ أو أي شيء آخر مما ظننت أنك تأكله.

وجدنا فطيرة العنبية التي كان فيها بالأصل 645 حريرة ـ لكن اللصاقة عليها ذكرت 215 حريرة، لأن الشركة ادعت أن تلك العبوة هي ثلث الفطيرة المعتادة.

لم أستطع أن أجد شخصاً بوسعه أن يأكل ثلث الفطيرة المعتادة.

ستوسل: قالوا إن هذه من أجل ثلاثة أشخاص، ثلاث عبوات.
المستهلك: كم تبلغ من الصغر؟

قد تسأل: «ألا يوجد قواعد تحكم حجم العبوات؟ بل يوجد قواعد. في أوائل 1990 حلت الحكومة «بحكمتها» مشكلة اللصاقات المربكة. فأمرت صناعة الطعام أن تختبر وزن 139 نوعاً مختلفاً من الطعام وقياسها. وحددت الحكومة حينئذ الكمية التي يستطيع الزبون أن يأكلها، وحددت حجم كل «عبوة». وأعلن بيروقراطي من وزارة الصحة والخدمات الإنسانية بفخار أن «برج بابل في لصاقات الطعام انهار تماماً!».

وكما جرت العادة فإن «حل» البيرواقراطيين يخلق مشكلات جديدة: حجوم وعبوات مستحيلة. إنها مشكلة ربما تحبها شركات الطعام؛ لأنها تدعهم يوحون بأن طعامهم أقل دهناً مما هو في الحقيقة.

لم تقبل أي شركة طعام غاضبة التحدث معنا حول هذا الموضوع، وهذا سيئ جداً، لأنه كان بودي أن أعرف كيف يصل خيار أمريكا للزيتون إلى وضع عبوة فيها زيتونة ونصف. هل أكلت في حياتك نصف زيتونة؟ أخرج الرفش!.

خرافة: المارغارين صحية أكثر من الزبدة.
حقيقة: هذا يتعلق بنوع المارغارين.

مدى سنين كان يقال لنا: إن الزبدة سيئة، والمارغارين أفضل. الإعلانات تقول ذلك والأطباء اعتادوا أن يقولوا ذلك، ولكن تبين أن هذا ليس كامل الحقيقة.

غالباً ما يجمد الصناع المارغارين لتبدو مثل الزبدة في قوالب، وتدعى العملية الهدرجة، وتحدُث ما يدعى «الدهون المقرنة» والدهون المقرنة مضرة بصحة القلب مثل الدهون المشبعة هذا النوع من الزبدة هو الذي يرفع الكولسترول السيئ في أجسامنا.

وهكذا بين زبدة بالدهن المشبع ومارغارين بالدهون المقرنة أي خيار أكثر حكمة قال لنا دكتور ديفيد كاتز: «إن كان علي أن أختار أنا أختار الزبدة». وهو خبير تغذية في جامعة ييل. وقال أيضاً: من الأفضل تجنب كليهما، وأخذ نوع جديد من المارغارين الذي تقل فيه الدهون المقرنة.

إن النوع الشائع الآن يمزج الزيوت غير المشبعة مع مضافات نباتية. ويستطيع المزيج في الواقع أن يساعد على تخفيض مستويات الكولسترول العالية. يوصي الدكتور كاتز بتناول منتجات تحوي زيوتاً غير مشبعة فقط، وهذا يجعل الادعاءات الصحية على اللصاقات تشير إلى أن المنتج بوسعه أن يحسّن الكولسترول أو صحة القلب، (وتوافق على ذلك إدارة الغذاء والدواء (FDA) يكتب على كثير من اللصاقات الآن: لا يوجد دهون مقرنة.

يقول دكتور كاتز: «الزبدة أفضل من أنواع مارغارين سيئة» ويقول: «وأنواع المارغارين الجيدة أفضل من الزبدة».

بالإضافة إلى ذلك فإن الأوعية أفضل من القوالب، لأن نشر المارغارين فيها يدل على أن قوامها أقل صلابة، وهذا يقلل مخاطرها؛ لأن تعرضها لعملية التجميد كان أقل.

لم يعد اتخاذ قرار ماذا تضع على قطعة الخبز المقمر سهلاً بعد اليوم.

خرافة: تناول الطعام في وقت متأخر من الليل يجعلك بديناً.

حقيقة: لا يهم متى تأكل.

نسمع القول الآتي طوال الوقت.كل في وقت متأخر من الليل وستصبح بديناً؛ لأنك لن تصرف الحريرات التي تأخذها.

ولكــن في جامعــة أورغون للصحة والعلـوم درس العلماء سبعــاً وأربعين قردة أنثى محتفظين بسجلات تفصيلية ماذا أكلت هذه القرود بالضبط؟ ومتى؟.

لم تكن الحيوانات التي أكلت طعامها ليلاً هي أكثر في زيادة أوزانها. وفي الواقع لم يكن هناك علاقة متبادلة بين الأكل ليلاً وزيادة الوزن.

ولكــن النـاســ يكسبون وزناً في الواقــع من الأكل في وقت متأخر مــن الليل. لا لأننا نستقبــل الطعــام بشكل مختلف في ذلك الوقت، ولكــن لأن العديد من الناس يؤخرون تنــاول وجبات الدهن العالي إلى آخر النهار، مثل: المثلجــات، والشيبس، والشوكولاة. أنا نفسي أفعل ذلك. أنا أحتفل في الليل.

يرتعــب الناس كم مــن البوشار والمثلجات والشوكولاة أتنــاول قبل أن أنام. أعوض ذلك بأن أحذف الإفطار. وإني لا أوصي بذلك.

ولكــن الشــيء الأساس أن الباحثين يقولون: إن تنــاول الطعام في منتصف الليل لا يجعلــك أكثر بدانــة: لأنك تتناوله متأخراً في الليل. ولكن الــذي يجعلك بديناً هو أنك تأخذ حريرات أكثر مما تحرق.

الحريرة هي الحريرة ولا يهم متى أكلتها.

خرافة: الأكل في المنزل أكثر أماناً من الأكل خارج المنزل.

حقيقة: الأكل في المنزل قد يجعلك مريضاً.

تذكــر بانتظام البرامــج الجديدة المحلية التــي «تحصد أخبــار الأسبوع» في قسم الصحــة المحليــة «قوائم المطاعــم القذرة». لقــد أدمنوا على ذكــر: «الافتتاح القريب للمطاعــم التــي يمكنهــا أن تجعلك مريضاً!» ولكــن الحقيقة أن مــن المرجح أن تجعل نفسك مريضاً إن طهيت طعامك في المنزل.

يتعين على المطاعم أن تكون نظيفة لا من أجل التفتيش الصحي العارض. ولكن لأن تجارتهــا تتوقف على تــردد الزبائن إليها. إذا أخذت سمعة أنها تجعل زبائنها مرضى فإنها ستنتهي إلى الإفلاس. وقد تعلمت تجارة المطاعم أسس قمع البكتيريا.

ولكـن مـاذا عن مطابخنـا؟ سأل دون داهلـر من ABC زوجين كانـا يشكوان من نظافـة المطعـم إن كانا يفتحان مطبخهما لمفتش صحة ليلقـي نظرة. وقد وافقا. وجد مفتـش الصحـة في مطبخهما انتهاكات للصحة لم يجدهـا في أي مطعم. كان المطبخ ممتلئاً بالبكتريا. وكانت الليفة ـ والتي هي أكبر مرب للبكتريا في المنازل ـ قذرة جداً. لم تكن قد نظفت منذ شهر.

يقـول الدكتور فيليب تيرنو ـ مدير قسم علم الأحياء المجهري (ميكرو بيولوجيا) والمناعـة في مدرسـة الطب من جامعة نيويورك ـ: إن هنـاك خطراً يكمن في مطبخك أكبر من الخطر في المطعم: «من خمسين إلى ثمانين في المئة من إنتانات الجهاز المعدي المعوي والأمراض المتولدة من الطعام تلتقط في المنزل» كما قال لنا.

إن إدارة الغذاء والدواء (FDA) ووزارة الزراعة توافقان ـ ألقوا هذه الليف بعيداً، أو على الأقل ضعوها في جلاية الصحون حين تشغلونها، وكلوا خارج المنزل بكل ثقة.

خرافة: الشوكولاة سيئة لك.

حقيقة: ليس بهذه السرعة يا حبيبتي!

قال أحـد محبي الشوكولاة لزميلي بوب براون حين كان بوب يصف تلك الخرافة: «لو كان لي حلم أود أن يصبح حقيقة، فهو أن تكون الشوكولاة مفيدة لي» وما إن انتهى الحلم حتى صار جزئياً حقيقة.

خضعـت الشوكولاة حديثاً إلى سلسلة من الدراسات العلمية، كشفت أن لها منافع صحيحـة صادقة. فحبة الكوكـوا غنية بمركب يدعى (فلافونـول) flavonols يوجد هـذا المركب أيضاً في النبيذ الأحمر وفي الشـاي الأخضر وفي التفاح وفي البصل وهي مادة مفيدة لك.

وتقول كاترين تالمادج ـ وهي من جمعية الحمية الأمريكية ـ: «يمكن أن يكون للشوكولاة آثـار نافعة جّمة على قلبك» وقالـت: إن الفلافونول يساعد النـاس «لأنه يرخي الأوعية الدمويـة وينقص الجلطات الدموية [مثـل مفعول الأسبرين] وربما ينقص ضغط الدم. وهو أيضاً يساعد على إنقاص الالتهاب الذي هو عامل خطر داهم في مرض القلب».

ومـع ذلك ينبغـي أن تكون هـي الشوكولاة الملائمـة. فمركب الفوفونـول يعالج في تصنيع الشوكولاة بسبب مذاقه المر. «ينبغي أن تجد منتجاً عولج في التصنيع بأقل حد ممكن» كما قالت السيدة تالمادج. «ابحث عن أغمق شوكولاة تستطيع أن تجدها وحاول أن تجد منتجاً فيه مستوى عال من الكوكوا ومستوى منخفض من الحريرات».

وبالرغم من هذه الأخبار الطبية عن منافع محتملة فإن الشوكولاة مرتفعة السكر والدهن فهي ليست بالطعام الصحي تماماً. ولكني على أي حال أضفت أنا الشوكولاة الغامقة إلى حفلاتي، وقريباً سوف تحتاج إلى رفش من أجلي.

خرافة: السكر يجعل الأولاد مفرطي الحيوية.
حقيقة: الحفلات تجعل الأولاد مفرطي الحيوية.

الأهل مقتنعون أن السكر يجعل الأولاد مجانين، وبعض الأطفال يعتقدون ذلك.

بنت في السادسة من عمرها: أنا أصبح حقاً مخبولة عندما أحصل على السكاكر.
فتاة مراهقة: إنك تصبح حقاً مفرط الحيوية.
صبي مراهق: بوسعك أن تتناول سكرة واحدة وتقفز فوق الجدران.

إن الكتـب التي تدافع عن منافع «الطعام الطبيعـي» تدعي أن السكر المكرر يسبب فرط الحيوية عند الأطفال. ولكن البحث واضح جداً: ليس السكر هو الذي يسبب فرط الحيويـة عند الولد. وجدت عدة دراسات لذلـك. إحدى الدراسات تابعت مجموعتين مـن الأطفال: مجموعة أعطيت طعاماً مع السكـر ومجموعة أخرى أعطيت طعاماً مع مـادة محليـة اصطناعية. ومن أجـل التثبت من أن نتائج الاختبار لـن تتأثر بمفاهيم سابقة لم يعلم الأهل ولا الباحثون أي مجموعة أخذت السكر الحقيقي.

وراقبوا الأولاد من جهة التهيج المفرط وفرط الحيوية فلم يلمسوا أي فرق.

من العسير التصديق لأني شاهدت الأولاد يجنون في الحفلات. أليس ذلك بسبب كل السكاكر التي تناولوها ؟ في الواقع لا، فالأولاد هم مفرطو الحيوية لأنهم مثارون.

لأن هنـاك عشرين ولداً معاً، لأنها حفلة. ويقول الباحثون في مجال الطعام: إن الأمر الوحيد الذي يمكن أن يجعل الأولاد مفرطي الحيوية هو الكافئين الموجود في الشوكولاة وفي الصودا.

خرافة: القراءة في ضوء منخفض تؤذي عينيك.
حقيقة: لا تؤذيهما.

تلـك هي مسألة كانـت أمي تلح علي فيها: «توقـف!» «إن القراءة في الظلام سوف تؤذي عينيك. هل تريد أن تضع نظارات؟ هل تريد أن تصبح أعمى؟».

كانـت علـى خطأ كما كانـت غالباً. هل تـؤذي أذنيك أن تسمـع همسة؟ كذلك لن تـؤذي عينيك إن قـرأت في الظلام. وفي الواقع قبل أن تكون لدينا الأضواء الكهربائية كان معظـم الناس يقرؤون على ضوء الشموع، وعلى مصابيح الغاز. ولم تتضرر عيون أجدادنا، وكذلك لن تتضرر عيوننا.

قلـق آخـر: إن التركيز المثبت و/أو مـع إغلاق العين ومشاهـدة التلفاز، واستعمال الحاسوب، أو القراءة يمكن أن تثقل على الجهاز البصري، وتتعب العضلات المسؤولة عن التركيز!.

مـرة ثانية يقول الأطبـاء: هذا خطأ تماماً. قد تشعر بالتعـب ولكن إغلاق العينين وقت التركيز لا يؤذي العينين.

وأخـيراً يقول بعضـ الناس: إن النظارات والعدسـات اللاصقة تولد الاتكال، مما يجعـل نظرك أسوأ حالاً هذا مرة ثانية خطأ كامل. إن وضع النظارات لا يجعل نظرك أكثر ضعفاً بأي شكل.

خرافة: إن غسل الفم يشفي من رائحة النفس السيئة.
حقيقة: إن غسل الفم يجعل الأمور أسوأ على الأغلب.

تأتي رائحة النفس السيئة من البكتريا في الفم. وغسل الفم لا يقتل البكتريا ولكن إليكـم هـذا السر الصغير القـذر: إن الكحـول في معظم غسولات الفـم ينقص عدد البكتريـا ولكنه يجفـف الفم ويتركه مرتعاً خصباً لنمو البكتريـا بشكل أسرع. وهكذا فـإن غسـولات الفم الذي ينقص إلى أمـد قصير رائحة النفس السيئـة يجعل الأمور أسوأ فيما بعد.

قال الأطباء ـ الذين استشرناهم ـ : إن جعل الفم رطباً هو مفتاح النفس الطيب. وهـذا هـو السبب في أن الأطفال الصغار ليس لهم نَفَسـ سيئ. إنهم يفرزون الكثير من اللعاب.

وتلـح الشـركات التي تنتج غسولات الفم المعتمدة على الكحـول على أن منتجاتهم مجديـة. صانعـو ماركتي (سكوب) و(لافوريبس) أخبرونـا أن منتجاتهم فيها كمية منخفضـة مـن الكحول. الليسترين الذي يوجد فيه 27 بالمئة مـن الكحول يرسل إلينا جملـة تقول: إن لديهـم دراسة تثبت أن الليسترين حالياً يزيـد تدفق اللعاب. كل هذا يخالف ما قاله لنا الأطباء.

يتفـق الجميع مع ذلك على أن أفضل علاج لرائحة النفس السيئة هو صحة فموية جيـدة: استعمال الخيوط فـرك الأسنان بالفرشـاة مدة دقيقتين علـى الأقل، وفرك اللسـان بالفرشـاة. ويساعـد على إبقاء الفـم رطباً شرب كمية كبـيرة من الماء. هذا أيضاً يتدفق فيزيل بعض البكتريا.

خرافـة: الحـواسيـب المحمولـة Laptop يـمكـن أن تـنقـص خصب الذكور.

حقيقة: حدث شيء من هذا القبيل.

كنـت أفترض أن هذه خرافـة شائعة في المدن. هل الحواسيـب المحمولة سيئة من أجل غدد النطف لدى الذكور؟ يا للعجب!

الحقيقــة أن الحاســوب المحمول يصدر حــرارة والحرارة سيئة للنطـف. قال لنا الدكتــور هــاري فيشــن: «أي شيء يزيــد حرارة (الصفــق) Scrotum يمكــن أن يؤثر تأثـيراً سيئاً على إنتــاج النطف وعلى الخصب». دكتور فيشر خبير في موضوع النطف والخصــب عند الذكــور، وهو أستاذ علم جهــاز البول في جامعة كولومبيــا. يقول: إن الخصي تقع خارج الجسم، لأنها تحتاج أن تكون أبرد من الجسم».

ربمــا كانت مياه البانيو بدرجة 104 جــد رومانتيكية، ولكنها تقتل النطف كما قال الدكتور فيش وربما يستغرق الأمر من أربعة إلى ستة أشهر كي يشفى عدد النطف».

لقــد اكتشفنا أن الحواسيب المحمولة تسبــب حرارة أعلى من حرارة الماء الساخن في البانيــو. لقــد قسنا 107 درجــة في حاسوب كان يستعمل لساعــة من الزمن، ولكن يوجد حل بسيط ربما خطر على فكرك الخصيب.

لا تضع الآلة على حضنك. يقول دكتور فيش إذا ازداد عدد الرجال الذين يضعون الحاســوب المحمــول على المناضــد أو المكاتب سيقل عــدد الأزواج الذين يشكون من عدم الحمل.

خرافة: هواء الطائرة يجعلك مريضاً.

حقيقة: جارك في المقعد يجعلك مريضاً.

يشعــر النــاس بالمرض بعد الطيران ويلوم الكثيرون الهــواء الذي ينفخ من فوهات فوق مقعدك.

مسافـر: أحســب بلا ريب أن هواء الطائرة بوسعــه أن يجعلني أشعر بالمرض. أنا غالباً تصيبني نزلة بعد ركوب الطائرة.

مسافـر: عندمــا أخرج بعــد الطــيران أشعر أني محتقــن وأحتــاج إلى استعمال المنفسة. ولا أعتقد أن هواء الطائرة مكيف كما يجب.

مع كل هذا الهواء الذي يكرر دورانه ويهب علينا من المنطقي أن نلوم الهواء عندما نصبح مرضى.

ولكـن خبراء التصفية يقولـون: إن غرفة التصفية تعمـل الآن جيداً، وتحتجز 99 بالمئـة من البكتريـا والجراثيم. جرت دراسة طبية عـام 2002 ووجدت أن المسافرين الركاب في الطائرة مع هواء أعيد نشره لا يصابون بالبرد أكثر من الناس الذين تُهوى طائراتهم بالهواء النقي.

لم تصـاب بالنزلة في الطائرة إذاً؟ لأنك تجلس في أسطوانة ضيقة من الألمنيوم محشورة بالناس، وبعضهم مريض بالبرد. إنك تلتقط الجراثيم بتنفس ما يزفرونه، أو بلمس مساند الأيدي، أو الوسائد، أو أي أشياء أخرى لمسها المرضى، ثم لمستها عيونك وفمك.

لا تقلق لأن الهواء ينفث عليك من تلك الثقوب. ربما هذا يساعدك على أن تبقى سليماً من تلك الجراثيم التي تنتشر من سعال الناس من حولك. اهتم بأن تغسل يديك.

خرافة: التغسيل بصابون ضد البكتريات يساعد على بقائك بصحة جيدة.

حقيقة: من الأرجح ألا يكون هناك أي فرق.

ظل التلفاز يخبرنا في إعلاناته مدة سنين أن الصابون المضاد للبكتريا أفضل.

والإعلان النموذجي يعرض مشاهد دافئة مشوشة عن أسرة في بيتها، على حين يردد شخص بنبرة منذرة: «أصبح عندكم أولاد، أصبح عندكم جراثيم! أنتم تحتاجون إلى صابون يقتل الجراثيم».

يبدو الأمر منطقياً والناس الذين حاورناهم بدوا مصدقين لذلك.

مستهلك أول: أثناء موسم البرد والأنفلونزا أريد فقط أن أتأكد أني أقتل البكتريا.

مستهلك ثان: هذا هو الهدف الكلي، أن يكون الصابون مضاداً للبكتريا، والمفروض أن يؤثر بشدة من أجلك!

حقــاً إن أنواع الصـابون المضادة للبكتريا تخفض عدد البكتريا على المدى الطويل، وهــذا سبب استعمالها في المستشفيات. ولكن ليس لها تأثير على الفيروسات (الحمى الراشحــة). وقــد أخفق العديد مــن الدراسات على إيجاد دليل يبرهــن أن الصـابون المضــاد للبكتريا سوف ينقص المرض. درس الباحثــون في جامعة كولومبيا مرة حالة مئة ربة بيت، كان بعضهن يستعملن منتجات مضادة للبكتريا، وبعضهم لا يستعملنها. ولم يجدوا أي فارق في الإصابة بالسعال أو بسيلان أو بآلام الحلق... إلخ بينهن.

لقــد اختبرنا أناساً قذرين جداً: عمالاً في حديقة الحيوان في جزيرة ستيتن أيلاند في نيويــورك. أخذت واحدة من علماء الميكروبيولوجيــا عينات بكتريا من أيدي هؤلاء العمــال، وكان بعضهم يغسل يديه بصابون مضــاد للبكتريا، وبعضهم الآخر بصابون عادي. ثم أخذت عينات البكتريا من أيديهم. فوجدت أن نوعي الصابون أفلحا في قتل البكتريا. واختبارات علمية أخرى جاءت بنتائج مشابهة.

بكلمــات أخرى حتى لو كان عملك في حديقة حيوان؛ فإن غسل اليدين جيداً سوف يقتــل الجراثيم. كيفيــة غسل اليدين هي التــي تسبب ظهور الفــارق الكبير، لا نوعية الصابون الذي تستعمله.

قالــت تلك العالمة البيولوجية: إن الأمريكيــين يحتاجون إلى دروس تقنية في كيفية غســل أيديهم. دروســ؟ ولكني بعد أن راقبتهــا أدركت المغــزى: إن معظمنا ينبغي أن يغسلوا مدة أطول مما يفعلون، على الأقل ثلاثين ثانية، نأخذ كمية أكبر من الصابون ونفــرك بشدة عدة مرات. إن الفــرك هو الذي ينزع الجلد الميــت والوسخ الذي يأوي الجراثيم. وبعد أن تجفف يديك حذار أن تمس أي جزء من المغسلة بيديك النظيفتين. وهذا يعني عادة أن تستعمل الورق لإغلاق الصنبور.

تقــول العالمة الحيوية هــذا أفضل من التحول إلى استعمال صابون ضد البكتريا. وفي الواقــع أن إدارة الغــذاء والــدواء (FDA) تقول أن من الممكن أن الإفــراط في استعمال الصابون المضاد للبكتريا ينمي بكتريا أسوأ، وربما تسبب مشكلات على المدى الطويل.

وهكـذا: استعمـل الصـابون العـادي. وغسّـل جيداً. بالطبع يثير هـذا مسألة: هل معظـم النـاس يغسّلون؟ بعضهـم لا يغسّل أبداً. لقد جرى مسـح حديث على مستوى الوطـن في مجال عام، ووجد أن 10 بالمئة مـن النساء لا يغسلن أيديهن بعد استعمال المراحيض العامة!! والرجال أسوأ!! إن 25 بالمئة منهم لا يغسلون. هذا أمر سيئ لهم وسيئ لكل إنسان.

خرافة: الحلاقة تجعل الشعر ينمو أشد سمكاً.

حقيقة: إن هذا يبدو في الظاهر فقط.

يقـال للفتيات الصغـار: لا تحلقوا شعر الساقين إن فعلـتن ذلك سوف ينمو الشعر بسرعة، ويكون أكثر سماكة وقسوة.

هـذا ليس صحيحـاً. يكون الشعور بـأن الشعر أسمك حين يعـود إلى الظهور؛ لأن الشعر القصير أكثر تصلباً، وهذا يعطيك شعوراً بأنه يعود إلى النمو بشكل أسرع.

إن كانت الحلاقة تزيد نمو الشعر يحتاج الرجال الصلع أن يحلقوا رؤوسهم.

ومع ذلك فإن قلع الشعر بالشمع يؤخر ظهور الشعر أكثر من الحلاقة. لأنك عندما تنـزع الشعر بالشمع تقتلعه من تحت الجلد وقـد يمضي ثلاثة أسابيع أو أربعة أسابيع قبل أن يظهر الشعر مرة ثانية.

خرافة: السباحة بعد تناول الطعام خطرة.

حقيقة: اذهب واسبح.

إنـه أمـر آخر تضايقك أمـك بخصوصه: إن سبحت بمعـدة مليئة قد يصيبك تشنج وتغرق.

ربمـا كان أصـل هذه الخرافة هو جلب الراحة. فالمرء لا يشعـر شعوراً طيباً إن هو قـام بـأي نوع من التمرين الشـاق بعد تناول وجبة كبيرة. تحـول معدتك جريان الدم

مـن العضلات المتمرنة إلى عمليـة الهضم التي تتركك أكثر ضعفـاً ومقطوع النفس. إن حاولـت أن تعمـل بنشاط قد يصيبـك التشنج الذي يبدو مخيفـاً للسباحين الذين يحاولون أن يبقوا أنفسهم عائمين.

ولكـن الصليب الأحمر يقول إن الإصابة بالتشنج ليس تهديداً للحياة. وكما لاحظ العديد من الأطباء فإن التهديد الحقيقي للسباحين هو الكحول ونقص عدة الأمان في الزوارق، ونقص الانتباه للأطفال الصغار حول المسابح.

مـن أجل برنامـج 20/20 غذّينـا Big macs من أجل فريق سباحـة قبل التمرين مباشرة، ووضعنا حراساً للحماية، ولكن الجميع قام بعمل رائع.

خرافة: فم الكلب أنظف من فمكم.

حقيقة: لابد أنك تمزح.

إن محبـي الـكلاب يعتقدون بذلك. إنهـم يدعون كلابهم تلعـق وجوههم ويقولون شيئـاً مثل: «في أفـواه الكلاب عدد من الجراثيم بمقدار الجراثيـم الموجودة في أفواه النـاسـ». قال أحد مالكي الحيـوان: «إن لعابها أنظف بكثير وإن كان لديك جرح أو أي شيء ولعقته الحيوانات فإن هذا الجرح يشفى».

هـل أنت تسخر مني؟ فكر أيـن تضع الكلاب أفواهها. أشـارت الطبيبة البيطرية مـاري بيكـر مؤلفـة كتـاب Chicken soup for the Dog owner, soul «إنهـا تلعق عوراتهـا، وتغزو حاوية القمامة. إننا نقبل خـدود بعضنا بعضاً حين نقول مرحباً. أما هـي فتقبل بعضها بعضاً من الخلف. أعني كل ما عليك أن تفعله هو أن تنظر وتشاهد وتشم وحينئذٍ تدرك أن ذلك ليس صحيحاً.

ربمـا كان الذين يعتقدون أن أفواه الكلاب أنظـف لأنهم يظنون أن البكتريا في فم الكلـب هي خاصـة بجنسه والمكور العنقـودي والعصية العقدية المسببـة للإنتان عند الكلب لا يمكن أن تنتقل إلى الإنسان. وربما تلتقط مرضاً خطيراً بتقبيل شخص أكثر من تقبيل كلب.

والسبـب الثاني أن بعض الناس يؤمنون بهـذه الخرافة هو أنهم يلاحظون أنه بعد أن يلعق الحيوان جرحاً يشفى الجرح بسرعة. ولكن هذا لأن لسان الكلب يتخلص من النسج الميتة تماماً مثلما يفعل الجراح عندما ينظف الجرح ليصل إلى النسج المعافاة. وعملية اللعق أيضاً تثير الجريان.

ولكن فم كلبك قذر للغاية.

خرافة: الانتقام حلو.
حقيقة: التسامح أحلى.

مـا أفضل شيء تفعله لصحتـك إن شعرت أنك مظلوم؟ هل تنتقم؟ أنا أفكر هكذا لأن الانتقـام يجلب الرضى. ولذلك أنا أحـب أفلاماً مثل Kill Bill and Gladiator. يشعر المرء شعوراً طيباً إن وجد «العدالة» تستتب.

ولكن العلماء درسوا في الواقع الانتقام واستنتجوا أن الانتقام ليس الجواب الأفضل.

يقـول فريد لوسكين عالم النفس في جامعة ستانفـورد ومؤلف كتاب Forgive for good: «يوجد العديد من البحوث عن التأثيرات السلبية للعدوان». ويقول: «إن رغبتك في إيـذاء أحد الناس تجعلك أقرب للإصابـة بمرض القلب. إنها تزيد خطورة الكرب المتعلـق بأشكال الاعتـلال. إنها ترفع ضغط الدم عندك». قـال لنا لوسكين: «إن ذلك كمن يسكب Dramo داخلك» (Dramo: سائل لفتح المجاري).

إيفاكـور تعرف هذا الشعـور. إنها لن تنسى أبداً ماحدث لهـا ولأختها التوأم التي تبلـغ ستين سنة مـن العمر، قبل سنين. كانتا في العاشرة من العمر حين أخذ النازيون أسرتهمـا إلى معسكر الاعتقال في أوشوتيـز. وعندما وصلوا قال SS: «إننا نبحث عن توأمتين» وسحبوا الفتاتين من أمهما.

قالـت لي إيفا: «كنـا نبكي وكانت تبكـي»، وأردفت: «أتذكر أنني صـرت أنظر إلى الخلف ورأيـت ساعديها تمتدان بيأس. ومضت السنون، وأنا دائماً أتمنى لو كان لدي الشجاعة لأعود إليها وأقول لها: وداعاً».

لقــد وجدنا فيلماً في وثائــق ABC عن الفتاتين في أوشويتز. الأختان كور وغيرهما مــن التوائم كانتا تُستعملان مثل خنازير غينيا للتجــارب الطبية التي يقودها «ملاك الموت» المدعو دكتور جوزيف مينجيل.

تتذكر إيفا تفاصيل مزعجة: «لقد أخذوا كمية كبيرة من الدم من ساعدي الأيسر. كانــوا يريدون أن يعرفوا كم من الدم بوســع الإنسان أن يخسر ويبقى حياً وقف دكتور مينجيل بجانب سريري وقال: إن لدي أسبوعين فقط في الحياة».

وقــد نجت على نحو ما هي وأختهــا. أما بقية أسرتها فقد قتلــوا. ولكن بعد سنين مــن كره النازيين تقول إيفا إنها غــيرت حياتها إلى الأحسن حين اختارت مسامحتهم وحسب. وقد وجدت هذا الأمر صعباً على الفهم.

ستوسل: هل سامحت ذلك الطبيب؟

إيفاكور: سامحت كل شخص.

ستوسل: لماذا؟

إيفاكور: إن الضحية تشعر أنها مجروحة بلا أمل بلا معين بلا قوة. ليس للضحية أي خيار.

ستوسل: إن لديك خياراً بوسعك أن تكوني غاضبة.

إيفاكور: وهل هذا يساعدني؟ هل سيجعل حياتي أفضل؟

لقــد أدركــت إيفا غريزيــاً ما اكتشفــه الباحثــون: دع الكره يمضي فــذاك أجدى لصحتك ولسعادتك.

الفصل الحادي عشر

أخطار تربية الأولاد

أنا عميق الامتنان لأن برنامج 20/20 كلفني وضع قصص في تربية الأولاد. لم يكن عندي أولاد في ذلك الوقت، ولم يكن لدي خطط لأحظى بأولاد ولم يكن لدي اهتمام بهم. ولكني كنت «فتى علم النفس الطبي» وذات يوم وجدت نفسي في قسم الحضانة في المستشفى أتعلم كيف أمسك الرضيع من الدكتور بيري برازلتون وهو يقول: «كما لو أنك تحضن كرة قدم ولكن بجعل الرأس آمناً بين يديك...» لابد أني كنت عاجزاً لولا هذا التشبيه بكرة القدم، وفي السنين التي تلت تعثرت من خلال دروس أخرى.

وعندما تزوجت في النهاية وصار لي أولاد جعلني ماتعلمت في السابق أباً أفضل. معرفة ضئيلة تصنع فارقاً كبيراً.

خرافة: تربية الأولاد هي غريزة.

حقيقة: الغريزة هي غالباً خاطئة.

كنت أظن أن تربية الأولاد كانت غريزية. قام بها الناس آلاف السنين. لم تكن تبدو أمراً يحتاج إلى تمرين احترافي.

واتضح الأمر لي حين كنت أضع تقريراً في العناية بيوم «التداخل بين الأجيال». كانت دكتورة في الخامسة والعشرين من عمرها من وكالة العناية بالأطفال في أريزونا تشرح لمتقاعدين كيف يعتنون بالأولاد في يوم تركيز العناية.

جلست إلى جانب جدة على حافة صندوق/ معبأ بالرمل للأطفال ننتظر طاقم الكاميرا يسلط أضواء لا نهاية لها. لقد ربت تلك الجدة دزينة أولاد وأحفاد وكانت تأخذ الدرس فقط لأن ذلك كان مطلوباً للحصول على الوظيفة. سألتها:

«ألا تشعريـن بالمهانـة لأن عليك أن تصغي إلى النصح في تربية الأولاد من فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها؟» ألقت علي نظرة دهشة وقالت: «كلا أنا أتعلم أفكاراً عديـدة جديدة، مثل: صندوق الرمل هذا حين يلقي الولد الرمل فيه بدلاً من أن تقول له «لا تلقِ الرمل، إنك تعلم الأولاد ماذا يفعلون بالرمل».

كان ذلك تمهيداً لي في تربية الأولاد الإيجابية.

هـذا وقد كان لي حظ مقابلة مئات المختصـين الذين علموني أن الأطفال يتعلمون بشكل أفضل حين نخبرهم بأن مايفعلونه هو الأمر الصواب.

يعلّم «التدريب الإيجابي» في عيادات لعبة السوكر أن الأولاد يتحسنون عندما تكون نسبة التعليقات الإيجابية إلى السلبية خمسة إلى واحد. بكلمات أخرى في مقابل تعبير «ليس على هذا النحـو!» ينبغي أن يقال خمس مرات تعليقـات من نوع «جهد طيب... استعمال جيد لقدمك اليسرى...».

يبدو هذا تكلفاً ولكنه يصبح أسهل بالتدريج وهو ينجح. أعرف ذلك لأن هذا الأمر ساعدني في تربية أولادي في المنزل.

«ارصد أولادك حين يقومون بأمور صحيحة».

هـذا مانوّه به أحد الخـبراء. ليس أمراً طبيعياً غريزيـاً أن تطري الولد لمجرد أنه ارتـدى ملابسـه في الوقـت المحـدد أو لأنه قام بما طلـب إليه القيام بـه من الطبيعي أكـثر قول كلمة لا، ولكن حين تكون التعليقات إيجابية يكون الأولاد أكثر إصغاء. ويتوق الأولاد إلى الانتبـاه فإذا لم نعلق حين يقومون بأمر جيد فإنهم يقومون بأمور لا نحبها لكي يجلبوا انتباهنا.

معرفـة ذلك يجعل تربيـة الأولاد أسهل بكثير. لقد شاهدتَ آباء في السوبر ماركت يقولون باستمرار لا لأولادهم لا تفعل ذلك. إن الأهل الذين يعرفون أن يقولوا: «شكراً لأنـك ساعدتنـي كي أجـد الحليب» تكون رحـلات الشراء أكـثر إمتاعاً لهـم. ويكون أولادهم أكثر سعادة.

خرافة: الاستغناء عن العصا يفسد الولد.

حقيقة: قاعدة أخرى من التأديب تنجح أكثر.

في الحكايـة كانت المـرأة العجوز التـي تعيش في الحذاء تعـرف ماتعمل «تجلدهم بالسـوط بعنـف، وتضعهـم في السريـر» يوصي الكتـاب المقدس بأن تضـرب أولادك «بالسـوط» هـل يمكن أن تكـون أناشيـد الروضة والتقاليـد على مدى مئـات السنين والكتاب المقدس معها على خطأ؟.

اليوم يقول كل باحث تقريباً نسأله: «نعم إنهم على خطأ».

«ربمـا كان أفضل سر محفوظ عن علم نفس الطفل الأمريكي هو أن ضرب الأولاد ينتـج أولاداً يكونون مصـدر إزعاج أكبر ومضايقة أكثر للأهل وسلوك حسن أقل» هذا ماقالـه لي عالم الاجتماع الدكتور مـوري شتراوس Dr. murray. لقد أمضى عشرين سنة يدرس تقنيات تنشئة الأهل للطفل واستنتج أن الأهل الذين يصفعون أولادهم هم على الأغلب أكثر عرضة لأن يكون لديهم مشكلات مع أولادهم فيما بعد.

إن الأولاد الذيـن يضربـون بشكل متكرر يقل حبهـم لأنفسهم، ويجدون صعوبة في الحصول على أصدقاء، ويرجح أن يوارون السجون.

وحين يصبحون راشدين من المرجح أن يتصرفوا بعنف. وربما لكونهم ربطوا الضرب بالحب من المرجح أن يبحثوا عن علاقات مع أناس يؤذونهم ويسيؤون معاملتهم.

لابـد أن يساورني الشك في نفسي: هل كان الأولاد مزعجين في البداية ـ وهذا أدى إلى مشـكلات أخـرى وإلى الضرب والصفع؟ كيف يستطيـع المرء أن يعرف أي الأمور جـاءت أولاً؟ ولكن لما كان البحث يشوبه الغموض وعـدم الوضوح فإن معظم الخبراء الأمريكيين يقولون: «لا تضرب».

قليـل مـن الناس يتبعـون هذه النصيحة. فقـد وجد مسح وطنـي أن معظم الأهل يضربون أولادهم على الأقل مرة كل بضعة أشهر.

ينصح د. شتراوس وآخرون استشرناهم أن تقل في التأديب الطرق الجسمية مثل: توقيف عن اللعب وإزالة امتياز معين، والتأنيب بصوت قوي. يقولون: هذا سوف ينجح إذا استمررت في فعله وحسب.

أخبرتني ليندا وستيف وورثورنس Wurrthorns: «نعم ينجح ولكنه ليس كافياً». إن هذه الأسرة وأسر ثلاث أخرى وافقت أن تجعل كاميراتنا تعمل في منازلهم، فاستطعنا أن نراقب حياتهم عدة أيام (أصبح هذا تقنية برنامج 20/20 لوضع قصص في تربية الأولاد: وذلك بوضع الكاميرات في المنزل، بحيث نستطيع أن نرى الوضع أكثر من مجرد الاعتماد على مايتحدث الأهل عنه. ليس لأن المشاهدة مهمة، ولكن لأن الرؤية تؤدي إلى التصديق. والتكنولوجيا المعاصرة تجعل هذا أسهل: إننا نثبت كاميرات ترصد الحركة في أرجاء المنزل).

لقد آمنت أسرة ووثورنس والأسر الثلاث الأخرى جميعها بقصاص الأولاد كتعطيل مؤقت اللعب، ولكنها قالت: إن بعض الأمور تحتاج إلى الضرب.

لدى ليندا وستيف ثلاث بنات. شاهدنا أن ليندسي ذات الثلاث سنوات لا تكف عن إيذاء أختها. وبعد عدة تحذيرات أمرت ليندا ابنتها ليندسي أن تذهب إلى الفراش كتعطيل مؤقت. ورفضت ليندسي أن تطيع الأمر فضربتها أمها. ويبدو أن الضرب سبّب انطباعاً كبيراً، ولكنه لم يغير سلوك ليندسي. في اليوم التالي آذت أختاً أخرى، وأوقفها والدها عن اللعب في تعطيل زمني مؤقت، فغضبت غضباً شديداً وألقت بحذائها عليه. فصفعها ستيف. وهذا الصفع جعلها تطيع.

بعد ذلك جلست معهم وأعلمتهم أن الخبراء قالوا حين شاهدوا الشريط المسجل:

ستوسل: بضربك إياها علمتها أن العنف ينجح. وهذا يشجعها أن تلقي بأحذية أخرى.

ليندا وورثورنس [وقد لاحت عليها أمارات الغضب] حسناً ينبغي أن يكون الخبراء هنا نحو وقت العشاء أو وقت الاستحمام لأني كما تعلم قد قرأت الكتب. وأعرف ماذا يرد فيها. نحن نتكلم على الحياة الحقيقية هنا. أنا لا أظن ضرب ولد

على قفاه يقع في خانة العنف لكي نريهم «أننا نحن المسيطرون هنا لا أنتم».

ستيف وورثورنس: نحن لا نضربها هنا لكي نجرحها، نحن نضربها لكي نجعلها تعرف أننا جادّون.

ليندا وورثورنس: إنك لا تستطيع أن تجلس هناك طوال الوقت وتقول: «رجاء لا تضعي رأس أختك في المرحاض لأنها سوف تختنق» هل توافق؟ إنك لا تستطيع وحسب. إن هي فعلت ذلك لابد أن تضرب.

ولما كانت أسرة وورثورنسز على هذا النحو من الشك فقد وافقت أن تقابل دكتور شتراوس ودكتور بيتر بريفورا وهو عالم نفسي يعمل مع الأسر بانتظام. وقد أطرى كلاهما أسرة وورثورنس على استعمالها التعطيل المؤقت للعب والتوبيخ، ولكن انتقداها على ضرب ليندسي حين كانت تعاند. وعاد ستيف للضغط فقال.

ستيف وورثورنس: لن يجدي أي نفع إن أنا قلت: «هيا اصعدي إلى الطابق العلوي» ولم تستجب ولم تصعد.

دكتور شتراوس: ولكن طريقة عدم السماح لا تكون بأن تفعل أنت تماماً ماتنهى الولد عن فعله، أي: ضرب أحد الناس. أنت تقول للبنت: من الخطأ الفادح ضرب الناس الآخرين. ثم تضربها.

ستوسل: وإذاً ماذا يفعل في موضوع إلقاء الحذاء؟.

دكتور شتراوس: تفعل مافعلت تماماً ولكن بدون الضرب. ثم حين تعطيك فردة حذائها الأخرى تكافئها على ذلك وتقول: «ياسلام هذا رائع» لاشيء ينجح دائماً، ولكن الضرب لا ينجح أبداً في أي وقت.

ستيف وورثورنس: كيف نمنع الولد من الركض خارج البيت إلى الشارع؟

دكتور شتراوس: تركض وراءه وتمسك به وتقول: «لا»، تفعل كل ماتستطيعه. الرسالة تُبَلَّغ. فقط دع الضرب جانباً.

قال الخبيران: إن القلق في صوتك سوف يوضح بشكل جيد مايوضحه الضرب. وبعد ساعتين من المناقشة غادرت أسرة وورثون وهي تقول: إنها ستفكر في طرق التأديب التي أوصى بها الدكتوران. وإليكم بعضها:

أولاً: تحــدث إلى الأولاد. الأولاد يكرهــون التوبيخ بقدر ما يكرهون الضرب. إذا لم ينصــت الولــد طلب إليه أن يتوقف عــن اللعب، أي: أن تنتزعه بعيــداً من المكان الذي يريد أن يبقى فيه. حيث يلعب مع أقرانه.

ثانيــاً: كافئ السلوك الجيد (وهــذه ترجمة أخرى لنصيحتــه، «ارصد ولدك وهو يقوم بعمل جيد»).

ليس طبيعياً القول: «شكراً لأنك لم تتشاجر مع أختك» ولكنه يخلف انطباعاً.

ثالثاً: تحدث إلى الأولاد حول ماتتوقعه منهم قبل أن تفعل شيئاً لهم، وحين لا تكون غاضباً منهم. إنهم لا ينصتون جيداً حين تكون أنت في سورة الغضب.

في إحدى القصص التي شهدناها يزعج الصبي أبويه بقوله كلما صعد إلى السيارة: أنا أحتاج أن أطنطن (أبول) لم يكن يصطنع ذلك ـ مجرد أنها أصبحت عادة عنده ـ كلما صعد إلى السيارة يشعر بحاجة إلى التبول. ويظل أبواه يطلبان إليه أن «يبول قبل الركوب» ولكنه لا يتوقف عن ذلك، حتى قدم النصيحة أحد المعالجين وحصل اجتماع في الأسرة وقيل لهما: «اجعلا الولد ينظر إليكما ثم أخبراه ماذا تريدان، وحين يدرك ذلك اجعلاه يعيد قول ذلك أمامكما». وهكذا نظر الأب في عينيه وتكلم إليه.

الأب: سيكون لنا نظام جديد في هذا البيت.

الولد: حسناً.

الأب: كل صباح وقبل أن نترك المنزل عليك أن تطنطن (تبول).

الولد: حسناً.

الأب: هل تستطيع أن تعيد ماقلت لك؟

الولد: نعم.

الأب: ماذا قلت لك؟

الولد: قلت: إنني علي أن أبول قبل أن أغادر المنزل.

الأهل: جيد جداً.

ونجــح الأمر تماماً. منــذ ذلك الوقت صارت الأســرة تمتطي السيارة دون أمر يقاطعها.

ماذا عن وورثورنس؟ بعد ستة أشهر قالت الأسرة إن الاقتراحات نجحت. وقالت: إن أكثر الأمور نجوعاً كان مكافأة الأولاد حين يقومون بعمل جيد، وإعدادهم قبل حدوث أمر ما درءاً للحظة الإحباط.

قبل الذهاب إلى السوبر ماركت يمكن أن تقول ليندا: «إليكم ماأود منكم أن تفعلوه في المخزن» وإذا فعلوا ذلك تمدحهم. قالت: إن هذا وحده قدم كثيراً من النفع. توقفت هذه الأسرة عن ضرب أولادها.

خرافة: ينبغي للأولاد أن يطيعوا.

حقيقة: ينبغي للأولاد أن يفكروا.

كان جوزيف ابن الخمس سنوات يكره أن يطيع. كان يقول له أبواه كريستين وجو ماركيز: إن وقت الاستحمام أزف، إلا أنه كان يرفض ويصاب بنوبة غضب. وشعر جو باليأس. «إذا طلبت من جوزيف أن يفعل شيئاً يستدير ويقول: (لا) في وجهي».

وقد بدأت فيكتوريا أخت جوزيف البالغة من العمر ثلاث سنين تقلد سلوك أخيها. وقد أخبرني كريستين وجو أنهما يائسان محبطان. قالت كريستين: إنهما يتشاجران مع ولديهما طوال الوقت، وإنها لا تحب كيف أصبحا بين الناس «كل ما يخرج من فمي كلمات هو: لا تفعل هذا، توقف عن فعل هذا العب بلطف. دائماً هناك أمر سلبي». قالت لي: «حتى الضرب فإنه لا يجدي. تعطيل اللعب لا يجدي هو أيضاً. أنا أبحث في دماغي عن طرق لتأديبه يمكن أن تتثبت في ذهنه».

كريستين ماركيز: يبدأ العصيان في الساعة السادسة وخمس وأربعين في الصباح. أنت تعلم: «لا، لا أريد ترك الفراش. لا أريد أن أنظف أسناني بالفرشاة، لا أريد ارتداء هذا، أريد ارتداء ذاك». ويبدأ العراك.

جو ماركيز: كلما كان علي أن أصطحبه في الصباح يتخرب يومي وأصل إلى العمل بأسوأ مزاج. وأصل دائماً متأخراً، وهو يجعلني مخبولاً... أحياناً أقف وأفكر، أنا لست صالحاً لأكون أباً.

كريستين ماركيز: أشعر وكأن لا شيء مما أفعله يمكن أن يؤدي إلى جعل أي شيء أفضل. لا أستطيع أن أكون أماً جيدة. لا أستطيع أن أكون زوجة جيدة لأني هكذا، لقد ذهبت طاقتي. أنا كما تعلم عندي صبر، أشعر كما لو أني لست مرتبطة بزوجي. أولادي لا يعنون لي شيئاً. أنا انتهيت عاطفياً أنا انتهيت تماماً. لا أدري ماذا أفعل. قال ماك بليدسو: إنه كان يعرف ما العمل.

ليس بليدسو خبير أطفال عادي. ليس لديه شهادة في علم نفس الطفل. ولكن تجربته جاءت من تسعة وعشرين عاماً قضاها في التعليم المدرسي، ولأنه هو نفسه أب لأولاد. لقد ربى مع زوجة باربارا ولدين ناجحين. الأول: لاعب في كرة القدم يدعى درو بليدسو ـ ليس مشهوراً لأنه رياضي وحسب، بل لأنه رياضي منضبط بشكل جيد.

وضع ماك وباربارا دروساً في تربية الأولاد عنوانها: «تربية الأولاد بكرامة»، وما يعلمانه مع معالجين آخرين قد يدهشك.

يقول: «حقاً حقاً إن الطاعة وسيلة للتأديب خطرة»:

«إنها لا تعلم الأولاد أن يفكروا من أجل أنفسهم، إنها تعلمهم أن ينصتوا لصوت خارج عنهم ليعرفوا كيف يتصرفون».

لقد قال هذا بعد أن شاهد برنامج 20/20 من شرائط الفيديو عن جو وكريستين كيف يتشاجران مع ابنهما جوزيف.

وتصرف العصيان لدى جوزيف الذي كان يقود كريستين إلى الجنون غضباً كان أمراً جيداً ـ كما قال بليدسو. هذا يعني أن جوزيف يفكر في أمر نفسه. وقال: «أدر الكاميرا إلى الأمام، حين يكبر الولد ـ سيقول له بعض الأولاد (إليك المخدرات) إنك لست هناك لتقول له: (لا تفعل ذلك جوزيف لا تفعل ذلك).

إن الولد صاحب الإرادة الذي يقف أمامك يقول:

(لا لن أفعل ذلك) سيقف أمام الشخص ذي الستة عشر عاماً والذي يدفعه للحصول على المخدرات ويقول له: كلا لن أفعل ذلك أيضاً».

يقـول: بدلاً من أن نجبر الأولاد على الطاعة ينبغي أن يعلمهم الأهل كيف يتخذون القـرار المناسب الصحيح. وهذا يبـدأ بأن نتركهم يتخذون قراراتهـم ـ السهل منها حيث لا تكون موضوع السلامة من بينها ـ مثل قرار ارتداء ملابسهم.

لقـد رأى بليدسو حين شاهد أشرطة الفيديو أن جو وكريستينا ينتقيان مايريد أن يرتديه جو حين يذهب إلى المدرسة. وذات صباح صيفي أراد جوزيف أن يرتدي بنطالاً طويـلاً: ولكـن كانت الحرارة مرتفعة أعطته أمه بنطـالاً قصيراً، وقد صرخ جوزيف: «أبعدي هذا البنطال القصير من أمامي!».

قال بليدسو: «لم يجب على الأم أن تضع كل القواعد؟» «لندعهم يتخذون قراراتهم. الكثير منها. دع الأولاد يتعلمون من أخطائهم، دعهم يجربون النتائج»

في ذلـك اليـوم الصيفي الحار لابد وأن يشعر جوزيـف إن ارتدى البنطال الطويل بالحرارة، ولابد أن يتعرق، ولكن ماذا يهم؟ سوف يتعلم من خطئه.

قـال بليدسـو: «إنك تعلم الشخصـ ركوب الدراجة بأن تضعه علـى مقعدها وأنت تعلّم الشخص أن يتخذ قرارات بأن تعطيه حق اتخاذ القرارات».

كان بيلدسـو يعتقد أن جو وكريستين يسرفان في استعمال كلمة «لا»، وأن ما يعدانه عصيانـاً مـن قبل جوزيـف كان غالباً سببـه أن جوزيف ولد طبيعـي. كانت كريستين تمنعه من تسلق صندوق سيارتهم.

قالت كريستين: «إنه يسبب لنا كرباً».

قـال بيلدسـو: «كلا إن كريستين هـي التي تسبب الكرب حين تمنعـه أن يلعب فوق صندوق السيارة لدقيقة.

ولأن لدى كريستين قواعد كثيرة فقد انصرف الأولاد عن الإنصات لها —وقد أطلق أحد المعالجين على هذه الحالة اسم «الصمم عن كلام الأم». يقول الخبراء: تخلّوا عن معارككـم مـع الأولاد. إذا لم يكن لديكم مليون قاعدة يصبـح أسهل بكثير أن تفرضوا القواعد المهمة مثل: «لا تركض إلى الشارع»، و«لا تحبس نفسك في صندوق السيارة».

بالإضافة إلى ذلك ينبغي على الأهل أن يستعملوا كلمات أقل حين إعطاء التعليمات إلى أولادهـم. فكروا أن كلمة Kiss تقابل جملة (أبقها بسيطة أيها الأحمق) Keep It Simple, Stupid كانت هذه نصيحة مألوفة، ومن قصة إلى قصة كنا نضع الكاميرات في بيـوت النـاس، ثم ندع الخبراء يشاهدون الأفلام وكان الخـبراء يقولون: إن الأهل يطيلون الثرثرة أمام الأولاد، يشرحون ويبررون أكثر مما يجب، وهكذا يصبح الأولاد «صمّـاً عـن كلام الأهل». يقول علمـاء النفس: «اختصـروا الكلام». ليس عليكم أن تذكـروا قائمة من الأسباب أمـام الأطفال الصغار حول موضوع أنه ينبغي ألا يضربوا أختهم الصغيرة. قولوا فقط: «لا تضربها».

إذا أعطيتـم أوامـر أقـل، من المرجح أن ينصـت الأولاد حين يكون ثمـة أمر مهم تطلبـوه إليهم. شاهدنا الشريط المسجل لجـو وهو يدفع جوزيف ليخرجه من فراشه. صرخ جو: «جوزيف أليكس علي أن أغادر»، «ليس لدي وقت لكل هذا، أنا سوف أجبرك علـى النهوض!». خجل جو حين شاهـد في الشريط كم كان غاضباً فقـال: «أنا أشعر بالذل حين أنظر إلى هذا». رأى بليدسو درساً في ذلك.

مـاك بليدسـو: لقد جرّك كي تخبره متى تعني تمامـاً ماتقول. وأنت لم تكن تعني ماتقـول إلا حـين صرخت: «جوزيـف أليكس لقد تحملت مافيـه الكفاية». خبرّ أولادك تماماً ماذا تريدهم أن يفعلوا.

ستوسل: إلا أنهم يفعلون ذلك مسبقاً جميعنا يقول لأولاده: افعل هذا ولا تفعل ذاك.

مـاك بليدسـو: بمشاهدة الأشرطة المسجلة تجد نفسك تطلب إليهم مالا تريدهم أن يفعلوه. إذا أتيت إليك وقلت لك: «لا ترفس الفيلة» فيم تفكر الآن؟

كريستين ماركيز: (بعد تردد وتوقف) برفس الفيلة.

قـال بليدسو: ضع صوراً جميلة في رؤوسـ أولادك بأن تخبرهم ماذا يفعلون. طلب جوزيف إلى أمه أن تشتري له من مخزن البقالة لعبة. لقد صورنا بالشريط كريستين وهي تناقش جوزيف قائلة: «لن تنال تلك اللعبة».

هذا يولد مشكلة «رفس الفيلة»: أصر جوزيف على شراء اللعبة وانفجر غضبه. قال بليدسو: كان على كريستين أن تقول بدلاً من قولها ذاك: «هذه لعبة جميلة أعدها إلى الرف، ودعنا نذهب لنبحث عن البوشار». البحث عن البوشار هي الصورة التي تريد أن تضعها في ذهنه.

يقول بليدسو والخطوة الآتية هي أن تعلم الأولاد أن القرارات لها نتائج. ففي المخزن كان على كريستين أن تسأل جوزيف أن يساعدها في الشراء وتأمل أن يقرر فعل ذلك. «وإذا لم يفعل ذلك» يقول بليدسو: «لتدعه وحسب. قولي ماتعنيه وأعني ماتقولين افعلي ماقلت إنك ستفعلينه».

يبدو ترك المخزن درامي مبالغ فيه، ولكن افعلي ذلك فوراً وسيبدأ الولد في فهم أنك «عنيت ماتقولين» ليس من السهل فعل ذلك إن كنت في عجلة من أمرك كما نكون غالباً.

من الأفضل اصطحاب الأولاد إلى المخزن حين يكون لديك وقت زائد إضافي فتستطيعين «أن تفعلي ماقلت إنك ستفعلينه».

ونصح بليدسو أيضاً تجريب الفعالية الآتية. أجلسي الأولاد قبل الذهاب إلى الشراء، وقبل أن تشتد لحظة الأزمة وأخبريهم ماذا تتوقعين منهم مثلاً: «جوزيف أريد منك أن تدفع العربة وتساعدني كيف أجد البوشار. وأود أن تخبرني أي حجم أشتري منه.. إن ذلك تقريباً تعليمهم كيف يفكروا بأنفسهم. قال بليدسو: «فحين يكونون بعيدين عن حضوري معهم يستطيعون فعل ذلك».

أخذت أسرة ماركيز أشرطة بليدسو التسجيلية عن تربية الأولاد وبعد شهرين عدنا ثانية مع كاميراتنا. عرضت كريستين كيف أصبحت نزهاتها في مخزن البقالة «ممتعة»، منذ بدأت تسأل جوزيف أن يساعد في وضع قائمة المشتريات. وقال جوان: إنه الآن يترك ابنه يقوم باتخاذ القرارات، ويكون هذا الأمر في الصباح أكثر سهولة بكثير.

جو ماركيز: لقد قلّت المشكلات التي تشغل رؤوسنا. لم يعد هناك محاولات في الصباح حول ما يرتدي: لأنه مشغول في الاختيار.

كريستين ماركيز: لا يوجد بعد الآن جملة «إنك تفعل ما أقوله لك» أصبح القول الآن: «حسناً لماذا اتخذت هذا القرار؟».

جو ماركيز: أشعر شعوراً جيداً نحوه، وأنا حقاً فخورة به، أصبح جوزيف أهدأ من السابق، وعلق أستاذه على ذلك. وتقول كريستين: إن أفضل الأمور أنها وزوجها أعادا اكتشاف كل منهما للآخر ـ بكرب أقل فيما يتعلق بالأولاد. وإن زواجهما صار أفضل.

خرافة: يرجح أن أولاد المطلقين يطلقون هم أيضاً.

حقيقة: هذا صحيح ولكن يوجد طرق لجعل الطلاق أفضل للأولاد.

أتمنى لو كانت خرافة أن أولاد المطلقين يشعرون بكرب أكبر، ولديهم شعور أقل بالأمان العاطفي، وأن من المرجح أن يطلّقوا بدورهم عندما يصبحون راشدين، ولكن ليس كل ذلك خرافة. حين يطلق الوالدان فإن ذلك ينتهك الشعور بالأمان انتهاكاً كبيراً لدى الأولاد، حتى أنهم يحملون القلق في أنفسهم طوال حياتهم.

ولكن هناك طرق أفضل لتسهل على الأطفال تحمل ذلك الموضوع!.

في أوكلاند في ولاية كاليفورنيا هنالك مدرسة تدعى Kids, Turn تقدم للأولاد دروساً مدة ستة أسابيع لمواجهة طلاق الأبوين. إنها دروس غريبة حين تلاحظها: لقد شاهدت معلماً يقول لصف تلاميذه في الخامسة من العمر: «إن قضاء الوقت في بيتين مختلفين يمكن أن يكون مزعجاً قد تشعرون بالتمزق. هل تشعرون بالتمزق؟».

أجاب طفل متطوع أنه يشعر كذلك قائلاً: «الطلاق هو أصعب فترة في حياة الطفل».

إنه لأمر مؤلم أن يسمع المرء بذلك، ولكن يبدو أن الأولاد يحبون أن يكونوا هناك مع أولاد آخرين كانوا يمرون بما يمرون هم به. في البداية كانوا هادئين ولكن بعد قليل بدؤوا يفتحون قلوبهم. خبّرني طفل في الثامنة من العمر أنه توصل إلى تفاهم في ترتيب رعاية (من أبويه). «أنا أذهب إلى أبي يوم الأحد والأربعاء، فأقضي الليل هناك ولكن هذا الأسبوع هو وقت خاص لأني سأذهب لأراه يوم الجمعة».

لقـد انفصل والـدا بينجـي ولارا ووكليت لتوهمـا، وأخبرتني لارا أنـه رغم وجود الكثـير مـن الأولاد في المدرسة لأسر انفصل فيها الأبوان تجـد من الصعوبة التحدث عن الطلاق أمام زملائها من التلاميذ.

ستوسل: ماذا يمكن أن يظنوا؟

لارا ووكليت: قد يظنوا أني كنت غريبة عجيبة وأني مختلفة.

بينجي ووكليت: حيت تتحدث عن ذلك يجعلك هذا تشعر شعوراً أفضل.

ستوسل: لماذا لا تستطيعان التحدث عن ذلك في المنزل؟.

بينجي ووكليت: لأنك قد تشعر بالحزن الشديد.

على خـلاف ذلك في مدرسة Kids, Turn فالأولاد يبـدون سعداء حين الكلام في هـذا الموضوع. بعض الأولاد يتحدثون عن اليـوم الذي اكتشفوا فيها أن الطلاق وقع بين والديهم.

لارا ووكليـت: أمـي أعلنت ذلك وحسـب. لم توارب ولم تشـرح. إنها قالت ذلك، وصعدت إلى السيارة وانطلقت.

باتريك: لم أحب ذلك، لأن أمي وعدت ألا يقع الطلاق ثم وقع.

اليوم ثلث أولاد أمريكا تقريباً يعيشون في دور الرعاية بسبب طلاق أهاليهم. ومن المرجـح أن نحـو خمسـة آلاف ولد سيسمعون كلمـة طلاق في نهاية هـذا الأسبوع. إن الكلمة سوف تهزهم وتؤلمهم في المدرسة.

أخبرتنـي مديـرة مدرسـة Kids, Turn روز ماري بولاند «في السنـة الأولى غالباً تتدنى علامات الأولاد. إذ يعانون من اضطراب في التركيز في المدرسة، لأنهم يفكرون في الطلاق».

ويكون الشفاء أكثر صعوبة على الأطفال إن ظل الخلاف على أشده بين الأهل. ومن جملـة مهام تلك المدرسة أن تجعـل الأولاد يتكلمون مع القضاة المتخصصين في شؤون الطـلاق. القاضيان رودريك دونـكان وإينا غييمانت مهتمان لأنهمـا شاهدا مطلقين كثيرين يؤذون أولادهم.

رودريـك دونـكان: والجزء الذي يؤلمك حقاً تلك المشاجـرات التي تتم على مسمع الأولاد. طفلـة في الخامسـة من العمر تشاهـد أمها وأباها يتبـادلان الصراخ والشتائم بألفاظ بذيئة، بل ربما تبادلا إلقاء الصحون كل على الآخر. حاول أن تتصور بعض الطرق لتعينهم على تفهم الأثر المزعج الذي يصيب حياة شخص صغير أتوا به إلى هذا العالم. لقد حاولت توبيخهم ولكن ذلك لم ينجح. حاولت أن أتوسل إليهم، وحاولت أن أضعهم في السجن.

ستوسل: وهل ذلك لم يُجدِ أيضاً؟

رودريك دنكان: لم ينجح في العديد من الحالات عادوا إلى المحكمة ثانية.

ستوسل: ولم استطاعت مدرسة Kids, Turn أن تفعل مالم تستطعه كل هذه الأمور.

رودريـك دنـكان: حين يجلسـون هنا وأولادهـم في غرفة أخرى، ويـرون أولادهم يتحدثـون مع أولاد آخرين مـروا بتجربة طلاق والديهم، يبـدو أنهم يتفهمون ذلك في أذهانهم.

إينا غغيمانت: كان هناك أب قال: إنه سيرحل عن الولاية كلها، وكاد يتشاجر مع زوجتـه السابقة من أجـل رعاية الطفل، ولكن عندما انتسـب إلى برنامج تلك المدرسة قال: «لن أجعل طفلي يمر بذلك، سأجد عملاً هنا وسأبقى هنا».

يطلـب في مدرسـة Kids, Turn إلى الـزوج أن يسكت أمـام الأولاد، ولو كان يكره الزوجة. وليس على الأولاد الانحياز إلى طرف دون الآخر.

لقد أدركت كارن كرفمان والدة لارا تلك الرسالة. «أنا أحرص أن أدخل اسم الأب في صلواتنا، وصديقة الأب أيضاً، وأولادها وكل شيء». حقاً إن هذا الحد من التسامح مبالغ فيه، وهو تسامح أقصى ولكنه جيد للأولاد.

يقول الخبراء الذين يدرسون موضوع الطلاق: إن معظم الأولاد يظنون على نحو ما أن الطلاق كان غلطتهم. أخبرتني روز ماري بولاند أنه: «تقريباً كل الأطفال يعتقدون بذلك» ويعتقدون أنهم كانوا أشراراً، ولم يأكلوا خضاراً، وكانوا يتشاجرون مع إخوتهم وأخواتهـم. وهذا أمر حاسـم ذو شأن. لقد سمعت أولاداً يقولـون عدة مرات: «لو كنا فيما بيننا أفضل لما وقع الطلاق بين والدينا».

يظن الناس أن وقع الطلاق أيسر على الأولاد الكبار لأنهم أقل اعتماداً على أهلهم. ولكن ليس هناك دليل على أن تحمل الأولاد الكبار للطلاق هو أفضل. إنهم على الأغلب أقل لوماً لأنفسهم بسبب الطلاق، ولكنهم يحملون غضبهم من هذا الموضوع إلى مجالات أخرى في حياتهم.

يقول الخبراء: إن التحدث عن الطلاق يساعد لأنه يعلم الأولاد أن يقبلوا ما يبدو أنه لا يمكن قبوله، فيستطيعون أن يتابعوا حياتهم. في الأسبوع الرابع من مدرسة Kids, Turn يبدو العديد من الأولاد محنّكين تماماً حول موضوع الطلاق. خبرتني لارا ووكلين قائلة ـ وقد بدت عليها أمارات الحكمة وراء سني عمرها ـ: «في البداية كان الأمر مروعاً حقاً» «ولكن بعد وقت يتحسن الوضع، مع أنه يبدو وكأن العالم انتهى تماماً في لحظة وقوع الطلاق».

خرافة: اسع إلى الكمال.

حقيقة: اسع إلى الجيد.

نريد جميعنا أن نكون كاملين. لماذا لسنا كذلك؟ حيثما ننظر يخبروننا أن الكمال هو الهدف. تطري وسائل الإعلام وتصفق للعلامة الكاملة ـ للغطسة الكاملة، لعلامة العشرة. ولكن الإنسان يستطيع أن يحصل على الكثير من الأمور الجيدة.

قالت لي كارلي مايندر ـ التي تبلغ العاشرة من عمرها ـ: «ينبغي أن تبدو كاملاً. ينبغي أن تكون نحيلاً... ينبغي أن تكتب على نحو كامل، ينبغي أن تصنع كل شيء على نحو كامل».

لمدة وجيزة كان حبها للكمال ناجحاً معها، كانت متفوقة في المدرسة، حتى أنها انتقلت إلى برنامج الأولاد الموهوبين. وحين قابلتها كانت تكتب كما لو كان عمرها أربعة عشر عاماً، إلا أن حبها للكمال أصبح أمراً عسيراً على الناس الذين يعيشون حولها. ففقدت كثيراً من أصدقائها.

كارلي مايندر: أظن أنهم كانوا غير كاملين. أعلم أن هذا القول وضيع ولكن...

ستوسل: أعتقد. أنا لست كاملاً، ماهو الأمر غير الكامل فيَّ؟

كارلي مايندر: الطريقة التي تصفف فيها شعرك وكذلك حاجباك و....

ستوسل: ما العلة في ذلك؟

كارلي مايندر: إنها تضايقني.

أنا أضايق نفسي أحياناً ولكن أعطني فرصة. أنا ماكنت أعلم إن كانت كارلي محبة للكمال، أم مصابة بعصاب وسواسي قهري. ولكن يبدو أن ما قالته يشبه ما كنت سمعته من أولاد في أوهايو ـ كانوا يتابعون دروس عالمة النفس سيلفيا ريم للأولاد الموهوبين. لقد أرتنا ريم روائز تستعملها لتفرق بين الطموح الصحي وحب الكمال غير الصحي.

في أحد هذه الروائز تسأل الأولاد أن يرسموا شيئاً. بعض الأولاد الموهوبين كانوا شديدي النقد لأنفسهم، كانوا يمحون أكثر مما يرسمون. ملأت كرات الأوراق الممزقة سلات المهملات في كل أنحاء الغرفة. شاهدت ابن العشر سنين (كالب) يبدو هازئاً من رسمه. قال: «إن هذا يجعلني أشعر أني غريب عجيب إذا لم أتمه بشكل صحيح تماماً». حب الكمال هذا ليس بالأمر الجيد ـ كما تقول دكتورة ريم ـ لأنه يجعل الأولاد خائفين جداً من الإخفاق. إلى حد أنهم لا يريدون أن يجربوا. «الكمال يعني أنه لا يوجد أخطاء ينبغي أن يتعلم الأولاد كيف يقترفون الأخطاء».

بدأت كارلي تواجه تلك المشكلة في المدرسة. لم تكن تسلم عملها لأنها كانت تعتقد أنه لم يكن جيداً بما فيه الكفاية. شرعت تطلق على حبها للكمال اسم Mrp.

قالت أم كارلي: «كنت أود فقط أن أواجهها وأقول لها: «كفي عن ذلك هذا كافٍ مع Mrp! اخلديه للنوم، أو اقتليه قتل الرحمة!».

قالت كارلي: إنها تحزن على حياتها القديمة حين كانت بطلة في السباحة.

كارلي مايندر: صنفت بين أحسن عشرة: كنت أعمل كل شيء.

ستوسل: أنت تخليت عن ذلك؟.

كارلي مايندر: نعم. كنت أسبح على نحو كامل. أستطيع أن أعمل قلبات بكمال [ولكن] لم أسجل ذلك الوقت الرائع.

ستوسل: يبدو كما لو أنك تفتقدين كثيراً ما تحظى به الفتيات الصغيرات السعيدات.

كارلي مايندر: نعم أفتقد ذلك، أنا لم أعد سعيدة أبداً.

وهكذا ما الذي يفترض أن يقوم به الأهل الذين يشكون أن ولدهم لديه هذه الاتجاهات؟ تقول دكتورة ريم يجب التوضيح للأولاد أنكم لا تتوقعون منهم الكمال. قالت لي: «يقتضيك الأمر أن تقول: (أنت ولد لطيف، أنت ولد حساس، أنت ولد قوي، أنت ولد شاطر، أنت مفكر جيد، لديك أفكار جيدة)» وقالت: «عليك أن تتجنب أنواع الكلمات التي تضعهم تحت ضغط شعور بأن عليهم أن يكونوا أناساً كاملين».

«إنه لعمل جيد» أفضل من القول «إنك الأفضل!» «هذه براعة...» و«فكرة إبداعية» أفضل من القول «عبقري» «ألمعي» «إلبرت آينشتاين».

من المناسب تذكر ذلك حين نتبع نصيحة «ارصد ولدك وهو يقوم بعمل جيد». لا تبالغ في إبداء الإطراءات قول: «نجاح جيد» أفضل من «نجاح كامل» إذ يكون أكثر واقعية.

خرافة: إنجاب أولاد هو أفضل للزواج.

حقيقة: إنجاب أولاد يخرب بعض الزيجات.

كان عند مارجوري جونسون خيال واهم عن الحياة العائلية «غوغو أواه انظر إلى هذا الوليد الجميل. ألسنا على أهبة أوقات سعيدة بوجوده؟ أنت تعلم كانت تلك الصورة دائماً في ذهني من معروضات محل Ivory Snow كنت على خطأ!».

لم يكن لورانس في الثانية بعد عندما قابلت أمه مارجوري وزوجها ستوارت. قبل ولادة لورانس كانت مارجوري وستوارت يتقاسمان كل شيء ـ المحادثة والحب وحتى الأعمال اليومية. وقلب وجود لورانس حياتهما رأساً على عقب وكأنه صدمة. وجدا

نفسيهما يتشاجران حول تربية الطفل المناسبة، وشعرا أنهما أقل تقارباً مما كانا قبل أن يولد ابنهما.

ستوسل: وماذا عن الجنس.

مارجوري جونسون: ماذاك؟

ستوارت جونسون: اعتدنا أن نكون منسجمين تماماً جسدياً باستمرار كنا دائماً مع بعضنا.

مارجوري جونسون: نمشي في الشوارع متعانقين يلف كل واحد ذراعه على الآخر ممسكين أيدينا.

ستوسل: هل تفتقدان ذلك.

مارجوري جونسون: أفتقد ذلك كثيراً.

قالت مارجوري إن خيبتها من تربية ستوارت للولد قتلت عاطفتها نحوه. ذكرت لي «إنها لم تعد تريده أن يلامسها».

الدكتورة كارولين والدكتور فيل كوان عالمان في علم النفس، وهما متزوجان. يقولان إن الزيجات تتحطم غالباً بعد مجيء الأولاد. قالت لي كارولين: «إن الميل الطبيعي بعد مجيء الأولاد للزوجين هو الشعور بالتباعد وازدياد الخلافات».

وأضاف زوجها: «إنهما ما كانا يتوقعان أن يختلفا فيما بينهما» و«لم يكونا يتوقعان حدوث شيء في علاقتهما لم يكن فيما قبل».

ولكن «أمراً» حدث فعلاً لعلاقتهما. هو غالباً توتر حول تقاسم العمل. مارجوري اختارت أن تكون أماً طوال الوقت. كانت تقضي كل النهار مع لورانس. وتشعر أنها مرتبطة به. ومع ذلك حين كان ستوارت يعرض أن يحمل لورانس كانت مارجوري تعارض ذلك، قالت: إنها كانت تكره الطريقة التي يحمل بها ستوارت الولد.

قال لي ستوارت: «إن مارجوري لديها طريقة في عمل الأشياء، وأنا لا أعمل الأشياء بنفس هذه الطريقة. أنا أشعر أن طريقتي جيدة مثل طريقتها، ولكن كانت مارجوري أحياناً تفضل أن تتم الأمور وفق طريقتها. وهذا كان منبع التوتر».

كوري وروبين وينر كان لهما نفس المشكلة أيضاً، كوري كان يساعد في رعاية الأولاد، ولكن روبن قالت: إن الأولاد كانوا مسؤوليتها، وكانت تشعر أنها منهكة، وحين راقبتها أدركت أنها لم تشعر بالإنهاك.

كانت تشتغل نحو ثلاثين ساعة في الأسبوع محاسبة، وعندما تعود إلى المنزل تعمل أكثر أيضاً، وتتابع تفاصيل حياة الأولاد. نعم كان كوري يسهم في العمل المشترك. ولكن الأمـور الصغيرة الأخرى التـي ينبغي عملها كانت منوطة بروبن ـ مثل وضع البرنامج وإعـداد وجبات الأولاد، تنظيف وشراؤها الملابـس، إيقاف المشاحنات ـ والعائلة كلها كانت تعرف أنها أمور تقوم بها روبن.

ستوسل: وكأنها هي الأهل، وأنت مساعد الأهل.

روبن وينر: طريقة جيدة في النظر إلى الأمور.

كوري وينر: طريقة جيدة في النظر إلى الأمور.

لِـمَ لَمْ يكـن كوري يقوم بمزيـد من الأعمـال؟ لنفس السبب الـذي لم يكن يفعل ستوارت ذلك: لأن زوجتيهما لا تعجبهما الطريقة التي يعملان بها الأمور.

شاهدنـا كـوري يساعد ابنه في وظيفـة الحساب، ثم شاهدنا شكـوى روبن من أن كـوري يتركه يستعمل قلم الحـبر بدلاً من قلم الرصاص. تصـرخ روبن: «لا يسمح له باستعمال قلم الحبر».

مـن الواضح أن كوري مثل ستوارت، لم يكن مساعد أهل ـ بل كان مساعداً أخرق. تقـول روبن: إنها لو لم تكن ربة العمل في المنزل لما جرت الأمور بشكل «صحيح». «حين يقـدم العشاء ويكون مجرد نقانق أقول: وماذا يأكلـون إلى جانبه؟ يقول: لا شيء» هز كوري كتفيه بلا مبالاة.

مـا الذي يجري؟ إن كـوري ليس في العادة شخصاً كسولاً. إنـه مصور أشعة يعمل بجهد في مكتبه. ومع ذلك ينسحب في المنزل من الالتزام ويترك شأن التربية لروبن.

أجـرى عالم النفسـ رون تافل ورشة عمل للأهل. يقول: إن الصراع حول من يعمل أعمالاً أكثر في المنزل هو مشكلة شائعة، رائز بسيط يوضحها.

يســأل تافل الآبــاء والأمهات أن يعملوا قائمة بالأمور التــي يقومون بها للأولاد. في أول الأمــر يقرأ قائمة وضعهــا أكثر الآباء انخراطاً في العمل مثل: «أتحدث إلى الأولاد محــاولاً أن أعــرف كيف كان يومهم في المدرسة، أضــع الصحون في جلاية الصحون، أهيئ مائدة العشاء...».

تقــول عــدة نساء: «أتمنى لــو كان زوجي يقوم بأعمال إلى هــذا الحد». ثم يسحب (تافــل) قوائم النساء. كل إنسان يضحك كم هــي طويلة، إحدى قوائم النساء طالت لفافتهــا حتى وصلت إلى الأرض، سماها تافــل: «القائمة التي لا نهاية لها» وقال: «كل امــرأة تراقبني تعرف ماذا أعني حــين أقول: (قائمة لا نهاية لها)، إنهن يفهمن ذلك أنهن يعملن».

يفهمنهــا لأنه بالرغم من علاقات المساواة المفروضــة اليوم، مازال النساء يعملن الجــزء الأكبر مــن الأعمال المنزلية وتربية الأولاد. ولإيضــاح مدى علاقة التساوي في العمل، يمتحن تافل الأهل امتحانات قصيرة:

هل تعرف نمرة قدم ابنك؟

هل تعرف أسماء أساتذته؟

من يختار طبيب أولادك؟ والجليسة؟

من ينظم حفلات عيد الميلاد؟

علــى الأغلب الأمهــات هن اللواتي يرفعن أيديهن. ولهــذا السبب قالت روبن: إنها «ربة المنزل» وأن كوري: «مساعد الأهل».

ستوسل: هل تراقبينه؟

روبن وينر: حسناً، ثمة حاجة لمراقبته أتمنى أحياناً ألا أحتاج إلى ذلك.

ستوسل: وكيف تشعر حين تتحدث إليك بهذه الطريقة؟

كوري وينر: كما لو عليّ أن أجيب ربة المنزل على الأقل، بقدر ما يتعلق الأمر بالأولاد.

يقول تافل حين يشعر الآباء أنهم مراقبون ومحكوم عليهم يحملون بعض المسؤوليات القليلة. وهو يخبر الأمهات إن كنت تريدين من الزوج أن يعمل أكثر تخلي عن مراقبته. قـال: «إنه أكبر. أمر وحيد تستطيع الأمهات أن تفعله، هو ألا تعلق ولا تنتقد ولا ترصد مـا يفعلـه الزوج مع الأولاد في أرجاء المنزل» ليكن ما يفعلونه خطأ. إن زوجك لن يقتل ابنـك إذا عمل الأمور بطريقته، وإذا تراخيت بعض الشيء فإنه سيتولى تربية الأولاد أكثر».

فهمـت روبـن ذلك وقالـت: «لم أكـن أدرك أنني بذلـك أطلـت مشكلاتي بعض الشيء». ما إن تراخت روبن حتى بدأ كوري ينشط في العمل. وعندما عدنا بعد شهر كانـت علاقته بابنتهما أفضل، وتحسنت علاقة كوري وروبن إلى حد أنها كانت تهزأ كم كانت مسيطرة.

روبـن وينـر: لقـد أطعمهم أظن في ليلتين من الأسبوع الماضـي ولم أسأله أبداً ماذا أطعمهم.

كوري وينـر: إنهم ما زالوا أحياء.

روبن وينر (مبتسمة): صحيح.

عنـد دكتور فيل كوان نصيحة أخرى قدمها لنا: «ينبغي أن يجلس الزوجان كل يوم خمـس دقائـق ــ لا ساعة ولا يذهبان إلى عشـاء طويل الأمد ـ في نـوع من الاطمئنان ويقـولان: كيـف حالك؟ كيف تسير الأمور معك؟ «مجـرد اطمئنان كل زوج على زوجه وهذا عادة ما يتم إهماله بعد يوم طويل».

يخـبر العديـد من الناصحين في أمور الـزواج الأزواج بأن خمسـ دقائق كافية يوميـاً. ولكـن ينبغي أيضـاً أن يتقابلا في «لقـاء» أسبوعي ـ حتى لـو كان عشاء في المنزل بدون الأولاد.

ليكـن لديهما أصدقاء، أو أجداد وجليسـات، ولكن لابد من قضاء وقت منفردين. والهـدف هـو تذكير نفسيهما لماذا اختـار كل منهما الآخر في المقـام الأول: أنتما زوج وزوجة قبل أن تصبحا أماً وأباً.

ظلت أسرة جونسون شهوراً لا تستطيع فعل ذلك.

ستيوارت جونسون: ما كان واحدنا يقول للآخر أي شيء. وكنا نطوف حول الموضوع ويبقى ذلك التوتر. كان بوسعك أن تقطّع (ذلك) الجو الجليدي بسكينة.

ستوسل: ما الذي كسّر ذلك؟

ستوارت جونسون: مارجوري أخيراً قالت شيئاً لي.

مارجوري جونسون: كنا نقود السيارة. وبدأت أبكي. تذكرت حين كنت أنظر من النافذة وشعرت أني كئيبة جداً. كنت تعسة للغاية ومريضة في داخلي. وقلت: «لن أستطيع أن أكون زوجة لك إذا لم تفعل شيئاً بهذا الخصوص».

وأخذا يتحدثان حول ذلك الموضوع. كانت هذه النصيحة الثانية للمعالج التي تقول: تحدث عن الموضوع. وفي حالة أسرة جونسون قادت هذه النصيحة إلى «مواعيد» وإلى زيادة الحديث المتبادل. قال لي ستيوارت: «أظن أنها مثل أي مشكلة في هذا الخصوص» وقال: «أنت تعرف أن أول خطوة هي الاعتراف بأن هناك مشكلة»

إن إيجاد طرق للتحدث عنها لإنهائها هو مفتاح تحسن علاقات العديد من الأسر.

خرافة: لا يتحدث الصبيان عن مشاعرهم.

حقيقة: يتحدث الصبيان إن عرفت كيف تسألهم.

عام 1986 ساعد لاعب البيسبول (لي مازيلي) نادي نيويورك (ميتس) في سلسلة ربح عالمية، وبعد أن اعتزل الاتحادات الكبيرة أخذ وظيفة في فلوريدا تولى فيها فريق اتحاد صغير. افتقده أولاده وتدفقت مشاعر ابنتيه ليسي وجينا. وأخذتا تكتبان بانتظام رسائل تقولان فيها «أبي نحن نحبك ونفتقدك»، كانتا تقضيان أوقاتاً تكلمانه بالهاتف وكنا نسترق السمع.

جينا مازيلي: أنا أحبك أيضاً ويا أبي قبل أن تذهب هل تستطيع أن تكلمني وقتاً أطول.

لي مازيلي: حسناً صغيرتي.

جينا مازيلي: حسناً أنا أحبك.

علـى خـلاف ذلك قال ابن لي المدعـو (L.J) : إنه لا يريد التحـدث إلى أبيه على الهاتـف. بل ذهب خارج البيت ليلعب. قد تقول أنت: لا بأس في ذلك. الصبيان يبقون صبياناً ولكن (L.J) بدأ يتشيطن في المدرسة وخارج المدرسة، مما أزعج أمه.

داني مازيلي: صار (L.J) من شيطنته يقفز فوق الجدران.

ستوسل: فوق الجدران! كيف؟

داني مازيلي: لقـد أصبح عدوانياً ويسرع إلى الغضـب على نحو لم يكن عليه من قبل، ويختلق مشاكسات مع البنات.

لي مازيلي: ومحرّض في بعض الأوقات؟

داني مازيلي: إنه ممزق لا ينصت لي إطلاقاً.

لي مازيلي: أظن زوجتي تحب أن تحلل أكثر من اللازم في كثير من الأمور، بل في كل الأوقات. إنها تنقب في تلك الأمور. أنا أنظر إلى ذلك على أنه أمر طبيعي.

ستوسل: هل هذا لأنه صبي.

لي مازيلي: هذا ماأشعر به.

علـى حين قال (لي): إن تصرف L.J كان طبيعياً «هذا شأن ولد» قال عالم النفس في هارفـارد المدعـو (وليم بولاك): إن هذا ليس طبيعياً وليـس أمراً جيداً للصبيان. وقـال: يكظم الصبيان عواطفهم لأن النـاسـ يخبرونهم بأن عليهم أن «يتصرفوا مثل الرجال» ومن عمر الست سنوات يتعلم الصبيان أن يحتفظوا بمشاعرهم لأنفسهم.

في جامعة كونيتيكت يثبت البروفسور روس باك الرجال والنساء إلى آلة تسجيل تسجل الحالـة العصبية. ثم يعرض عليهم السلايدات بعضها سـارٌ وبعضها الآخر مهدد. من الواضـح أن النساء يرتكسن لرؤية السلايدات، على حين يحتفظ الرجال بوجوه صامدة حجريـة، ليس الأمر أنهـم لا يريدون أن يرتكسـوا (أو يظهروا رد فعـل)، ولكنهم فقط يخفون مشاعرهم. تبين أداة التسجيل أنهم يشعرون بكثير من الانفعال والعواطف.

بينمـا ينفـي ولـد في السادسة من عمره أنـه يخفي أي شعور، يقبـل الأولاد بين سـن الثانية عشـرة والثلاثين من الذيـن أجريت معهم مقابلـة في West Middle

School في أندوفر Anduver ماساشوستس أنهم يخفون مشاعرهم. لقد خبروني أنه أمر سيئ جداً أن يُبدوا ضعفهم. لقد انهزم جيف شميدت مرة في صف رياضة البيسبول وبكى.

جيف شميدت، وكان عمره ثلاثة عشر عاماً: سأكون موضع سخرية طوال ما بقي من العام الدراسي. بل ربما تستمر هذه السخرية مدى الصيف التالي لأنه ليس طبيعياً. ليس طبيعياً لصبي أن يبكي.

أوليفر غريفوري، في الثالثة عشرة من عمره: كذلك عندما يكون لدى شخص مشكلة ما، وخاصة إن جعلك شخص آخر في المدرسة مدار هزل، فإن كان عليك أن تخبر أهلك بذلك وعرف شخص ما أنك أخبرتهم فإنك ستكون مدار هزل وسخرية طوال عمرك. هذا مخزٍ. وهذا معناه أنك صغير أمك، ولذا لن تحب أن تفعل ذلك مطلقاً.

جيف كين، في الثانية عشرة من العمر: إنه لأمر صعب أن تذهب إلى الناس، كما تعلم، وتقول: «عندي مشكلة». مع أنه يوجد ناصحون للتوجيه، ويوجد أساتذة، ويوجد أهل. أنا شخصياً أشعر بعدم الراحة أن أذهب إلى الناس وأقول: عندي مشكلة.

أخبرتنا البنات أنهن لا ينزعجن مطلقاً إن قلن عندنا مشكلة. ولا ينفرن من «التصرف مثل صبي». تستطيع البنات أن يخرجن من نموذج «البنت» ويكن (غلاميات يلعبن لعب الصبيان). ومع ذلك لا يستطيع الصبي أن يكون (بناتياً يلعب لعب البنات) أو يكون بنتا اسمها توم (Tom girl) أو صبياً اسمه جين (Jane boy) ـ بل إنه لا يوجد اسم لذلك.

أخبرني دكتور بولاك أن هذا الضغط على الصبيان لكي يكونوا (رجالاً) ليس بالأمر الجيد على الإطلاق.

«إن كان عليك أن تقول لبنات في الرابعة أو الخامسة من العمر (كوني حرة مستقلة. لا تضغطي على مشاعرك. لا تبكي مادمت طفلة)، ويمكن أن نقول: (يا إلهي لا نستطيع أن نفعل ذلك لها)». قال دكتور بولاك: «ولكننا نفعل ذلك مع الصبيان

وليس لأننا لا نحبهم، ولكن لأننا نفكر فيما يجعلهم رجالاً حقيقيين، وهذا لن ينجح بهذه الطريقة».

حين سألت ابنتي لي مازيلي إن كانتا افتقدتا أباهما قالت الفتاتان مباشرة: إنهما تفتقدانه، وإنهما تبكيان أحياناً من شوقهما إليه. أما l.j فقد أخبرني أنه لا يبكي أبداً.

L.J مازيلي: لست أنا الذي أبكي.

ستوسل: إذاً أختاك تبكيان وأنت لا تبكي؟

L.J مازيلي: لا أعلم [كنت أنظر إليه حتى قطع حبل الصمت] لأني أنا صبي ولست بنتاً.

هذا على أي حال ما قال، ولكن دكتور بولاك قال: إن الطريقة لمعرفة الحقيقة عن الصبي هي أن تشاركه بعمل ما ـ نشاط ما أو أي شيء مشابه.

في حالة L.J شاركته في بناء شاحنة بمكعبات الليغو Legos. وأثناء بناء الشاحنات أخبر L.J الدكتور بولاك بالحقيقة التي كانت معاكسة لما أخبرني.

دكتور ويليم بولاك: هل بكيت ذات مرة لأنك شعرت بالحزن.

L.J مازيلي: نعم.

دكتور ويليم مازيلي: هل تظن الناس عرفوا أنك تبكي.

L.J مازيلي: كلا.

دكتور ويليم بولاك: ليس من المفروض أن يروك.

L.J مازيلي: كلا.

سألت دكتور بولاك لم لم يقل L.J ذلك لي. وكانت إجابته موضحة: «الصبيان يخافون ويخجلون» ثم قال: «عندما تحدثت إليه قمت بثلاثة أمور مختلفة. وضعته في مكان آمن لم يكن فيه أناس آخرون، أو لم يكن فيه الكثير ممن يشاهدوننا، وانهمكت في عمل ـ لأنه من المهم أن تنهمك في لعبة مع الصبيان حين تكلمهم، وتركته يقود المحادثة. وما إن بدأ حتى عملت أمراً آخر. فقد قاسمته مشاعري. أخبرته عن طفولتي الخاصة كيف كان أبي غائباً بعض الوقت، وفجأة فاض حزنه.

دكتور ويليم بولاك: لابد أن الوضع صعب حين لا يكون الأب في المنزل؟

L.J مازيلي: نعم إنه كذلك.

دكتور ويليم بولاك: وإذاً ماذا تفعل بخصوص ذلك؟

L.J مازيلي: أنا أكتب وظيفتي في مكتبه حيث كان يقوم بعمله.

دكتور ويليم بولاك: في نفس المكان حيث كان يمكن أن يجلس وينجز عمله؟

L.J مازيلي: نعم.

دكتور بولاك: هل اصطنعت ذات مرة أنك هو؟

L.J مازيلي: نعم.

يقول بولاك: إن الأهل يجب أن يتعلموا أن أولادهم الصبيان ربما لا يجيبون عن الأسئلة المباشرة مثل بناتهم. البنات أكثر طوعاً وتلقائية، وكلما قلنا أكثر يقلن أكثر.

د. وليم بولاك: المثل النموذجي على ذلك طفلة صغيرة تأتي من المدرسة مسرعة تصفق الباب، والدموع تقريباً في عينيها وهي تقول: «أمي جولي رفضت اللعب معي، وقالت أموراً سيئة...» جلست الأم وقالت: «أوه. دعينا نتحدث عن ذلك» وتحدثا ساعات وساعات وساعات. وقالت الطفلة: «أوه يا أمي لقد ساعدتني حقاً»، أتى جوني إلى المنزل عابساً مقطب الجبين. لقد خسر لعبة سوكر. وتعرف الأم في داخلها أن أمراً سيئاً حدث ولكنه قال: «لا شيء أنا مرتاح يا أمي» ويذهب إلى غرفته.

ستوسل: ماذا ينبغي أن يفعل الأهل؟

د. وليم بولاك: لا تضغط عليه أعطه مساحة لينقذ ماء وجهه، ثم إنه سيخرج من الغرفة ويعطي إشارة. إنها ليست مسألة من السهل الإعلان عنها. ينبغي أن تتعلم ذلك. قد يقول: «متى يكون العشاء معداً؟ أو «متى يعود أبي إلى المنزل؟» هذه إشارته دون أن يكون عالماً بذلك بدلاً من القول: «أنا أحتاج إلى المساعدة» كان عندي أم تتحدث حول ما يسمى «المعالجة في السيارة». يفعل ابنها هذا النوع من الأمور بعد لعبة سوكر، أو بعد قضاء أوقات صعبة في المدرسة، وهي تنتظر تلك اللحظة، وحين يخرج يقول: «متى يكون العشاء جاهزاً» تقول هي:

«أتعـرف دعنا لا نتناول العشاء الآن. ولنذهب بالسيارة لنجلب بعض المثلجات» وقد تلتمع عيناه ويذهبان بالسيارة. ويذهبان في نزهة، ولكن ليس المثلجات هي المطلوبة، وإنما التصرف والمسافة الآمنة مع الأم. وفي الطريق هناك قد تقول: «أتعلم تبدو متضايقاً بعض الشيء؟» وقد تنحدر الدموع من عينيه. ويتكلم عن مشاعره.

علـى مدى الشهور القليلة الآتية كانت داني مازيلي تجرب نصيحة الدكتور بولاك. حـين كانـت تشعـر أن أمراً مـا لابد يضايـق L.J كانـت تعطيه فسحة مـن الوقت كي ينفـرد وحيداً بنفسه، ثم تسأله أن تلعب معه كـرة السلة. وأثناء اللعب يبدأ L.J فجأة بالـكلام. وسمّت داني هذا (حديث كرة السلة) وقد نجح ذلك لقد تحسن سلوك L.J في المدرسة، وأصبح أكثر سعادة في البيت.

خرافة: ينبغي أن يعلم الأهل الصبيان والبنات الأمور ذاتها.

حقيقـة: الصبيـان يحتـاجـون إلى بعض الدروس المختلفة عن دروس البنات.

كل جنس يتعامل مع شؤون العالم بشكل مختلف قليلاً. يميل الرجال إلى أن يقولوا ما يريدون. بينما يحسّن النساء طلباتهن بتعابير مثل «رجاء» «شكراً» أو «هل تتكرم؟».

هل تظن أني كنت من دعاة التفرقة بين الجنسين. انظر إلى التجربة التي أقنعني الخبـير في نمـو الطفل كام ليـبر Cam leaper أن أقوم بها: صنعنـا بعض الليمونادة ولكن بدلاً من أن نضع السكر وضعنا كمية من الملح. ثم أعطيناها إلى بعض الصبيان والبنـات بأعمـار تتراوح بين الثمانيـة والاثني عشـر عاماً. كشر الصبيـان وجوههم وبصقوها وقالوا: إن طعمها مخيف.

كنت أعتقد أن البنات سيفعلن الأمر ذاته، ولكني كنت مخطئاً. لقد شربنها بأدب مع أن بعضهم بدا مصدوماً.

ستوسل: كيف هذه الليمونادة.

البنت الأولى: إنها جيدة.

البنت الثانية: جيدة.

ستوسل: أحقاً؟ [عندما أصررت هزت رأسها وكشرت وجهها] لِمَ لَمْ تقولي لي إنها سيئة؟

البنت الأولى: لا. إني لم أشأ أن أكون قاسية معك.

البنت الثانية: لم أشأ أن أجعل أي شخص يشعر شعوراً سيئاً؛ لأنهم صنعوا هذه الليمونادة حامضة جداً.

لم يكترث معظم الصبيان في أن يشعر صانع الليمونادة شعوراً سيئاً، وجربنا اختباراً آخر. أتينا بهدايا مغلفة بأغلفة لمّاعة إلى الغرفة، وأخبرنا الأولاد أن بوسعهم الانتقاء منها. وحسب نصيحة الدكتور ليبر Leaper ملأنا كل علبة بهدايا مخيّبة حقاً: جرابات وأقلام. مرة ثانية كانت البنات مهذبات جداً.

ستوسل: كيف تفكرين بهذه الأشياء كهدايا؟

البنت الأولى: جيدة.

ستوسل: هيا بلا مزاح، أليست هدية سخيفة خسيسة؟

البنت الثانية: أوه.

ستوسل: أوه ماذا؟

البنت الثانية: تماماً ما كنت أبغي جرابات وأقلام.

من الواضح أن هؤلاء الفتيات لديهن مهارات اجتماعية تنقصني. وأي شخص يعطيهن هدية سيشعر شعوراً طيباً حول ذلك. ما كان الصبيان ليجعلوني أشعر بذلك.

الصبي الأول: ماذا؟ جرابات وقلم؟ فرقها.

الصبي الثاني: من يحتاج إلى جرابات؟ عندي كثير منها في البيت.

أخبرتني سوزان ويت التي تدرّس تطور الطفولة في جامعة أكرون أن استجابة الصبيان والبنات مختلفة تجاه أوضاع مثل تلك؛ لأننا نربيهم بشكل مختلف. فنحن

نعلـم الصبيان أن يكونـوا جازمين والبنـات أن يُرضين الآخرين. وهـذه الاختلافات تظهر عندما نسأل الأولاد أن يصفوا أنفسهم.

جميـع الفتيات تقريبـاً يستعملن كلمة «لطيف» أو «شخص لطيـف»، أما الصبيان فنادراً ما يقولون كلمة «لطيف».

ستوسل: الصبي درو، هو ...

الصبي الأول: موهوب.

الصبي الثاني: أنا ذكي ماهر.

الصبي الثالث: أنا ناجح بالرياضيات.

الصبي الرابع: أنا مسلٍ كثيراً.

تقـول الدكتورة ويت: كلا الصفتين: (لطيف) و(مسـل) جيدتان، ولكن كثيراً من البنـات يتشوقن كي يكـن لطيفات. أما الصبيان فهم صريحون أكثر مما يجب، وهذا يعتمـد علـى الأهل. إنهـم يعلمون الصبيان بشـكل مختلف عن البنات. أنـا أقترح أن الصبيان مختلفون عن البنات لأنهم ولدوا مختلفين.

تقول لي: «نحن ولدنا مختلفين». ثم تقول: «أنت تعلم: الصبيان X-Ys والبنات X-Xs ولكن على العموم ياجون إنها مسألة أوليات اجتماعية وأنا أؤمن بها بكليتي. وجدت عالمـة النفسـ فيليس كاتـنر دليلاً على ذلـك في دراستها الشهـيرة «Babay x». لقد سألـت راشدين أن يلعبوا مع طفـل: «نحن نقول هذا جوني العبوا مع جوني بأي طريقة تريدونها: أو هذه جين العبوا مع جين بأي طريقة تريدونها واليكم بعض الألعاب».

كان دائمـاً الطفل نفسـه. ولكن عندمـا كان الراشدون يحسبـون أنها (جين) كانـوا يحتضنون الطفل بلطف ويعطونها دمى. وعندما يظنون أن الطفل هو جوني يكونـون أكثر خشونة ويقدمون لعباً مثل كرات القدم. هذا يستطيع أن يغير طريقة تفكير الولد.

جربنـا اختبـار «الليمونادة المرة» على طـلاب جامعة أيضاً، ومـرة ثانية كذبت النساء هناك.

المرأة الأولى: هل صنعت هذه بنفسك؟ إنها فعلاً جيدة.

المرأة الثانية: لقد أحببتها حقاً.

المرأة الثانية: إنها جيدة.

لم يكـن الرجـال في الجامعـة فطنين بقدر مـاكان الأولاد الصغـار، ولكنهم كانوا صادقين فقد كشروا وجوههم.

الرجل الأول: إنها حامضة.

الرجل الثاني: ليمونادة ذات رائحة نافذة.

قامت بالاختبار للراشدين من أجلنا الأستاذة اللغوية في جامعة جورج تاون ديبوراه تانـن Tannen. إنها تكتب كتباً من أفضل المبيعات حول اختلافات الجندر (الجنس) وتجـادل في أن هذه التجارب توحي بأن كلا الجنسـين لديهم فرصة للتحسن. ويظهر البحـث في مكان العمل. إن مهن الرجـال تتأذى عندما يكونوا فطنين أكثر مما يجب، على حين ينجز النساء عملاً أقل حين يكن لطيفات أكثر مما يجب. تقول: إن كل جنس يمكن أن ينتفع إذا أخذ بعض سمات الجنس المقابل.

ديبـوراه تانـن: قد يعني هذا بالنسبـة للرجال التراجع وتلطيـف العبارة، أو قول كلمات قليلة لإظهار أنهم مدركون لمشاعر الشخص الآخر.

ستوسل: ولكن الرجال يسيطرون في مكان العمل وقد ينجحون لأنهم صريحون أو بغيضون إلى حد مؤلم.

ديبـوراه تانـين: ذلك ينجح مع أنـاس ولا ينجح مع أناس آخريـن. إن الأشخاص الذين لم يحرزوا ترقية أو طردوا لأنهم سُمّوا «متكبرين» مثل الذين صادفتهم أثناء إجراء بحثي قد يتحسنون إذا أصبحوا أقل حزماً.

وإذاً كيـف نعلـم البنـات أن يكن أكثر جزمـاً، ونعلـم الصبيان مهـارات الناس؟ كالعـادة سألنا بعض الأسر أثناء تجاربنـا ليضعوا كاميرات في بيوتهـم. ثم عرضنا أشرطة التسجيل على دكتور ويت.

لاحظت أنه في بيوت البنات اللواتي كنا لطيفات جداً، كانت كلمة (لطيف) تستعمل كثيراً مثل: «أنت لطيفة» «كوني لطيفة مع أختك...» وحين تصبح البنات عدوانيات فإن الأهل يردونهن إلى جادة الصواب.

أخبرتني دكتور ويت أن: «الأهل يقولون للبنت الصغيرة باستمرار: كوني لطيفة، احترسي، هدّئي الأمور...» «وهم يقفون في طريقهن كي لا يكن جازمات، ويتخذن قراراتهن بأنفسهن».

أشارت (ويت) أيضاً إلى أن أهالي الفتيات يملن أن يقمن بالأعمال لبناتهن ـ يحملون الأشياء إليهن، يساعدونهن على فتح الصناديق. وشرحت ويت بأن ذلك قد يشعر هؤلاء الفتيات بأنهن يحتجن إلى عون ويصبحن أقل ثقة. المغزى الذي تقدمه ويت: «تحدوا البنات، لا تسارعوا إلى إنقاذهن في كل مرة يكون لديهن مشكلات».

إنها تقدم النصيحة ذاتها التي سمعتها عشرات المرات في موضوعاتها تربية الأولاد الأخرى: «كلما استطعت دع الفتيات الصغيرات يقمن بالاختيارات ـ حتى لو كان ذلك اختيار ما يأكلن».

قالت ويت: «إن الفتاة التي تعرف كيف تتخذ قراراً أو تبدأ بصنع القرارات عندما تكون صغيرة سوف تصبح واحدة من أولئك الفتيات اللواتي يحسّن اتخاذ القرارات ويؤكدن ذواتهن عندما يصبحن أكبر سناً».

ولكن ماذا عن أولئك الصبيان البغيضين؟ قالت ويت: تظهر الأشرطة المسجلة في البيت أنهم أعطوا مجالات كثيرة «ليتصرفوا كرجال» أكثر مما يجب. صرخ صبي يطلب كأس حليب. وحين شاهدت ويت أمه على شريط التسجيل قالت: «حين كان يصرخ رغبة في الشراب تستطيع الأم أن تخرج من الغرفة وتقول له: لن أستجيب لطلبك حين تتصرف على هذا النحو».

وجهة نظر الدكتورة ويت: علم سلوكاً أفضل بصرف الانتباه ـ وفّر الانتباه لوقت يسأل فيه الولد بأدب أن يجلب الحليب إليه وهي نصيحة (ارصد ابنك وهو يقوم بعمل جيد). ثم تقول ويت: «عانق الولد أو ربت عليه تربيتاً خفيفاً أو أسمعه كلمات لطيفة» وقم بهذه الأمور للصبيان والبنات فذلك سيكون أفضل.

خرافة: يفعل المراهقون أموراً سخيفة!

حقيقة: يفعل المراهقون أموراً سخيفة.

إن المراهقين من بعض النواحي متفوقون على الراشدين. فأذهانهم متفتحة على أفكار يفتقدها الراشدون. المراهقان بطلا الشطرنج المذهلان بوبي فيشر وغاري كاسباروف وجدا استراتيجيات لم يفكر فيها أبداً اللاعبون الأكبر سناً منهما.

كان جارون لانيي في الخامسة عشر من عمره حين اخترع برامج الحاسوب المماثلة للواقع. كان بيكاسو في الرابعة عشر من عمره حين رسم بعض روائعه، وكذلك موزار... هل أدركت المغزى.

ومع ذلك يفعل المراهقون أموراً سخيفة طائشة متهورة. كيف يمكن أن يكونوا ماهرين وسخيفين في الوقت نفسه؟ هل تعمل أذهانهم بشكل متفاوت؟ أجل يقول الباحثون في مركز تخيل الدماغ في كلية الطب في هارفارد. فباستعمال أجهزة MRI لمسح أدمغة المراهقين وأدمغة أناس في عمري يستطيع الأطباء أن يروا كم هذه الفروق جوهرية.

أخبرتني الطبيبة المسؤولة هناك الدكتورة ديبورا يورغولون ـ تود أن الراشدين حين يجيبون عن الأسئلة يُظهر MRI أننا نستعمل قشرة الجبهة الأمامية ـ وهو الجزء العقلي المفكر من دماغنا. أما المراهقون فعلى خلاف ذلك يعتمدون على اللوزة وهي الجزء الغريزي من دماغهم. ولعل هذا هو السبب أن المراهقين مبدعون. قالت: «إن بعض أعمالنا الإبداعية تتم في ذلك الوقت من العمر» لأنه لا يوجد إذ ذاك الشعور بأني «لا يجب أن أفعل هذا» أو «لا أستطيع أن أفعل ذاك».

ولسوء الحظ إن عمل (اللوزة) يعني أيضاً أن المراهقين يقومون بفكر نقدي أقل. إن اللوزة هي جزء اللب المرتكس من الدماغ واسترسال المراهقين مع هذا اللب لديهم هو الذي يسبب قيامهم بأمور سخيفة. إن هذ اللب ليس ماهراً جداً. وكجزء

من رائز هارفرد، كان علينا أن ننظر إلى صور وجوه ونُسأل: «ما التعبير الذي تقدمه هذه الوجوه؟»

كانت تعابير الوجوه تبدو واضحة لي: مصدومة، غاضبة، حزينة، سعيدة. ولكن المراهقين ما كانوا يقرؤون الوجوه بشكل جيد. إنهم لا يدرون إن كان الأستاذ غاضباً أو إن كانت صديقتهم متألمة. قالت الدكتورة: «إن أدمغتهم ليست بالغة أو ناضجة» وقالت: «ليس لديهم بعد الشيء الذي بواسطته يستطيعون فعل ما نتوقع منهم أن يفعلوه».

وهكذا هم يقومون بتصرفات غبية ثم يكذبون حول ذلك. جرت مسوح مغفلة الاسم تبين فيها أن 90 بالمئة من أولاد المدارس الثانوية يكذبون على أهاليهم. ضحك جماعة من المراهقين ووافقوا عندما قرأت لهم أن 90% في الإحصاء يكذبون، وقال أحدهم بدون اعتذار: «أنا أكذب طوال الوقت! لا يهم على أمي أو على أستاذي، إنك تكذب لتنقذ نفسك». تعرف لوري بلوم أن ابنتها آشلي تكذب عليها. كنا نسجل في منزلهم Bath, Main حين اكتشفت لوري أن ابنتها آشلي أخفت نتيجة اختبارها السيئة .

آشلي بلوم: نسيت أنا آسفة.

لوري بلوم: لا أظنك نسيت ـ أنا فقط ـ أنا لا أثق أنك ستقولين لي الحقيقة. أنا لا أثق أنك تخبريني أنك ذاهبة إلى مكان ما أو أنك ستبقين هنا.

أخبرتنا آشلي أنها وصديقاتها يضطررن إلى الكذب لأن الأهل يجنون إن أخبرناهم بالحقيقة.

آشلي بلوم: هذا يخيفنا. إننا لا نعلم كيف سيتصرفون، هل سيصرخون أم سيبكون أم يتهجمون علينا ويقولون: اخرجوا من المنزل؟!».

كانت نصيحة معالجي الأسر مشابهة للنصيحة التي حصلنا عليها حول الأولاد الأصغر سناً. كلما كثرت القواعد عندك كانت أقسى على الأهل وكثر كذب المراهقين عليك. كانت كاميراتنا التصويرية تدور في منزل (فرانسين وينزل) وهي أم عازبة في هاسكل في نيوجرسي، حاولت أن تبقي سيطرتها على أطفالها بأن تضع قواعد صارمة

جـداً مثل اعتبار 9.30 مساءً في عطلة الأسبوع موعد العودة إلى المنزل بالنسبة لابنها مات ذي الخامسة عشرة من العمر.

فرانسـين وينـزل: إذا بقيت في المنــزل في أغلب الأوقات نستطيــع أن نجلس معاً ونتحــدث. ليلة واحدة في الأسبــوع لا أعمل فيها هي ليلة السبت لم لا تحاول أن تبقى في البيت؟

مات وينزل: نعم هذا صحيح ليلة السبت. الآن أنت، أنت تدخنين الحشيش.

فرانسـين وينـزل: أنت كذبــت علي بعدة مناسبــات [حتى الساعــة 9.30] موعد العودة إلى المنزل هو امتياز لا تستحقه.

مات وزينزل: التاسعة والنصف. عمري خمسة عشر سنة هيا بلا مزاح الآن.

فرانسين وينزل: أي وقت تريد أن تكون العودة؟

مات وينزل: أمي الناس لا يخرجون قبل الساعة الثامنة والنصف.

فرانسيس وينزل: أنت ما تزال طفلاً! يوجد أناس مجانين خارج المنزل.

أنــت تعرف هذا! ولكنــي نسيت، أنت السيد المسيح. لن يحــدث لك أي شيء أليس كذلك؟ أنت لا تقهر أليس كذلك.

اقترفت فرانسين خطأ. أقع أنا فيه غالباً. السخرية هي النوع المفضل من الفكاهة عندي، وأحياناً أستعملها حين أتعامل مع أولادي. ولكن قال لنا الخبراء: إننا بصفتنا الأهــل فــإن السخريــة تؤذي قضيتنا. قــد يظــن الأولاد الصغار أننا جــادون، كما أن السخريــة في معاملة المراهقين تسبب مشكلــة «رفس الفيل» التي ذكرناها سابقاً. إنها تضع صورة خاطئة في أذهانهم.

عندمــا عرضنــا أشرطــة تسجيلنا علــى معالجي الأســرة دكتور شارلــس فوستر وميرا كيرشنبوم كان أول تعليق لهما عن قواعد فرانسين الصارمة.

ميرا كير شنبوم: إنها تريد أن تقضي وقتاً أطول معه (أرجوك ليلة في الأسبوع). ولا تستطيع أن تدعه يفعل ذلك. حسناً بالطبع لا. ماذا يفعلان ؟إن قضيا وقتاً معاً؟ إنهما يتشاجران!

دكتور شارلس فوستر: إنها تقول: «إنك لا تتخذ قرارات جيدة. ليس لديك حكم صائب. أنت طفل. أنت الفوضى بعينها». إنها بهذه الأقوال تشعل ناراً وتصب البنزين عليها. لأنها تقول: «أنا لا أهتم بما تقول، إنك مجرد ولد». إن هذا الموقف الذي يناسب تماماً ولداً في الخامسة من العمر [فذلك] يعني أنها تكافح الآن فكرة أن ابنها في الخامسة عشر من العمر. من الأفضل لو قالت له «أعلم أنك لم تعد طفلاً بعد اليوم».

ميرا كيرشنبوم: أن يكون لك (أنا) مستقلة لكي تعرف من أنت مهمة ضخمة. وفي الخمسة آلاف يوم التي تستغرقها المراهقة، كل مراهق يريد أن يترك البيت. والطريقة الوحيدة لكي تستطيع المراهقة أن تترك البيت هو أن تنجز تلك المهمة الضخمة، أي أن تعرف (أناها) المستقلة. ولكن إذا أردت أن تسيطري عليها فإنك تسببين لها معركة بين إنصاتها لنفسها وإنصاتها لك.

خرافة: كوني صديقة لولدك.

حقيقة: كونوا أهلاً.

يظن بعض الأهالي أن عليهم أن يكونوا أصدقاء لأولادهم المراهقين. ولكن دكتور فوستر يقول: هذه فكرة سيئة ومع ذلك هو يمزح فيقول: «لماذا تريدين أن تكوني صديقة لولدك، إنهم جاهلون لا يعرفون شيئاً، وموسيقاهم تافهة. بدلاً من ذلك كوني حليفاً نصيراً ـ شخصاً يقدم المساعدة ولكن لا يسعى إلى السيطرة.

يريد الأهل أن يفرضوا قواعد للسيطرة على أولادهم لأنهم يريدون أن يحموهم، ولكن مع المراهقين هذا أمر مستحيل. ومجرد فرض القواعد مزعج بما فيه الكفاية، لأن الأهل لا يكونوا مع أولادهم المراهقين معظم أوقات النهار.

ميرا كيرشنبوم: خمس وثمانون بالمئة من الوقت يكون فيها الأولاد وحدهم أو مع أصدقائهم.

دكتور شارلس فوستر: لم تريدون أن يكون لديكم قاعدة لا تستطيعون أن تفرضوها بالقوة، ولا تستطيعوا أن تضبطوها، ولا أن ترصدوها، أو تراقبوها.

ماذا ستفعلون؟ هل تريدون أن تقولوا له ما يجب عليه عمله حتى يبلغ الخامسة والعشرين أو الخامسة والثلاثين؟

ميراكيرشنبوم: ثم ماذا؟ هذا إنسان لم يتعلم كيف ينصت إلى نفسه. ماذا سيفعل؟ إذا كنتم مسيطرين على ولدكم فإنكم توجدون شخصاً لا يعرف كيف يمخر في بحر الحياة.

ستوسل: وإذاً عليك أن تترك ابنتك ذات الأربعة عشر عاماً تذهب إلى موعدها، وماذا إن عادت إلى المنزل مع شاب مثقوب اللسان وعلى قميصه رسم فج مطبوع؟ وتقول له: أهلاً وسهلاً يا أولاد؟

دكتور شارلس فوستر: إن كنتم أهلاً ماهرين وجاءت ابنتكم برفقة ذلك الشاب، وعلى قميصه رسالة مقرفة، ولسانه مثقوب، وعلى رأسه سهم أو ما شابه تقولين: أهلاً (سكار) مرحباً بك في أسرتي.

ستوسل: أنا لا أحب أن يكون هذا الشاب في بيتي.

ميراكيرشنبوم: لقد وضعت سيناريو روميو وجولييت لأنها ستذهب حينئذٍ إلى القبو وتسقط أكثر وتتورط معه بعمق.

دكتور شارلس فوستر: لا يوجد مشكلة إن كنتم تتعلقون بالقيم. إنه لأمر جيد أن تنقلوا قيمكم. المشكلة تدخل حين يكون لديكم حزمة من القواعد الصغيرة التي تسمم علاقتكم مع أولادكم المراهقين.

يعلمنا الخبراء أن الأمر لا يستحق صراعاً من أجل أمور تافهة. حلّوا عن ظهر أولادكم. وبدلاً من ذلك ركزوا على قواعد مهمة قليلة مثل ـ لا تقود السيارة وأنت سكران خابر بالهاتف إن كنت ستتأخر، لا تخادع (لا تغش) ـ أو أي أمر آخر مهم لكم.

خرافة: يحتاج المراهقون إلى أهلهم أقل من سواهم.

حقيقة: يحتاج المراهقون إلى أهلهم بقدر غيرهم تماماً.

ينسحب العديد من الأهل عندما يصبح أولادهم المراهقون هادئين أو متقلبي المزاج، ويتصرفون كأنهم لا يحتاجون إلينا. إن تقلب المزاج يأتي كصدمة لأنهم قبل

ســن المراهقة كانوا شديدي التعلق بنا. الآن يتصرفون غالباً كما لو أنهم لا يأبهون إن كنــا أحيــاء أو أمواتاً. جزء منا يتفهــم أن هذا انفصــال ضــروري، انفصام عن الأهل ينبغــي أن يتم أثنــاء المراهقة من أجــل أن يصبح المراهق راشــداً مستقلاً. ولكن من الصعب مشاهدة ذلك. أحببت كيف وضع الدكتور فوستر ذلك. قال: «لم نصف ذلك بتعابــير العصيان؟ لم لا نضعه بتعابير الانتقال من الإنصات لكم بصفتكم الأهل إلى الإنصات لنفسه بصفته راشداً؟»

لم يعــد كافياً بعد الآن أن نقول لهــم: إن الموقد حار، عليهم أن يلامسوه بأنفسهم. أنــا كبرت في الستينيات من القــرن عندما كنا نثور بشتى الأشكال والأنواع التي تجلب المرض لأهلنا. في الخمسينيات كان هناك رقص روك أندرول. الآن يصبغ المراهقون شعرهــم ويثقبــون ألسنتهــم. إنها طقوس الانتقــال من حال إلى حــال، والحاجة إلى تجريــب شخصيات جديدة ليغدو الولد شخصاً منفصلاً مستقلاً. إن كان هذا يرهب الأهــل فذلك أفضل بكثير ـ لأن معناه إعــادة الاطمئنان إلى المراهق بأنه ينجز درجة من الاستقلال.

ولكن ذكّر الخــبراء أن المراهقين يحتاجون حقاً إلى القواعد وهم يحتاجون إلينا. قد يشعر بعض منا بصفتنا الأهل أن أولادنا الصغار أصبحوا مع الوقت مراهقين، ولم يعد لنا أي نفوذ عليهم، لأن الأناس الوحيدين الذين ينصتون لهم هم أقرانهم. ولكن ذلك غير صحيح.

لقــد خبّرنــا كل عالم نفس استشرنــاه بأن المراهقين قد يتصرفــون كما لو أنهم لا يحبــون أسئلتنــا، ولكنهم ينصتون حقاً لها ويمكن أن يشعــروا بالحزن إذا توقفنا عن سؤالهــم. قــال لي دكتور فوستر: «إن لديكــم مقداراً كبيراً من النفــوذ» «تعمقوا أكثر تجدوا أطفالكم يشعرون بأنهم غير محبوبين وخائفين».

وبإجراء مقابلات مع المراهقين شعرت بالدهشة إلى أي حد سمعت ذلك .

المراهق الذكر الأول: لقد كنت دائماً خائفاً، أنت تعرف، مما سأفعل في حياتي.

المراهق الذكر الثاني: كنت حقاً أتمنى أن أكون أكثر قرباً من أبي على وجه الخصوص لأنه يأتي من العمل إلى المنزل نحو الساعة الخامسة أو السادسة ثم يذهب إلى غرفته ويشاهد مباراة كرة السلة أو كرة القدم حسب الموسم.

المراهق الذكر الأول: أنت تعرف أتمنى أحياناً لو يكون أهلي أكثر صرامة وجزماً كأن يضعوا قواعد أكثر. أعلم أني سأندم (كان يقول هذا على التلفاز).

ستوسل: لماذا تريدهم أن يكونوا أكثر صرامة؟ هذا يزيل حريتك.

المراهق الذكر الأول: لأنهم إن كانوا أكثر صرامة فكأنهم يشاركونني في حياتي أكثر.

ربما لا يظهر المراهقون ذلك ولكنهم يريدون اهتمامنا ويريدون أن نضع حدوداً. إنهم بذلك يشعرون بأنهم آمنون ومحبوبون. يبين البحث حالياً أن جيل المراهقين الراهن يشعر على نحو غير معتاد أنه قريب من أهله. كنت أظن أن أبطالهم كانوا من نجوم الروك أو من الرياضيين المتهنين أومن أصدقائهم ولكن الباحثين قالوا: اذهب واسألهم وسوف ترى». وهذا مافعلت.

ستوسل: من الناس الأكثر أهمية في حياتك؟

المراهق الذكر الأول: والداي.

المراهق الذكر الثاني: على الأغلب أبي.

المراهق الذكر الثالث: والداي كلاهما.

وهكذا تجري الأمور ما زلنا مهمين جداً بالنسبة إليهم.

ولكنهم يجدون صعوبة في الحديث عن ذلك. وينصح الخبراء لإبقاء الاتصال معهم ألا توبّخهم. وبدلاً من ذلك تقول ميراكيرشنبوم: «اطرح أسئلة. وأنصت أنصت أنصت!».

قال الدكتور فوستر: «إذا طرحت أسئلة على ابنتك كيف شعرت؟ ولماذا فعلت ذلك؟ وماذا عنت بذلك؟ ستشعر أنك شخص آمن تخبره بالأمور» ومن ثم بوسعك أن تقولي: «هل أستطيع أن أخبرك ماذا أشعر؟». إنك كسبت الحق الآن بأن تتكلمي حول

شعورك لأنها انفتحت باتجاهك أولاً «على هذا النحو يكون الأهل الذين لهم حقاً نفوذ على أولادهم، إنهم يحققون النفوذ بأن ينصتوا لأولادهم المراهقين كي يتكلموا أولاً».

عليـك أن تقولي ما تريدين فقـط بعد أن تنصتي لهم. قـد لا يتصرف المراهقون وكأنهم سمعوا ما قلت ولكن الخبراء يقولون: سيظهر الفرق فيما بعد. ورغم كل شيء تبين المسوح التي أجريت بأن معظم الراشدين الشباب في الواقع يتبنون قيم أهلهم.

مايقلـق الكثير من الأهل في سنــين مراهقة أولادهم مسألــة التجربة الجنسية. في أواخــر الدراسة الثانوية يقول نصــف المراهقين في أمريكا إنهم مارسوا الجنس. مــن العسير على الأهل دائماً طــرق موضوع الجنس مع أولادهم، لا سيما حين يشيح الأولاد بنظرهم، ويتصرفون كأنهم غير راغبين في طرح هذا الموضوع معك. ولكنهم بعد ذلك يتكلمون.

خرافة: التحدث مع الأولاد عن الجنس سوف يجعلهم يرغبون فيه.
حقيقة: إنهم يفكرون فيه من قبل.

أنــا أفهــم لم يــتردد النــاس في التحدث عن الجنــس مع أولادهــم المراهقين. من المنطقي التفكير أننا نحن الأهل إن تكلمنا عن ذلك سيظن الأولاد «أوه أظن آن الأوان لنا لنمارسه».

ومــع ذلك يوجد الكثير ممــا يجب على الأولاد معرفته. وعدم التحدث عن الجنس يــترك مجالاً لجهل مطبق. قبــل سنين كان الحديث عن الجنس قليــلاً جداً. حتى أن الراشدين أنفسهم كانوا جاهلين.

ولهــذا السبــب عندنــا الآن منتجــات مثــل kelloggls Corn Flakes و graham crachers. ظــن الناس أن الأطعمة المبّهرة تؤدي بالأولاد إلى ممارسة الجنس. تشرح دكتــورة جوستــين ريكاردســون مؤلفة كتاب: (كل مــا لا تريــد أولادك أن يعرفوه حول الجنس ولكننا نخشى أن يسألوا) تشرح أن تلك الأطعمة اللطيفة صممت بحيث تجنب

«إشعال الرغبة الجنسية» الآن نعرف أموراً أكثر عن الجنس وقد أُخبر الأهل «لا تنتظر حتى يسأل الأولاد؟ أنت أثر الموضوع». تكلمت مع الدكتورة ريكاردسون.

ستوسل: ألا تؤدي إثارة الموضوع إلى نتائج غير متوقعة وغير مرغوب فيها؟ إن أنت أخبرت ولداً في الثانية عشرة من عمره عن الجنس أنهم سوف يرغبون في ممارسته.

دكتورة جوستين ريكاردسون: تلك هي الخرافة وإنه في الواقع خوف شائع، ولكن البحث يقول: إن الجواب هو لا.

ستوسل: وكيف يمكن أن يكون ذلك؟ أعني أني أظن أن ولداً في الثانية عشر أو في الرابعة عشر يقول: واهاً إن كان كل امرئ يتحدث عن ذلك ينبغي أن أكتشفه بنفسي» ربما لم يفكر في ذلك من قبل أبداً.

دكتورة جوستين ريكاردسون: قد لا تذهب بعيداً بصفتك والداً. ولكن صدّقني. أصدقاؤه سوف يذهبون بعيداً! ووسائل الإعلام سوف تذهب بعيداً. إن الأولاد يسمعون عن الجنس دائماً. وإن ما تريد عمله هو أن تضم صوتك إلى الكورس: من المهم التثبت إن كان أحد الناس يتكلم مع ولدك حول الجنس غير أفضل أصدقائه أو ممثل في عرض تلفازي.

وجَدَت ثمان وعشرون دراسة في برامج التربية الجنسية في المدرسة، بصرف النظر إن كانت تعلّم الامتناع أو استعمال العازل، أنه لا شيء يوحي بأن المناقشات المبكرة حول الجنس تؤدي إلى تجارب أبكر. واستنتجت تسع دراسات أن ذلك يجعل الأولاد يتأخرون مدة أطول لممارسة الجنس. بالطبع إن التربية الجنسية ليست نفس تربية الوالدين (لا يوجد دراسات منظمة عن تحدث الأهل لأولادهم) ولكن كل خبير سألناه يقول: تحدث إلى أولادك.

كانت إميلي ابنة سوزان في الثانية عشر من عمرها حين قررت سوزان أن تتحدث معها عن الجنس.

سوزان: قلت: إن أفضل وقت لعمل هذا هو في السيارة.

ايميلـي: قفلـت الأبواب كـي لا تتركني أخرج [كانت إميلي غـير مرتاحة ما كانت تستطيـع النظر إلى أمها]. نظرت إلى قدمـي وإلى الأرض خارج النافذة كنت أنظر إلى كل مكان ما عدا أمي.

ولكنهـا قالت: إن الحديـث نفسه كان مريحاً، وأن أمهـا كانت فرحة لأنها تحدثت «أظـن أنهـا فرّجت عن أمور كانـت تعتلج في نفسها حـول الأولاد الآخرين في المدرسة وأظن أن هذا الحديث أعطاها ما كانت تريد».

خرافة: لا تستطيع أن تراقب أولادك عن قرب شديد.

حقيقة: لا تستطيع أن تقترب من أجل الراحة.

في هـذا الزمـن الذي يعمل فيه الأبـوان في الأسرة يـترك الأولاد على الأغلب غير مراقبـين في أوقـات كثيرة من النهار. كيف للأهل أن يواجهـوا ذلك. التكنولوجيا هي أحد الأجوبة: كثرة أعداد الأهل الذين يتجسسون على أولادهم.

أصبح التجسس فجأة أسهل من ذي قبل. يبيع العديد من المخازن كاميرات مراقبة بحجـم نماذج الفيديو المنـزلي، وفي هذه الأيام هي رقيقة ورخيصـة نسبياً ـ بمقدار زهيـد يبلـغ 70 دولاراً. لينـدا بوزينـو يجعلها عملها بعيـدة عن المنزل حتـى السابعة مساء، ولكن ابنها ديريك الذي يبلغ من العمر الثالثة عشر يعود إلى المنزل في الثالثة، وبالنسبة لتفكير أي أهل هناك مجال أربع ساعات هي منفذ لتسبب الاضطراب.

أخـبر ديريك أمه أنه يمضي الوقت وحـده في غرفته يكتب وظائفه. قررت الأم أن تتثبت من ذلك: فوضعت كاميرا في غرفته. وكان بوسعها أن ترصد ماذا يفعل من أي جهـاز حاسـوب في المكتب. حتى خارج المكتب كان بوسعهـا أن تراقبه من جهاز PDA المحمول في اليد.

لينـدا بوزينـو: لم يكن يدري متى كنت أنظر إليـه. فكانت تلك في الحقيقة بداية أنواع من التحري السري.

ستوسل: وكم من الوقت كنت تراقيينه.

ليندا بوزينو: كنت أراقبه لا أعلم ربما كل عشر دقائق أو ما شابه ذلك. تعمل الكاميرا مثل شرطي في الزاوية.

ستوسل: ما الرسالة التي يقولها هذا الأمر لأصدقائه حين يزورونه.

ليندا بوزينو: أمك تحبك وهي تشاهدك بقدر ماتستطيع.

على الأقل ليندا أخبرت ابنها ديريك عن الكاميرا. بعض الناس يثبتون أجهزة بالسر ـ من الصعب جداً أن يُحدَّد لها موضعاً.

وجدنا كاميرات مخفية في أدوات الكشف عن التدخين، في الدبب اللعب، في برايات الأقلام، في وصلات الهاتف. شاهدنا في أجهزة فيديو مثبتة في المنازل أموراً سببت جزعاً أفظع للأهل: الأولاد يسرقون النقود، ويشربون الليكور ويسكرون ويتقيؤون.

أخبرنا شخص يبيع هذه الأجهزة أن مجابهة الأولاد بشريط يكون دليلاً هو أفضل طريقة لكي يقبل كل شخص أن لديه مشكلة تتربص به وأن عليه حلها: قال: «إنك تفعل ذلك لأنك تحبهم» وقال: «إنك تريد أن تتثبت أنهم على الطريق المستقيم طريق الفضيلة».

خبرني لويس غونزاليس وباتريشيا كيسينو أنهما تجسسا على أولادهما لأنهما كانا يعتقدان أن ذلك يساعدهم علىإبقائهم آمنين.

قال لويس: «نحن نشعر حقاً شعوراً سيئاً إلى حد ما لأننا نقتحم خصوصيتهم قليلاً». ولكنه هو وباتريشيا يعملان في وظيفتين ويقلقان حول ترك الأولاد وحيدين في البيت. وهكذا اشتريا كاميرا وأخفياها في غرفة الجلوس.

كانا على الأغلب يريان أولادهما يكتبون وظائفهم ويشاهدون التلفاز. ولكن ذات يوم التقطت الكاميرا سينثيا ذات الاثني عشر عاماً وجيسي ذات الأحد عشر عاماً مع ثلاثة رفاق آخرين يلعبون بزجاجة مشروب بأن يديرونها كالمغزل. وهي ليست اللعبة التي كنت أعرفها وأنا صغير. في تلك اللعبة إذا أشّرت الزجاجة عليك يكون عليك أن تنزع قميصك أو تتجرع ـ كما فعلت جيسي جرعة كبيرة من زجاجة البيرة.

قال لويس: «إن أكثر ما أدهشني هو رؤية ابني وهو يخطف زجاجة البيرة ويشرب منهـا» وتضيـف باتريشيا «ثـم يقبل تلك الفتـاة الصغيرة ويتصـرف بشكل عجيب» وقالـت «مـا كنت أتخيل في حياتـي أن بوسعهم أن يفعلوا مثل ذلـك في المنزل». جابه لويس وباتريشيـا الأولاد الذيـن سعوا في البدايـة إلى إنكار أنهم هـم المصورون في الشريـط. وشاهدنـا بكاميراتنا كيف رضـخ الأولاد في النهاية وبـدت عليهم علائم النـدم والأسف. قالت جيسي: «شعرت بالاشمئزاز من تصرفي» وقالت سينثيا «إن ما فعلنـاه كان خطأ». و «نأمـل أن الذين يشاهدون ذلك الفيديو سوف يرغبون في شراء كاميرات مراقبة مثل هذه».

بدا الأمر ملائماً بالنسبة لي وهكذا عرضت المسألة على محكّمين من أتراب جيسي وسينيثا ـ جماعة من المراهقين استطلع أهلهم أمورهم بالتجسس. وعرضت مرة ثانية عبارات الندم مثل: «لن أفعل ذلك ثانية» وراقبت ضحكات الأولاد المكتومة.

أريل أستراكان: إنه كاذب سيعيدون فعل ذلك مرة ثانية.

ستوسل: ولم يكذب علينا؟

أريـل أسـتراكان: لأنهم أولاد. إنهم لا يريدون إحـراج أسرهم. وعليهم أن يقولوا هذه الأمور.

آشلي كيلور: أهلي لا يثقون بي الآن. ولكنهم كذبوا علي أيضاً، ولذا أنا لا أثق بهم بنفس الدرجة.

جون ماك ديفيت: يوجد نقض في الاحترام الآن. الأمر الوحيد الذي أنجزه أهلي هو أني لا أتكلم معهم مطلقاً.

إن فقدان الثقة هو السبب الذي يجعل كل خبير استشرناه يقول: إن التجسس فكرة سيئة. قال لي عالم النفس د. نيل بيرنشتاين: «كل ما يفعل التجسس هو إخبار الولد أن السبب في التزامك الصواب في أفعالك كونك مراقباً من أهلك».

وقـال: «وهذا لا يتضمن أي قيم» وإذاً كيف نكتشف نحن الأهل ماذا يفعل أولادنا؟ قال الدكتور بيرنشتاين: «اسألهم بحق السماء» وأردف: «إذا كان لك علاقة معه قد لا

يكذب عليك. اتصل هاتفياً بأهالي آخرين، تحدث مع الأصدقاء، تحدث مع الأساتذة، تحدث مع المدرسة وافق المراهقون على ذلك. قالوا لا تتجسسوا فقد تحدثوا معنا.

ستوسل: هل تستطيعون أن تتعلموا إلى هذا الحد بالحديث؟

أريل أستراكان: أجل.

ستوسل: ولكن قد تكذبون.

أريل أستراكان: وماذا في الأمر؟ عندما كنت أنت أصغر عمراً لم يكن بحوزة أهلك هذه التكنولوجيا.

ستوسل: وقد كذبت عليهم.

أريل أستراكان: تماماً. فلم إذاً لا تستطيع أن تستمر في ذلك؟ أعني أنك أصبحت ممتازاً.

يبقى هذا لإعادة النظر.

فكرة نهائية واحدة. ليس مهماً ما تخبر به أولادك، كل خبير قال: إنهم يتأثرون بما تفعل أكثر من تأثرهم بما تقول. إنهم يرفعون أبصارهم إليك. حتى عندما تظن أنهم لا يعيرونك انتباهاً فإنهم يلحظون كل حركة وسكنة تقوم بها. وسوف يقلدونك فيما بعد. وهكذا إذا كنت شخصاً جيداً فإنك تعطي رسالة جيدة إلى أولادك.

الفصل الثاني عشر

السعي إلى السعادة

نحـن نأخذ السعي إلى السعادة على محمل الجد. وننفق ملايين على العلاج وعلى شـراء الكتب التـي تساعدنا قراءتهـا مساعدة ذاتية، ونجاري النـاس من حولنا. أن يكـون الإنسـان سعيداً هو هدف مغروس في النفس، ويصدمنـا أن نكتشف أنه فكرة حديثة نسبياً. ففي معظم مراحل التاريخ كانت الحياة بغيضة لأن كثيراً من الناس لم يتذوقوا طعم السعادة أبداً إبّان حياتهم.

يقول روبرت دارنتون ـ أستاذ التاريخ في جامعة برنستون ـ : «كان الناس يعيشون في أكواخ أرضها قذرة» ويقـول: «كانوا جياعاً وكانوا سعيدين حين يحصلون على وجبتين في اليوم. وكانت وجباتهم من نفس الطعام على الأغلب، النوع الذي تسمعه إن أصغيت إلى قصائد قديمة يهلل بهـا للأطفال تعرفونها (عصيدة البازلاء الساخنة، عصيدة البـازلاء البـاردة) هذا ما كانت الأسرة تأكله وقت الإفطـار ووقت العشاء وربما لأيام سبعة متواصلة».

كان العمل شاقاً وكانت الحياة قصيرة. قليل من الناس كان لديهم الوقت ليهتموا بالسعي إلى السعادة.

وكان مفهـوم السعادة مرتبطاً فقط بالحيـاة الأخرى بعد هذه الحياة: كان الناس يكافحـون وهم يودعون الأرض بالدموع، وقلوبهم مفعمة بالآمال بأن يربحوا الخلاص ــ والسعـادة ــ في السمـاء. ولم يتغير ذلك إلا حين تحسنت ظـروف الحياة —فجعلت التكنولوجيا الحياة أقل مشقة وجاءت اللقاحات فأنقذت الأطفال وانتبه الناس إلى أن السعادة ممكنة على وجه الأرض.

نحن الآن نسعى سعياً حثيثاً نحو السعادة بشكل مفروغ منه وقد خبرني البروفسور دارنتـون. إننا وصلنـا إلى حد إننا غيرنا نهايات قصص الأطفـال فقال: «قصة ذات الـرداء الأحمر (ليلى والذئب) كانت تروى في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات

مـن القرن فتنتهـي بأن يأكل الذئـب ليلى ذات الـرداء الأحمر. الآن ينبغـي أن تكون نهايات قصص الأطفال سعيدة».

قال دارنتون: عندما قال توماس جيفرسون: «إن لنا الحق في السعي إلى السعادة» كانـت كلمته فكرة جذرية متطرفة. وفي الحقيقة تكلـم أرسطو عن السعادة قبل زمن طويـل، ولكن لم يكتب عن السعادة إلا في زمن إعـلان الاستقلال، وازداد عدد الناس الذيـن كانـوا مؤهلين للبحث عن السعادة. «كانت اللحظـة الحاسمة في الحقيقة حين أمسك جيفرسون ريشة قلمه وكتب. (الحياة، الحرية، السعي إلى السعادة)».

لن يشعر الشعب ببساطة أن السعادة هي حال مرغوبة في الوجود ولكن هذا صحيح.

وإن كانـوا محرومين مـن ذلك الحق فينبغـي أن يقيموا الدنيـا ويقعدوها. ينبغي أن يطـردوا السياسيـين. ينبغـي أن يطردوا الـزوج أو الزوجة، ينبغـي أن ينتقلوا إلى كاليفورنيا ينبغي أن يغيروا حياتهم.. سيجعلهم هذا سعداء؟

خرافة: المال يشتري السعادة.

حقيقة: ليس لأمد طويل.

اقتنـع الأمريكيون بشكل متزايد أن المال يستطيـع أن يشتري السعادة. قبل خمس وثلاثين سنة حين كان يُسأل طلاب الجامعة ما أهم شيء، كانوا يجيبون: «الأسرة» أو «تطويـر فلسفة حيـاة لها مغزى» يقول عالم النفس ديفيد ميـيرز ـ الذي كتب «السعي إلى السعـادة»: «اليوم يقول معظـم الطلاب: أن يكون المرء حسن الأحوال مالياً» ولكن كيـف يكـون المرء حسن الأحـوال مالياً؟ إن كنـت لا تملك ضروريات الحيـاة إن كنت جائعـاً أو خائفـاً من ألا يكون لدى أولادك طعام أو لباس فمن الصعب حينئذٍ أن تذوق الفرح. وجدت دراسات دولية أن أقل الناس سعادة يعيشون في أفقر البلدان. يقول عالم النفسـ أد دينر من جامعة إيلينوي: «إن النقود ربما تساعدهم. إنهم هلكى في طلبهم لضروريات الحياة إلى حد أن وقتهم ضئيل ليدركوا معنى سعادتهم الشخصية. «حين تسـأل الناس في الصـين أو في الهند أن يملؤوا سلماً مـن الروائز يبين مدى سعادتهم

نصل إلى نسبة مئوية عالية جداً عن أناس يقولون: أنا لم أفكر أبداً في هذا الموضوع من قبل، على حين في أمريكا لن تجد أحداً في الواقع يقول ذلك».

في أمريكا يقول معظم الناس: إنهم سعداء تقريباً، ولكن يقولون: إنهم سيكونون أسعد إن حصلوا على مال أكثر. هل يستطيع المال الأكثر أن يزيد في سعادتهم؟ قابلت اثنين ممن ربحا اليانصيب: كورتيس شارب ربح خمس ملايين دولار، وشيري غاغلياردي ربحت ستاً وعشرين مليون دولار.

كورتيس شارب: لوهلة بدا الأمر لي وكأنني في عالم حلم؟

ستوسل: وهل عدت إلى عالم الواقع؟

كورتيس شارب: أوه نعم لقد عدت إلى الواقع، عدت إلى عالم الواقع لقد طلقت زوجتي الأولى، وتزوجت أخرى وصرفت نقوداً كثيرة على العرس.

ستوسل: مئة ألف دولار على حفلة زفاف كبيرة.

كورتيس شارب: نعم ولكن هذا لم يدم خمس سنين أنت تعرف ماذا أقول؟.

شيري غاغلياردي: كنت فاقدة الحس مدة ثلاث سنوات.

ستوسل: ولكن لابد أنك كنت سعيدة؟

شيري غاغلياردي: نعم ولا. لقد طُلقت بعد سنتين من ربحي اليانصيب. الناس عندهم إدراك خاطئ عن المال. إنك تخرج من المنزل وتقول: «هذا ما أريده سوف أشتريه؟» وبعد أسبوعين كما تعلم يعود الفراغ. ثم ماذا؟

كورتيس شارب: أعني كم بذلة أستطيع أن ألبس؟ كم قبعة أستطيع أن أضع على رأسي؟ أنت تعرف ماذا أعني؟

دكتور مييرز الذي قضى ست سنوات يتفحص مئات الدراسات عن السعادة من أجل كتابه يقول: ما إن تجتاز حالة الفقر فإن النقود لا تعين ولا يهم كم من الأشياء تشتري.

«من الواضح أن المخزون الاحتياطي من أقراص CD، والخزائن المليئة بالملابس، وأجهزة التلفاز الستيريو ذات الشاشات الكبيرة لن تستطيع أن تبعث السعادة في نفسك».

سبب واحد آخر لم لا يستطيع المال أن يجعلنا أسعد حالاً؟ ذلك أن الناس يتلاءمون مـع الحال. يقول دكتور ميـيرز: «بعد الحصول على الدرجة من الـثروة» يعتاد الناس ذلـك، «ويقتضي الأمر طلـب أرباحٍ أكثر، حاسوبٍ أسرع، جهاز تلفـاز بشاشة أكبر أو أي أمر آخر ـ لإنعاش الفرح».

«إنعاشـ الفرح» مفهوم تراه حتى عند الأطفال الصغار. أعط الطفل لعبة متحركة لهـا غرضـان وهو سيحبها كثيراً. ولكـن الباحثين في جامعة سانـت جون في نيويورك اكتشفـوا أنه عندما يقـدم للأطفال عشر لعب متحركة ثم يعيدونهم إلى اللعبة الأولى بغرضين متحركين فإنهم يفقدون الاهتمام وبعض منهم يبكي.

هـل كانوا مدللين؟ هـذه الكلمة ترد إلى الذهن حين نفكـر في الراشدين والمال. لا يهـم عـدد الأشياء التي يحصل عليها بعض الناس، فـإن فرحهم يفقد بريقه ويصبح اعتيـاداً. يظهـر تقرير التنمية في الأمم المتحدة عـام 1998 أن الدخل اللازم «لإيفاء تطلعات الاستهلاك» تضاعف في الولايات المتحدة بين عامي 1986 و1994.

هل الأثرياء أكثر رضى من بقية الناس بيننا؟ إن الدلائل تتفاوت. وجد أحد المسوح أن 50 بالمئـة من الكسبة ذوي الدخل الأعلى يقولون عن أنفسهم إنهم «سعيدون جداً» ولكـن قسماً آخر من الناس في قائمة (Forbes Richest) يعدون أنفسهم ليسوا أكثر سعادة من أي شخص آخر.

ولكـن معظمنا كما يقول د. مـيرز «رغم الدخل المضاعف ورغـم تضاعف قدرتنا الشرائيـة لسنـا أكثر سعـادة مما كنا قبل أربعـين سنة». ثم وضعنـي د. مييرز تحت كاميرا على الإختبار.

دكتـور ديفيـد مـيـيرز: أنـا أعنـي أن تنظـر فقـط إلى «طريقـة حيـاة الأغنياء والمشهورين» ألا يبدون سعداء؟ هل تود أن تكون مثلهم؟

ستوسل: نعم أنا الآن على التلفاز.

دكتور ديفيد مييرز: وإذاً هل أنت سعيد؟

ستوسل: لا.

كان ذلك محرجاً.

أنــا عندي مال. وقد أنجزت نجاحاً في مجال جذاب. عندما كنت في العشرين من عمــري لــو أن أحد الناس خبرني أني سأحصل يوماً على ما حصلت عليه الآن لجننت مــن الفرح. ولكني لا أستيقظ في الصباح فرحاً متشوقــاً للذهاب إلى العمل. بدلاً من ذلك أستيقظ قلقاً: «ماذا سأفعل على برنامج 20/20 هذا الأسبوع؟

هل قصتي التي كتبتها جيدة إلى حد كاف؟ هل هي ممتعة إلى حد كاف؟ أخاف ألا تكون كذلك. ماذا إن لم أجد وقتاً لتصحيحها. إلى آخر ذلك لأني أنا شخص قلق.

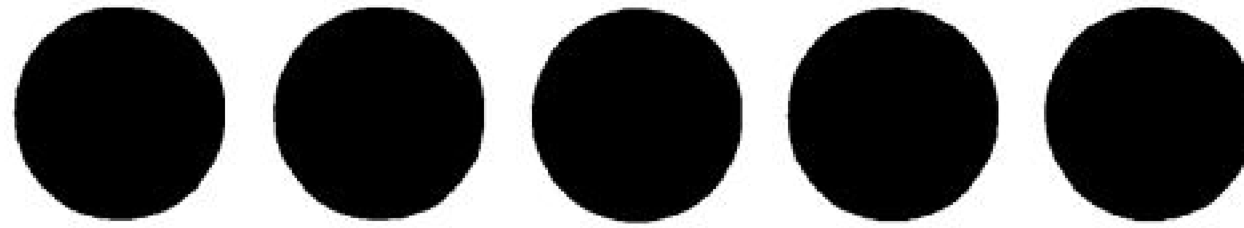
وأنا أيضاً كنت مرتاباً حول مفهوم «البحوث التي تجرى عن السعادة».

كيــف يعرف هؤلاء العلماء ما الذي يصنــع حياة سعيدة؟ إنك لا تستطيع أن تقيس السعادة كما تقيس ضغط الدم.

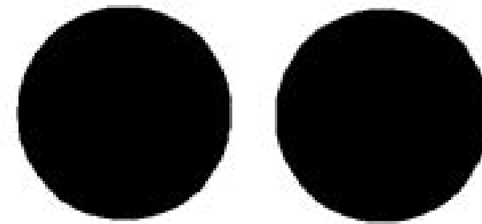
مــا كان يقوم به الباحثون ـ وهم حقــاً أناس جامعات يعملون بوقت كامل محاولين أن يحللوا السعادة ـ هو أن يسألوا الناس وحسب. «كيف تشعر هذا العام؟ أعط نفسك علامة من واحد إلى عشرة. هل أنت غير سعيد؟ حيادي؟ سعيد جداً؟».

وما دامت ظروف اللحظة قد تغير جوابك يقضي بعض الباحثين في هذه المواضيع شهــراً وبيدهــم الهواتف النقالــة Beepers. وحين ينتهي تلقــي المكالمات يكتبون كيف يشعرون في تلك اللحظة.

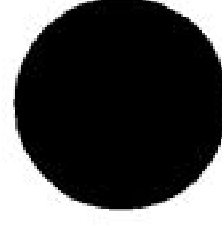
باحثون آخرون يعرضون هذه الوجوه ويقولون: أي منها وجهك؟



وحــين أعطيت هذا الرائز لبربارة وولترز اختارت مــا اخترت أنا: إننا على هذين الوجهين نغدو جيئة وذهاباً.



التقط شارلي جيبسون مباشرة هذه الصورة.



أنا أحسده. حسناً إن هذا ليس علماً دقيقاً وقد يبدو سخيفاً ولكن على مدى السنين قـام الباحثون بمسوح على أكثر من مليون مـن الناس في أمريكا وآسيا وأوربا ووجدوا بعض النماذج الواضحة.

خرافة: بعض الناس ولدوا سعداء وحسب.

حقيقة: هذا في الظاهر.

بربـارة هربرت ودافني غودشيب امرأتان سعيدتـان بدون سبب وبشكل مضحك. كانتـا تقومـان بدراسـة نفسية لخنازيـر غينيا وكان الفريـق مندهشاً مـن بهجتهما النفسيـة العجيبـة. وجميعنا كنا مندهشين. ولم يكن طاقـم الكاميرا يصدق كيف أن هاتين السيدتين تبتسمان لكل شيء.

بربارة ودافني توأمان متماثلتان (من بويضة واحدة). يمكنك أن تفسر سعادتهما لـو كانـت نتيجة لطفولة جيـدة أو بسبب تأثـير كل منهما في الأخرى ـــ لكن الحقيقة أنهما لم تعـرف إحداهما الأخرى حين كانتا طفلتين ولدتا بفاصل اثنتي عشرة دقيقة وأعطيتـا مباشرة للتبني. حتى أن بربارة لم تدر أن لها أختاً توأمة إلى أن أصبحت في الثلاثين من عمرها حين وجدت أختها بمساعدة المراسلين الصحفيين.

فكـر الدكتور توماس بوشار وهو عالم نفس في جامعـة مينيسوتا أن بربارة ودفني يمكـن أن تكونا مرشحتين لتمهيـد الطريق في دراسة يجريها على التوائم التي عاشت حياتهـا منفصلة بعضها عن بعض. قال لي: «عندمـا جاءتا إلى هنا هزّتانا بعمق من تشابههما الملحوظ».

وقـال: «كانتـا مستعدتـين للانفجـار بالضحـك والقهقهـة» وسماهمـا المخبر «التوأمتين المقهقتين».

أمـا بربارا فلـم يكن هناك شك لديها حـين سئلت عن سبب مزاجهـا الجيد أهو الطبيعـة أم التنشئة أجابت فـوراً: «إنها الطبيعة بلا ريب» وقالـت: «ما أظن البيئة أو أي شـيء آخـر أثر فينا، نحـن ما نحن». والعلـم أيدها فيما تقـول: إذ وجدت دراسة مينيسوتـا أن توقعـات أن يكـون التوأمين ـ مرحـين أو غير مرحين ــ متشابهة بشكل ملحوظ سواء تربيا معاً أو كل واحد على حدة.

قال الدكتور بوشار: «لو كانت البيئة وحدها تشكل شخصيتنا. لما كان هناك تشابه بين توأمين تربيا منفصلين مع أن التشابه هو بحذافيره كما في توأمين تربيا معاً».

وجدت دراسات جـرت في جامعة ميريلاند أن بعض الأولاد (يولدون) سعيدين أو غـير سعيدين بـكل معنى الكلمة. استعمل العلماء هنـاك القطبين الكهربائيين لرصد نشاط دماغ الأطفال حين كانوا يضحكون: الأطفال الذين يضحكون كثيراً يكون لديهم نشاط يمكن قياسه في الفصوص الجبهية اليسرى.

خبرني الدكتـور ريتشـارد دافيدسـون أن «هنـاك بعض الأدمغة التـي هي أكثر استعـداداً لتجربة السعادة من سواها من الأدمغـة» وقال: «إن الاستعداد يولد مـع الإنسان نفسه» أو لا يولد معـه. أنا لم يولد معي كما يبدو. جلست في مخبر الدكتـور دافيدسـون وتركتـه يضـع الشرائـط الكهربائية علـي ليقيس نشاط دماغـي. دكتور ريتشارد دافيدسون. تظهر بياناتك نشاطاً في الجبهة اليسارية أقـل من المعدل الوسطي عنـد الشخص العادي، ليس ذلـك في الحد الأقصى ولكنه بالتأكيد أقل مما نشاهده في المعدل الوسطي.

ويحي نشاط الجبهة في الجهة اليسرى! لو كان عندي أكثر فقط...

أنا أيضاً متشائم. ويحي مرة ثانية. يميل المتفائلون لأن يكونوا أكثر سعادة من بقية النـاس. يقول الذين يجرون الدراسـة أشياء مثل: إن كنت تتوقـع أموراً جيدة فسوف تصبح أكثر سعادة.

السينـاتـور جون ماكين (R-AZ) شخص متفائل. قال لي: إن طبيعته المتفائلة هي التي جعلته يبقى حياً في السنين الخمس المخيفة التي قضاها سجين حرب في فييتنام

الشماليــة. كان آسروه يعذبونه. وقد وضعــوه في حبس انفرادي أكثر من سنتين. ولكن طوال ذلك الوقت كما قال كان مبتهجاً بسبب وجهة نظره الإيجابية.

سيناتــور جــون ماكــين: إنه اعتقاد عميق في النفس بــأن كل شيء سينتهي على ما يرام.

ستوسل: إنك ما كنت تعرف أن الأمور سوف تنتهي على ما يرام.

سيناتــور جــون مـاكــين: لا. ولكن كان عليك أن تعتقــد بذلك. كان عليك أن تعتقد بذلك.

ستوسل: هل كانت هناك أوقات يمكن أن تقول إنك كنت سعيداً فيها؟

سيناتــور جــون ماكين: عدة مرات. تلك هي الأوقــات التي كنت أضحك فيها من الفيتناميين، الحراس والمستجوبين، وأستطيع أن أقول لك إن السبب الذي جعل العديــد منا قــادراً على أن يخرج من تلك التجربة بوضــع عقلي جيد كان لأننا كنا سعداء حقاً.

هذا موقف جيد ما كان يمكن أن أكون سعيداً في سجن في فيتنام الشمالية.

ولكــن يوجد أمل للأشخاص الذين يكونون مثلــي. مع أن البيولوجيا لها تأثير مهم على سعادتنا فإن خياراتنا لها نفوذ كبير أيضاً.

خرافة: لو كان بوسعي أن أسلّم هذه القرارات إلى أحد غيري.

حقيقة: التحكم يجعلنا سعداء.

قبــل بضــع سنوات حين كانــت شركة كرايسلــر مهتمة برفــع المعنويات في خطوط تجمعها، حاولت إدارة الشركة أمراً جذرياً. فقد أعطت عمالها تحكماً أكثر.

أتيــح للعمال أن يساعــدوا في إعادة تصميم مصنع رئيســ في مدينة سانت لويس وتغيير النظام الذي تنجز فيه بعض الأعمال. وقرر العاملون في خط التجمع أنه يكون مــن الأفضل إن استطاعــوا وضع مقاعد أمام الأبواب، وإن كانوا يستطيعون أن يوقفوا الخط كلما قابلتهم مشكلة.

تحسنــت مواقــف العمال بشكل ملحوظ. قال لي أحد العمــال: «قبل عشر سنين لم يكن هذا مكاناً جميلاً تريد أن تأتي إليه كل يوم». وأردف قائلاً: «الآن تستيقظ وتشعر بأنك سعيد لأنك ذاهب إلى ذلك المكان».

أصبح الآن الأمر روتيناً معتاداً أن يُسأل عمال خط التجمع حول التغييرات في المصانع من أجل تحسين معنوياتهم بإعطائهم بعض مقاييس الضبط للتحكم ببيئتهم.

إن الرابطة بين التحكم والسعادة تبدأ من المهد. يربط الباحثون في جامعة روتجرز Rutgers خيطــاً حول رسغ الطفــل. إذ شُدَّ الخيط تظهر صــورة، وقد أدرك الأطفال ذلك وأحبوه، يشدون الخيط فتظهر الصور ويبتسمون.

ولكــن الباحثــين بعد ذلك نزعوا هــذا التحكم من أيدي الأطفــال فلم تعد الصور تظهر أو تظهر عشوائياً. وسرعان ما انصرف الأطفال عن ذلك أو لجؤوا إلى البكاء. وعندما أعيد إليهم التحكم عادوا إلى الابتسام مرة ثانية.

قال عالم النفس ديفيد مييرز: «إذا فكرنا في أنفسنا أننا ضحايا وفكرنا أن حياتنا خارجــة عــن التحكم نعيش ببهجة أقل». وهذا هو السبب في أن الشعوب التي تعيش في بلاد فاشستية يكون المعدل فيها أخفض على مقياس السعادة.

أظهرت دراسات جرت في هنغاريا بعهد الشيوعية في الثمانينيات أن الناس هناك يعــدون أنفسهم أقل سعادة مــن أي دولة صناعية. ولم يكن الفقــر هو السبب الوحيد لبؤسهــم. فبعضــ البلاد الأخرى مثل الهند وبنغلادش وتركيــا كانت في المستوى ذاته من الفقر ولكن ذكر أنها أعلى في مستوى رفاهة الحياة وسعادتها.

إن البيانــات حول العالم ثابتة على هذا المبدأ. وكمــا يقول دكتور مييرز: «الناس الذيــن يعيشــون في أوطان، الشعب فيها متحكم مسيطر علــى شؤونه ـ كما في ألمانيا الغربيــة مقابــل ألمانيا الشرقيــة في الثمانينيات ـ يلاحظ عليهــم علامات الرضى، ويبــدون أكثر سعادة من النــاس الذين يعيشون في ظروف يشعرون فيها بتحكم قليل على حياتهم».

خرافة: الناس المتدينون أكثر سعادة!

حقيقة: الناس المتدينون أكثر سعادة.

يلاحـظ أن الناس الذين يقال عنهم إنهم متدينون هـم سعيدون جداً. يقول عدد مـن هؤلاء المتدينـين إن السعادة تأتيهم من إحساسهـم بغايتهم التي هي خدمة الله: إحساس بالالتزام نحو شيء أكبر من ذواتهم. وقد تقنعـك الكنيسة بأن تصبح أكثر إحسانـاً. وتـزداد نسبة المحسنين أربعـين في المئة على غير المحسنـين في قولهم إنهم سعداء جداً».

الإيمان بـالله مرتبط ارتباطاً متبادلاً مع السعـادة. وحسب مسح غالوب Gallup كلما شعر الناس أنهم أقرب إلى الله شعروا شعوراً أفضل حول أنفسهم، وحول الناس الآخريـن. ووجـد أشمل مسح اجتماعي مـن بين المسوح التي أجريـت أن أكثر من 48 بالمئـة مـن الراشدين المتزوجين من جهـة والذين يذهبون إلى الكنيسـة أسبوعياً من جهـة أخرى سعيدين جـداً بالمقارنة مع 20 بالمئة فقط مـن الراشدين غير المتزوجين الذين لا يزورون الكنائس.

إن الذهـاب بالطبع إلى الكنيسة أو المعبـد أو الجامع يساعد على بلوغ السعادة، لأنـه يقـودك إلى أن تمضي وقتـاً أطول مع الناس الآخرين. هـذا وحده يزيد فروق الشعور بالسعادة.

خرافة: دعني وحيداً وسأكون سعيداً.

حقيقة: العلاقات الحميمية تجعل الناس أكثر سعادة.

يعد المتزوجون أنفسهم أكثر سعادة من العازبين، ولكن ليس الزواج وحده هو الذي يصنع الفرق ـ كما يقول علماء النفس ـ بل كل أنواع العلاقات تمد يد المساعدة، وربما كان هـذا هو السبـب الذي يجعل المنفتحين بـين الناس يعدون أنفسهـم أكثر سعادة.

وكذلـك يعدون أنفسهم أكثر سعادة الناس الذيـن لديهم صديق ينادونه إذا طرأ أمر سيئ. وتقترح البحوث أن النساء بعد الطلاق يشفين عاطفياً أسرع من الرجال. وتقول النســاء عادة إن لديهــن خمساً أو ست صديقات يتحدثن معهــن بحميمية بينما يقول الرجال غالباً: إن لديهم صديقة واحدة هي الزوجة السابقة.

يقول عــالم النفس ديفيـد مييرز: «إن العلاقـات الحميمية والداعمـة والمترابطة تصنــع السعــادة، والآن صار عندنا عدد أقل من هذه العلاقـات في الولايات المتحدة، أصبــح عــدد مَنْ يعيش وحيداً أكثر بثــلاث مرات من عدد مَــنْ كان يعيش وحيداً قبل نصف قرن».

وحين نسأل الباحثين في موضوع السعادة «هل يوجد أناس تظنون أنهم أكثر سعادة؟» ويعيدنــا الكثـير من هؤلاء إلى أميشـ Amish وهي فرقة دينية صغـيرة تنأى بنفسها عــن وسائل الراحة في العالم الحديث. ومع أن أميش يصرفون الساعات الطوال وهم يعملــون ما يعده معظمنا عملاً مملاً، يقول البروفســور دونالد كريبيل: إنهم ينتفعون من كونهم، يمتلكون هدفاً في الحياة. «إن جذور سعادتهم مرتبطة بقيمهم في حياتهم الاجتماعيــة البسيطة. إنهم يتكلمون عن التعاون. يتكلمون عن نكران الذات. يتكلمون عن الزهد في الأشياء من أجل مصلحة الجماعة».

هــل هم حقاً سعيدون؟ إنهم لا يبدون سعيدين جداً بملابسهم السوداء وبعرباتهم الســوداء التي بطل زيها. في أحد برامجــي التلفازية أقنعنا بضعة عشرات من جماعة الأميشـ أن تقدم اختبــاراً (رائزاً)، صممــه باحثون في الجامعة يقــدر السعادة على مقياس مدرج.

جميعهــم عدوا أنفسهم «سعيدين» أو «سعيديــن إلى أقصى حد». كانت علاقاتهم فــوق المعــدل الأمريكي (مع أن بعضهم عدَّ نفسه أقل سعادة مما كانوا من قبل وقالوا: ليس من التهذيب التفاخر).

قالــت إحــدى النساء: إننــا إذا رفعنا الكاميرات جانباً يمكــن أن تخبرنا لم هي سعيدة جداً.

واليكم ما كان عليها أن تقول:

امـرأة من جماعة أميش: منزلنا هو الجنة فهناك الكثير من أبناء العمومة قد يكونـون 100 أو 150 جاهـزون دائمـاً ليعتنوا بك عند الحاجـة. إنه أمان ربما نأخـذه كأمـر مُسَلَّم به. أحسب أننا جميعنا نحب الأشيـاء المادية، لكننا نتدبر أمرنا، ولا نشعر أننا نفتقد شيئاً إذا لم نكن قط مرفهين مادياً.

إنـك لن تجـد أفضل من ذلك. لا تحتـاج إلى الكثير لكي تسر طفـلاً من الأميش. نزهة بسيطة تسره، ربما كما يسر أولادك إن هم ذهبوا إلى هاواي.

ربمـا هـذا هو السبب في كـون 85-90 بالمئة من أولاد الأميش يختـارون أن يلفظوا مغريـات الحياة الحديثة، ويبقـون في جماعة الأميش. وقد وصف ذلك دونالد كريبيل بقوله: «إن طريقة الأميش في الحياة تعذب النفس الحديثة، لأن السياح يأتون فضوليين لمعرفـة فرقة الأميش ويتركونهم وهـم يشعرون بالعذاب لأنهم ربما يظنون أن الأميش أكثر سعادة منهم».

خرافة: يجلب العجز سنيناً من عدم السعادة.

حقيقة: العاجزون سعيدون مثل أي شخص آخر.

إعاقة عجـز أو إصابة هي أمر مدمّر... إلى أجل مسمى. ومثلما وجد الرابحون في اليانصيب أنفسهم خلال عام غير سعيدين ـ كما كانوا من قبل ـ فإن العاجزين غالباً ما يجدوا أنفسهم بعد خروجهم من صدمة إصابتهم أنهم سعيدون كما كانوا من قبل.

أصـاب الشلل دينيـس هيفي في عنقه بسبب حادث غوص، ولكنه يقول: إنه رجل سعيـد. كان يواسي ضحايا السرطان، ويقضي وقتـاً في ملجأ من لا مأوى لهم يعلم الناس القراءة.

ستوسـل: قـد يسأل بعض الناس كيف تستطيع أن تكـون سعيداً؟ وأنت تحتاج إلى من يلبسك ملابسك. وأنت لا تستطيع أن تأكل بمفردك.

دينيس هيفي: هــذا مزعــج. ولكنك تفعــل ما يجب عليــك أن تفعلــه وأنا شديد الامتنان لأن لدي الكثير.

ستوسل: يبــدو أن تعليم من لا مأوى لهم أمر صعب. أنا أظن أن السعادة تكون في عمــل أشياء طريفة ـ مثل الذهــاب إلى السينما، ومشاهدة التلفاز. هذا عمل لطيف.

دينيــز هيفــي: هــذا ليس عمــلاً. إن الأمر هــو أن تعرف ما هو وضعــك. أنا لست بالشخص الــذي يجــد بهجــة في الجلوس إلى التلفــاز ومشاهدتــه. لا يوجد تفاعــل إنساني في ذلك. أظن أن ما يجعلني سعيداً هو التفاعل مع الناس وفيه متعــة كبيرة من الرضى حين تكون مع أشخاص آخرين تضحك حين يضحك الآخرون! هذه هي السعادة. هذا ما ينشطني.

خرافة: تنقص السعادة مع تقدم السن.

حقيقة: الكبار في السن سعداء مثل الشباب.

وصف نبع الشباب بأنه طريق السعادة.

أشار ديفيد ميرز إلى أن هناك أسباباً وجيهة للاعتقاد بأننا نخسر فرصة السعادة كلما تقدمنا في السن.

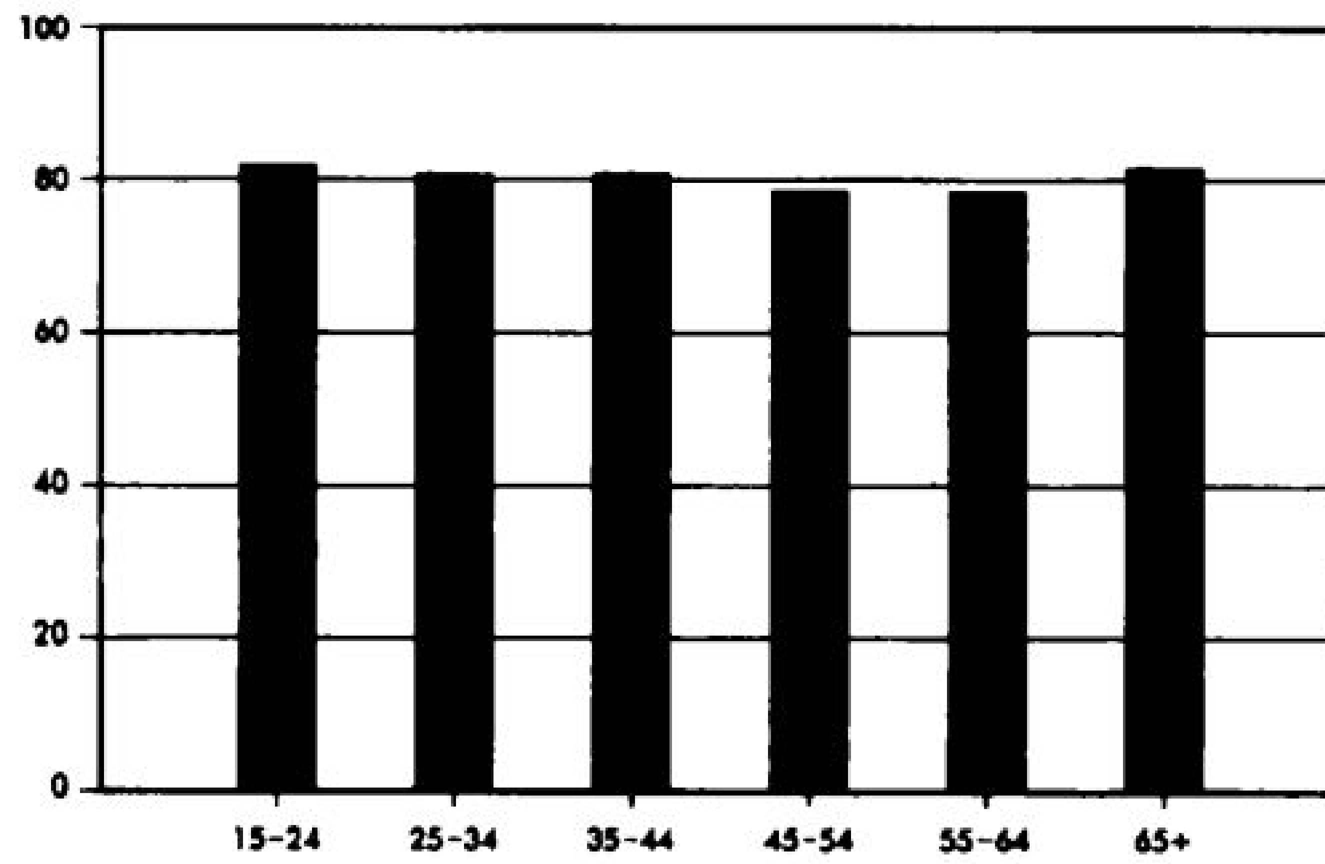
ديفيــد ميرز: يقل دخلــك، وتضعف صحتك، ويموت أصدقاؤك شهراً بعد شهر. لابد أنه وقت غير سعيد تماماً في الحياة كما يفترض معظم الناس.

ستوسل: هل هو كذلك؟.

ديفيــد ميــرز: من الواضح أن الأمر ليس كذلك. فالناس في كل الأعمار يتساوون تقريباً في معدل شعورهم بالسعادة.

والمســوح متشابهة حتى أن الخطوط البيانيــة مملة. الناس في أي فئة عمرية تكون في المستويات ذاتها من السعادة.

العمر والسعادة



أجريت مقابلة مع أبي الذي يبلغ من العمر واحداً وتسعين سنة.

ستوسل: الناس في عمري يخشون أنني حين أصبح في سنك من الصعب أن أكون سعيداً. تصبح الأمور التي تجلب السعادة أقل.

أوتو ستوسل: لا ليس الأمر كذلك أبداً. إن الشعور بالسعادة لا يقل بالضرورة: لأن الظروف لم تعد كما كانت من قبل.

ستوسل: ولكن كيف يمكن ألا تتغير الظروف؟ إنك أضعف صحة. وقلّ ما تتطلّع إليه من أمور.

أوتو ستوسل: أجل ولكن أعلم أنه مع التقدم في العمر لا يوجد خيار. إنها الطريقة التي عليّ أن أعيشها الآن.

يقول الباحثون: إننا عندما نتقدم في العمر تصبح الأمور العالية أقل علواً، ولكن الجيد أن الأمور المنخفضة تصبح أقل انخفاضاً. لأننا نتعلم أن نقبل مالا نستطيع أن نغيره.

يصف كبار السن حياتهم بأنها صعبة، ولكنك يقولون: إنهم يشعرون بكرب أقل. ولهذا السبب يلاحظ أن مستويات السعادة هي بنفس ارتفاعها لدى الشباب.

خرافة: لا تستطيع أن تتظاهر بالسعادة.

حقيقة: تظاهر بالسعادة إلى أن تشعر بها.

مـاذا عن أولئك الناس مـن بيننا الذين ولدوا وليس لديهـم جينات السعادة التي أُنعـم بها علـى التوأمين المقهقهين؟ ومـاذا عن أولئك الذين ليسـوا متفائلين، وليسوا متدينين، وليسوا متزوجين، ولا اجتماعيين، وليسوا محاطين بالأصدقاء... إلخ؟!!

هل نستطيع أن نفعل أي شيء بسيط لنساعد أنفسنا ونغدو سعداء؟ «نعم».

يقـول د. ميرز: «الناس في الواقـع يشعرون أنهم أكثر سعادة حـين يلبسون وجهاً سعيداً». أنا كنت مشككاً.

ستوسل: هل تصنّعنا السعادة يجعلنا سعداء؟

ديفيـد ميـرز: كان هناك تجـارب اصطنع فيها بعض النـاس تعبير وجه مبتسم وطلـب إليهـم أن يديروا زوايـا فمهم بـأدوات، وقالوا: إنهم شعـروا حقاً أنهم أسعد حالاً. وفي دراسـة أخرى ترك الناس يقضمون قلماً مما ينشط عضلات الابتسـام أو يحفظـون القلم فقط بـين شفتيهم مما ينشـط عضلات التجهم والتقطيـب. هذا يتلاعـب في عواطفهـم. إن مكابدة الحركات يمكـن أن يثير العواطف الداخلية. وهكذا إذا أردت أن تكون أكثر تفاؤلاً أو منبسطاً ودياً أشرع بتمثيل ذلك كما لو أنك كذلك أي اصطنع ذلك.

ستوسل: كيف تصطنع أنك منبسطاً ودياً؟

ديفيـد ميـرز: تبـدأ بالحديث مع الناس في صف الدخـول إلى المسرح. أعني أن بوسعك في الواقع أن تعطى وظائف واجبات محددة.

ستوسل: فقط افعل ذلك.

ديفيد ميرز: فقط افعل ذلك بكل ما في الكلمة من معنى.

ستوسل: يمكن أن يجعلني هذا غير سعيد.

ديفيد ميرز: حسناً إن أردت أن تغير بعض ملامحك، ليست طريقة ذلك أن تجلس على مقعدك وتنتظر أن ينزل بك التغيير. إن الطريق إلى التغيير هو أن تنهض عن كرسيك وتتصنع أنك الشخص الذي تريد أن تكونه.

خرافة: يمكن أن يجعلنا وقت فراغ أطول أكثر سعادة.
حقيقة: الناس المشغولون هم أكثر سعادة.

يقول بعض الناس: إنهم يمكن أن يكونوا سعيدين إذا أتيح لهم وقت أطول للاسترخاء. يقول الخبراء: ولا بأي حال. إن عدم النشاط هو لعنة. تأتي السعادة حين نختبر مهاراتنا من خلال نشاط ذي معنى. يقول ديفيد ميرز: «الناس الذين يحرزون مهارات ويلتزمون بها. بكلمات أخرى الذين ينهمكون في ماهم فاعلون: يعيشون بهجة عظيمة».

غالباً ما يجد الناس محصولاً في أعمالهم ووظائفهم. ليس من الضروري أن تكون الوظيفة عالية الأجر ولكن أي وظيفة تجعلك تشعر أنك مفيد نافع.

يجد آخرون السعادة حين يغرقون أنفسهم في الهوايات والألعاب الرياضية، أو في أعمال الإحسان التطوعية. ويقول الباحثون: إن سعادتهم هذه لا تأتي من السعي إلى السعادة. إنهم أثناء سعيهم إلى أمور أخرى تحدث السعادة.

يقول ديفيد ميرز: السعادة هي تأثير جانبي حين القيام بأعمال أخرى «الناس السلبيون الذين يحيون في خمود وبلادة ـ لأتجرأ وأقول: يشاهدون التلفاز ـ يرجح ألا يصفوا أنفسهم بأنهم سعيدون على خلاف الذين يعملون بنشاط».

وهكذا ضع هذا الكتاب جانباً. اقلب على برنامج 20/20 اخرج من هنا واصنع شيئاً.

خاتمة

خرافة: جون ستوسل محافظ.

حقيقة: أنا مؤيد للحرية (ليبرتاري) Libertarian.

يدعوني الناس شخصاً محافظاً.

أنا أفهم لماذا. إن ناشر آخر كتاب لي دعاني على الغلاف «السوط المضاد لوسائل الإعلام الحرة». يسميني الكتاب الليبراليون «ذلك المحافظ على محطة ABC». وليس معنى ذلك أنه يعرفون في الواقع ماذا تعني هذه الكلمة. تعني كلمة «محافظ» للعديدين في تيار الإعلام الرئيس أي شخص لا يثقون به أو لا يحبونه. بل إنهم يدعون أقصى اليساريين مثل شيوعيي الصين وروسيا «المحافظين في الخط المتشدد».

في مدينة نيويورك حيث أعيش كون الإنسان محافظاً أمر رهيب. يُشتم المحافظون بأنهم منغلقون متنمرون ضيقو التفكير، يريدون حكومة فاشية مستبدة تضبط العالم وتضبط غرفة نومك، وتجبر كل شخص أن يصبح مسيحياً متعصباً.

هذه القوالب المذكورة آنفاً هي وصمة في حزب المحافظين. ولكن هناك بعض الحقيقة وراء هذه الوصمة. فالعديد من المحافظين يؤمنون بأن الجماعات الأمريكية قادرة على «بناء الوطن». ويشعر بعضهم بعدم الراحة من خروج الناس عن «المعايير» الاجتماعية. ويرغب العديد في أن تصدر الحكومة قوانين ضد السلوك الذي يعدونه غير أخلاقي.

هذه كانت الأسباب التي جعلت الفيلسوف ف أي هايك يكتب عام 1960 دراسة بعنوان: «لم أنا لست محافظاً» قال: «يظل الموقع المحافظ ثابتاً على الاعتقاد بأنه في أي مجتمع يوجد أشخاص متفوقون معترف بهم ورثوا مقاييس وقيماً وموقفاً ينبغي أن تتم حمايته، وينبغي أن يكون لهم نفوذ في شؤون الناس أعظم من نفوذ الآخرين».

جـاءت كلماته حين كنت أشاهـد «الجمهوريين المحافظين مالياً» يوسعون الحكومة حتى أسرع مما فعل كلينتون. فجأة لم يعودوا يهتموا أن تتسع الحكومة وتكبر ما دامت تكبر بالطرق التي يحبونها.

وفي حملـة الانتخابـات قال الرئيس بوش مرارا: «ينبغـي أن يكون للازدهار هدف» موحيـاً بأن من مهام الحكومة أن تتصور ذلـك الهدف وتّموله. إلا أني لا أريد حكومة تخـبرني ماهو هدف المنفعة بألف طريقـة مختلفة. إن الأشخاص والشركات أحرى بتصور ذلك لأنفسهم.

وأنـا أكتب هذه الكلمات يهاجم الجمهوريـون شركات النفط «لابتزازها» الأسعار. وهـم يحاولون إصلاح الدستور لمنـع الشواذ الجنسيين من الزواج فيما بينهم، بعد أن ابتدعوا لتوهم عنواناً جديداً للعناية الطبية Medicare. إن كان هذا حزب المحافظين اليوم فإنه لا يجتذبني كثيراً.

وكذلـك لا تجتذبنـي الطريقـة التـي يعـرف بهـا الليبراليـون أنفسهـم. يـروّج الديمقراطيون سياسات مخرّبة لصالح الاتحادات والمحامين، وبعض الجماعات ذات المنافع الخاصة التي تغذيهم بالمال. أصبح معنى الليبرالية زيادة الإنفاق الخاصة على كل أمـر ـــ شرطة الكلام، برامج الفقر المخفقة التي تحبـذ الاعتماد والاتكال، الدولة الراعية الأكبر التـي تعلمنا ألا نأكل الأطعمة الدهنية، قواعد أماكن العمل التي تخنق الفرص ونظم البيئة السخيفة.

أنـا أحب فكرة الحريـة الشخصية التي يضعها الديمقراطيـون غالباً في المقدمة، ولكن لا يبدو أنهم يربطونها بالمسؤولية الشخصية.

إن الحكومة الموسعة التي يسعون إليها هي أمر ظننت أن الديمقراطيون والآخرين «مـن أصدقاء الرجـل الصغير» يهابونها. ما إن تقول للحكومـة: «ينبغي أن تعتني بي» حتى تدعوها أن تأتي إليك، وتقول لك: كيف تعيش؟ ومن تتزوج؟ وأي قصائد مسموح لك أن تتداولها؟ وكيف تستطيع أن تحصل على الجنس.

أريد حكومة تترك الناس وشأنهم. أظن أنه ينبغي أن يكون الناس أحراراً ليفعلوا أي شـيء يريدونه ـ ماداموا لا يؤذون أحداً. قد لا أوافق على خياراتهم ولكن لا أظن أن الدولة عليها أن تحذف خياراتهم. إن شئت أن تضع مخدرات في جسمك أو تحرق علماً، ينبغي أن تكون حـراً في فعل ذلك. إن أراد الناس بيـع كلية أو شراءها دعهم يفعلون ذلك.

هذه ليست أفكاراً محافظة.

المحافظـون بـلا شك يرغبـون في الحديث عن هـذه الأفكار. أنا أذهـل تماماً من كرم المحافظين في المناقشات. وحتى أولئك الذين لا يوافقون على أفكاري يرحبون بي بحرارة في مؤتمراتهم. وحتـى المحافظون الاجتماعيون «ضيقو التفكير» ينصتون إليَّ بأدب. على نقيض ذلك لا يرغب الليبراليون في التحدث على الإطلاق.

حـين وضعت كتابـي الأخـير «Give me a break» افترضـت أن وسائل الإعلام الرفيعة المنزلة اليسارية ستكون متشوقة لمناقشة أفكاري، لتبرهن فقط كم هي سخيفة الأدلة التي قدمتها، أو لتكذب تقرير زميلهم الضال الذي انصرف إلى الجانب القاتم بصفته كاتباً في التلفاز.

كنت على خطأ.

كان المحافظـون متشوقين لضمي إليهم، وكان علـيَّ أن أناقش أفكاري مع دزينات مـن ضيـوف الإذاعة، ونجوم قنـاة أخبار فوكـس Fox News channlel، وقد جعلوا مـن هذا الكتاب أفضل الكتـب مبيعاً. ولكن وسائل الإعـلام الليبرالية CNN وNPR ونيويـورك تايمز أشاحـت بوجهها وتجاهلتنـي. أين ذهبت «المناقشـة المفتوحة» التي يمتدحهـا الليبراليون؟ إن هذه المناقشة كانـت تتم غالباً في الإذاعات المحافظة. قليل من المحافظين كانوا يرغبون في قضاء وقت طويل لمناقشة قوانين المخدرات (فعل ذلك سين هانيتي) ولكنهم على الأقل سمعوني.

أما الليبراليون فلم يفعلوا ذلك.

كان هناك استثناءات قليلة: لقد اختارني روبرت رود فورد من بين كل الناس لأطير معه إلى مهرجان سان دانس للكتاب. واستجوبني آلان كولمس بقسوة في برنامجه في الإذاعة. وفي الواقع إن لاري كينغ أظهرني في برنامجه، وكان برنامجاً في عطلة الأسبوع وقال: إنه سيظهرني ثانية ومازلت أنتظر.

ظننت كان يمكن أن تتاح لي فرصة في مناقشة عادلة مع آل فرانكن. كنا نعرف واحدنا الآخر لأن أولادنا يذهبون إلى المدرسة معاً. لم يحالفني الحظ. لقد دعاني إلى الأستوديو، إلا أنه تبجح طويلاً حول ما ادعاه أنه كان كذبة في الصفحة 305، وشرحت بصعوبة كيف فاتته تلك النقطة.

لم يكن هناك انفتاح كبير في وسائل الإعلام الحرة «المتفتحة» وجدتها تخاطب المحافظين.

إلا أن هذا لا يجعلني واحداً منهم.

وهكذا إن كنت لست ليبرالياً ولست محافظاً ماذا أستطيع أن أسمي نفسي؟ الكلمة الأقرب لوصفي هي أني «مؤيد لمذهب الحرية أي ليبرتاري».

إنها ليست كلمة عظيمة. الناس لا يعرفون ماذا تعني، أو يظنون أنها تعني Libertin أي الخليع الفاسق! ظن هايك أن كلمة «ليبراتاري أي المؤيد لمذهب الحرية» جد مصطنعة، وتمنى أن يجد «كلمة تصف حزب الحياة الحزب الذي يفضل النمو الحر والتطور العفوي». وأنا أيضاً أتمنى. تلك الأفكار التي تجسدت في كتابات جون لوك وجون ستوارت ميل وآدم سميث هي التي كانت تدعى «الليبرالية». ولهذا السبب ينسب دعاة الحرية أنفسهم إلى «الليبراليين الكلاسيكيين». ولكن معظم الناس لا يعرفون أيضاً معنى «الليبراليين الكلاسيكيين». ما خياراتي الأخرى «الإرادي Voluntarist». «الرضائي Consensualist» أو من جماعة «عش ودع الآخرين يعيشون».

أريد أن أسترد كلمة «ليبرالي»! لقد سرقها ليبراليو الوقت الحاضر وحرّفوها وأفسدوها. لقد غيروها إلى فلسفة تدافع عن شرطة الصحة والضرائب المرتفعة وكليشهات الكلام، واستخفوا بالليبرالية الخلاقة للأسواق الحرة. كلمة «الليبرالية» لم تعد تعني التحرر الآن.

في القــرن الثامن عشر كان التأييد لمذهب الحرية أو الليبرالية رد فعل على الملكية والارستقراطيــة والديــن الموطّـد الراسخ. والحــدود التي فرضت علــى سلطة الدولة جسدهــا الإعلان والدستور Declaration and the constitution اللذان قدما بديلاً ليبراليــاً عن دكتاتورية المخططــين المركزيين. لقد أثبتنا أننا كنــا نمتلك«حقوقاً غير قابلة للتحويل».

كانــت رؤيــة المؤسسين عن حكومة محــددة «الصلاحيات» تشجــع الأمريكيين لأن ينضموا طواعيــة إلى الآخرين ليساعدوا الجماعات ويساعــدوا أنفسهم. وقادنا هذا إلى إبــداع وطــن مزدهر حر مسالم. وقــد صنعنا ذلك لا لأننا مجبريــن، بل لأننا كنا أحراراً في صنعه.

أنــا أعتقــد أن أفضل شيء من أجل أمريكا هو شعــب حر يمارس حقوقاً غير قابلة للتحويــل، أثبتها له الآباء المؤسسون وهي: تأسيس عائلات، تشكيل جماعات تعمل معاً ـ وغالباً بدون حكومة.

إنها فكرة قديمة جداً فكرة ليبرالية جداً.

الملاحظات الأخيرة

إنــه عالم جديــد ونحن نجرب: لقــد كلفت أخبــار ABC مايــكل كليمنتن ومارك كاروديل بوضع معلومات إضافية ومصادر لهذا الكتاب على شبكة الإنترنت. ستجعلها وثيقــة «حيــة» مضيفــين إلى القائمة معلومات بقــدر ما تصبح متوافــرة، ومصححي السجل (أخبرونا إن وجدتم خطأ).

بالنسبــة لمعلمي المدارس يوجد أيضاً رابطة تساعدكم لتلقنوا طلابكم هذه الأفكار مجاناً. فقط أعدوا الفيديو.

الرجــاء الانضمام إلينا في www. Abcnews.com /2020. أود أن أبقي المناقشة حول الحرية مستمرة.

الفصل 1: وسائل الإعلام الجاهلة

ص6: مادام توكس يفترض أن 50 بالمئة من اللحم المصنع قد يكون أصيب بالإشعاع؛ فإنــه يفترض أيضاً أن هذا اللحم قد يكون منبعــاً لـ 50 بالمئة من جرثومة E.coli المولودة في الطعام: إنتانات كامبيلو باكتر وسالمونيلا وليستريا وتاكسو بلازما.

ص7: صححت المعدلات حسب معايير السكان في الولايات المتحدة عام 2000، كما صححت بالنظر إلى تأجيل التقرير مع استثناء الميلانوما.

ص22: ألق نظرة على تلك القطعة في www.abcnews.com /2020/.

ص27: وفقاً لمنظمة الصحة العالمية يولد 150514 ولداً كل ساعة في أنحاء المعمورة ونحن نقدر نحو 8 ساعات من الوقت لقراءة الكتاب.

الفصل 2: هو وهي

صــ31 و32 أعتقــد أن أدلتهم واهية، ولكــن إن شئت أن تقرأ المزيــد حول التأثير المزعوم للجندر في الفحوص (الروائز) اقرأ في www.fairtest.org.

صـ36-39: راجع هذه القصـــة في www.abcnews.com/2020. ولمعلومات أكثر في العنوان IX قم بزيارة لموقع الولايات المتحدة وزارة التربية في www.ed.gor /pubs/ title IX index. Html.

الفصل 3: انتقاد المؤسسات التجارية

صـ56: في تلك الدراســة كان سعر المركبــات التي تُركت أثنــاء الفحص مرتبطاً بسعر المركبات التي حصلت على موافقة التسويق.

ص74-75: أن عدد المرضى الذين ينتظرون الكلى لا يتضمن أولئك الذين ينتظرون أيضاً زرع البنكرياس.

الفصل 4: وحش الحكومة.

صـ85: (هــي منظمة ناشطــة مخادعة، ولكنــي أظن أنهــم بارعــون في موضوع الإعانات الحكومية للمزارعة).

صـ87-88: اثنــان من المنتجين في برنامجي اعترضا علــى ذكري لدعوى الرئيس بوش بأن «الولايات المتحدة جاهزة لحذف جميع التعرفات». قالا: إن هذه «كلمات غامضــة مراوغة»، لأن بوش كان يعلم أنه لم يكــن هناك فرصة يمكن أن تقبل بها البلاد الأخرى. أنا اخترت أن أعتقد أن الرئيس كان مخلصاً في قوله.

صـ103-104: بهــذه المناسبــة هذه مجلــة عظيمة. إنهــا تحتفي بالعقــول الحرة والأسواق الحرة. وتجعلني أضحك أو أبكي من مبالغاتها في الدولة المنظمة.

الفصل 5: غباء المدارس.

ص111: تتوافر النسخة طبق الأصل في الإنترنت www.Abcnews.store.com. أو رقم -6139 -505 800.

يمكــن شراء عرض جون من Laissez Faire Books في رقم 800-326-0996 أو عبر الإنترنت http;/www.Lassezfairebooks.com.

الفصل 6: المواقف السلبية للمستهلك

ص159-161 انظر هذا التقرير في www.abcnews.com/2020/.

تقدم عدة منظمات معلومات أكثر حول التوفير في الخدمات الجنائزية مثل Alliance Funeral consumers.

الفصل 7: لغط الدعاوى القضائية

الفصل 8: خبراء في كل شيء

ص198-200 فوكس هو مؤلف A Kinship and marriage القرابة والزواج وهو كتاب مدرسي شائع في الأنثروبولوجيا.

الفصل 9: قوة الإيمان.

ص202: كانت هذه الجملة تعتمد على بيانات من شبكة بين الحكومات عن التغيير المناخي.

ص202: قدم عالم الجموديات ريتشارد ب اللي بيانات توضح تحليله للأجزاء الجوهرية في صميم الجليد، والتي أخذها من وسط جموديات غرينلاند.

ص206: نقص مستوى التلوث كان يعتمد على إطلاق ست ملوثات هواء رئيسة.

الفصل 10: صحتنا.

ص223-224: معظم الوجبات يتناولها الناس في المنزل، وهذا يحرّف البيانات، ولكن علماء الأحياء الدقيقة يقولون: المطاعم أكثر أماناً.

ص228-229: انظر هذه القصة في www.abcnews.com/2020/.

الفصل 11: أخطار تربية الأولاد.

ص238-240: نصائح أكثر في تربية الأولاد من ماك بليدسو في www.parentingwith dignity.com.

ص 259: ومع ذلك يبدو هذا الرقم عالياً جداً، يعتقد كريشنبوم أن المراهقة تغطي الأعمار بين 10 و 23.

ص 263: ثلاث دراسات مرجعية مهمة هي:

الفصل 12: السعي إلى السعادة.

ص268-269: انظر إلى هذه القصة في 2020/www.abcnews.com/.